الدكتور سعيد هاشم

دور المرأة الرسالية في دولة النبوة

مؤسسة الفجر

Bibliotheca Alexandrina
0015344

دور المرأة الرسالية

في

دولة النبوة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

مؤسسة الفجر
لندن

AL-FAJR
B.M. BOX 1505 LONDON WC1N 3XX ENGLAND U.K.

297.64
هاش
د

4193

دور المرأة الرسالية في دولة النبوة

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

تأليف
الدكتور سعيد هاشم

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم الـ... 297.6[redacted]
هـ ع د
رقم التسجيل ٢٩٩٨٩

مؤسسة الفجر
لندن

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل سيدة وكل فتاة في جميع أنحاء المعمورة، إلى الأمّهات الحريصات على تربية أولادهنَّ وفقاً لقيم الدِّين المحمّدي والقيم الإنسانية، لإعدادهم الإعداد الأمثل لخدمة مجتمعاتهم.

إلى الأمّهات اللّواتي ينتظرن بصبرٍ وإيمان راسخ إطلالة أبنائهن من خلف قضبان السجون في صراع الحق مع الباطل، من أجل غد أفضل.

إلى الفتيات الحريصات، على انتهاج النهج القويم، والتطلّع لخدمة مجتمعاتهن، وفقاً للقيم الإنسانية الأصيلة.

إليهن جميعاً، أقدِّم هذه الدراسة عرفاناً بدورهنَّ العظيم في خدمة البشرية وتطوّرها، عبر التاريخ الإنساني.

التمهيد

الأمُّ مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّب الأعراق

المرأة نصف المجتمع، ولا يمكن أن تقوم حياة المجتمعات بدونها. فإذا كان الأطفال، قناديل الحياة الزوجية فإنّ المرأة هي عطر الحياة بل ملحها. ولا يمكن لأي مجتمع أن يحقّق تقدّماً، أو رقياً حقيقياً، دون مشاركة المرأة عن طريق إعدادها الإعداد الأمثل. إنّ رقيّ المجتمع، يبدأ من إعداد المرأة إعداداً سليماً صحياً ونفسياً وعقلياً. وهذه الدراسة محاولة متواضعة لبحث أحوال المرأة التي كانت عليها في العصر الجاهلي ومعرفة كيف كانت مكانتها في ظل الدين الجديد الذي كان بمثابة ثورةٍ ليس على حياة مجتمع شبه الجزيرة العربية فحسب، وإنما على حياة المجتمع البشري بشكل عام، وتقديم تعاليم ومبادىء جديدة تشمل حياة الإنسان الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية[1]. ثمّ دراسة نماذج للمرأة الرسالية التي قدمتها دولة النبوّة للمجتمع البشري.

وعلى الرغم من التغيير الجذري الذي أحدثه الإسلام، فيما يتعلّق بمكانة المرأة إلاّ أن الضيم الذي لحقها والذي لا يزال يصيبها يعتبر ظاهرة شنيعة. سواء كان ذلك في العالم الإسلامي أم في باقي دول العالم، فبالنسبة للعالم الإسلامي هناك الكثير من الانتهاكات لحقوق المرأة التي لا تتّسع هذه الدراسة لبحثها ولا تهدف لمناقشتها، ونادراً ما تمتعت المرأة بحقوقها السياسية مثلها مثل الرجل. فغياب الحريات العامّة سمة من سمات غالبية أنظمة الحكم في العالم الإسلامي منذ وفاة الرسول (ص) وحتى الآن، عدا استثناءات قد يغمرها التاريخ. فإذا كانت وسيلة القمع والإرهاب، هي أهم وسائل أنظمة الحكم في العالم الإسلامي في جميع العهود، فلا

شك في أنّ المرأة هي في مقدمة الضحايا. ولم تكن المرأة في العالم الغربي أحسن حالاً من أختها في العالم الإسلامي، إلا من الناحية الشكلية، أما النتيجة فهي واحدة في نهاية المطاف، على الرغم من توفر الحقوق السياسية مؤخراً للمرأة في العالم الغربي وبعض دول العالم الثالث.

ونتيجةً لسوء ممارسات الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي وابتعادها عن النهج النبوي في تطبيق المبادىء التي قامت عليها دولة النبوّة، وهي: الحق، العدل، المساواة والحرية. فقد أدى ذلك إلى تشويه صورة الدين الإسلامي وسمعة مجتمعاته بحيث سوّغوا للمجتمعات خارج العالم الإسلامي أن تعتقد أن الإسلام سجن المرأة في دارها وجعلها أسيرة جدران البيت، وأنّ رسالتها في الحياة تقتصر على تربية الأطفال وخدمة الزوج، وهذا في حد ذاته تشنيع على الإسلام، وإساءة لصاحب الرسالة ومؤسس دولة النبوّة النبي محمد (ص).

إنّ الكتّاب المستشرقين الذين يقومون بنقل تراث العالم الإسلامي وتاريخه إلى شعوبهم، يأخذون نماذجهم من حياة الحكّام المسلمين. إنّهم مخطئون في اعتبارهم الحكّام ممثلين للمجتمعات الإسلامية، علماً بأنّ أغلبهم يمثّلون حكومات سياسية بحتة، ربما لا تمت إلى الدين بصلة، وقد فرضت نفسها بقوة السّلاح. فمثلاً الحكّام الأمويون، عدا عمر بن عبد العزيز، والعباسيون، والعثمانيون عدا سليمان القانوني وغيرهم يعتبرون سُبّة في تاريخ الأمة الإسلامية(٢). وعلى أي حال فإنّ المرأة في العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، لا تزال متأرجحة بين التطرّف في الانفتاح باتباع دعوات دينية تناشدها التقوقع وبين التحرر المطلق وتقليد المرأة الغربية في ملابسها وحياتها الاجتماعية؛ دون معرفة الحقيقة المؤلمة التي تعيشها هذه المرأة.

لذا، فإنّ هذه الدراسة ستقدم بإيجاز صورة واضحة للمرأة في العصر الجاهلي وتبيّن كيف كانت مكانتها ودورها، وماذا قدّم لها الإسلام.

المحور الأساسي الذي يقوم عليه هذا البحث، هو مناقشة الدور الذي قامت به بعض النماذج النسائية للمرأة الرسالية والتي آمنت بدينها عن وعي وإدراك كاملين على أنّه عقيدة ومنهج للحياة ـ من داخل البيت النبوي وخارجه ـ وأن ذلك الدور

الذي لعبتـه هذه النماذج هـو نتاج لتعـاليم دولة النبـوّة ومفخرة للمجتمـع النسائي الإسلامي والعـالمي، من حيث التضحية والبـذل والجهاد في سبيل الله انطـلاقاً من المبادىء التي قامـت عليها دولة النبوّة، وهي: الحق والعدل والمسـاواة والحرية التي تهدف إلى تحقيق السعادة للإنسـان، مهما كان لونه أو عرقـه أو دينه، وفي أي مكان وفي أي زمان.

وتتكوّن هذه الدراسة من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة:

١ ـ مقدمة: تناقش وضع المرأة في العصر الجاهلي، ثمّ تلقي الضوء على حقوقها وواجباتها في ظل الدين الجديـد الذي جاء به النبي محمـد (ص)، ونبذة عن الدور الذي قامت بـه المرأة، خلال العهد النبوي، كنمـوذج لما يجب أن تكون عليه المرأة، من حيث رسالتها في الحياة والدور الذي يجب أن تضطلع به.

٢ ـ الفصل الأول: يناقش حيـاة السيدة خـديجة بنت خويلـد، بوصفهـا رائدة النضال الأولى للمرأة الرسالية في دولة النبوّة.

٣ ـ الفصل الثاني: ينـاقش حيـاة السيـدة فاطمـة الـزهراء بنت محمـد (ص)، بوصفها رائدة النضال الثـانية للمرأة الرسالية في دولـة النبوّة، ويوضح مبرّرات تلك الرّيادة.

٤ ـ الفصل الثالث: يناقش ظروف نشأة السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب، بوصفهـا رائدة النضال الثـالثة للمـرأة الرساليـة في دولة النبـوّة ومهامِّهـا في الملحمة الاستشهادية، ويوضح مبرّرات ريادتها النضالية.

٥ ـ الفصل الرابع: يناقش مجموعة من النماذج النسـائية لنضال المرأة الرسالية في دولة النبوّة في فترات مختلفة، وهي عشرة نماذج.

٦ ـ الخاتمة العامـة: تتضمّن الاستنتاج العـام لما تمت منـاقشته، بـالإضافـة إلى تقديم المقترحات التي تبلورت من خلال هذه الدراسة فيما يتعلّق بدور المرأة.

٧ ـ الملاحق التـوثيقيـة للخطب، وتشتمل على مجمـوعـة من خطب آل

الرسول(ص)، إضافةً إلى قصيدةٍ انتظمت فيها تواريخ ولادة زعماء دولة النبوّة ووفاتهم وأماكن ذلك.

وتهتمّ الدراسة، بالتركيز على الجانب السياسي لنضال المرأة، من خلال النماذج المقدمة.

كما اتبعت الدراسة المنهج التحليلي، واعتمدت على مجموعة من المصادر الأولية والثانوية الهامّة.

أما المصادر الأولية فتشمل:

أ ـ المخطوطات وأهمها:

١ ـ بيان في خلافة النبي (ص)، للأصفهاني.

٢ ـ التتمة في تواريخ الأئمة، لتاج الدين بن علي العاملي.

٣ ـ زبدة الأصول، لبهاء الدين محمد العاملي.

٤ ـ اللهوف على قتلى الطفوف، لابن طاووس.

٥ ـ مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية للصَّفاني.

٦ ـ مشكاة المصابيح للكبداتي.

٧ ـ المستطرف من كل شيء مستظرف، للأبشيهي.

٨ ـ الجامع الصحيح للبخاري، إضافة إلى عدد آخر من المخطوطات ستكون مدوّنة جميعها ضمن مصادر الدراسة.

ب ـ مجموعة من الدراسات الأولية أهمها:

ابن حجر في صواعقه، الطبري في ذخائره، الردة للواقدي، خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للنسائي، الإمامة والسياسة لابن قتيبة، الأئمة الاثنا عشر لابن طولون.

جـ ـ المصادر الأولية الموسوعية، وتشمل: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، بحار الأنوار للمجلسي، وأعيان الشيعة للأمين.

إضافة إلى مجموعة هامّة من الدراسات الثانوية، التي اعتمدت على مصادر أولية منها: معالم المدرستين للعسكري؛ علي إمام المتّقين للشرقاوي؛ الصراط المستقيم للبياضي؛ الأنوار النعمانية للجزائري؛ الإنصاف في النص على الأئمة الاثنى عشر من آل محمد (ص) للبحراني؛ أخبار الدول وآثار الأُول في التاريخ للقرُماني.

وستكون ملاحظات القرّاء الموضوعية والبنّاءة، من الجنسين، موضع تقدير المؤلف واهتمامه.

ويسرُّ المؤلف، أن يوجّه شكره وتقديره، إلى كل مَن سهّل مهمّته لإعداد هذه الدراسة، خصوصاً العاملين في المكتبات الآتية بجامعة (ماكجيل) في (مونتريال) (بكندا):

أ ـ مكتبة معهد الدراسات الإسلامية، ويخصّ المؤلف بالشكر، من بين العاملين فيها، الدكتور (آدم جاسك) مدير المكتبة.

ب ـ دائرة الكتب النادرة والمجموعات الخاصّة، ويخصّ بالشكر الدكتور (ريجود فير) أمين المخطوطات.

جـ ـ مكتبة (بلاكر وود) للأحياء، ويخص بالشكر السيدة (آن هابك) مشرفة المكتبة.

د ـ مكتبة (أوسلر) لتاريخ الطب، ويخص بالشكر السيد (وين لبل)، مساعد أمين المكتبة.

كما، ويسعد المؤلف أن يوجه عظيم شكره وفائق امتنانه للأخ الوفي الدكتور علي أحمد العريبي على تكرّمه بقراءة الدراسة، وملاحظاته القيّمة. والأخ العزيز الدكتور عبد الحسين عوّاد الذي بذل جهداً كبيراً في المراجعة النهائية لهذه الدراسة، وتحمّل عناء متابعة النّشر.

إليهم جميعاً إكبارٌ وتقدير.

سعيد هاشم

مونتريال، في ٢ ربيع الأول ١٤١٣هـ

الموافق ٣١ آب/ أغسطس ١٩٩٢م

المقدمـة

أولاً: المرأة في العصر الجاهلـي:

نبذة تاريخية عن حياة المرأة ونظرة المجتمع إليها، في العصر الجاهلي.

ثانياً: المـرأة في ظـل الإسلام:

الحقوق والواجبات.

أولاً: المرأة في العصر الجاهلي:

نبذةٌ تاريخية عن حياة المرأة، ونظرة المجتمع إليها، في العصر الجاهلي:

على الرغم من الدور الإنساني والتاريخي الذي كانت تقوم به المرأة في العصر الجاهلي، وهو رعاية الأسرة والقيام بأعباء المنزل، إلاّ أن بيئة المجتمع في شبه الجزيرة العربية، على الأقل، لم تكن ترى للبنت وزناً ولا للمرأة قدراً مهما بلغ شأنها.

وبلغ إسراف الجاهليين في كراهية الأنثى أن فريقاً من العرب كانوا يدفنون الوليدة حيةً لأنهم كانوا يعتبرونها عاراً عليهم في حياتهم أما الأسباب التي تدعوهم إلى ارتكاب هذه الجريمة فهي:

أ ـ الفقر؛ حيث أنّهم كانوا يعتبرون البنت عالة على الأسرة تحتاج لمن ينفق عليها.

ب ـ خوف العار والفضيحة فيما لو شذّت البنت في سلوكها وخرجت على عادة الأسرة وتقاليدها.

جـ ـ احتمال تعرّض القبيلة للغزو والنهب وسبي النساء، على عكس الولد، الذي يمكن أن يتعلّم فنون القتال والدفاع عن القبيلة.

ويرى بعض، المؤرخين أنّ أوّل مَن ارتكب الوأد هو لقمان بن عاد، من العرب البائدة، بعد أن رُوِّع بخيانة نسائه، فقتلهن انتقاماً وتشفياً كما قتل بناته(٣).

ويرى القرطبي والنيسابوري أن النعمان بن المنذر أغار على تميم حينما امتنعت عن دفع الضريبة التي كان قد فرضها عليها، فكانت نتيجة تلك الغارة أن قتل عدداً من

رجـالهم وسبى نساءهم. ولما ذهب قيس بن عـاصم، شيخ القبيلة، ليسترد نسـاءه المسبيات تمنّعت إحـدى بناتـه من الرجوع معـه مفضّلة البقـاء مع النعمان بن المنذر الذي ألحق الذل والهوان بقبيلتهـا. فعاد قيس والدها وكأنما أُصيب بحـالة هستيرية فـوأد كل بناتـه. ومضى على ذلك، لا تولـد لـه بنت إلا وأدها، فغـدا ذلك النمط السلوكي لشيخ تميم قدوة لرجال هذه القبيلة وغيرها من القبائل(٤).

ويرى فريق آخرَ من المؤرخين أن وأد البنات انتقل إلى العرب فيما انتقل إليهم من الأمم السابقة الذين كانوا يقـدمون البنات قرابين إلى الآلهة، كما كان يفعل المصريون القدمـاء الذين يقدمـون كل عام عروسـاً من أجمل فتياتهم قربـاناً إلى النيل لتخفيف حدة فيضـانه. كما أن بعضهـم كان يقتل البنت أو يحرقهـا هبة لله، كما جاء في قـوله تعالى: ﴿ويجعلـون لله البنات سبحـانـه ولهم ما يشتهـون(٥)، أم لـه البنـات ولكم البنون(٦)، ألكم الذكر وله الأنثى﴾(٧).

وكان وأد البنـات شائعاً قبيل نـزول الوحي على النبي (ص) عنـد بعض القبائل العربية كتميم وقيس وأسد وهذيل وبكـر بن وائل ونظراً لبشاعة تلك المأساة وعنف صداها حـاول بعض الكتّاب تطويقها في مناطق محدودة وظـروف خاصة(٨). وعلى أي حال، ليس بـاستطاعـة أحد أن ينفي هـذه الظاهـرة من تاريخ العرب بعد أن تنـاولتهـا كتب التـاريخ ونـدد بها القرآن الكـريم في عـدد مـن الآيـات لتعـريف المجتمعات عبر العصـور بالمستـوى المتدني الـذي كانت عليه حياة المجتمـع الذي بُعِثَ فيه النبي محمد (ص) من حيث القوة والعنف حتى مع فلذات أكبادهم. قال تعالى: ﴿وإذا الموءودة سُئلت بأي ذنب قتلت﴾(٩).

وقال، أيضاً، واصفاً ردود فعل الأب، حينما يُبشّر بالأنثى، بقوله تعالى: ﴿وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيُمسكه على هونٍ أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾(١٠).

ويصف أحد الشعراء العرب بعض دوافع الوأد بقوله(١١):

وزادني رغبـة في العيش معـرفتي ... ذلَّ اليتيمـة يجفـوهـا ذوو الـرحمِ

أخشى فظاظة عمّ أو جفاء أخٍ ... وكنتُ أبكي عليها من أذى الكلمِ

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً ... والموت أكرمُ نزال على الحرمِ

إذا تذكرتُ بنتي حين تندبُني ... فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدمِ

في البيت الأخير، يصف الشاعر مدى قسوته ومقاومته لعاطفته الأبوية، وهو ينفذ جريمته، بينما ابنته تتوسّل إليه أن يخلّصها فلا يرحم ضعفها ولا دموعها، فأصبح الآن يبكيها بعبراتٍ من دم.

ثم يصف حالته بعد وأدها، بقوله(١٢):

فالآن، نمت فلا همٌّ يؤرّقني ... بعد الهدوء بلا وجد ولا حُلُمِ

فيقول أنّه بدفنها هدأ باله، وزال ما يعكّر صفو عيشه.

وقد جاء، في القرآن الكريم، أن بعض دوافع الوأد، الفاقة أو الحاجة، وقد نهى الله عن اللجوء إلى مثل تلك الجريمة بقوله:

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾(١٣).

وكانت قريش تئد بناتها في جبل بمكة يقال له: «أبو دلامة». وجاء في أخبار العرب أن صعصعة بن ناجية (جد الفرزدق) وعمرو بن زيد بن نفيل قد استنقذا عشرات البنات من آبائهن وتعهّدا لهم بتربيتهن. وكان أول عمل من هذا النوع قام به صعصعة بن ناجية أنه مرّ برجل من تميم يحفر حفرة، وإلى جواره امرأة تبكي وهي متعلّقة بوليدة لها. ولما سألها عمّا بها قالت: «إنّ زوجي هذا يريد أن يئد ابنتي»، فانثنى صعصعة على الرجل يسأله عن السبب، فأجابه: إن الفقر قد دعاني إلى ذلك فافتداها منه بناقتين معهما أولادهما. وظلّ لا يسمع بعمل من هذا النوع، إلا وأقبل عليه. وفي ذلك يقول بعض مَن ينتسبُ إليه، وربما الفرزدق:

ومنّا الذي منع الوائدات ... وحيّا الوئيد فلم يُوأدِ(١٤)

وفاخر الفرزدق، حفيد صعصعة، رجلاً عند بعض خلفاء بني أمية، فقال:

«أنـا ابنُ محيي الموتى» فأنكر ذلك. فقـال: إن الله عز وجل يقـول: **﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾**[١٥].

وعلى الرغم من انتشار هذه العادة، في مجتمع شبه الجزيرة العربية، إلا أن وجود شخصيات أمثال صعصعة بن ناجية وعمرو بن زيد بن نفيل لإنقاذ أرواح الكثيرات من الإناث وتخليصهـن من الوأد بدافـع إنساني يعكس النزعـات الخيّرة التي لم يكن يخلو منها المجتمع العربي في العصر الجاهلي. وقد روى البخاري في صحيحه قال: قال الليث: كتب إليّ هشام عن أبيه عن أسماء بنـت أبي بكر قالت: «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبـة يقول: «يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري». وكان يحيي الموءودة، يقـول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتُها إليك وإن شئت كفيتُك مؤونتها»[١٦].

وقد حـارب الإسلام الوأد، ونـدد به كما جاء في الآيـات المذكورة حتى اختفى إلى الأبد.

وقـد عرف العـرب، في العصر الجاهلي، أنـواعـاً متعددة مـن الزواج. ويـروي البخاري في صحيحـه، عن عائشـة زوج النبي (ص) أن النكـاح في الجاهلية على أربعة أنحاء:

«١ ـ فنكاح منها، نكاح الناس اليوم؛ يخطُبُ الرجل إلى الرجل وليَّته، فيصدِّقُها ثم ينكحها.

٢ ـ ونكاح آخر، كان الزوج يقـول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعـي منه ويعتزلها زوجُهـا لا يمسُّها أبـداً حتى يتبيّن حملُها من ذلك الـرجل الذي تستبضِعُ منه. فإذا تبيّن حملُها أصـابها زوجُها إذا أحبَّ وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد. فكان هذا النكاح، نكاح الاستبضاع.

٣ ـ ونكـاح آخر، يجتمـع الرهط ما دون العشـرة، ويدخلـون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرت ليـالٍ بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، ولا يستطيع رجلٌ منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عنـدها، تقول لهم قد عـرفتم الذي كان

من أمركم، وقد ولدت فهو ابنُكَ يا فلان، تسمي مَن أحبّت باسمه فيُلحَق به ولدُها ولا يستطيعُ أن يمتنع عن ذلك الرجل.

٤ ــ والنكاحُ الرابع، يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممّن جاءها. . . وهُنَّ السبايا، كنَّ ينصبن على أبوابهن راياتٍ تكون علماً، فمن أرادهنَّ دخل عليهنَّ، فإذا حملت إحداهنَّ ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة [كذا. .]، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط [كذا. .] به ودُعيَ ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بُعِثَ محمد(ص) بالحق، هدم نكاح الجاهلية، كله، إلا نكاح الناس اليوم»(١٧).

ثانياً: المرأة في ظل الإسلام:

حقوقها وواجباتها.

تمتّعت المرأة في ظل الإسلام، بمكانة مرموقة فقد انتشلها من الهوان والإبادة، فأوّل حق صانه الإسلام للمرأة هو تحريم وأدها كما خصص الله في كتابه العزيز سورة كاملة تشتمل على معظم شؤون المرأة وما تحتاج إليه من أمور دينها ودنياها.

وكانت المرأة أول مَن آمن وصدق بالدعوة إلى الإسلام وتلك هي السيدة خديجة بنت خويلد، كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً في الفصل الأول.

وقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في كثير من شؤون الحياة ـ عدا الميراث والشهادة ـ رفعاً لشأنها وقال الرسول (ص) موصياً بها: «إنّ أحسن الناس عند الله مَن أحسن صحبة أزواجه وبناته»(١٨).

وروى البخاري عن أبي هريرة في وصية الرسول (ص) أيضاً بالمرأة قال: قال رسول الله (ص): «استوصوا بالنساء خيراً فإنّ المرأة خُلقت من ضلع وإن اعوجَّ شيءٌ في الضلع أعلاهُ قال فإن ذهبت تقيمه أو كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء»(١٩).

وكانت المرأة تؤدي الصلاة في عهد الرسول بالمسجد وخصوصاً في الأعياد، وروى أبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله (ص): «لا تمنعوا نساءكم المساجد فهو خير لهنَّ»(٢٠).

وروى البخاري عن ابن عباس قال: شهدتُ الصلاة يوم عيد الفطر مع رسول الله (ص) وأبي بكر وعمر وعثمان فكلّهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد فنزل نبي الله (ص) فكأني أنظر إليه حين يجلّس الرجال بيده ثم أقبل يشقُّهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: **﴿يا أيها النبيُّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنَّ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهنَّ﴾** حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتنَّ على ذلك».

وقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها: «نعم يا رسول الله» لا يدري الحسن مَن هي قال: فتصدَّقن. قال: وبسط بلالٌ ثوبه فجعلن يلقين الفتح والخواتيم في ثوب بلال»[٢١].

وكانت المرأة تبايع الرسول على الولاء لله ورسوله واتباع سنته. وفي ذلك روى البخاري عن عائشة قالت: كان النبي (ص) يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: **﴿لا تشركوا بالله شيئاً﴾**. قالت: «وما مسَّت يدُ رسول الله (ص) يد امرأة إلا امرأة يملكها»[٢٢] ومن اهتمام الإسلام بالمرأة واحترامها وتقديرها أن الرسول (ص) كان يشجّعهن على الاستفسار عمّا يجول بخاطرهن فيما يتعلّق بشؤون الدين والدنيا دون أن يكون بينه وبينهن قيود.

فقد روى البخاري عن أبي سعيد، قال: جاءت امرأة إلى رسول الله (ص) فقالت: «يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلّمنا ممّا علّمك الله». فقال: «اجتمعن في يوم كذا وكذا، مكان كذا وكذا»، فاجتمعن. فأتاهنَّ رسول الله (ص) فعلمهنَّ ممّا علمه الله ثمّ قال: «ما منكُنَّ امرأة تقوم بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كان لها حجاباً من النار» فقالت امرأة منهن يا رسول الله اثنين قال: فأعادتها مرتين ثم قال: «واثنين واثنين واثنين»[٢٣].

وهناك مشاهد ومواقف كثيرة دلّل الرسول (ص) من خلال سنته الكريمة المشتملة على أقواله وأفعاله وتقريراته على حث الأمة الإسلامية بل والبشرية على احترام المرأة وعدم انتقاصها لأنها لا تقلّ عن الرجل في شيء. روى أحمد بن حنبل عن جرير أنّ النبي (ص) مرّ على نِسوةٍ فسلَّم عليهن[٢٤].

وممّا يؤكد حرص الرسول على توجيه الأمة ولفت انتباهها للعناية بالمرأة كونها صانعة الأجيال وصاحبة التضحيات الكبرى في كل زمان ومكان، فقد حثّ الأجيال على إيثار الأم بالطاعة والرعاية وتقديم طاعتها على طاعة الأب اعترافاً من النبي (ص) بتضحياتها الجليلة فعن أبي هُريرة قال: قال رجل: يا رسول الله مَن أحقُّ بحسن صحابتي؟ قال: أمُّك. قال: ثمّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمّ مَن؟ قال: أمُّك، قال: ثمّ أباك ثم أدناك أدناك»(٢٥).

إنّ تأكيد الرسول (ص) على الامتثال والإحسان للأم دليل قاطع على الاعتراف بدورها المقدس في التربية والإعداد للحياة. فالإسلام يقدّس المهمة الإنسانية للمرأة، ولذا حثَّ الأولاد على العناية بها وبرِّها أكثر من الأب.

وروى أحمد وابن ماجة عن أبي أمامة أنّ رجلاً قال يا رسول الله ما حقُّ الوالدين على ولدهما؟ قال: «هما جنّتك ونارُك»(٢٦).

ولتعزيز وصايا الرسول بالوالدين فإنّ القرآن الكريم أيضاً قد حثّ على طاعة الوالدين والعناية بهما خصوصاً حينما يبلغان سن الشيخوخة قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً. إما يبلغن عندك الكبر أحدُهما أو كِلاهما فلا تقل لهما أُفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذُّل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾(٢٧). بهذه النصائح يؤدب الرسول (ص) بأقواله وأقوال كتاب الله أجيال الأمة المتعاقبة ليغرس في نفوسهم قيماً جليلة كالحب والوفاء ويلزمهم بالطاعة ويحذّرهم من نكران الجميل لمن وهبوهم حياتهم. فالوالدان كالشمعتين تحترقان من أجل إعطاء الضوء للأولاد، ويذبل شبابهما من أجل أن يتبرعم الأبناء.

وحياة الرسول (ص) كلها عظات وعبر ودروس للأمة، فيواصل تعليمهم وتربيتهم على الوفاء لمن يحسن إليهم، فتكون الأم، وكذلك المرضعة، صاحبة القدر المعلّى. روى أبو داود عن أبي الطفيل قال: رأيتُ النبي (ص) يقسمُ لحماً بالجعرّانة؛ إذ أقبلت امرأةٌ حتى دنت إلى النبي (ص)، فبسط لها رداءه فجلست عليه فقلتُ:

مَن هي؟ فقالوا؛ هي أُمُّه التي أرضعته(٢٨). هكذا يعلم الرسول (ص) الأمة ليقتدوا بسيرته.

وفي حجة الوداع لم ينسَ الرسول (ص) المرأة، فقد حظيت باهتمامه وهو يؤدي فريضة الحج. فقد أبى إلا أن يسجل للأمة الإسلامية وللعالم عبر الأجيال إلى نهاية الحياة مكانة المرأة التي تحتلّها في رسالته ودعوته إلى الحق والهداية، لقد كان الرسول (ص) يخاطب الأجيال المتعاقبة من خلال الحجاج الذين حضروا حجة الوداع وأوصاهم بالنساء خيراً في بعض خطبته في حجة الوداع، ومما قاله كما روى جابر بن عبد الله الأنصاري:

«إنّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا أن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع. ودماءُ الجاهلية موضوعة وإن أول دم أضعُ من دمائنا دمُ ربيعة بن الحرث كان مسترضعاً في بني سعد فقتله هُذيل. وربا الجاهلية موضوع وأوّلُ رِبى أضعُ ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوعٌ كلُّه. فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله. ولكم عليهنَّ أن لا يُوطِئن فراشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فإنه يوهنُ غير مبرّج ولهنَّ عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركتُ ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله أنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهدُ أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت فقال بإصبعه السَّبَّابة يرفعها إلى السماء وينكبُها إلى الناس اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد»(٢٩).

وتبقى وصية الرسول (ص) بالنساء مصانةً عبر تعاقب الزمن، خصوصاً في ذاكرة المصلحين والغيورين على تراث الأمة من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. فيجدّدون وصاياه لتبقى لزاماً وقبساً لأجيال الأمة المتعاقبة. فهذا أحمد الخوي، أحد المفكرين المسلمين، يحدث في كتابه: «أطباق الذهب» مقتفياً أثر سنة الرسول (ص) فيصف طبيعة المرأة وأهميتها للرجل فيوصي بكيفية التعامل معها كما يدعو إلى تعمير بيتي الدنيا والآخرة فيقول:

«النساء عوايق الحجال شقائق الرجال. الرجال قوّامون والنساء قواعد. وهم أعضاد الدين وهنَّ سواعد. ما هنَّ إلا مكاريب زروعهم وشراسيف ضلوعهم. ألا فارفقوا بهنَّ فإنهنَّ لحم على خوان واستوصوا بهنَّ خيراً فإنهنَّ عوان. ورجل بلا بعل

كرجل بـلا بغل. والعزوبـةُ مفتاح الزنـا. والنكاح ملـواح الغنى. ومن نكح صفد بعض شيـاطينـه. ومن تـزوّج فقد حصَّن نصـف دينه، ألا فـاتّقـوا الله في النصف الثاني، فإنَّ خـراب الدين بشهوتين، شهوة الفـرج وهي الكبرى وشهوة البطن وهي الصغرى. فـاعمر الـركنين واحكم الحصنين. وإذا فرغـت من الرّواق والصفـة فلا تهمل السقيفـة والأسكعـة. واعلم أن الدنيـا والآخـرة ضرّتان، لـك إليهما كرّتـان، إحداهما حُـرَّة حريرة، والأخرى أمـة مريرة. فاجعل للحـرة يومين فإنّ لهما قسمين، ولـلأمـة قسماً فإن لها في كتـابك اسماً وأضعف نصيـب العُقبى ولا تنسَ نصيبك من الدنيا؛ واحفظ القسمة العادلة ولا تكن ممّن يحبّـون العاجلة. فالويلُ كل الويلُ أن تميلوا كل الميل فـاتقِ الميل بالقلب، فكُلُّ أولئك كان عنه مسـؤولاً. وإن كان ولا بد فلـلآخـرةُ خيرة لك من الأولى، وإن اتقيت الـزيغ فطلق الـدنيـا، إنها زائدة. وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة»(٣٠).

الزواج في الإسلام:

سبق ذكر أنواع الـزواج، أو النكاح، الذي كان معـروفاً في العصر الجاهلي، وقد هدمه الإسلام وأبقى على نوع واحد فقط وهـو نكاح الناس اليوم، إجلالاً وإعظاماً لكرامة المرأة.

وقد رغَّب الرسول المسلمين في الزواج فقال: «الزواج سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وقال أيضاً: «أُحبُ من دنياكم ثلاث: الطيبُ والنساء وقرَّةُ عيني الصلاة».

وعن أبي هريـرة قال: قال رسـول الله (ص): «تنكحُ المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين لا تربت يداك»(٣١). يؤكد الإسلام على أنّ المرأة هي اللبنـة الأولى لبنـاء الأسرة، والأسرة هي أسـاس المجتمع، والتنشئـة السليمـة للأجيـال مرهـونة بالمرأة المدركـة والواعية لأمـور دينها ودنيـاها. فإذا صلحت المرأة صلحت الأسرة. وإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع. فـالمرأة الصـالحة هي منبع الخير والعطاء وصمام الأمان للأسرة من عوادي الأيام.

وروى ابن ماجة، عن أبي أمامة، عن النبي (ص) أنه قال: «ما استفاد المؤمن،

بعد تقوى الله، خير له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرّته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»(٣٢).

وقد وصف الله، سبحانه وتعالى، الزواج بالرحمة بالعباد لتحقيق الطمأنينة بينهم فقال: **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾**(٣٣).

وقد شرّع الإسلام للحياة الزوجية قوانين تحمي الزوجة من جور الزوج وتجاوزاته في جميع الظروف، سواء كان ذلك في الظروف العادية أم في غيرها، كالحمل والولادة والطلاق وغيرها.

وقد حارب الإسلام غلاء المهور منذ العهد الأول لدولة النبوّة، وخير مثال لذلك السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي محمد (ص)، زوجة الإمام علي بن أبي طالب؛ إذ لم يتجاوز مهرها خمسمئة درهم. وحكى ابن الجوزي، في كتابه «المنتظر في مناقب عمر (ر)» قال: لما ولي عمر (ر) الخلافة بلغه أن صداق أزواج النبي (ص) خمسمئة درهم. وأن صداق فاطمة (ع) كان على علي بن أبي طالب (ع) أربعمئة درهم. فأدى اجتهاد عمر أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة (ع). فصعد المنبر فحمد الله تعالى وقال: «أيها الناس، لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمئة درهم فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين». فهاب الناس أن يكلّموه. فقامت امرأة في يدها طول فقالت له: كيف يحلُّ لك هذا والله يقول: **﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾**. فقال عمر (ر): «امرأة أصابت ورجلٌ أخطأ»(٣٤).

يتّضح، من الرواية المذكورة، أن السلطة الإسلامية، وعلى أعلى المستويات كانت تتصدى لظاهرة غلاء المهور بهدف جعل الزواج ميسوراً لكل طبقات المجتمع حتى لا يكون ارتفاع المهور من السلبيات التي تلحق بالمجتمع كتأخر سن الزواج عند الجنسين أو اتجاه الرجال للزواج من مجتمعات أجنبية. كما توضح هذه الرواية أيضاً غياب الحواجز بين الحاكمين والمحكومين، وحق المرأة في التعبير عن رأيها ومخاطبة أعلى سلطة في المجتمع الإسلامي آنذاك، والتعبير عما يخالجها في نفسها بكل صراحة دون أن يلحقها أي ضرر.

وقيل أيضاً: جاءت امرأة إلى عمر فقالت: «يا عمر إنّ زوجي يصوم النهار ويقوم الليل». فقال لها: نعم الرجل زوجك. وكان في مجلسه رجل يسمى كعب، فقال: يا عمر: إنّ هذه تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عند الفراش. فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما. فقال عليّ بزوجها فأُحضر. فقال له: «إنّ هذه المرأة تشكوك. قال: أفي أمر طعام أم شراب؟» قال: «بل في أمر مباعدتك إياها عند فراشك»، فأنشأت تقول شعراً:

يا أيها القاضي الحكيم أنشده ... ألهى خليلي عن فراشي مسجده

نهاره وليله لا يرقده ... لستُ في أمر النساء أحمده

فأنشأ الزوج يقول شعراً:

زهّدني في فرشها وفي الحلل ... إني امرؤ أذهلني ما قد نزل

في سورة النحل وفي السبع الطول ... وفي كتاب الله تخويف نحل

فأنشأ القاضي يقولُ شعراً:

إنّ لها حقاً عليك لم يزل ... في أربع نصيبها لمن عقل

تعاطها داع، ودع عنك العلل

ثمّ قال له: إنّ الله أحلّ لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام بلياليهن. ولها يوم وليلة(٣٥).

هكذا حظيت المرأة، في ظل الدولة النبوية، وفي الصدر الأول لهذه الدولة بكل احترام وتقدير وفقاً لتشريعات سنّها مؤسس هذه الدولة. فكانت شكاوى المرأة وتظلمها من زوجها، أو استفساراتها عن أمور الدين والدنيا، تلقى صدوراً رحبة لتشجيعها على الحوار دونما خجل أو خشية، لخلق الثقة بالنفس وإعطائها المكان اللائق بها كعضو فاعل في المجتمع.

وأتى رجل إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) فقال له: «إنّ لي امرأة كلما غشيتُها تقول: قتلتني قتلتني» فقال اقتلها بهذه القتلة وعلى أثمها(٣٦). هكذا حرص

النبي(ص) والخلفاء من بعده على تربية رجال الأمّة ونسائها، وعلى الحوار المفتوح والبنّاء الذي كان يرمز إلى مجتمع الأسرة الواحدة. وتتكرّر دروس المربي العظيم للأمة رجالاً ونساءً.

وروى البخاري، في صحيحه عن أم سلمة (ر)، أنّ أم سليم قالت: «يا رسول الله، إنّ الله لا يستحي من الحق هل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ قال: نعم. إذا رأت الماء فضحكت أم سلمة فقالت: أتحلمُ المرأة؟ فقال النبي (ص): فيم يشبه الولد»(٣٧). بهذه الصراحة ربّى النبي (ص) أبناء الأمّة وبناتها. إنّ تلك الدروس هي رسالية موجهة إلى كل الأجيال، وإلى كل الأمم، وإلى كل القادة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لأنه بُعث إلى الناس عامة بصفته خاتم الأنبياء. فقد ورد في الحديث الشريف الذي يرويه البخاري عن جابر، قال: «قال رسول الله (ص) أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نُصرتُ بالرُّعب مسيرة شهرٍ وجُعِلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ. وأُحلت لي المغانم ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي. وأُعطيتُ الشفاعة. وكان النبيُّ يُبعثُ إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة»(٣٨).

ولم ينجب الرسول (ص) إلا من السيدة خديجة، ومنها استمر نسله عن طريق السيدة فاطمة الزهراء زوجة الإمام علي بن أبي طالب. ومارية هي الوحيدة بعد خديجة التي أنجبت ابنه إبراهيم، وتوفي قبل أن يبلغ الثانية من عمره(٣٩)، وكان زواجه بها في السنة السابعة للهجرة، وقد أهداها المقوقس ملك مصر إلى النبي، ومعها أختها سيرين وعبد خصي اسمه مابور وألفُ مثقال ذهباً وعشرون ثوباً من قباطي مصر، وبغلة سميت (دلدل) وحمار اسمه (يعفور)، فأهدى النبي (ص) أختها سيرين إلى شاعره حسّان بن ثابت(٤٠).

ومن الجدير بالذكر أنّ معظم زيجات الرسول (ص) كانت لأسباب إنسانية حيث أن غالبية نسائه أرامل، والزوجة البكر الوحيدة هي عائشة بنت أبي بكر. ومع ذلك فقد عدل بين الجميع. فمثلاً حينما وهبت زوجته سودة بنت زمعة ليلتها لعائشة وافقها رسول الله (ص) أول الأمر، وجعل ليلتها لعائشة حتى يشعرها أنه قبل

هبتها، ثـم قسم لها ليلتها مثل بقيـة أزواجه بعـد حين ليشعرهـا بأنه لا يجفـوها ولا يهملها[٤١].

وعاش الرسول (ص) مع زوجاته، عيشـة الكفاف، زاهداً قانعاً، ليشارك فقراء الأمة عيشتهم وليضرب المثل الأعلى للقيـادة الراشـدة عبر العصور. فقـد روى عروة عن عائشة أنها كانت تقول: «والله، يا ابن أخي، كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاث أهله في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله (ص) نار. قلت: يا خـالـة فما كان يعيشكم؟ قـالت: الأسـودان، التمر والماء، إلاّ أنـه كان لـرسـول الله(ص) جيران من الأنصار وكانت لهم منـائح، وكانوا يرسلـون إلى الرسول (ص) من ألبانها فيسقينا». (متفق عليه).

وعن زهده (ص)، أيضاً، روى البخاري عـن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة: «أنه مـرَّ بقوم بين أيديهم شـاة مصلية، فدعـوهُ فأبى أن يأكل، وقال: خـرج رسول الله(ص) من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير»[٤٢].

ولم يكن تقشّفه عـن عُسر، فقد جاءتـه الغنائم من أقـاليم الدولـة وكثرت لـديه الأموال، وشبع أفقر الناس وفاضت يداه بالعطاء السخي. عن جابر (ر): «ما سُئل رسول الله (ص) شيئـاً قط فقال لا». (متفق عليـه). وعن أنس (ر) قال: مـا سُئل رسـول الله (ص) على الإسلام شيئـاً إلا أعطـاه، ولقد جـاءه رجل فأعطـاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «يـا قوم أسلموا فإنّ محمداً يعطي عطاء مَن لا يخشى الفقـر، وإن كان الـرجل يسلم مـا يـريـد إلا الدنيـا فما يلبث إلا يسيراً حتى يكـون الإسلام أحبُّ إليه من الدنيا وما عليها»[٤٣].

لقد اختار النبي (ص) هذا النمط مـن العيش رغبة فيما أعدَّه الله لعباده المتّقين، وليكون قدوة حسنة لجميع طبقات المجتمـع في كل زمان ومكان. قال تعالى: **﴿لقد كـان لكم في رسـول الله أسـوة حسنـة لمن كـان يـرجـو الله واليـوم الآخـر وذكـر الله كثيراً﴾**[٤٤]. ولقـد ضاقت بعض زوجـاتـه ذرعاً بهذه الحيـاة المتقشّفـة مثل عائشـة وحفصة حتى تدخّل أبواهما: أبو بكر وعمـر وزجراهما منعاً لتذمّرهما من نمط الحياة النبوية الزاهدة[٤٥]. حتى نزل قوله تعالى مخاطبـاً رسوله (ص) في تذمّرهن وتخييرهن بين الحياتين: **﴿يا أيّها النبـيُّ، قل لأزواجك: إن كنتن تردن الحيـاة الدنيـا وزينتها**

فتعالين أمتّعكنّ وأسرحكنّ سراحاً جميلاً. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإنّ الله أعدَّ للمحسنات منكُنَّ أجراً عظيماً﴾(٤٦).

وعلى الرغم من علو منزلته عند الله وعند الناس، ومن هيبته، فإنّ حياته في بيته مع زوجاته تعتبر نموذجاً يحتذى به. عن عائشة (ر) قالت: كان رسول الله (ص) يخصِفُ نعله ويخيطُ ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدُكم في بيته. وقالت: «كان بشراً من البشر يغلي ثوبه ويحلبُ شاته ويخدمُ نفسه»(٤٧).

وكما كانت حياة الرسول (ص)، في بيوته مع نسائه، دروساً للمجتمعات البشرية: رجالاً ونساءً، كذلك كانت حياته مع مجتمع المدينة كلها عظات وعِبر. وعن أنس قال: «خدمتُ النبي (ص) عشر سنين فما قال لي: أفّ ولا لم صنعت ولا إلاّ صنعت» (متفق عليه).

وعن أنس أيضاً قال: «كان رسول الله (ص) إذا صلّى الغداة جاء خدمُ المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يأتون بإناء إلا غمس يدهُ فيها فربّما جاؤوه بالغداة الباردة فيغمس يدهُ فيها»(٤٨).

قبل أن ينزل القرآن بتحديد الأزواج بأربع، وكان ذلك في السنة السابعة من الهجرة. فقد كانت ميمونة بنت الحارث الهلالية هي آخر مَن تزوّج من النساء. وهي خالة عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد، وأيضاً خالة أولاد جعفر بن أبي طالب الملقب بالطيار، وأخت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة لأمها. وكان اسمُها بَرَّة فسمّاها النبي (ص) ميمونة. وترمّلت ميمونة وهي شابة في السادسة والعشرين وكان زوجُها أبا رهم بن عبد العزى العامري من بني عمومتها(٤٩). ويروي الرواة أنه لما جاءها البشير بخطبة الرسول (ص) لها، كانت على بعير فألقت بنفسها فرحة وهي تقول: «البعير وما عليه لرسول الله (ص)»(٥٠). فلمّا نزل القرآن بتحديد الأزواج بأربع لم يُؤمر النبي (ص) بتطليق أيٍّ من زوجاته، بل نزل القرآن الكريم بالنص على حلهنّ بلا حرج لقوله تعالى: **﴿يا أيها النبي، إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتي أتيت أجورهنَّ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما**

فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾(٥١).

إنّ بقاء أزواج النبي (ص) التسع خصوصية من خصوصياته، وخصوصية لنسائه كخصوصية وجوب قيامه الليل وتحريم الصدقة على أهل بيته، وخصوصية نسائه في مضاعفة العذاب على الفاحشة، ومضاعفة الأجر على أعمالهن الصالحة. قال تعالى: **﴿يا نساء النبي، مَن يأتِ منكُنَّ بفاحشة مبيّنة يضاعف لها العذابُ ضعفين، وكان ذلك على الله يسيراً. ومَن يقنت منكُنَّ لله ورسوله، وتعمل صالحاً نُؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً﴾**(٥٢).

ثمّ نزل القرآن الكريم بتحريم زواجه بغيرهنَّ، لقوله تعالى: **﴿لا يحلُّ لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهنَّ من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلاّ ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً﴾**(٥٣). فالأمر الإلٰهي لنبيه الكريم بالاحتفاظ بنسائه للحفاظ على المستوى العالي لخلقه الكريم، لأن الطلاق يتناقض مع سمو أخلاقه وسنته الكريمة، فقد قال حثّاً للمسلمين على الزواج: «تناكحوا وتناسلوا أُباهي بكم الأمم يوم القيامة» (متفق عليه). وقال أيضاً: «إنّ أبغض الحلال عند الله الطلاق». كما أنه لو كلّف بتطليق بعض نسائه لربما وقع هذا الطلاق على النسوة المهاجرات اللواتي ترمّلن وهن غير مشهورات بجمال مثل سودة بنت زمعة أول امرأة تزوجها بعد وفاة السيدة خديجة. ويكون ذلك خلاف ما كان قد قصد إليه (ص) حين تزوجهنَّ، كما يكون حطا لقدرهنَّ بعد أن تشرفن بالانتساب إلى أعظم شخصية عرفتها البشرية. وهو خاتم النبيين. وكرامة للنبي (ص) أصبحت نساؤه أمهات للمؤمنين لقوله تعالى: **﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾** ثمّ حرّم زوجاته على المؤمنين من بعده وعدَّ ذلك إيذاءً للرسول (ص) لقوله: **﴿وما كان لكم أن تُؤذوا رسول الله، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، إن ذٰلكم كان عند الله عظيماً﴾**(٥٤).

وظلَّ الرسول (ص) محتفظاً بزوجاته جميعهن حتى فارق الحياة، دون أن يسيء إلى واحدة منهن، على الرغم من المتاعب التي واجهها من بعضهن، بسبب غيرتهن. وكن منقسمات إلى حزبين، فقد روى البخاري عن عائشة: «أن نساء رسول

الله(ص) كنّ حزبين، فحزب فيـه عائشة وحفصة وصفيـة وسودة والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله (ص)»(٥٥).

وقد تسبّب جناح عائشة، في خلق بعض المتاعب للرسول (ص)، منها اختلاق قصة المغافير، التي نسجتها عائشة، مع نصيراتها، حين رأته يتأخر في طوافه اليومي على بيـوت نسائه؛ إذ يلبث عنـد السيدة زينب بنت جحش أطـول مما يجلس عنـد غيرها، فعلمت أنها تستبقيه لتسقيه عسلاً، وكـان يحب ذلك، فاتفقت مع قريناتها إذا دنا منهن الـرسول (ص) أن يقلن لـه: أكلت مغافير(٥٦)؟، وكان النبيُّ (ص) يكره أن تصدر عنه رائحة كـريهة، فلما أخبرهنَّ أنه إنما يشربُ عسلاً، قلن له أو قال بعضهنَّ: «لعل نحله جرس العرفط»، فحرم على نفسه ذلك العسل(٥٧). .

وكـذلك يوم أن جـاءت حفصـة، فوجـدت مـارية مع النبي (ص) في بيتهـا، فغضبت حتى استرضـاها بأن حرَّم مـارية على نفسـه واستكتمها الأمـر، فأبلغته إلى عائشة، فأنبأ الله نبيـه (ص) بالأمر وفرض له تحلة يمينـه كما في أول سورة التحريم، وزجـرهنَّ الله على ذلك الفعل لما لهن مـن منـزلـة عنـد رسـول الله (ص) وهـدَّدهنَّ بالطـلاق وأن يبدّلـه خيراً منهنَّ، وهجرهـنَّ النبي (ص) جميعاً شهـراً، وأنزل الله في شأنهن هذا قـوله تعالى: **﴿يـا أيها النبيُّ لم تحرِّم مـا أحل الله لك؟ تبتغي مـرضـات أزواجك والله غفور رحيم، قـد فرضَ الله لكم تحلة أيمانكم والله مـولاكم وهو العليم الحكيم. وإذ أسرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت بـه وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعـرض عن بعض، فلما نبأها بـه قالت: مَن أنبأك هـذا؟ قال: نبأني العليم الخبير، إن تتـوبا إلى الله فقـد صغت قلوبُكما. وإن تظـاهرا عليـه فإن الله هو مـولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكـة بعد ذلك ظهير، عسى ربه إن طلَّقكنَّ أن يبـدله أزواجاً خيراً منكـنَّ مسلمات مؤمنـات قانتـات تائبـات عابـدات سائحـات ثيبات وأبكاراً﴾**(٥٨).

وقـد تُعـذر عـائشـة على تلك المواقف والقصص التي تنم عن الغيرة الشـديـدة لجمالها وصغر سنهـا. فأمها أم رومان بنت عـامر. وقد رُوي عن الرسـول (ص) أنه قال: «مَن سرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان»(٥٩).

وعن عـائشة أن النبي (ص) تـزوَّجها وهي بنت سبع سنين وزُفَّت إليـه وعمرهـا

تسع سنين ولُعبتها معها ومات عنها ولها ثماني عشرة سنة(٦٠).

تلك نبذة مختصرة جداً لحياة الرسول مع زوجاته الكريمات وهي حياةٌ يحقُّ لكل أسرة التأسّي بها، إذ أنّ الحياة الزوجية لا تخلو مطلقاً من خلافات شكلية ويمكن معالجتها بحكمة ورويَّة. كما عودهن على حياة الكفاف واستطعن أن يتكيّفن طمعاً في عشرة رسول الله، لأنه بسيرته الكريمة أراد أن يسنَّ للبشرية نظاماً للحياة، فبصفتهن زوجاته تحتم عليهنَّ أن يسرن على نهجه، فأصبحن القدوة للمرأة الوفية الصابرة المتمسكة بزوجها وبيتها في كل الظروف: في الشدة والرخاء.

وإلى جانب الزواج الدائم شرَّع الإسلام زواجاً آخر هو زواج المتعة منذ عهد النبي (ص). قال تعالى: ﴿**والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانُكم كتاب الله عليكم وأُحِلَّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم مُحصنين غير مسافحين، فما استمتعتم به منهن فأتوهنَّ أجورهنَّ فريضةً ولا جُناح عليكم فيما تراضيتم به من بعدِ الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً**﴾(٦١).

وزواج المتعة، من المسائل المختَلف عليها بين مدرستي الإمامة والخلافة. فمع أنّ المدرستين تتّفقان على أن رسول الله (ص) قد شرَّع زواج المتعة، كما تصرُّ الآيات الكريمة إلا أنهما تختلفان في استمراريته. فبينما ترى مدرسة الإمامة أن التشريع دائم، ترى مدرسة الخلافة أن هذا التشريع قد نسخ. ومع أن البحث لا يتسع لمناقشة هذا الموضوع بشكل تفصيلي ولكن يمكن تناوله بشكل موجز.

إنّ تشريع زواج المتعة جاء لحل المشكلة الجنسية في العالم، وذلك لقصور الزواج الدائم عن معالجتها. وتبرز هذه المشكلة بشكل جدّي في حالات السفر أو حالات الحرب. إنّ حاجة الناس اليوم إلى زواج المتعة (الزواج المنقطع) هي أكثر من حاجة الناس أيام الرسول (ص). فتقدم وسائل النقل سهّلت عملية السفر والاتصال بين جميع أرجاء المعمورة، كما أن الحروب هي أكثر ضراوة مما كانت عليه أيام الرسول (ص). فالتشريعات الإسلامية لم تأتِ لمجتمع معين وزمان معين وإنما وضعت هذه التشريعات لخدمة البشرية منذ مبعث الرسول (ص) وحتى يرث الله الأرض ومَن عليها. إنّ المجتمع البشري اليوم هو أكبر حجماً بكثير مما كان عليه أيام

الرسول (ص)، ومن الطبيعي أن تكون جميع مشاكله المختلفة قد تعددت وازدادت كماً وكيفاً، ومشاكل الجنس تأتي في مقدمتها.

إن تشريع زواج المتعة جاء لخدمة المجتمع البشري؛ إذ كان المجتمع المسلم العربي في مرحلته الأولى نواة لمجتمع دولة النبوَّة التي كان من المفروض أن تشمل المعمورة قاطبة. وكان زواج المتعة مباحاً عند جميع المسلمين في عهد رسول الله (ص) وأبي بكر وجانب من خلافة عمر(٦٢). وقد حرمه عمر بن الخطاب خلال خلافته بقوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله أنا أحرمهما وأُعاقب عليهما»(٦٣). والمتعتان هما: متعة النساء ومتعة الحج.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل يحقُّ لأي إنسان مهما بلغت سلطته السياسية أو العلمية أن يغيّر تشريعاً إلٰهياً جاء به النبي (ص) عن الله؟ علماً بأنّ الله يقول في كتابه: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا...**﴾(٦٤) وقال أيضاً: ﴿**إن هو إلا وحي يوحى**﴾(٦٥).

وعلى كل حال، فالإجابة على هذا السؤال ومناقشته تخص الفقهاء ولا تخص هذه الدراسة المتواضعة. وربما واجهت الخليفة عمر ظروف قاهرة دفعته للتحريم. أما الإمام علي بن أبي طالب، فكان موقفه واضحاً في إعلان رأيه عن الآثار السلبية التي تترتب على تحريم عمر بن الخطاب لزواج المتعة فقد رُوي عنه أنه قال: «لولا ما نهى عنه عمر من أمر المتعة ما زنى إلا شقي»(٦٦).

وهناك أحاديث منقولة عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، تدل على أنهما تمتعا على عهد أبي بكر وقسم من عهد عمر(٦٧).

روى البخاري عن أبي حمزة قال: «سمعتُ ابن عباس سُئل عن متعة النساء فرخَّص فقال له مولى له إنما ذلك في الحال الشديد وفي النساء قلة أو نحوه فقال ابن عباس: نعم»(٦٨).

وروى البخاري أيضاً عن جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع قالا: «كُنّا في جيش فأتانا رسول الله (ص) أنه قد أُذِن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا»(٦٩).

وأخرج البخاري عن عمران بن حصين قال: «نزلت آية المتعة في كتاب ففعلناها

مع رسـول الله (ص) ولم ينزل قرآن يحرمهـا ولم ينهِ عنهـا حتى مات (ص) قـال رجل برأيه مـا شاء». وحين يصل الرازي إلى تفسير هذه الآية، يقول معقباً قول عمران: «قال رجل برأيه ما شاء»(٧٠).

وفي صحيح مسلم جاء عن عطاء قـال: «قدم جابر بن عبـد الله معتمراً فجئناه في منزلـه، فسأله القـوم عن أشياء ثـم ذكروا المتعـة فقال: نعم استمتعنـا على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر»(٧١).

أما ابن رشد الأندلسي فقد نقل عن ابن عباس أنه قال: «ما كانت المتعة إلا رحمة من الله رحم بها أمة محمد (ص). ولولا نهي عمـر ما اضطر إلى الزنا إلا شقي»(٧٢). وذكر ابنُ رشد في الموضع نفسه أيضاً قال: «سمعـتُ جابر بن عبد الله يقول: تمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكـر ونصفاً من خلافة عمر. ثم نهى عنهـا عمرُ الناس». ويسأل رجل من أهل الشام عبـد الله بن عمر عن متعة النساء فيقـول له: «إنّ أباك نهى عنهـا». فقال ابن عمـر: «أرأيت إن كان أبي نهى عنهـا، وصنعها رسـول الله، أنترك السُّنَّة ونتبـع قول أبي»(٧٣). هذه نبـذة من أقوال بعض الصحابـة الموثوق بهم الذين عاصروا النبي (ص) وفترة لاحقة ليست قصيرة من عمر دولة النبوّة.

أمـا عن حدود زواج المتعـة (المؤقت أو المنقطع) فيمكن الاستعـانة بـرد العلامـة السيد عز الدين بحر العلوم على مجلة العربي حول زواج المتعة(٧٤) وذكر نقط الافتراق والاشتراك بين الزواجين الدائم والمنقطع. فبالنسبة لنقاط الاشتراك فهي(٧٥):

١ ـــ العقـد: ولا يستغني كـلا الـزّواجين عنـه، ولا بـد فيهما من الاشتمال على الإيجاب والقبـول. فتقـول الـزوجـة: زوّجتك نفسي في الـدائم، ومتعتك نفسي في المنقطع، ويكون القبول في كلا الحالتين من الزوج.

٢ ـــ المهـر: وتستحق كل من الـدائمـة والمنقطعـة جميع المهـر على الـزوج بعـد الدخول. أما قبل الدخـول فيثبت نصف المهر لو طلق في الدائم، أو وهبها المدة في المنقطع.

٣ ـ عـدم المانع: ولا بد لكلا النكـاحين: الدائم والمنقطع من عدم وجـود مانع شرعي من النكـاح من سبب أو نسب أو رضـاع أو إحصان أو غير هـذه من الموانع الشرعية.

٤ ـ العدة: وتشترك الـزوجتان: الدائمة والمتمـتع بها في الخضوع إلى العدة، وإن اختلفت المدة بينهما فهي في الـدائمة التي تحيض ثـلاثة أطهـار إن كانت حـرة وإن كانت أمـة فطهران، وفي المنقطعـة حيضتان أو خمسة وأربعـون يومـاً وعلى الزوجتين عدة الوفاة. وتسقط العدة عن كلتيهما فيما لو لم يحصل الدخول أو كانت صغيرة كأن يكون عمـرها أقل من تسع سنين أو كانت آيسـاً ولو قدر أن اجتمع حمل ووفـاة كان أبعد الأجلين هو المفروض في حق تلك الزوجة.

٥ ـ النسل: ولا فرق عنـد الإمامية بين أولاد الدائمـة أو المتمتع بها فالكل يلحق بأبيه.

٦ ـ الحضانـة: وهي الولاية على الطفل حيث تقوم الأم بتربيتـه وما يتعلق بها من مصلحتـه والمحافظـة عليه ولكـل من الدائمـة والمتمتع بها ذلك الحق وإن اختلفت كلمتهم في أصل مدة الحضانة مع غض النظر عن كون الأم دائمة أو منقطعة.

٧ ـ الميراث: وحيـث كان مـا يتولد ملحقاً بالأب فـلا بد مـن المساواة بينهما في الإرث فيقف ولد المتعة إلى جانب أخيه من الـزوجة الدائمة ليأخذ نصيبه من الميراث على حد سواء.

٨ ــ نشر الحرمة: إذ تنطبق على الـولـدين من الـدائمة والمنقطعـة جميع الآيـات والعمـومات الشرعيـة الواردة في تحريم الآبـاء والأمهات والأبنـاء والإخوة والأخـوات والأعمام والعمات والأخـوال والخالات بعضهم على بعضهم الآخر عمـلاً بما صرحت به الآية الكريمة:

﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله...﴾[٧٦].

أما موارد الافتراق فهي[٧٧]:

١ ـ ذكر الأجل، فلا أجل للدائم ولا بد منه في عقد المتعة.

٢ ـ العدد، فهو في الدائم أربعة وفي المنقطع إلى ما شاء.

٣ ـ الطـلاق، فإن المستمتع بها لا طلاق لها بل لـزوجها أن يهبهـا المدة المتبقية. وعند انتهاء المدة تنقطع العلاقة الزوجية بين الطرفين. أما الطلاق فهو من مختصات الزوجة الدائمة.

٤ ـ النفقة ، وتكـون للزوجة الدائمة ، أما المستمتع بها فـلا نفقة لها ، مهما كانت المدة التي قدر لها الارتباط الزوجي فيها .

٥ ـ المواقعة والمضاجعة ، فليس للمتمتّـع بها ليلة أي حق في المطالبة في المواقعة ، بل يعود أمر ذلك إليه فهو إن شاء أقدم وإلا فليس لها إلا السكوت أما الدائمة فلها الحق في ليلة من أربع مضاجعة ومرة في المواقعة في ضمن كل أربعة أشهر.

٦ ـ ميراث الزوجة ، فإن الزوجة الدائمة تشارك بقية الورثة في أخذ ما لها من الحق المفروض لها . أما المتمتع بها فلا ميراث لها . وقد عصفت بالعالم الإسلامي منذ ثلاث عشرة سنة وحتى الآن عدة حروب وما تزال هناك حروب أخرى حديثة . وقد خلفت هذه الحروب الكثير من الـويلات على المجتمعات الإسـلامية في هذه الـدول كانت النساء والأطفال في مقدمة الضحايا المتضررين . فهناك حرب أفغانستان التي انتهت في ربيع عام ١٩٩٢ ، وخلفت أكثـر من مليون قتيل ولا شك في أن هنـاك أكثر من نصف مليـون أرملة ، هـذا إلى جـانب المطلقـات . وحرب الخليج الأولى بين إيـران والعراق والتي دامت ثماني سنوات أيضاً خلفت مـا يقارب من مليون قتيل وأكثر من نصف مليون أرملة في كلا البلدين إضافة إلى المطلقات . وحرب الخليج الثانية أيضاً طحنت الأخضر واليابـس في العراق والكويت وخلفـت أيضاً عشرات آلاف القتلى والمفقـودين ، ونجم عن ذلك عشرات الآلاف من الأرامل وتشتيت عشرات الآلاف من الأُسر. أيضاً هنـاك الحرب الأهلية في جمهـورية أذربيجان وفي جمهـورية البـوسنة والهرسك التي يقطنها المسلمـون الأتراك والتي أعلنت استقـلالها عن يوغوسـلافيا . يتعرض المسلمون لحرب إبادة من قبل الصرب لمنعهم من تأسيس كيان مستقل لهم . كل هـذه الحروب خلّفت مـا لا يقل عن مليـون أرملـة ، هذا إلى جـانب المطلقـات والعوانس والأرامـل قبل الحروب . فما هي الوسـائل الناجحة للمّ شمـل هذه الأسر المشتتة التي أصبحت تتكون من أطفـال ونساء ومسنين؟ وإذا كانت مشكلة الجنس من المشـاكل التي يـواجههـا كل إنسـان امـرأة أو رجل في السلم وفي الحرب فكيف يمكن حل المشاكل الجنسية الملحة لكل من الأرامل والمطلقات والعوانس؟

هناك أربعة خيارات ، وهي :

أ ـ التبتل.

ب ـ الإباحة الجنسية.

جـ ـ الزواج الدائم.

د ـ زواج المتعة.

فبالنسبة للتبتل فإنه مرحلة إيمانية راقية لا يمكن لأي فرد مسلم بلوغها بسهولة، خصوصاً في المجتمعات الغربية التي تنتشر فيها الإباحة الجنسية، وقد حثّ الرسول(ص) على كبح غريزة الجنس بالصوم فقال (ص): «مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء» (متفق عليه).

وبالنسبة للإباحة الجنسية فلا يقرها الإسلام. ولذلك فإن المجتمع المسلم يأباها.

أما بالنسبة للزواج الدائم فمع توفر جميع الإمكانيات المادية فمن النادر أن يقبل شاب على الزواج من ثيِّب أرملة كانت أم مطلقة أم عانساً في حال توفر البكر. فإذا كان إقبال الشباب على الزواج من البكر فما هو مصير الثيبات والعوانس؟ إنهنَّ جزء من المجتمع ولا بد أن يحنو كل فرد فيه على الآخر. وهذا القرآن الكريم يخاطبُ المسلمين: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. ألم يحتضن الرسول زوجات الشهداء وتزوجهن بغية لم شملهن مع أطفالهن؟ هل كان هدف الرسول الجنس من تعدد زوجاته؟ كلا بل كان لهدف إنساني تربوي. إنه يسنُّ نظاماً للحياة البشرية في ظل شريعة الله العادلة.

ويبقى زواج المتعة، أحد الخيارات المتاحة لحل المشاكل الجنسية عند الجنسين في المجتمعات الإسلامية، عبر أرجاء المعمورة، إذا التزم الزّوجان بالحدود الشرعية لهذا النوع من الزواج، كما سبقت مناقشتها.

ومن الجدير بالذكر أن زواج المتعة (المنقطع) معمول به في نطاق محدود لدى المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر بين أتباع مدرسة الإمامة وخصوصاً في إيران، والعراق، ودول الخليج، ولبنان، وأفغانستان وأذربيجان، ودول أوروبا

الغربية، والولايات المتحدة الأمريكية، وكندا.

وعلى كل حال، فليس هناك تفاضل بين مدرستيّ الإمامة والخلافة، فالجميع يستمدّون تشريعاتهم الدينية والاجتماعية من مصدرين أساسيين هما: القرآن والسنة، وإنما يتحتم على الجميع أن يتعاملوا مع العصر بروح مرنة بعيدةٍ عن التعصُّب والتشنُّج، وكل ما يسيء إلى وحدة الأمة الإسلامية.

دور المرأة المسلمة في الحرب:

لعبت المرأة المسلمة، خلال العهد النبوي وإبان تأسيس دولة النبوّة، دوراً بارزاً في خدمة المقاتلين في ساحات القتال دفاعاً عن الدين والوطن والأمة الوليدة. لقد أثبتت المرأة المسلمة أنها جديرة بالمشاركة في تحمل المسؤولية خلال العقد الأول من عمر دولة النبوَّة، وهي الفترة التي صاغ فيها النبي شخصية مجتمع دولته من رجال ونساء وأراد أن يثبت لأجيال الأمة المتعاقبة، وهو يؤسس نواة دولته، أن الدفاع عن الدين والوطن والأمة واجب على كل مسلم ومسلمة في كل زمان ومكان، كل وفق قدراته. وهناك أحاديث كثيرة تثبت مشاركة المرأة المسلمة لإخوانها المدافعين عن حرمة الدين والدولة.

روى البخاري عن حفصة بنت سيرين قالت: «كنا نمنع جوارينا أن يخرجن يوم العيد فجاءت امرأةٌ فنزلت قصر بني خلف فأتيتها فحدَّثت أن زوج أختها غزا مع رسول الله (ص) اثنتي عشرة غزوة فكانت أختُها معه في غزوة بدر قالت: فكُنا نقوم على المرضى فنداوي الكلمى فقالت: يا رسول الله أعلى أحد منا بأسٌ إذا لم يكن لها جلباب أن لا تخرج فقال: لتلبسها صاحبتها من جلبابها فيشهدن الخير ودعوة المؤمنين قالت حفصة: فلما قدمت أم عطية أتيتُها فسألتها: أسمعتِ كذا وكذا قالت: نعم بأبي ـ وقلّ ما ذكرت النبي (ص) إلا وقالت بأبي ـ قال: ليخرُج العوايق ذوات الخدور العوانق ـــوذوات الخدور شك أيوب والحيض ـ [كذا. .]، فيعتزل الحيض المصلى، وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين. قالت: فقلتُ لها الحيضُ؟

قالت: نعم. أليس الحائض تشهد عرفات وتشهد كذا وتشهد كذا»[٧٨].

يتّضح من الحديث الشريف دعوة المرأة المسلمة للوقوف جنباً إلى جنب مع المقاتل المسلم لرد المعتدين، إذ أنه في سبيل سلامة الدين والوطن يرخص كل شيء حتى الروح التي تعتبر أغلى ما يملكه الإنسان، إلا أن سلامة الدين والوطن أغلى من حياة الإنسان فمن هنا جاءت الدعوة النبوية لافتداء الدين والوطن بكل غال ونفيس. وقد شملت الدعوة النبوية جميع شرائح المجتمع من رجال ونساء دون استثناء، كما يتضح من الحديث الشريف المذكور.

وروى البخاري عن سهيل أنه سُئل عن جُرح النبي (ص) يوم أُحُد فقال: «جُرِح وجهُ النبي (ص) وكُسِرَت رباعيتُه وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة (ع) تغسِلُ الدم وعلي (ع) يمسحُ. فلما رأت أن الدم لا يزيدُ إلا كثرةً، أخذت حصيراً فأحرقته حتى صار رماداً، ثم ألزقته فاستمسك الدم»[٧٩].

وروى الطبري عن ابن مسعود قال: «إنّ النساء كُنَّ يوم أُحُد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذٍ لرجوت أن أبر إنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله تعالى: **﴿منكم مَن يريد الدنيا ومنكم مَن يريدُ الآخرة...﴾**[٨٠].

هكذا كان التسابق بين الرجال والنساء والاستماتة في سبيل الذود عن العقيدة والكرامة والأمة، فالجميع يشعرون بمسؤولياتهم الدينية التي تعلموها من صاحب الرسالة للدفاع عن دولتهم البكر ودينهم ونبيِّهم.

وروى البخاري عن الرُّبيع بنت مُعَوِّذ بن عفراء قالت: «كُنا نغزو مع رسول الله(ص) نسقي القوم ونخدمهم ونردُّ القتلى والجرحى إلى المدينة»[٨١].

وروى مسلم عن أنس قال: «كان رسول الله (ص) يخرج بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى»[٨٢].

وروى مسلم أيضاً عن أم عطية (ر) قالت: «غزوتُ مع رسول الله (ص) سبع غزوات أخلُفُهم في رحالهم، فأصنعُ لهم الطعام وأُداوي الجرحى وأقومُ على المرضى»[٨٣].

كانت المرأة المسلمة، في هذه الغزوات خلال العهد النبوي، تقوم بدور الأم والممرضة وبعضهن يتزوجن زواجاً منقطعاً، فكان توفير راحة المقاتل المسلم الشغل الشاغل للمرأة المسلمة. ولذلك حفظ المسلمون للمرأة دورها العظيم الذي قامت به خلال حروب العزّة والكرامة التي تزامنت مع تأسيس صرح دولة الحق والعدالة والمساواة والحرية، إنها دولة النبوّة فلا غرابة أن يحفظ للمرأة حقها ويصان على أعلى المستويات.

هذا هو دور المرأة المسلمة الذي قامت به على أكمل وجه ودولةُ النُّبوّة في طور التأسيس، وهذه معاملتها الكريمة من قادة الأمة بعد رسول الله (ص) الذين حفظوا لها حقها وحرمتها اعترافاً لها بدورها المشرف وتفانيها في خدمة الدين والأمة دون أن تعيقها أنوثتها. فهل يأتي اليوم الذي يستمد منه المسلمون: حكاماً ومحكومين قبساً من النظام المحمدي لبناء المجتمع وخلق الهوية الأصيلة لإنسان دولة النبوّة التي تفخر بانتمائها العقائدي دون خجل؟ إن المرأة المسلمة اليوم ليست أقل حماساً لدينها ووطنها وأمتها من نساء صدر الإسلام. وإن توفير الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية السليمة كفيلة بخلق أجيال مماثلة من النساء لنساء الصدر الأول من دولة النبوّة. عندها يمكن أن تقوم المرأة المسلمة بدورها الصحيح الذي صاغه لها صاحب الرسالة ومؤسس الدولة النبي محمد (ص)، وما نزول سورة النساء بالقرآن على الرسول إلا دليلٌ واضح على الدور العظيم الذي هيأه التشريع الإسلامي كي تلعبه المرأة وتمارس رسالتها الإنسانية وفقاً لحقوق وواجبات محددة.
إنّ هذه السورة، بآياتها البالغة مئة وست وسبعين، تعتبر ركيزة التشريع الإسلامي الذي يشمل جميع القضايا الأساسية للمرأة لتبلغ مستوى يليق بتطلعاتها الإنسانية الراقية.

هوامش التمهيد والمقدمة

(١) ستصدر دراسة لاحقة للمؤلف يتناول فيها بشكل تفصيلي التحليل الأكاديمي لمصطلح دولة النبوّة التي كانت نتاج تشريع سماوي يعتبر ثورة على أوضاع المجتمع البشري بشكل عام، انطلاقاً من مجتمع قريش في مكة وحتى تأسيس نواة هذه الدولة في المدينة؛ حيث شملت جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتبريرات التاريخية والمنطقية لجدوى استمرارية استخدام هذا المصطلح حتى نهاية عهد مهدي الأمة المحمدية الإمام محمد بن الحسن (ع).

(٢) سيتناول المؤلف، في الدراسة اللاحقة المشار إليها، صوراً من حياة بعض الحكام الذين تعاقبوا على حكم دولة النبوّة والذين أساءوا إلى الدين والأمة.

(٣) الحسني: سيرة الأئمة الاثنى عشر (القسم الأول، ص٦٥).

(٤) نفسه.

(٥) سورة النحل: ٥٧.

(٦) سورة الطور: ٣٩.

(٧) سورة النجم: ٢١.

(٨) الحسني: المرجع نفسه، ص٥٥.

(٩) سورة التكوير: ٩.

(١٠) سورة النحل: ٥٨، ٥٩.

(١١) الحسني: المرجع نفس، ص٥٥.

(١٢) نفسه، ص٥٦.

(١٣) سورة الإسراء: ٣١.

(١٤) الحسني: المرجع نفسه، ص٥٧؛ أيضاً الأبشيهي: المستطرف من كل فنّ مستظرف، ص٢٢٢.

(١٥) نفسه، سورة المائدة: ٣٢.

(١٦) البخاري: الجامع الصحيح، مجلد ١، جـ١٥، ص٢٩٩.

(١٧) نفسه، مجلد ٢، جـ٢١، ص٤٢٥ـ٤٢٦.

(١٨) الحسني: المرجع نفسه، ص٥٧.

(١٩) البخاري: مجلد ١، جـ١١، ص٢١٩، جـ١٦، ص٣١٩؛ أيضاً، الصّغاني: مشارق الأنوار النّبوية من صحاح الأخبار المصطفوية، ص٢٢٤.

(٢٠) الكبداني: مشكاة المصابيح، ص٥٦.

(٢١) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ٢٠، ص٤٠٣؛ أيضاً، الكبداني: نفس المرجع، ص٧٥.

(٢٢) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، جـ٢٩، ص٥٧٩.

(٢٣) نفسه، ص٥٨٧.

(٢٤) الكبداني: المرجع نفسه، ص٢٣٨.

(٢٥) نفسه، ص٢٥٠، متفق عليه.

(٢٦) نفسه، ص٢٥٢.

(٢٧) سورة الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٢٨) الكبداني: المرجع نفسه، ص٢٥١؛ أيضاً، الطبري: ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص٢٥٩.

(٢٩) الصّغاني: المرجع نفسه، ص٤٧ ـ ٤٨؛ أيضاً الكبداني: المرجع نفسه، ص١٣٥.

(٣٠) الخوي، أحمد بن محمد بن علي: أطباق الذهب، ص٣٨ ـ ٣٩.

(٣١) الكبداني: المرجع نفسه، ص١٥٨.

(٣٢) نفسه.

(٣٣) سورة الروم: ٢١.

(٣٤) الأبشيهي: المرجع نفسه، ص٤٠.

(٣٥) نفسه.

(٣٦) نفسه، ص٣١٩.

(٣٧) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ٢، جـ٢٥، ص٤٩٣، ٤٩٥.

(٣٨) الكبداني: المرجع نفسه، ص٣٠٧، متفق عليه.

(٣٩) يماني: علموا أولادكم محبة آل البيت (ص) ص١٧٩ ـ ١٨١.

(٤٠) نفسه، ص٢٣٢.

(٤١) الكبداني: المرجع نفسه، ص١٦٤.

(٤٢) يماني، المرجع نفسه، ص٢٣٠.

(٤٣) نفسه، ص٢٢٨. رواه مسلم.

(٤٤) سورة الأحزاب: ٢١.

(٤٥) يماني: المرجع نفسه، ص٢٢٩.

(٤٦) سورة الأحزاب: ٢٨، ٢٩.

(٤٧) الكبداني: المرجع نفسه، ص٣١١، رواه الترمذي.

(٤٨) نفسه، ص٣١٠، رواه مسلم.

(٤٩) الأمين: أعيان الشيعة، مجلد ٣، جـ١١، ص٣٠٦، مجلد ١٠، جـ٤٧، ص١٩٩؛ أيضاً، يماني: المرجع نفسه، ص٢١٦.

(٥٠) يماني: المرجع نفسه، ص٢١٧.

(٥١) سورة الأحزاب: ٥٠.

(٥٢) سورة الأحزاب: ٣٠، ٣١.

(٥٣) سورة الأحزاب: ٥٢.

(٥٤) سورة الأحزاب: ٥٣.

(٥٥) البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ١٠، ص١٩٧، أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص٣٤٣.

(٥٦) يماني: المرجع نفسه، ص١٨٩. المغافير: ثمر كريه الرائحة.

(٥٧) نفسه، ص١٩٠، جرس العرفط: أي رعى زهر المغافير، وهذا الزهر يسمى العرفط.

(٥٨) سورة التحريم: ١ ـ ٥، تعددت الروايات في سبب نزول هذه الآيات، هل كان سبب النزول تحريم النبي (ص) العسل بعد تلك القصة التي حبكها حزب عائشة، كما جاء في رواية الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة، أو تحريم مارية واعتزالها، كما رواه النسائي بسند صحيح عن أنس والحاكم عنه، وصححه ووافقه الذهبي والدارقطني عن ابن عباس، وأخرج الطبري له شاهداً مرسلاً بسند صحيح عن زيد بن أسلم ـ التابعي الشهير، عن يماني، المرجع نفسه، ص١٩٠.

(٥٩) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ٤٤٩)؛ «الإصابة» لابن حجر (٤/ ٤٥١)؛ طبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٠)؛ كنز العمال (٨/ ٣٤٤)، عن يماني: المرجع نفسه، ص١٨٨.

(٦٠) الكبداني: المرجع نفسه، ص١٦٠.

(٦١) سورة النساء: ٢٤.

(٦٢) المتعة ومشروعيتها في الإسلام: تحقيق الشيخ عبد الله نعمة، ص٢٢٦.

(٦٣) نفسه، ص٢١١.

(٦٤) سورة الحشر: ٧.

(٦٥) سورة النجم: ٤.

(٦٦) المتعة ومشروعيتها في الإسلام: ص٢١٢، أيضاً، البخاري: المرجع نفسه مجلد ٢، جـ٢١، ص٤٢٤.

(٦٧) نفسه، ص٢١١.

(٦٨) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ٢١، ص٤٢٤.

(٦٩) نفسه، أيضاً: ابن حنبل: المسند، جـ١، ص٣١٢ـ٣١٣.

(٧٠) الفكيكي: المتعة وأثرها في الإصلاح الاجتماعي، ص٤٢، يريد عمر بن الخطاب.

(٧١) نفسه، نقلاً عن صحيح مسلم، ص٥٣٥.

(٧٢) نفسه، نقلاً عن كتاب ابن رشد الأندلسي، جـ٢، ص٤٧.

(٧٣) نفسه.

(٧٤) نشر هذا الرد في مجلة الإيمان، العدد ١، الخامس والسادس من سنة ١٩٦٤، وتمّ نقله من كتاب المتعة ومشروعيتها في الإسلام، ص٢١٧ـ٢٤٤.

(٧٥) نفسه، ص٢١٩ـ٢٢١.

(٧٦) سورة الأنفال: ٥٠.

(٧٧) المتعة ومشروعيتها في الإسلام، ص٢٢١ـ٢٢٢.

(٧٨) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٤، ص٧٤.

(٧٩) نفسه، مجلد ١، جـ١١، ص٢٢٦، جـ١٢، ص٢٣٥.

(٨٠) سورة آل عمران: ١٥٢؛ الطبري: المرجع نفسه، ص١٨١.

(٨١) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١١، ص٢٢٤؛ مجلد ٢، جـ٢٣، ص٤٦٧.

(٨٢) الكبداني: المرجع نفسه، ص٢٠٢، رواه مسلم.

(٨٣) نفسه.

الفصل الأول

خديجة بنت خويلد رائدة النّضال الأولى للمرأة الرّسالية في دولة النبوّة

١ ـ نسبها وبيئتها الأسرية .

٢ ـ زواجها قبل الرسول (ص) .

٣ ـ حياتها الزوجية مع الرسول (ص) وتضحياتها .

٤ ـ وفاء الرسول (ص) للسيدة خديجة .

٥ ـ الإسلام يقدِّم نموذجاً للحياة الزوجية .

تعتبر السيدة خديجة بنت خويلد رائدة النضال الأولى للمرأة الرسالية في دولة النبوّة، لأنها أولى مَن ضحّت في سبيل العقيدة بلا حدود، وأعطت لنساء العالم بشكل عام، ولنساء دولة النبوّة بشكل خاص، عبر تعاقب الأجيال، النموذج الأمثل للتضحية من أجل نصرة العقيدة والسمو بها على كل الماديات.

وتعتبر سيرتها، بعد زواجها من النبي (ص)، ترجمة عملية لإثبات هذا الدور. لقد رفضت حياة الترف والنعيم، واختارت الحياة الخشنة المليئة بالآلام مع رسول الله(ص) ومَن آمن به، لأنها فضلت الخلود في الدارين، فاستحقت أن تكون واحدة من سيدات نساء العالمين.

هي سيدة قريش، والمسلمة الأولى، وأم المؤمنين الأولى وإحدى سيدات نساء العالمين، وجدة الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام). وقد شاء الله أن تكون رفيقة درب الرسول (ص) في حياته الزوجية والرسالية. فكانت الزوجة والأم والصديقة، ورفيقة النضال الرسالي من أجل إحقاق الحق وتثبيت حكم الله في الأرض.

١ ـ نسبها وبيئتها الأسريّة:

إنها السيِّدة خديجة، ولدت من أبوين قرشيين، فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لُؤي بن غالب بن فهر. وأُمُّها فاطمة بنت زائدة بن الأصم (واسمه جندب) بن رواحة الهرم بن حجر بن عبد معيص بن عامر بن لُؤي بن غالب بن فهر. كما وأنَّ أم فاطمة هي هالة بنت عبد مُناف بن الحارث، وتنتهي أيضاً إلى فهر بن لؤي بن غالب. وبذلك تكون خديجة قد وُلِدت لأبوين كِلاهما من أعرق الأُسر في شبه الجزيرة العربية. وقد اجتمع لها، بالإضافة

إلى هذا النسب الرفيع، الخلق الكريم والصفات الحميدة كالكرم والعفة. ويلغ من علو شأنها قبل أن تتزوج النبي (ص) أنها كانت تُعرف بالطّاهرة وسيدة نساء قريش[1]. وتجتمع مع رسول الله (ص) في النّسب الشريف في قصي من جهة أبيها، وفي لُؤي من جهة أمها، فهي قرشية أباً وأماً[2].

وكانت خديجة من أثرياء قريش وأوسعهم جاهاً. كما كانت لها رُؤية خاصة في التعبد، تخالف ما كانت عليه قريش وقبائل العرب من عبادة الأصنام والأوثان. فقد نشأت توّاقة للتديّن، يرشحها لذلك عاملا: الوراثة والتربية. فأبوها خويلد هو الذي نازع تُبّعاً الآخر ملك اليمن، حين أراد أن ينقل الحجر الأسود معه إلى اليمن، فتصدى له، ولم تُرهبه قوته وكثرة جنوده حرصاً منه على هذا المنسك من مناسك دينه. وابن عمها، ورقة بن نوفل، كان يعكف على دراسة كتب النصارى واليهود ويعمل بما يستحسنه منها، لا لأنه كان يعاشر النصارى واليهود، ولا لأن مكة كانت مقراً لهما، بل لأنه ـ كما عرفت خديجة ـ كان يسخر من عبادة الأصنام والتماثيل، ويبحث عن دين يطمئن إليه. فقد رأى ورقة بن نوفل أن عبادة الأصنام والتماثيل التي لا تضر ولا تنفع تخالف ما في الحنيفية الأولى التي كان عليها إبراهيم وإسماعيل (ع)، كما تخالف ما ورد في الإنجيل والتوراة من التوحيد الخالص لله وحده. فكانت خديجة تراقب مع ابن عمها ورقة ظهور النبي الخاتم الذي بشّرت به التوراة والإنجيل.

٢ ـ زواجها قبل الرسول (ص):

تزوّجت السيدة خديجة، قبل الرسول (ص)، مرتين. فزواجها الأول، كان من أبي هالة هند بن زرارة بن نبّاش التميمي، فأولدت منه ولداً أسمته هنداً، أدرك الإسلام وكان من السابقين إليه، وروى عنه الحسن بن علي (ع) حديث وصف النبي، وتناقله عنه أكثر الرواة والمحدثين وشاع عنه أنه كان يقول: «أنا أكرم الناس أباً وأمّاً وأخاً وأُختاً».

وقد اشترك مع النبي (ص) في جميع حروبه وغزواته، وكان مخلصاً للدعوة

الإسلامية كأُمِّه متفانيـاً في سبيل عقيدته . لازم علياً (ع) بعد وفاة النبي (ص) وقتل في حرب الجمل بـالبصرة في خلافة الإمام علي سنة سـت وثلاثين للهجرة[٣]. وبعد وفاة زوجها الأول أبي هالة تزوجت من عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي ، وولدت له بنتـاً أسمتها هنـد أيضاً ، بقيت في أحضان أُمِّهـا وأسلمت منذ ظهـور الإسلام . وكانت من المسلمات اللواتي أخلصن للإسلام ونذرن أنفسهم لخدمته[٤].

وقد تألّمت السيدة خديجة بعد وفاة زوجها الثاني ، وظلّت عقيلة القرشيين وأشرف امرأة في المجتمع النسائي المكي . ومع تطلّع نفوس سادة القبائل القرشية الذين كانوا يتطلعون إلى شرف الاقتران بها ، إلاّ أنها أعرضت عن الزواج في إباءٍ سمح على الرغم من عروضهم المغرية ، وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال في ريعان الشباب . وظلت تعيش بعيدة عن الحياة الزوجية راضية ، مفضلة التفرغ لرعاية أسرتها واستثمار أموالها في التجـارة حتى بلغت سن الأربعين . وربما كـان غالبيـة الخاطبين لها يطمعـون في ثروتها الطائلة ، إلا أن إرادة الله شاءت أن يدَّخـرها شريكاً ومؤازراً لنبيه (ص) . وقد شاء الله أن يعوِّضها على صبرها وعزوفهـا عن الزواج وتفرّغها لأسرتها ، بأن اصطفاها زوجة لخاتم أنبيـائه ورسله ، فنالت بـذلك الاصطفاء ، درجة عظيمة تغبطهـا عليها نساءُ قومها .

٣ ـ حياتها الزوجية مع الرسول (ص) وتضحياتها :

قد يكـون عزوف السيدة خـديجة عن الزواج ، مع أنها كانت في ريعـان شبابها ، ليس فقط للتفـرغ لاستثمار أمـوالها في التجـارة وتربيـة ولـديها أو الخوف من الأزواج الطامعين في ثروتها . ولكن قد يكون لكرم أخلاقها وفاءً لعشرتها مع زوجيها الراحلين أو ربما يكون لعـامل نفسي بسبب وفاتها وهما شـابان أيضاً . وعلى كل حـال فهناك روايات مختلفة بشأن الظروف الذاتيـة والموضوعية التي هيأت لزواج النبي (ص) من السيدة خـديجة . فبعد وفـاة زوجها الثاني كـان استثمار أموالها يتم عن طـريق رجال محترفين تستأجرهم للعمل في مالها ، ويرتحلون بعيرهـا وقوافلها مع القوافل التجارية العربية التي كانت تتعامل مع الشام صيفاً واليمن شتاءً تكيُّفاً مع الظروف المناخية .

فهناك مَن يرى أن استئجار السيدة خديجة للنبي محمد (ص) ليتاجر لها في مالها كان هو الوسيلة التي أدت إلى زواجها منه. ذلك لأنه كان حديث المجتمع القرشي: رجاله ونسائه، في أمانته وصدقه واستقامته، حيث كان يلقب بالصادق الأمين. فأرادت السيدة خديجة أن تتعامل معه عن كثب لتتأكد من مصداقية صيته الذائع بين الناس، فاستأجرته وبذلت له من المال ضعفي ما كانت تبذله لغيره، فوافق على طلبها بعد استشارة عمه أبي طالب، كفيله ومربيه بعد جدّه عبد المطلب. ومن الجدير بالذكر أن النبي (ص) قد رافق عمه أبا طالب في طفولته في رحلة تجارية إلى الشام، وأرسلت خديجة مع النبي محمد (ص) غلامها ميسرة لخدمة القافلة ورعايتها. وحقّقت الرحلة التجارية نجاحاً باهراً. وحينما صارت القافلة على مشارف مكة، أسرع ميسرة إلى سيدته ـ قبل دخول القافلة مكة ـ يخبرها بأخبار القافلة وما حدث لمحمد في طريقه مع الراهب بحيرا، وغيره من الأحداث التي لم يتفق أن حدثت من قبل. ثم إن نفيسة بنت منبه، صديقة السيدة خديجة، لاحظت تعلُّق صديقتها بالصادق الأمين، فكانت مرسال الخير، فعرضت عليه الزواج من خديجة. وتمّ الزواج(٥).

يرى بعض المؤرِّخين أن زواج النبي (ص) من خديجة لم يكن من نتائج رحلته إلى الشام في تجارتها، ولم تكن الواسطة صديقتها نفيسة بل كان بواسطة أختها هالة، وبناءً على طلب خديجة. فقد جاء في تاريخ اليعقوبي عن عمار بن ياسر أنه قال:

«أنا أعلم الناس بزواج خديجة بنت خويلد من رسول الله، لقد كُنتُ صديقاً له وإنا لنمشي يوماً بين الصفا والمروة وإذا بخديجة وأختها هالة معها، فلما رأت رسول الله جاءتني أُختُها هالة وقالت: يا عمار ما لصاحبك رغبة في خديجة؟ فقلتُ لها: والله لا أدري. فرجعتُ إليه وذكرتُ ذلك له، فقال لي: ارجع فواضعها وعدها يوماً نأتيها فيه، فلما كان ذلك اليوم أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ودهنت لحيته وألقت عليه حبراً، ثمّ حضر رسول الله في نفر من أعمامه يتقدّمهم أبو طالب فخطب في الحاضرين وتم الزواج بينهما».

وأضـاف عمار بن يـاسر إلى ذلك أنها لم تستأجره في تجارتها ولم يكن أجيراً لأحـد أبداً، كما أورد حـديث زواجه منها على هـذا النحو ابن كثير في تـاريخه بعد أن أورد الصورة الشائعة بين المحدثين(٦).

أما بالنسبة لخطبتها فإن الرسول (ص) بعد أن أبدى استعداده لتلبية رغبتها أخبر أعمامـه فأسرعـوا لتحقيق رغبتـه والتقى أعمامـه حمزة والعباس وأبـو طـالب وذهبـوا خاطبين إلى بيت خديجة، فكان مما قال أبو طالب بعد أن قام خطيباً:

«الحمـد لله الـذي جعلنـا من ذريـة إبـراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء(٧) معد وعنصر مُضر، وجعلنا حفظة بيته وسُـوَّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجـوباً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هـذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح بـه، فإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، محمـد مَن قد عـرفتم قرابته، وقـد خطب خديجة بنت خويلـد، وبذل لها الصداق ما آجله وعـاجله من مالي، وهو بعد هذا، والله، له نبأ عظيم وخطر جليل»(٨).

ومهما كان تعدد الروايات والملابسـات، التي اقترنت بهذا الزواج فالواضح أنه تمّ بناءً على طلب خديجة، ورغبتها بعد أن ردَّت العـديد من الخطَّاب من سادة قريش وأشراف مكـة. كما وأن الرصيـد الـذي امتلكـه محمد (ص)، من الشبـاب والجمال ومكارم الأخلاق والنسب الرفيع والصيت الذائع في مكة وما جاورها يمكنه من بلوغ أي فتـاة يريـدهـا. فقد كـان حلم عذارى مكـة وزهـرات الهاشميين. وكان عمـر الـرسول(ص) آنـذاك خمسـة وعشرين عـاماً وعمـر خـديجة أربعين عـاماً. فكـان محمد(ص) يصغرها بخمسـة عشر عاماً. وبعد مرور خمسة عشر عـاماً على حياتهما الزوجية السعيدة، بُعث النبي محمد (ص) برسالة الإسلام وهو في سن الأربعين(٩).

لقد كـان لهذه السيدة الجليلة أكبر الفضل وأعظم الأثـر في الترويح عن زوجها ومساندتـه على استقبال رسالة السماء. فلم تشغله بنفسها ولم تضـايقه بطلباتها، ولم تتذمـر من قلة إقـامته إلى جـوارها، وحملت عنـه مسؤولية البيت وأغنتـه عن طلب المعاش، حتى يكون مع ربه في خلوته ومحنته. كـانت كالواحة التي يستريح عندها

ليخفف من متاعبه وكالشجرة التي يتفيأ ظـلالها. وكانت تشجعه بالثبات والصبر. فكانت تغـدق عليه مشاعـرها الرقيقة وعـواطفها الصادقـة حتى في لحظات الخوف وهـو يتلقى أمر الله وكلماتـه، فكـانت مـواساتها ومـواقفهـا المخلصة مصـدر دعم ومسانـدة واعتزاز بهذه الـزوجة العظيمـة التي كان زواجـه بها من متطلبـات مهمته الرسالية والتمهيد لنجاحها(١٠).

بعد هذه الأعوام وبعد أن بلغ الزوج الأربعين، استقبل الـزوجان حدث الرسالة العظيم لا في حياة قريش والعرب بل في حياة الإنسـانية جمعاء. إنّ هذا الحدث ثورة على الأوضاع السيـاسية والاجتماعيـة والاقتصاديـة والثقافيـة بشكل عام فقـد تلقى الزوج العظيم رسالة السماء إيـذاناً بحياة جديدة شاقـة مليئة بشتى أنواع الاضطهاد والمتاعب والنضال المرير.

وظلّ النبي (ص) يتـابعُ تأمـلاتـه ومـواقفـه هـذه وألف الخلوة في غـار حِـراء واستطابها. وما كـانت خديجة وقد قاربت الستين من عمـرها لتضيق بهذه الخلوات التي تحجبه عنها في أكثر الأحيان، فلم تعكـر عليه صفو تأملاته، بل على العكس من ذلك كانت تحوطه بالرعاية والطمأنينة ما دام في بيتها، فإذا انطلق إلى حِراء ظلّت عيناهـا تشخصان إليه، فـلا تفكر بشيء سوى سـلامته، بل وتـرسل إليه في أغلب الأحيان مَن يعمل على حراستـه ولو من بعيد، دون أن يقتحم عليه خلـوته أو يفسد عليه تأملاته. وهكذا كان حال محمد بن عبد الله (ص)، وهو يتهيأ لاستقبال رسالة السماء، فما إن فاجأه الوحي، في رمضان سنة ٦١١م، وهو معتكف في الغار، حتى انطلق يلتمس الـدفء والحنان والأمان في بيتـه مع ظلمة الفجـر مرتعـد الأوصال، حتى بلغ حجرة زوجته نموذج الوفـاء والصبر ورمز التضحية. فأحسَّ وكأنه قد بلغ مأمنـه. وجلس يحدثهـا بكل ما جـرى ومـا حدث معـه في الغـار، وقـد بدا عليـه الإجهاد. فأقبلت عليه بلهفة الأم الرؤوم وهتفت به في ثقة ويقين قائلة:

«أبشر يـا ابن العم وثق بأنّ الله لا يخذلك أبـداً، إنك لتصل الـرحم، وتصـدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعـدوم، وتُقـري الضيف، وتعين على نـوائب الدهر»(١١).

وما زالت به حتىٰ هـدأ روعه، وأحس بالطمأنينة، وهي تهيّيء له فـراشه وتأخذ بيده إليهـا، كما تفعل أم بطفلها الوحيـد، وما زالت بـه حتى استسلم لنوم عميق. فـانسلت من الحجـرة ثقيلـة الخطى، حـرصـاً على راحتـه حتى إذا بلغت الطـريق اندفعت تسرع نحو بيت ابن عمها ورقة بن نوفل، ومكة في ذلك الوقت لا تزال تغطّ في نوم عميق هادئة يلفها ظلام دامس، حتى بلغـت ابن عمها فأيقظته من فراشه، وقد بدت عليـه آثار الشيخوخة، فأخذت تحدثه وهـو يصغي إليها يستمع إلى أنباء محمد (ص) وما جرى له في الغار، فأشرقت أساريره لحديثها وانتفض يقول:

«قدُّوس، قدُّوس، والذي نفس ورقة بيده، لئـن صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى وعيسى بن مريم، وإنه لنبي هذه الأمة. قولي له: فليثبت، وليكن على يقين من أمره»(١٢).

فانطلقت نحو بيتها بسرعة، من غير أن تنتظـر من ابن عمها مزيداً من البيان، وانطلقت لتزفّ بشائر النبـوّة لحبيبها وقرّة عينها محمـد (ص) تلك النبوّة، التي كان يترقّب ظهورهـا في شبه الجزيرة العـربية، رجـال أمثال ابن عمها ورقـة، وعمرو بن نفيل وغيرهما من المتألّهين والكهنة والرهبـان، فإذا به لا يزال نائماً كما تـركته. فوقفت إلى جواره وهي مفعمة بالفرح، بعد القلق، الـذي عاشته نتيجة حالة الخوف، التي كان عليها الرسول (ص) بعد عودته من الغار.

لقد عزَّ عليها أن توقظه وهي مغمورة بأسارير الفرح وسابحة في الخيال والتفكير بمستقبله العظيم. وإذا بحالة غـريبة تنتابه لم ترها من قبل. فقـد انتفض في فراشه وثقل تنفسه وتقاطر العرقُ من جبينه، واستمر في تلك الحال فترة من الوقت قبل أن يعود إلى حالتـه الطبيعية فكان وكأنه يستمع إلى محدث كل ذلـك والصديقة الكبرى تنظر إليه وقد عاودها القلق مرة أخرى لحاله(١٣). لقد نزل عليه الوحي بهذه الآية: **﴿يا أيها المدثـر، قم فأنذر، وربك فكبّر، وثيابك فطهـر، والرجز فـاهجُر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾**(١٤).

نظر الرسول (ص) إليهـا مليّاً نظرةً تفيض بالامتنان، وقد بـدا عليها القلق لحاله فرغبت إليه أن يستمر في نومه، فقال لها: «لقد انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة،

هذا الأمين جبريل يأمرني أن أنذر الناس، وأدعوهم إلى الله وعبادته، فمن ذا أدعوه ومَن يستجيب لدعائي؟»[١٥].

لم تكتفِ الزوجة البارّة بتأييد الرسول (ص) وتصديق ما رأى وما سمع بل مضت به من ساعته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لتقص عليه ما جرى له، ولم يكد يراه حتى صاح: «والذي نفسي بيده إنك لنبيّ هذه الأمة ولتُكذّبنَّ ولتؤذين ولتخرجَنَّ وتقاتلنَّ، ولئن أدركتُ ذلك اليوم لأنصرنَّ الله فيك، ثم دنا منه وقبّل نافوخه، فقال له النبي (ص): «أو مخرجيَّ هم؟».

فقال له: «نعم. لم يأتِ رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، ليتني كنتُ جذعاً. ليتني أكونُ فيها حيّاً»[١٦].

فطابت نفس النبي (ص) بما سمع وعاد إلى بيته ليبدأ دعوته الرسالية المباركة التي سيناضل فيها في سبيل الله لينقذ البشرية من الغواية ويهدي الناس إلى الصراط المستقيم، وهو يعلم أن قريش لا تتنازل عن كبريائها وجبروتها وهي ترى محمداً(ص) يسخر من الأصنام والأوثان التي وجدوا آباءهم لها عابدين منذ سنوات عديدة، ويدعو إلى عبادة إله واحد لا شريك له. إن رسالة محمد (ص) ثورة بكل المعايير إنها لا تقتصر على ما يعبد الناس وإنما تمتد لتشمل تغييراً جذرياً لجميع أنماط سلوكهم وحياتهم وبنائهم الاجتماعي والسياسي إنها ثورة شاملة لخلق مجتمع جديد ودولة جديدة تقوم على الحق والعدل والمساواة والحرية.

ووقفت زوجته تشدُّ أزره منذ اللحظات الأولى لمبعثه العظيم وتشاركه كل أنواع الأذى والحرمان في جميع مراحل نضاله التي مرّ بها بإجماع المؤرخين.

تحدَّث الدكتورة بنت الشاطىء بشأن تفاني السيدة خديجة في سبيل زوجها ومساندته في دعوته قائلة: «هل كان لزوجة عداها أن تستقبل دعوته التاريخية من غار حراء بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار، وعطف فيّاض وإيمان قوي، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب، أو يتخلّى عنها يقينها في أن الله غير مخزيه أبداً؟ وهل كان في طاقة سيدة غير خديجة غنية مترفة منعمة، أن تتخلّى راضية عن

كلّ ما أَلِفَت من راحة ورخاء وتقبل على أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، في سبيل ما تُؤمن بأنه الحق، كلا بل هي ـ وحدها ـ ولا امرأةغيرها التي أعدّتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنُّبوَّة، وتكون لليتيم أُمّاً، وللبطل ملهمة، وللمجاهد ملاذاً وسكناً، وللنبي المبعوث ثقة وطُمأنينة وسلاماً. .»(١٧).

تلك كانت مواقف السيدة خديجة، منذ أن اختار الله زوجها للدَّعوة لدينه الحنيف. عطاء بدون حدود، لقد أحبّت زوجها فتفانت في حبه وآمنت بدعوته، فضحّت بكل ما تملك للثبات على العقيدة والدفاع عنها. إن سيدة قريش، والطاهرة، أصبحت الآن شريكة وسنداً للنبي في دعوته، فنالت من أذى قريش الكثير، فصبرت حتى آخر نَفَس لها في الحياة.

ولما اشتدّ أذى الكفار للنبي (ص) والمسلمين، أمرهم الرسول بالتوجّه إلى الحبشة. ومع أن زعماء قريش حاولوا تحريض النجاشي ملك الحبشة على المسلمين ـ وكانوا ثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة، بينهم جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس ـ إلا أن مساعيهم باءت بالفشل لتعاطف ملك الحبشة معهم واعتناقه الإسلام فيما بعد. وعاش المسلمون المهاجرون في الحبشة عيشة راضية آمنين على أنفسهم وعقيدتهم(١٨).

لقد ضاق زعماء قريش ذرعاً بفشل مساعيهم للقضاء على محمد (ص) ودعوته، فقد رأوا أتباعه في ازدياد على الرغم من ممارستهم شتى أنواع القمع والتعذيب معهم. ففي الخارج وجد محمد (ص) وأتباعه مَن يناصرهم ويساندهم، وهو النجاشي، وفي الداخل يقف أبو طالب كالجبل الأشم يذود عن ابن أخيه ويشدُّ أزره لتبليغ دعوته السماوية. لذلك اتفقت قريش على مقاطعة الهاشميين والتضييق عليهم وحرمانهم حتى من ضرورات العيش، وأخرجتهم من مكة إلى شعب أبي طالب وضيّقت عليهم الحصار حتى يموتوا جوعاً أو يسلموا إليهم رسول الله(ص). وكان نص الصحيفة التي كتبها منصور بن عكرمة الذي شلّت يده لاحقاً:

«إنّ على قريش أن تقاطع بني هاشم فلا يبيعون لهم ولا يشترون، ولا يتزوجون

منهم أو يزوّجونهم، ولا يتقدمون إليهم أبداً بعون ولا مساعدة، ولا يعرضون عليهم طعاماً ولا شراباً، حتى يموتوا جوعاً ويهلكوا ظمأ، أو يسلموا محمد للقتل والهلاك»[١٩].

ولم يتأخّر أحدٌ من عظماء مكة عن الموافقة على هذه الصحيفة بل ختمها أربعون من سادتهم ورُؤسائهم، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة. فدخل بنو هاشم الشعب، مسلمهم وكافرهم عدا أبي لهب وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب لشدة عداوتهما للرسول (ص)، ثم أسلم أبو سفيان بعد ذلك وانحاز إلى بني هاشم بنو المطلب بن عبد مُناف فكانوا أربعين رجلاً. وحصَّن أبو طالب الشعب وكان يحرسه ليلاً ونهاراً، وأخافتهم قريش فكانوا لا يخرجون ولا يأمنون إلا من موسم إلى موسم، موسم العمرة في رجب وموسم الحج في ذي الحجة وقطعوا عنهم الطعام إلا ما كان يُحمل سراً، وهو شيء قليل لا يسد رمقهم حتى بلغ بهم الجهد وسُمِعَت أصوات صبيانهم من وراء الشعب يتضوّرون جوعاً، وذلك أشد ما لقي رسول الله (ص) وأهل بيته بمكة، وكان دخول بني هاشم وبني المطلب الشعب في أول محرم السنة السابعة لبعثة الرسول (ص) وبقوا فيه مدة تتراوح بين سنتين أو ثلاث سنوات[٢٠]. وحينها أراد الله الفرج لنبيه (ص) ومَن معه أرسل الله على الصحيفة الأرضَة فلحستها إلا عبارة «باسمك اللهم»، فأخبر الله تعالى نبيه بذلك فذكره لعمه أبي طالب فنقل أبو طالب ذلك النبأ لقريش فقال لهم: «إن ابن أخي أخبرني أن الله قد سلَّط على صحيفتكم الأرَضَة فأكلتها غير اسم الله فإن كان صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم» قالوا: «قد أنصفتنا» ففتحوها فإذا هي كما قال. فقالوا: «هذا سحر ابن أخيك». وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم، فمشى هشام بن عمرو، إلى زهير بن أبي أمية المخزومي، وزهير ختن أبي طالب على ابنته عاتكة، وقال: «أرضيت أن يكون أخوالك هكذا؟» قال: «فما أصنع وأنا رجل واحد؟» قال: «وجدت ثانياً». قال: «ابغنا ثالثاً». فما زالوا كذلك حتى صاروا خمسة، بينهم ـ إضافة لهشام وزهير ـ مطعم بن عدي وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود. فأقبلوا إلى أندية قريش، فقال زهير: «يا أهل مكة، أنأكل

الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى؟ والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة». فقال أبو جهل: «كذبت والله لا تشق»، فقال زمعة: «أنت والله أكذب»، فقال أبو البختري: صدق والله زمعة. وقال مطعم وهشام مثل ذلك. فقال أبو جهل: «هذا أمر قضي بليل» وقام مطعم إلى الصحيفة فشقها، وخرج بنو هاشم من حصار الشعب، في السنة التاسعة أو العاشرة للنبوّة إلى مساكنهم[٢١]. وقال أبو طالب، في أمر الصحيفة وأكل الأرَضَة ما فيها من ظلم وقطيعة رحم أبياتاً منها[٢٢]:

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة ... وما نقموا من ناطق الحق معرب

محا الله منهم كفرهم وعقوقهم ... متى ما بخير غائب القوم يعجب

فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً ... ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب

كانت السيدة خديجة شريكة زوجها في حصار الشعب وأهوال الحصار، فلم تتردّد لحظةً عن البذل والتضحية فتخلّت عن دارها والتحقت بنساء بني هاشم وبني المطلب مؤمنة بأن النصر في النهاية سيكون حليف المؤمنين والصابرين على الأذى في سبيل الله. وأقامت معه طوال فترة الحصار وقاست مرارة الجوع والحرمان. تلك سيدة قريش الطاهرة، وقد أشرفت على الشيخوخة تغالب الضعف الذي بدأ يعتري جسمها وقد تخطّت الستين عاماً. لقد صبرت على مرض الأطفال وصراخهم من الجوع والحرمان، وصمدت تعزّز صمود محمد (ص) وأتباعه متحدّية وإياهم جبروت القرشيين وهمجيتهم.

لقد تخلّت السيدة خديجة عن كلّ متاع الدنيا، وصبرت على شظف العيش وقسوة الحياة، وهي سليلة مجد وربيبة نعمة، من أجل إحقاق الحق، ونصرة أتباعه، وهزيمة الشرك والمشركين.

لقد دأبت قريش على إلحاق الأذى بالرسول (ص) بكل الوسائل، ومنها تحريض أزواج بناته على تطليق نسائهم. فقد كانت زينب من نصيب العاص بن الربيع، وأمه هالة شقيقة خديجة، وكان زواجها ناجحاً. فلم يتأثر بضغوط قريش، ولا

بالمغريـات التي بذلتها لـه مقابل فراقها. أمـا رُقية وأم كلثوم فقد تـزوجهما أبناء عبد العـزى، المعروف بأبي لهب «عم النبي (ص)»: عتبـة وعتيبة وقـد استجابـا لطلب قـريش على الفور تنفيـذاً لرغبـة أمهما أم جميل التي كانت تكيـد لبني هاشم الـذين استأثـروا بالمجـد والجاه دون قـومهـا بني عبد شمس، وفي الـوقت نفسـه أرادت أن تشفي غليلها وحقدها من خديجة التي كانت السيدة الأولى بمكة بلا منازع.

ولذلك كان أشد ما صبرت عليه السيدة خديجة حصار الشعب، وتطليق ابنتيها رقية وأم كلثوم إمعاناً في إيذاء النبي (ص) والكيد له[٢٣]. ولذلك نزلت في أبي لهب وزوجتـه أم جميل سورة اللهب لشـدة إيـذائهما لرسـول الله (ص) كما هو معـروف: ﴿تبّت يـدا أبي لهب وتبّ، ما أغنـى عنه مـالـه وما كسب سيصلى نـاراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد﴾.

أمـا السيدة خـديجة فقد جـاء جبريل لها بالبشرى بما أعـدَّ الله لها في الجنة جـزاء صبرهـا وجهـادهـا وثبـاتها على المبدأ. فقـد جـاء عن أبي هـريـرة أنـه قـال: «أتى جبريل(ع) إلى النبي (ص) فقال له: يا رسول الله هـذه خديجة قد أتت، ومعها إناء فيـه أدم أو طعـام أو شراب، فإذا هي أتتك فـاقـرأ عليهـا السـلام من ربها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيـه ولا نصب». فأخبر الرسول (ص) السيدة خديجة بما قـال جبريل، فردَّت رداً حكيماً ينمّ عن كمال العقل فقالت: «الله هو السلام وعلى جبريل السلام»[٢٤].

مـرضت السيـدة خـديجة في الشّعب ثم غلـب عليهـا المرض والضعف بعـد خروجها، فلم تمكث سوى فترة قصيرة وودعت الدنيا راضيـة مرضية. فقام الرسول بدفنها في منطقة الحجون ونزل معها في قبرها، ثم عاد إلى البيت ليشارك بناته الثلاث زينب وأم كلثوم وفاطمة مرارة الحزن ولوعة الفراق. وكانت رقية آنذاك في الحبشة مع زوجها عثمان[٢٥]. وبكاهـا رسول الله (ص) كما لم يبـكِ أحداً أبداً، فقـد كانـت له الزوجة والحبيبة والصـديقة والأم. ومما ضاعف أحزان رسـول الله (ص) أنه فقد عمه أبـا طالب أيضـاً في العام نفسـه، فكان عـاماً حـزيناً سُمِّي عـام الحزن، لأنه فقـد برحيلهما أكبر نصيرين قلَّ أن يجود الزمان بمثلهما[٢٦].

لقد كان أبو طالب حامي حمى الرسالة وصاحبها رسول الله (ص)، بينما كانت السيدة خديجة حاضنة الرسول (ص) وملاذه لتفريج كروبه وهمومه. هذا يكشف الكرب عنه بالسيف وهذه تسر عنه همومه بالكلمة الحانية والعطف. تلك المواساة الصادقة من هذه الزوجة المؤمنة التي تجمعت فيها شمائل الأم وحنانها، وبرُّ الزوجة الصالحة وتفانيها وعطفها والحبيبة التي كانت تغدق عليه حباً ينبع من سويداء قلبها.

وجد الرسول (ص) مكة خاليةً من حامي حماه الذي كانت قريش تهابه ولا تجرُؤ على إيذائه في وجوده. ووجد البيت مقفراً من السراج الذي أظلم بعد رحيل رفيقة دربه في نضاله الرسالي. فكان وقع ذلك عظيماً عليه، إلا أن عزاء الرسول (ص) في ذلك أن الدعوة الإسلامية وصلت إلى مرحلة تمكنها من النهوض بأعبائها والاعتماد على رجالها المخلصين. فقد تخطت الدعوة مكة إلى ما جاورها من المدن، حيث شملت الحجاز، وأصبحت حديث الناس في رقعة واسعة، خصوصاً بعد الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة، حيث بلغت قوة العقيدة في نفوس المسلمين درجة التضحية بأموالهم ونسائهم وديارهم من أجل سلامة العقيدة والمبدأ. لأنهم وجدوا أن سلامة عقيدتهم أثمن من كل متاع الدنيا. هكذا كان الرجال الذين اعتنقوا دين الله. إنه ثمرة حماية أبي طالب واحتضان خديجة وصبر التابعين وتضحياتهم.

٤ ـ وفاء الرسول (ص) للسيدة خديجة:

لقد رحلت السيدة خديجة (رض) وغابت عن دنيا الناس، ولكنها ظلت ماثلة بين عيني زوجها العظيم الوفي، ودخلت في حياته عديدات ولكن مكانها ظلّ في سويداء قلبه، وفاءً لعشرتها الطيبة الطاهرة. ولم تستطع أية امرأة من نسائه أن تصل إلى مكانة خديجة عنده، أو تزحزح مكانتها من قلبه. إنه نموذج الوفاء العظيم للحب العظيم. إن ذكريات خديجة وتضحياتها وعطاءَها، ظلّ ماثلاً في ذهنه يردِّده على لسانه وبين زوجاته. فقد أعطاها عمره وزهرة شبابه ولم يتزوج بغيرها حتى فارقت الحياة وفاءً لتضحياتها الجليلة في سبيل الدين. وجاء في سيرة ابن إسحاق: «كان رسول الله (ص) لا يسمع شيئاً يكرهه، من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك

إلا فرّج عنه بخديجة (ر) إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه وتصدِّقه. وتُهوّن عليه أمر الناس حتى ماتت رضي الله عنها»[٢٧]. وقال الكاتب كتاني، في كتابه الزهراء:

«لقد أعطته خديجة حباً وهي لا تشعر بأنها تعطي، بل تأخذ منه حباً فيه كل السعادة، وأعطته ثروة وهي لا تشعر بأنها تعطي، بل تأخذ منه هداية تفوق كنوز الأرض وهو بدوره أعطاها حباً وتقديراً رفعاها إلى أعلى مرتبة وهو لا يشعر بأنه قد أعطاها»، بل قال: «ما قام الإسلام إلا بسيف علي ومال خديجة»[٢٨].

وكان وفاء الرسول (ص) لزوجته الأولى، الراحلة خديجة، موضع غيرة من بعض زوجاته ومنهن عائشة، فقد شهد بيته عائشة بنت أبي بكر، وهي في مطلع صباها ونضرة شبابها، تستبد بها الغيرة من خديجة، التي سبقتها إلى قلبه لأنه ظل يردد اسمها وفاءً لها كل صباح ومساء.

روى البخاري عن عائشة قالت: «ما غِرت على امرأة ما غِرتُ على خديجة من كثرة ذكر رسول الله (ص) إيَّاها». قالت: «وتزوجني بعدها بثلاث سنين وأمرهُ ربُّه أو جبريل أن يبشّرها ببيت في الجنة من قصب»[٢٩].

ولقد وفدت أخت السيدة خديجة هالة على المدينة، فما أن سمع النبي (ص) صوتها حتى تذكر صوت أختها الراحلة، فخفق قلبه وصاح: مرحباً بكِ يا هالة فلم تملك عائشة نفسها حتى هتفت به تقول: «ما زلت تذكر بحسرةٍ وألم عجوزاً من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت من عدة سنين وقد أبدلك الله خيراً منها».

وعلى الرغم من حلم رسول الله (ص)، إلا أن وفاءه وحبه الخالد لخديجة أدى إلى انفعاله وتغيّر لونه فقال: «لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها، لقد آمنت بي حين كفر الناس، وصدَّقتني حين كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

فأمسكت عائشة عن الكلام، وهي تقول: «والله لا أذكرها بعد اليوم»[٣٠].

وعن عائشة أيضاً قالت: «كان رسول الله (ص) إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثناء عليها واستغفار. فذكرها ذات يوم فاحتملتني الغيرة، فقُلتُ: لقد عوضك الله

من كبيرة السن. قالت: فرأيت النبي (ص) تغيّرت معالم وجهه الكريم، وسقطتُ من جلدي، فقُلتُ: اللهم إنك إذا أذهبت غضب رسولك عني لم أعد لذكرها بسوء ما بقيت. قالت: فلما رأى رسول الله (ص) ما لقيتُ، قال: كيف قلت؟ والله لقد آمنت بي إذ كذّبني الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، ورزقتُ منها الولد وحرمتموه مني. قالت: فغدا وراح عليَّ شهراً»[٣١].

وعن عائشة (ر): قالت: «ما غرتُ على أحد من نساء النبي (ص) ما غرتُ على خديجة وما رأيتُها ولكن كان يكثر ذِكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها في صدايق خديجة. وقلت له: كأنه لم تكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»[٣٢].

ويستمر الرسول (ص) في التعبير عن وفائه في مواقف متعددة، فحين أعز الله دينه وأذن للمسلمين بفتح مكة ودخلها مرفوع الرأس يحيط به ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل، فأراد أن يكون قريباً من قبر زوجته وحبه الكبير خديجة، بعد أن مضى على وفاتها أكثر من عشر سنين حافلة بالنضال في سبيل الله وثبات دولة النبوّة، فبنيت له قبة إلى جوار القبر لينزل فيها حتى يسهل عليه التردد لزيارة قبرها وليشرف على فتح مكة من تلك القبة[٣٣].

وعن مكانتها عند الله، نتيجة صبرها ومواساتها لرسول الله (ص) وإخلاصها له، روى البخاري عن عائشة قالت: «ما غرت على امرأةٍ ما غرت على خديجة، ولقد أمره ربُّه، تبارك وتعالى، أن الله يبشّرها ببيت في الجنة»[٣٤].

وروى الترمذي عن أنس أن النبي (ص) قال: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسيا امرأة فرعون»[٣٥].

٥ ـ الإسلام يقدم نموذجاً للحياة الزوجية:

لقد شاءت إرادة الله أن يكون زواج محمد (ص) من خديجة وسيلة فعالة من وسائل نجاح رسالته الإلٰهية من جانب أوّل وأن تكون تلك العشرة بكل حلاوتها ومرّها نموذجاً يحتذى به لبناء الأسرة في الإسلام من جانب آخر.

لقد قدمت خديجة ومحمد (ص) نموذجاً للزوجين المثاليين فخديجة قدمت

نموذج الزوجـة التي شاركت النبي (ص) حلاوة الحيـاة ومرَّها دون أي تغيير لسيرتها مع زوجها في السراء والضراء، فكـان تطليق بنتيها وحيـاتها في الشعب أكبر امتحان لها تميز بالقسوة فواجهتـه بكل صلابة دون أن تستسلم أو تضعف، فقد شاء الله من خـلال هذه الـزوجة المؤمنـة أن تكـون حياتها مع رسـول الله (ص) نموذجـاً لجميع الزوجات عبر العصور التاريخية إلى قيام الساعة. وبالمثل فقد كان النبي (ص) أيضاً هـو الـزوج النمـوذج لـلإسـلام والبشرية جمعـاء عبر تعـاقب العصـور. لقـد قـدم الرسول(ص) من نفسه الزوج النموذج لكل الأزواج في العالم. ومهما تعاقبت الأزمنة سيكون الزوج النمـوذج، فقد عاش عيشة راضيـة معها وصان عهدهـا وودها ليس فقط في حياتها بل وبعد مماتها، وعلى الرغم من تعـدد زوجاته وسراريه، كما مر ذكره وعلى الرغم من هجرته إلى المدينة وابتعاده عن مكان ذكرياته الزوجية، إلا أن ذكراها وتضحياتها وعشرتها وحبها، كل ذلك ظلّ محفوراً في ذاكرته وقلبه. والأحاديث التي تُروى عنه وعن بعض زوجاته، لهي خير دليل على صيانته العهد وحفاظه على الود. إن تضحيات خـديجة ستبقى دروساً قيمـة للزوجـة الصالحة وحـافزاً لكل زوجـة أياً كـانت ديانتهـا للاقتـداء بها. وحريٌّ بكل زوج أيـاً كانت ديـانته أن يقتـدي بوفـاء محمـد(ص) لخديجة وحبـه الخالـد لها. ولا شك في أن نجـاح أي مجتمع واستقـراره مرهون بنجاح الأسرة واستقرارها، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال حياة زوجية سعيدة.

إن تضحيات السيدة خـديجة لزوجها، إنما كانت تضحيات لرسـالته السماوية، ولم تصل إلى ذلك المستوى السـامي من البذل المتـواصل، وإنكارها لـذاتها إلا لقوة إيمانها، فكان انتصار دين الله هدفها السامي، ولذلك تلاشت كل رغباتها الدنيوية في ذات الله، فأصبحت بحق رائدة المرأة الـرساليـة الأولى في الإسـلام، ودعامـة من الدعائم التي أدّت إلى قيـام دولة النبوَّة، كما شهد بـذلك النبي (ص) نفسه. فكان ثوابها، على أعمالها الجليلة الخلـود في الدارين: خلود الذكر، والقـدوة الحسنة لنساء العالم في دار الدنيـا والدرجات الرفيعة ونعيم جنات الله في دار الآخـرة. قال تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقـال ذرة خيراً يـره ومـن يعمل مثقـال ذرة شراً يـره**﴾[٣٦]. ولكل تضحياتها وما تمخض عنها مـن إنجازات، استحقت أن تكون رائدة النضال الأولى للمرأة الرسالية في دولة النبوَّة.

هوامش الفصل الأول

(١) ابن الجوزي: صفة الصفوة، مجلد ٢، ص٧.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام (السِّيرة النبوية)، جـ٢، ص٦٣.

(٣) دلائل النبوّة للبيهقي (٧/ ٢٨٣)؛ السير والمغازي لابن إسحاق ص٢٤٥، عن الحسني: الأئمة الاثنى عشر، القسم الأول، ص٤٣.

(٤) الذهبي: المرجع نفسه، ص٦٥.

(٥) ابن حنبل: المسند (١/ ٣١٢)، دلائل النبوّة للبيهقي (١/ ٩٠، ٢/ ٦٨)، عن يماني: المرجع السابق، ص٦١ ـ ٦٦.

(٦) الحسني: المرجع نفسه، ص٤٥ ـ ٤٦.

(٧) ضنضيء: المعدن الأصيل.

(٨) دلائل النبوّة للبيهقي (١/ ٤٢٤، ٢/ ٦٨)؛ الطبقات لابن سعد (١/ ٨٤)، عن يماني: المرجع نفسه، ص٦٥.

(٩) الذهبي: المرجع السابق، ص٦٤.

(١٠) الذهبي: نفس المرجع، ص٦٣ ـ ٦٤.

(١١) نفسه، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

(١٢) نفسه، ص١٢٨.

(١٣) نفسه، ص١٢٨، ١٣٢.

(١٤) سورة المدثر: ١ ـ ٧.

(١٥) الحسني: المرجع نفسه، ص٤٩.

(١٦) العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، جـ١، ص٢٣ ـ ٢٤.

(١٧) بنت الشاطىء: تراجم سيدات بيت النبوّة، عن يماني: المرجع السابق، ص٦٧.

(١٨) ابن هشام: السِّيرة النبوية، مجلد١، جـ١، ص٣٥٣ ـ ٣٥٤؛ أيضاً، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١، ص٥٩٨؛ أيضاً، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٢٢؛ أيضاً، الأمين: أعيان الشيعة، مجلد١، جـ٢، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(١٩) الأمين: نفسه، ص٢٣٥.

(٢٠) نفسه.

(٢١) ابن هشام: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١، ص٣٥٢ ـ ٣٥٣؛ أيضاً، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مجلد٣، جـ١٤، ص٣٠٧ـ٣٠٨، أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص٢٣٥.

(٢٢) ابن الأثير: المرجع نفسه، مجلد١، ص٦٠٦.

(٢٣) الحسني : المرجع نفسه، ص٥٥ ـ ٥٨ .

(٢٤) البخاري : المرجع نفسه، مجلد ١ ، جـ١٥ ، ص٢٩٨ .

(٢٥) يماني : المرجع نفسه، ص٧٠ .

(٢٦) دلائل النبوّة للبيهقي (٢/ ٣٥٢)؛ السير والمغازي لابن إسحاق، ص٢٤٣؛ المستدرك للحاكم (٣/ ١٨٢) عن اليماني : المرجع نفسه، ص٧٠ .

(٢٧) يماني : المرجع نفسه، ص٦٧ .

(٢٨) الحسني : المرجع نفسه، ص٤٧ .

(٢٩) البخاري : المرجع نفسه، مجلد١ ، جـ١٥ ، ص٢٩٨ ، مجلد٢ ، ج٣٠ ، ص٦٠٢ .

(٣٠) الحسني : المرجع نفسه، ص٥٢ .

(٣١) نفسه .

(٣٢) متفق عليه، انظر البخاري : المرجع نفسه، مجلد١ ، جـ١٥ ، ص٢٩٨ ؛ أيضاً، الكبداتي : المرجع السابق، ص٣٤٣ .

(٣٣) الحسني : المرجع نفسه، ص٥٣ .

(٣٤) البخاري : المرجع نفسه، مجلد٢ ، جـ٣٠ ، ص٦٠٢ .

(٣٥) الطبري : ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص٤٣، خرجه أحمد والترمذي .

(٣٦) سورة الزلزلة : ٧، ٨ .

الفصل الثاني

فاطمة الزهراء بنت محمد (ص)
رائدة النضال الثانية
للمرأة الرسالية في دولة النبوّة

١ ـ مولدها وتميزها عن سائر نسل النبي محمد (ص).

٢ ـ طفولة الزهراء وحياتها في مكة.

٣ ـ زواجها.

٤ ـ حياتها الزوجية وتضحياتها.

٥ ـ مكانة السيدة الزهراء عند الله ورسوله (ص).

٦ ـ فاطمة الزهراء والغزوات.

٧ ـ الزهراء المناضلة.

٨ ـ فاطمة الزهراء وحضور حجّة الوداع.

٩ ـ حضور الزهراء مرض أبيها (ص) ووفاته.

١٠ ـ فاطمة الزهراء وموت أبيها.

١١ ـ فاطمة الزهراء وسلطة الخلافة.

١٢ ـ سلطة الخلافة.

١٣ ـ سلطة الخلافة والعترة.

١٤ ـ علي يودّع فاطمة.

السيدة فاطمة الزهراء هي رائدة النضال الثانية للمرأة الرسالية في دولة النبوّة، بعد أُمها خديجة؛ وذلك لسببين: الأول: معاناتها مع والدها إيذاء قريش ومطاردتهم، إلى جانب تضحياتها خلال حياتها الزوجية التي فاق تحملها طاقة البشر، علماً بأن الإمام علياً (ع) كان يمكنه أن يوفر لها جميع أسباب الترف والراحة التي كان يتمتع بها البيتان الكسروي والقيصري في كلتا الإمبراطوريتين آنذاك. والسبب الثاني أنها وقفت بكل شجاعة وشموخ ـ على الرغم من جميع المصائب التي تراكمت عليها كما سيتّضح ذلك من خلال مناقشة سيرتها ـ لنصرة إمامها ووصي والدها (ص) الإمام علي (ع) حينما خذلته الأمة وتخلّت عن الثقل الأصغر. فأوضحت في خطبها أبعاد المؤامرة والنتائج الخطيرة التي ستلحق بالدين والأمة نتيجة الانقلاب والتخاذل. ومن المعلوم أنها، في نضالها وتضحياتها، في سبيل نصرة الدين، فاقت أمها. إن المواقف النضالية التي وقفتها الزهراء (ع) في وجه سلطة الخلافة لم تكن دفاعاً عن مصالح شخصية بل كانت من وحي العقيدة التي تمكنت من نفسها وجعلتها تنسى كل مصائبها. إنه الدفاع عن مستقبل رسالة والدها وتضحيات السلف العظيمة.

اتفق رواة الحديث المسلمون، من مدرستيّ الإمامة والخلافة، في مجاميعهم وصحاحهم، أن السيدة فاطمة الزهراء قد فضلها الله على نساء العالمين، لا لأنها بنت الرسول (ص) وزوجة وصيه بل لأنها قد عملت بما أراد الله وأحبَّ وأخلصت في عملها كأمها الصدّيقة الكبرى، بما لم تعمله امرأة قبلها من الأولين والآخرين. واختارها الله لتكون أماً للذرية الطاهرة، تلك الذرية التي تعتبر امتداداً لحياة الرسول (ص) لتحمل عبء الكفاح لمواصلة نشر تعاليم الرسالة النبوية بنصوصها الحقيقية من أجل سعادة البشرية.

لقد كـانت الـزهراء أول ثمرة لأبـويها يقدمـانها للبشرية بشكل عـام وللمجتمع النسائي المسلم بشكل خاص، بعـد مرحلة النضال المشتركة التي مـرَّ بها الزوجان. لقد كانت السيدة الزهراء أول نموذج للبيت النبـوي، بل لدولة النبوَّة بعد أمها ورمزاً فـريداً للنضـال والتضحية ونكـران الذات. فقـد تجرعت مرارة الظلم والأذى منـذ طفـولتهـا في الشعب؛ حيث قـاسـت مـا قـاسـاه أطفـال الهاشميين من آلام الجوع والعطش نتيجة حصار قريش لهم. كما شاهدت بأم عينها ممارسات قريش الهمجية مع والـدهـا قبل الهجرة إلى المدينـة. كما تعـرضت لإيـذاء قريـش عند هجـرتها إلى المدينة. كذلك قدمـت السيدة الزهراء لنساء العالم، من خلال حيـاتها الزوجية مع ابن عمهـا علي بن أبي طـالـب، نموذجـاً فـريداً من نـوعـه للـزهد والإيثـار والصبر والطاعة، فكـانت زوجة مثالية بكل المقـاييس تتباهى دولة النبـوَّة بأن تقـدمها وأمها القدوة الحسنة كأفضل زوجتين عرفتها البشرية. كما برزت السيدة الزهراء، بعد وفاة أبيها (ص)، امرأةً جريئة رفضت الإساءة إلى المبـادىء التي على أساسها قامت دولة النبوَّة. تلك الـدولة كـان يجب أن تكون نمـوذجاً للبشرية من خـلال العمل بتلك المبـادىء. وكما تجرعت السيـدة الزهـراء مـرارة الظلم وقسوة الأذى ولـوعـة اليتم في طفولتهـا فقد تجرعت أيضاً، في بـداية شبـابها، أيضاً، لوعـة فراق والدهـا وإنكار المسلمين وصيته واغتصـاب حقها، بـل وقسوة القـوم بضربها وإسقاطهـا جنينها. ولذلك لحقت بـوالدها بعـد وقت قصير نحيلة مهضومـة غاضبة على دولـة الخلافة لتخـاذل المسلمين عـن نصرة العترة. مخالفين بـذلك أمـر الله ورسـولـه بمـودتهم واتبـاعهم، ومتجاهلين أوامـر الله ورسولـه بعدم إيـذائهم وستتمّ دراسة ذلك كلـه بشكل تفصيلي.

١ ـ مولدها وتميُّزها عن سائر نسل رسول الله (ص):

أمها خديجة بنت خويلد أم المؤمنين الأولى، وكانت أصغر بنات رسول الله (ص) وأحبهنَّ إليـه، وانقطع نسلُ رسـول الله (ص) إلا من فـاطمـة، ولم يخلف من بنيـه غيرها. ومع أن السيـدة خديجة أنجبت لرسول الله (ص) القـاسم وعبد الله إلا أنهما توفيا في سن الطفولة ولم يبق سـوى البنات. في تلك البيئة التي كانت لا ترى للبنت وزناً، مهما بلغ شأنها، كان المجتمع العربي يعتبر مَن لا عقب له من الذكور مبتوراً.

فكانوا يستهزئون بالنبي (ص) حينما مات ولداه وقالوا: لقد أصبح يتيم عبد المطلب مبتور الذكر وسموه الأبتر، فأنزل الله عليه بهذه المناسبة سورة الكوثر: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر، فصلِّ لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر**﴾(١) ولذلك اقتضت مشيئة الله أن يجعل عقب النبي محمد (ص) وذريته من صلب علي وفاطمة (عليهما السلام). وذكر ابن حجر أن الطبراني أخرج عن ابن عمر قول الرسول (ص): «كل بني آدم يتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم، وأنا عصبتهم»(٢).

كما ذكر ابن حجر ان الطبراني أخرج عن فاطمة الزهراء قول النبي (ص): «لكل بني أنثى عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم»(٣).

كذلك أخرج الطبراني عن جابر والخطيب عن ابن عباس أن النبي (ص) قال: «إن الله جعل ذرية كل نبي في صلبه وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب»(٤).

وليس من شك في أن انفراد السيدة فاطمة الزهراء بإنجاب نسل النبي (ص) هو مكرمة إلٰهية من مكارمها العظيمة التي لا يمكن أن تدانيها فيها امرأة على وجه الأرض. فهي أم الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

أما بالنسبة لتاريخ مولدها، فهناك روايات مختلفة بعضها ينصُّ على مولدها قبل البعثة النبوية تروي ذلك وترجحه غالبية محدثي مدرسة الخلافة، بينما محدثو مدرسة الإمامة يرون أنّ مولدها كان بعد البعثة المباركة.

فقد روى الطبري عن أبي جعفر قال: «دخل العباس بن عبد المطلب على علي وفاطمة وأحدهما يقول للآخر: أيّنا أكبر؟ فقال العباس: وُلدت، يا علي، قبل بناء قريش البيت بسنوات. وولدت ابنتي وقريش تبني البيت ورسول الله (ص) ابن خمس وثلاثين سنة قبل النبوّة بخمس سنين»(٥). وجاء في الكافي للكليني عن الحسن بن محبوب عن حبيب السجستاني أنه قال: «سمعت أبا جعفر يقول: وُلدت فاطمة بنت محمد بعد مبعثه بخمس سنين، وتوفيت ولها ثماني عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً»(٦).

وفي رواية الشيخ الطوسي، في مصباح المتهجد وغيره، أن ولادتها بمكة كانت في

العشرين من جمادى الآخرة، بعد المبعث بسنتين، في يـوم الجمعـة. وقال في روايـة أخرى: سنة خمس من المبعث[7].

وقـد تزامن مـولـدهـا يوم أن أتمّت قـريش بنـاء البيت الحرام وأراد كل زعيم من زعمائهـا، أن يكون لـه شرف وضع الحجر الأسـود في مكـانه.. وقـد نتج عن ذلك شجار وقع بينهم بسبب الاختلاف، وكـادوا يقتتلون. ثم أجمعوا على تحكيم أول مَن يدخل عليهم المسجد، فكـان الداخل محمداً فقالوا: هذا محمـد الأمين قد رضينا به حكماً. وحين علم سبب اختـلافهم، بسط رداءه وقـال: ضعـوا الحجـر على هـذا الثوب ففعلوا فقـال: ليأخذ كل رئيس قبيلة بطرف الرداء ولترفعـوه جميعاً، ففعلوا، فأخذه حين رفعوه فوضعه مكانه، ولم ينازعوه في ذلك، وتلاشت الفتنة[8].

ولما عاد إلى بيتـه وجد خديجة قـد ولدت فـاطمة، وبُشّر بها ففرح فـرحاً عظيماً، وتفاءل بمولدها خيراً. إنهما حدثان عظيمان في يوم واحد[9].

وتقول الدكتورة بنت الشاطىء في وصف هذين الحدثين: «لقد شاء الله أن يقترن مولـدها بالحادث الجليل الذي ارتضت فيـه قريش محمداً حكماً فيما شجـر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسـود، عند تجديد بناء الكعبة المكرمـة، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفـلا به احتفالاً لم تألفه مكة في مولـد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولـد، وأمضت طفولتهـا سعيدة بحب أبـويها وتدليل أخـواتها لها وبخاصـةٍ كبراهنَّ زينب، التي كانت لها بمثابة أم صغيرة»[10].

إن تميز فاطمة على بقية نسل رسول الله، في سلوكها، ربما يعود إلى أصل تكوينها ونطفتها. ولذلك كانت لها منزلـة عند النبي (ص) لا يضاهيها أحد، وتعلق بها إلى درجة لفتـت انتباه بعض زوجاتـه. روى الطبري عن عائشـة (ر): «أن النبي (ص) قبل يوماً نحـر فاطمة». أخرجه الحربي وأخرجـه الملا في سيرته وزاد... فقلتُ له: «يا رسول الله فعلت شيئاً لم تفعله». فقال: «يا عائشة إني إذا اشتقت إلى الجنة قبلتُ نحر فاطمة»[11].

وروى الطبري عن ابن عباس (ر) قال: «كان النبي (ص) يكثر القُبل لفاطمة، فقالت له عائشة: إنك تكثر تقبيل فاطمة. فقال (ص): إن جبريل، ليلة أُسري بي

أدخلني الجنة فأطعمني من جميع ثمارها، فصار ماءً في صلبي فحملت خديجة بفاطمة، فإذا اشتقت لتلك الثمار قبّلتُ فاطمة فأصبتُ من رائحتها جميع تلك الثمار التي أكلتها»(١٢).

وممّا يدلُّ على أن مولد السيدة فاطمة الزهراء، بعد البعثة النبوية، ما رُوِيَ من أن نساء قريش قاطعن خديجة في ولادتها، ولا شك في أن تلك المقاطعة لم تحدث إلا بعد البعثة النبوية لممارسة الضغوط على رسول الله، كما حصل في أمر حصار الهاشميين في شعب أبي طالب. فقد روى الطبري عن الملا في سيرته: «أن النبي(ص) قال: أتاني جبريل بتفاحة من الجنة فأكلتها، وواقعتُ خديجة فحملت بفاطمة فقالت: إني حملتُ حملاً خفيفاً فإذا خرجت حدثني الذي في بطني. فلما أرادت أن تضع، بعثت إلى نساء قريش ليأتينها فيلين منها ما يلي النساء ممن تلد، فلم يفعلن، وقلن: لا نأتيكِ وقد صرتِ زوجة محمد (ص). فبينما هي كذلك إذ دخل عليها أربعُ نسوة، عليهن من الجمال والنور ما لا يوصف، فقالت لها إحداهن: أنا أُمّكِ حواء، وقالت الأخرى: أنا آسية بنت مزاحم، وقالت الأخرى: أنا كلثم أخت موسى وقالت الأخرى: أنا مريم بنت عمران أم عيسى جئنا لنلي من أمركِ ما يلي النساء. قالت: فولدتُ فاطمة، فوقعت حين وقفت على الأرض ساجدة رافعة إصبعها»(١٣). وإذا صحَّت هذه الرواية فإنّ ولادة السيدة فاطمة الزهراء بعد البعثة وبعد الإسراء والمعراج، وأن الله أراد أن يخلق لذرية نبيه (ص) أمّاً طاهرة مطهرة.

وقد سمّاها رسول الله (ص) فاطمة، وعلّل تلك التسمية. روى الطبري عن علي(ع) قال: «قال رسول الله (ص) لفاطمة: يا فاطمة أتدرين لم سميت فاطمة؟. قال علي: يا رسول الله، لم سميت فاطمة؟ قال: إنّ الله عز وجل قد فطمها وذريتها عن النار يوم القيامة». أخرجه الحافظ الدمشقي، وقد رواه الإمام علي بن موسى الرضا (ع) في مسنده، ولفظه أن رسول الله (ص) قال: «إن الله عز وجل فطم ابنتي فاطمة وولدها، ومَن أحبّهم، من النار. فلذلك سميت فاطمة»(١٤).

هذا جانب يسير من تميُّز السيدة فاطمة الزهراء على باقي أخواتها. ولا شك في

أن هناك سراً ربّانيــاً لهذا التميّز وهذه الفضيلة كما سيتّضح ذلك فيما بعـد من خلال مناقشة الـدور الذي ستقـوم به في بقيـة حيـاتها. وما تلك الطهـارة إلا تأهيلٌ إلهيٌ لدورها العظيم الذي ستقدم من خلاله العظات والعِبر للمرأة عبر العصور.

لقبها الزهراء البتول والبضعة وعديلة مريم وسيدة النساء[١٥]. وروي عن الإمام الصادق (ع): «أن لفاطمـة تسعة أسماء: فاطمة، الصـدّيقة، المباركة، الطـاهرة، الزّكية، الـرّضيّة، المرضيّة، المحدّثـة، والزهراء»[١٦]. أمـا نقش خاتمهـا فهـو: أمن المتوكلون[١٧].

٢ ـ طفولة الزهراء (ع) وحياتها في مكة:

عاشت الـزهراء حيـاة معذبـة منذ نعـومة أظفـارها، فقد لمست عـن قرب جميع صنوف اضطهـاد قريش لوالـدها وجميع المؤمنين به من المسلمين نسـاءً ورجالاً. وفي مقدمة تلك المعايشة تجربة المقاطعـة التي فرضتها قريش على بني هاشم وحاصرتهم في شعب أبي طـالب مدة ثـلاث سنين تقريباً. كـانت تجربـة كلها حرمـان شملت الرجـال والنساء والأطفال. فشاركت أطفـال الهاشميين آلام الجوع والحرمان والمرض لما تجرعته من آلام أيضـاً لمرض أمها وتدهـور صحتها إضـافة إلى مرضهـا هي نفسها خلال الحصار. فكان حصار الشعب أول تجربة قـاسية في حياة هذه الطفلة البريئة المعذّبة التي تجرّعت غصصاً منذ طفولتها[١٨].

أما التجربة المُرّة الثانية، فكانت وفاة أمها الرؤوم التي رُزئت بفقدها وقاست آلام اليتم ومحنتـه. فتحملت أعباء بيت والـدها، وهي لم تتجـاوز بعد مـرحلة الطفـولة المبكرة. والمصيبة الثالثة، التي قاستها موت أبي طالب عم أبيها، وحامي حمى النبوّة في مكة. فشاركت والدهـا أحزانه ولوعته لفقد أكبر نصيرين لـه وللإسلام. ويروى أن السيدة خديجة توفيت بعد ثلاثة أيام من وفاة أبي طالب[١٩].

وشاءت الأقـدار، لهذه الطفلة أن تتصـدى للحياة القـاسية بصبر وجلـد. لقد تـولت دور أمهـا فكنيت بأم أبيهـا[٢٠]. نشأت في ظـلال الـدعـوة، وآمنت بـالله ورسوله، منذ اكتحال عينيها بنور الحياة. ووقفت إلى جانب والدها، تعاضده وتشدّ أزره، بعد رحيل أمها وعم أبيها أبي طالب.

وقد شهدت مواقف عديدة لإيذاء القرشيين لأبيها كان وقعها على نفسها شديداً. فقد تسبّبوا في ترويعها بتلك المعاملة القاسية مرات عديدة، شهد جانباً منها بعض المسلمين. وكان عُقبة بن أبي معيط أشدهم إيذاءً للنبي (ص).

روى البخاري في صحيحه، عن عبد الله، قال: «بينما رسول الله (ص) قائم يصلي عند الكعبة وجمع قريش في مجالسهم؛ إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي!؟ أيُكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمدُ إلى فرثها ودمها وسلاها فيجيء به يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه. فانبعث أشقاهم[٢١]، فلما سجد رسول الله(ص) وضعه بين كتفيه وثبت النبي (ص) ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة وهي جويرية، فأقبلت تسعى. وثبت النبي (ص) ساجداً حتى ألقته عنه وأقبلت عليهم مسرعة. فلما قضى رسول الله (ص) الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش. ثم سمى اللهم عليك بعمرو بن هشام وعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعُقبة بن أبي معيط وعُمارة بن الوليد. قال عبد الله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب قليب بدر. ثم قال رسول الله (ص): «واتبع أصحاب القليب لعنة»[٢٢].

وكانت الزهراء بجوار والدها يوماً، حيث كان يصلي في المسجد الحرام، ويطوف البيت، فانتظر عدوُّ الله عقبة بن أبي معيط حتى سجد رسول الله (ص). فقام هذا الخبيث فوطىء بقدمه عنق النبي (ص) ورأى أبو بكر بن أبي قحافة ذلك فدفعه عنه، وقال متمثلاً بقوله تعالى: ﴿. . . **أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله** . . .﴾[٢٣].

وروى الطبري، أن أحد سفهاء قريش مرّ بالرسول في الطريق، فاغترف بكلتي يديه من التراب والأوساخ وألقاها على رأسه، فدخل الرسول (ص) بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه ابنته فاطمة وجعلت تغسل التراب عن رأسه وتبكي، وهي حديثة عهد بفراق أمها خديجة. ومع أن بكاء طفلته كان مؤلماً لقلبه ومشاعره إلا أن صبر النبوّة يفوق كل احتمال، فكان صبره وتشجيعه لها بالثبات، خير زادٍ لها لتجاوز تلك الصعاب، فالتفت إليها وعيناها تفيضان بالدموع، وقال:

«لا تبكي يا بنية، إن الله مانع أباك وناصره على أعداء دينه ورسالته»(٢٤).

هذه بعض الأمثلة، المقتضبة، التي شاهدتها طفلة النبوّة المعذَّبة بالنسبة لما عانى والدها من صنوف إيذاء قريش وتعذيبهم له. فكانت تلك المواقف خير زاد لها لتستمد منها الصلابة والثبات على المبدأ وتعمق إيمانها برسالة أبيها وتزيدها إصراراً على مساندته وتحدي أعداء الحق مع صغر سنها. كما تجرّعت الآلام لما عاناه المسلمون الأوائل من اضطهاد مرير، فلقد شاهدت الصخور الملتهبة وهي تلقى على صدور المسلمين والمسلمات في حر الصيف وساعات اللهيب المحرقة، وألم السياط التي كان رجال قريش يلهبون بها ظهور المعذبين من أتباع والدها من مختلف الأعمار ذكوراً وإناثاً، وكانت ترى أباها عاجزاً عن نصرتهم خصوصاً بعد أن رحل عنه عمه أبو طالب وشريكة نضاله خديجة. ها هي طفلة رسول الله تشاهد جميع تلك المواقف المؤلمة، وتعيش فترة انفراد قريش بوالدها وتحسُّ بالفراغ الكبير الذي خلّفه رحيل الأم والعم، فتحسُّ بمسؤولية ضخمة تجاه والدها لمساندته والتفاني في سبيل إنجاح دعوته. وقد حفظ لها والدها هذا الموقف العظيم ووفى لها. كيف لا وهو نموذج الخلق الكريم الذي لم ينل غيره من الأنبياء والرسل هذه المرتبة حينما مدحه الله بقوله تعالى: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾(٢٥). وسيتّضح فيما بعد كيف تمّ تعويض فاطمة من الله ورسوله نتيجة معاناتها وتضحياتها والدرجات العالية التي نالتها في الدنيا والآخرة.

لم يكن رحيل الرسول (ص)، من داره، وهجرته إلى المدينة المنوّرة مرغماً نهاية المطاف لإيذائه وأهله والمسلمين. فبعد أن شاءت إرادة الله لرسوله الهجرة إلى يثرب بقيت نساؤه في مكة، فاستخلف ابن عمه علياً ليقوم بثلاث مهام عظمى، وهي:

١ ـ النوم في فراش الرسول (ص) ليفتديه بنفسه ويوهم المشركين أنّه موجودٌ ويطمئنهم إلى ذلك حتى الصباح.

٢ ـ أن يكون نائباً للرسول (ص) في رد الأمانات والودائع التي كانت عند النبي (ص) إلى أصحابها.

٣ ـ أن يصحب الفواطم من مكة إلى المدينة.

إنّ المهام الثلاث، الآنفة الذكر، التي عهد بها رسول الله (ص) لابن عمه علي مهام خطيرة، وهو لم يبلغ العشرين آنذاك، فكانت أول امتحان حقيقي لعلي نتيجة العهد الذي قطعه على نفسه عندما اجتمع الرسول (ص) مع الهاشميين في أول تكليف إلهي له بالدعوة إلى دين الله ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾(٢٦).

لقد تمّت هجرة أبيها إلى المدينة بسلام، وفشلت جميع مخططات قريش في ملاحقة الرسول (ص). وبعد أن أتمّ علي مهمتي النوم في الفراش ونجاهُ الله من شر كيد القرشيين، وأعاد الأمانات والودائع إلى أصحابها هيأ الرواحل للفواطم وهنَّ: فاطمة الزهراء (ع) وفاطمة بنت أسد ـ والدته ـ وفاطمة بنت الحمزة وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب. واتفق علي مع مَن بقي من المؤمنين في مكة ـ تنفيذاً لأوامر الرسول (ص) ـ أن يتسلّلوا ليلاً إلى ذي طوى حيث يسير الركب من ذلك المكان باتجاه المدينة(٢٧). وخرج علي بالفواطم في وضح النهار، ومعه أيمن بن أم أيمن وأبو واقد الليثي ـ مبعوث رسول الله (ص) ـ متحدياً غطرسة قريش على الرغم من صغر سنه. فجعل أبو واقد يجدُّ السير مخافة أن تلحقهم قريش وتحول بينهم وبين اللحاق بمحمد (ص)، فقال له علي (ع): ارفق بالنسوة يا أبا واقد، وقد ارتجز يقول:

ليس إلا الله فارفع ظنكا ... يكفيك ربُّ الخلق ما أهمكا

فلما قارب ضجنان أدركت الركب عصابة لقريش تتكون من ثمانية فرسان معهم مولى لحرب بن أمية يدعى جناح، فقال علي لأيمن وأبي واقد: أنيخا الإبل واعقلاها. وتقدم هو فأنزل النسوة ناحية واستقبل القوم بسيفه فقال له القرشيون: أظننت أنك ناج بالنسوة؟ وناشدوه الرجوع بهن طوعاً قبل أن يضطروه للرجوع بهنَّ مكرهاً. ولكن علياً استقبل القوم بسيفه، وشدَّ عليهم حتى فرقهم عن الركب يميناً وشمالاً، ومضى في أثرهم الواحد تلو الآخر وضرب جناحاً مولى بني أمية على عاتقه فقده نصفين ودخل السيف إلى كتف فرسه ولاذ الباقون بالفرار. وعاد علي (ع) يتابع المسيرة بمن معه من النسوة حتى دخل المدينة بمن معه، وقد أجهده السير على قدميه فرقَّ النبيُّ لحاله(٢٨).

وجاء في رواية أن الحويرث بن نقير بن عبد قصي، كان أحد الفرسان الذين كانوا

ضمن عصابة قريش التي كلفت بمطاردة ركب علي والفواطم. وكان ذلك الرجل قد عُرف عنه أنه ممن يُؤذي النبي (ص) في مكة، فأقبل الحويرث على البعير الذي يحمل فاطمة ومعها إحدى الفواطم فرماها إلى الأرض فأضرَّ بها، وكانت نحيلة الجسم قد أنهكت جسمها الأحداث المتلاحقة المؤلمة التي سبقت هجرة أبيها وبخاصة بعد وفاة أمها(٢٩).

ويستمر إيذاء قريش للرسول (ص) دون توقف. فبعد هزيمتهم في معركة بدر الكبرى وقع ضمن الأسرى أبو العاصِ بن الربيع، زوج ابنة الرسول الكبرى زينب، وأطلقه النبي (ص) بدون فداء وشرط عليه أن يرسل ابنته زينب إلى المدينة عند رجوعه إلى مكة، فوفى للنبي بذلك فور وصوله. إلا أنّ قريشاً تعرّضت لها عند خروجها من مكة، يقود بعيرها كنانة بن الربيع أخو زوجها، وكان هبار بن الأسود ونافع بن عبد قيس أشدّهم وقاحة. فنخس هبّار البعير وروّع زينب بالرمح فسقطت من هودجها وكانت حاملاً فأجهضت، وتصدى كنانة لهبار ونثر سهامه بين يديه متحدّياً، فناداه أبو سفيان أن يكُف سهامه حتى يكلمه، ثم دنا منه، وحاوره قائلاً: «خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محن، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا، وأن ذلك ضعف منا ووهن، وأشار عليه أن يرجع بها حتى إذا سكن الناس خرج بها سراً» ورأى كنانة زوجة أخيه تنزفُ دِماؤها، وقد ألقت جنينها، فرجع بها. وبقيت عند أبي العاص أياماً ثم رحلت إلى المدينة(٣٠). وقد أسلم زوجها في العام السادس للهجرة، وهاجر إلى المدينة ورد عليه الرسول (ص) زوجته، وظلّ وفياً لها إلا أن زينب توفيت في العام الثامن للهجرة متأثرة بعلتها التي نجمت عن سقوطها، عن البعير وإجهاضها الجنين(٣١).

بهذه الصور البشعة كانت تتعامل قريش مع رسول الله (ص). إنها محاولات لإضعافه والحيلولة بينه وبين تأدية رسالته الرَّبَّانية. وما علموا أن تلك الأعمال التي يندى لها جبين الإنسانية ستكون عاراً لتاريخ العرب بسبب محاولتهم الحيلولة بين الرسول وبلوغه أهدافاً سامية تحقق للبشرية كلها الخير في الدارين: الدنيا والآخرة.

٣ ـ زواجها:

استقر النبي (ص)، بعد وصوله المدينة حيث بركت ناقته على باب بيت أبي أيوب الأنصاري، ونزل ضيفاً عليه، وشرع في بناء مسجده. واشترك مع المسلمين في العمل حتى أتمّوا بناءه. وبعد ذلك بنى بيته المتواضع المؤلف من عدة حجرات بعضها بالأحجار وبعضها الآخر من جريد النخل والطين، وكلها مسقوفة بجريد النخل، أما ارتفاع الحجرات فقد وصفه الإمام الحسن سبط رسول الله (ص) حيث قال:

«كنتُ أدخل بيوت النبي (ص)، وأنا غلام، فأنال السقف بيدي»(٣٢).

أما الأثاث الذي هيأهُ النبي لبيته الجديد فكان في منتهى البساطة والخشونة؛ إذْ أعد لنفسه سريراً مؤلفاً من أخشاب مشدودة بالليف، كما جاء في بعض الروايات(٣٣).

كان بإمكان رسول الله (ص) أن يسكن في أفخم المباني ويقتني أفخر الأثاث، كما دعاه وجهاء الأنصار. ولكنه فضَّل أن يعيش عيشة بسيطة ليواسي أفقر أسرة في المجتمع. يريد الرسول (ص) أن يعطي الناس درساً بأن على قادة الأمم أن يبتعدوا عن التعالي والجبروت وأن متاع الدنيا مهما عظم فهو زائل. إنه نبي البشرية فلا بد وأن يواسي البائسين والضعفاء. لقد كان المضطهدون والمستضعفون من أبناء المجتمع المكي أول مَن آمن به لأنهم وجدوا في هذا الدين الخلاص من حياة العبودية، وجدوا فيه مبادىء لم يألفوها من قبل، فتمسكوا به وقدموا أرواحهم فداءً له. هاجر النبي إلى المدينة التي أصبحت المكان الجديد لنشر دين الله، والقاعدة التي أصبحت نواة لدولة النبوَّة التي خرجت منها جيوش الإسلام لا للجور ولا للنهب، ولكن للدفاع عن مجتمع هذه الدولة البكر وتحرير المجتمعات المجاورة من الظلم والجور والتسلط، وضمهم إلى مجتمع دولة النبوَّة التي قامت على مبادىء الحق والعدل والمساواة والحرية.

إلى هذا البيت المتواضع جاءت فاطمة بنت محمد (ص) من مكة لترى أباها بين أنصاره في يثرب مرفوع الرأس، يفدونه بأعز ما يملكون، ويتقاسمون مع المهاجرين كل ما يملكون من متاع الدنيا من مال وعقار، بل وحتى الزوجات. كان بعضهم

يتنازل عنهن لأخيه المسلم عن طيب خاطر(٣٤).

أراد النبي (ص) أن يثبت لمجتمع المدينة، بشكل خاص، والمجتمع العالمي في ذلك الوقت وفي العصور المتعاقبة، أن الدولة التي كان بصدد إنشائها هي دولة المحرومين والمستضعفين. وقد ترجم مبادىء تلك الدولة التي أراد إنشاءها بسيرته العظيمة التي تشتمل على أفعاله وأقواله. فأول مبنى قام بإنشائه، قبل أن يستقر بالمدينة، هو مسجد قبا قرب المدينة؛ حيث مكث فيها كما يروى أسبوعين ولم يغادرها إلا بعد مقدم علي والفواطم. وقد تفطرت قدماه، فاعتنقه النبي (ص) وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، فمسحهما من ريقه فلم يشكهما بعد ذلك(٣٥).

أما المسجد الثاني الذي بناه فهو المسجد النبوي المعروف ولم يشرع ببناء سكنه إلا بعد أن أتمّ بناء المسجد الذي شارك (ص) في بنائه مع المهاجرين والأنصار. من هنا تأتي أهمية المسجد في حياة مجتمع دولة النبوة، فهو مركز التجمّع العبادي والسياسي والاجتماعي والثقافي والعسكري، حيث تعلن منه قرارات الحرب والسلم. فهو مقر للحكم ومقر لمجتمع الدولة النبوية. إنه المقر الدائم للحاكمين والمحكومين. ومن هنا تأتي رسالة المسجد وأهميتها في دولة النبوة.

وحرصاً من النبي (ص) على وحدة مجتمع دولته الناشئة فقد آخى بين الأنصار ليزيل أحقاد الجاهلية والحروب التي نشأت بين الأوس والخزرج، كما آخى بين كل مهاجرٍ وأنصاري على الحق والمواساة. وكان الرسول (ص) قد آخى بين المسلمين في مكة قبل الهجرة إلى المدينة على الحق والمواساة بغية جمع كلمتهمْ ووحدتها، وقد اختصّ النبي (ص) علياً في المؤاخاة الأولى في مكة والثانية في المدينة(٣٦).

أثبت النبي (ص)، أنه رجل دولة، فها هو يجعل الحب والمؤاخاة بين المسلمين أساساً قوياً لبناء مجتمع دولته، فتسابق الأنصار يضحون بكل ما ملكت أيديهم لتوفير الراحة وإزالة وحشة الغربة عن إخوانهم في الدين ودولة الإيمان من المهاجرين فعاشوا أخوة متحابين؛ قال تعالى: ﴿.. **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**..﴾(٣٧) فالأخوّة في الدين كانت أهم الدعائم التي قام عليها مجتمع دولة النبوّة.

ها هي زهرة البيت النبوي تغادر مسقط رأسها ومكان أحلام طفولتها مكة، بعد أن لوّعتها الأيام عـذاباً وألماً ومرارة، نتيجة قسوة قريش ووقـوف رجالاتها بكل قوة في وجه والدها ليمنعوه من نشر دين الله. عاشت حياة قاسية بعد فراق أمها ورحيل أبي طـالب حامي حمى النبـوّة. كيف سيكـون مصير هذه الـزهـرة؟ هل تنصفها الأيـام وتعوّضها مرارة اليتم وإذلال القرشيين لوالدها وللمسلمين؟

عاشت فترة من الـزمن مع والدها، وابن عمهـا علي بن أبي طالب، في بيت أبي أيوب الأنصاري، بعد استقرارهم بالمدينة وقبل الانتقال إلى منزل والدها. استقبلت فاطمة الزهراء الحياة في المدينة بتفـاؤل منذ وطأت قدماها أرض المدينة. فكم كانت بهجتها عظيمة، حين تحرّك والدها بناقته من قبا وهي ترى حشد المسلمين حوله عن يمينـه وشماله حـاملين أسلحتهم. واستمر يخترق أحيـاء المدينـة حيث كان يـلاقي الاستقبال الحار من الأنصار ودعوة كل حي يمر به للإقامة عندهم، فكان يشكرهم على دعوتهم وحسن استقبالهم، وكان يقول لهم عند مروره بكل حي: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، يعني ناقته، حتى بركت على باب مسجده، وهو يومئذٍ مربد ليتيمين هما سهل وسهيل ابنـا عمـرو، فجعل النـاس يسألـون رسـول الله (ص) في النـزول عليهم، فاحتمل أبو أيوب الأنصاري رحله فوضعه في بيته، فقال رسول الله(ص): «المرء مع رحله»(٣٨).

ولما تم إنشاء بيت والدها انتقلت إليـه، مع ابن عمها علي بن أبي طالب للعيش في ذلك البيت المتواضع. وعاشوا عيشة بسيطة، ولكنها أحسّت بالعزة والطمأنينة. وقامت بأعبـاء بيت والدها خير قيـام قبل أن تلحق به زوجته سـودة بنت زمعة التي بقيت في مكة، وقبل زواجه بعائشة بنت أبي بكر.

أما بـالنسبة لـزواج فاطمـة الزهـراء (ع) فقد ورد أن أبـا بكر وعمـر خطباهـا إلى النبي(ص)، مرة بعد أخرى، فردهما. فمـرة يقول: إنها صغيرة، ومرة يقول: أنتظر بها أمر الله(٣٩).

روى ابن حجـر عن عبد الله بن بـريدة عن أبيـه قال: «خطب أبـو بكر وعمـر فـاطمـة، فقـال رسـول الله (ص): «إنها صغيرة»، فخطبهـا علي (ع) فـزوجهـا منه»(٤٠).

وورد في مناقب ابن شهر آشوب، عن ابـن عباس وعبد الله بن مسعود والبراء بن عازب وغيرهم، بصيغ مختلفة في تركيبها وألفاظها، وتتفق في مضامينها، أن أبا بكر وعمر بن الخطاب كـانا ممن خطب فاطمة من النبي بعـد أن استقر في المدينة، وألحّا عليه في الطلب فردهما بقوله: «إني أنتظر فيها أمر الله»(٤١). وكان علي بن أبي طالب قد بلغ سن الزواج فها هو قـد ذرف على العشرين حين وطأت قدماه المدينة. فلِمَ لم يتقدم لخطبة فاطمة الزهراء (ع)؟

يُروى، أن الأسباب، التي حالت دون خطبته لها الحياءُ والفقر. فشجعه نفر من الأنصار على خطبتها. فدخل على النبي (ص) يوماً فسلم عليه، وهو مطرق برأسه إلى الأرض من شدة الحيـاء. فسأله النبي (ص) بـرفق عن حاجته. فقـال: «ذكرتُ فاطمة يـا رسول الله»، ولم يزد على ذلك، فرد النبي بقوله: «مـرحباً وأهلاً». ثم ودّع رسول الله (ص) وخرج. وحين التقى بأصحابـه وأخبرهم برد رسول الله (ص) قالوا له: «لقد أجابك النبي إلى ما تريد»(٤٢).

وحينما التقى الرسول (ص) بـابنته، كما في رواية ابن سعد في طبقـاته، قال لها: «لقـد سألتُ ربي أن يـزوّجك خير خلقـه وأحبّهم إليـه، وقد عـرفت علياً وفضلـه ومـواقفـه، وجـاءني اليـوم خـاطبـاً فما تـرين؟ فأمسكت ولم تتكلم بشيء، فخـرج النبي(ص) وهو يقول: سكوتُها رضاها و إقرارها»(٤٣).

قبل تكملة مناقشـة زواج علي من فاطمة، هناك سؤالان يجدر طـرحهما والإجابة عليهما، وهما:

١ ـ ما مغزى استشارة النبي (ص) لابنته فاطمة في أمر زواجها؟

٢ ـ لماذا كان علي موضع موافقة لفاطمة؟

بـالنسبة للسـؤال الأول، فإن النبي (ص) يريـد أن يشرِّع للناس، نهجـاً يسيرون عليه، ويقتـدون به من خلال سنتـه. فعليّ ليس شخصاً غـريباً عنه بل هـو خرِّيج حجره، فقد التحق بـه منذ أن كان في السادسة من عمـره، حين أخذه من عمه أبي طـالب لتخفيف مسؤوليـة الأسرة عن كـاهلـه، فشخصية علي قـد صـاغها رسـول الله(ص)، ولكن أراد الـرسـول أن يعلم الأمـة الإسلاميـة بشكل خـاص والبشريـة

بشكل عام أن الإسلام يحترم المرأة ويحافظ على كرامتها، وأنها هي صاحبة القرار في اختيار زوجها وليس لأي فرد من أسرتها قهرها كما كان عليه الحال في الجاهلية.

أما بالنسبة للجواب على السؤال الثاني فإن موافقة الزهراء على علي تعود لأسباب عديدة، وهي:

١ ـ عاش علي (ع) منذ سن السادسة من عمره في رعاية النبي (ص) وخديجة زوجته. ومنذ أن ولدت فاطمة الزهراء في مكة وحتى هجرتها إلى المدينة تعوّدت أن ترى علياً منذ طفولته حتى أصبح شاباً في مقتبل العمر فتعمقت وشائج القربى ومشاعر الود على مر الأيام، وها هي الآن تتوّج بالزواج.

٢ ـ إن فاطمة الزهراء عاشت مع علي تجربة أدائه للمهام الكبرى التي أناطها به الرسول (ص) بعد هجرته، وهي المبيت على الفراش ليلة الهجرة فادياً له بروحه ومعرضاً نفسه للخطر، ونائباً عنه (ص) في رد الودائع والأمانات إلى أصحابها، ثم إلحاقه الهزيمة بعصابة قريش التي لحقتهم وروعتهم خلال خروجهم من مكة. لقد شاهدت علياً وهو يبارز أفراد العصابة بنفسه ليس معه ظهير إلا إيمانه القوي بالله. وكان يحاربهم وهو راجل فكان يقول خلال حملته عليهم:

خلّو سبيل الجاهد المجاهد آليت لا أعبُدُ غير الواحد

حتى تفرق القوم ووصل عليٌّ والفواطمُ إلى المدينة سالمين. ولا شك في أن فاطمة الزهراء لا تنسى تلك المواقف البطولية لابن عمها علي (ع).

٣ ـ وفي المدينة سمعت عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وأن والدها اختص علياً بمؤاخاته فلا شك في أن ذلك زادها تعلقاً بعلي.

٤ ـ إضافة إلى هذا وذاك فإن علياً هو أول مَن آمن بأبيها بعد والدتها خديجة، ووقف لمناصرته هو ووالده للدفاع عن الرسول ودعوته الإلهية.

٥ ـ رابطة القربى التي تجمعها به تضيف حقاً لابن عمها عليها. أما بالنسبة للرسول (ص) فقد اختاره له أخاً ووصياً منذ تبليغه الدعوة لعشيرته تنفيذاً لأمر الله تعالى بقوله: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾(٤٤) واتخذه أخاً له حينما آخى بين المسلمين

المؤاخاة الأولى في مكة قبل الهجرة، وفي المؤاخاة الثانية بعد الهجرة[٤٥].

فالتقت خيرة كل من الأب والزوج والزوجة لهذا الزواج. ولذلك قال النبي(ص): «لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ»[٤٦].

وجاء، في كشف الغمة، عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «لولا أن الله خلق أمير المؤمنين ما كان لفاطمة كفؤ على وجه الأرض»[٤٧].

وفي شأن زواج علي من فاطمة روى ابن حجر قال: «أخرج الطبراني عن ابن مسعود أن النبي (ص) قال: «إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أزوِّج فاطمة من علي»[٤٨]. فيأتي هذا الزواج بأمر إلهي لمكانة الزوجين عند الله وما لتضحياتهما من أثر كبير في سبيل نشر الدين وتوطيد أركانه».

ويبرر الرسول (ص) لابنته سبب اختياره لعلي (ع) زوجاً لها، كما ورد في الاستيعاب لابن عبد البر، بقوله لها: «لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة. وإنه لأول أصحابي إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً»[٤٩].

فالرسول (ص) يعدِّد لابنته مزايا علي التي جعلته يختاره بعلاً لها وهو يتصرَّف، في هذا المقام، بمكانة الأب والصديق، فيوضح لها تاريخ حياته لتكون على بيِّنة. إنه درس للآباء عبر الزمان من خلال تعامله مع زهرة النبوَّة بل زهرة دولة النبوَّة وزهرة البشرية جمعاء.

وعلاوة على كفاءة عليٍ وأهليته لزهرة النبوَّة: خلقاً وإيماناً وشجاعة فإنّ رسول الله(ص) لم ينسَ بعد كفالة أبي طالب له منذ أن رحل جده عبد المطلب إلى الدار الآخرة، والنبي في سن الثامنة من عمره الشريف، وبقي في كفالته وحمايته حتى السنة العاشرة لبعثته المباركة مدة اثنتين وأربعين سنة تقريباً يخصه بحبّه العظيم دون أبنائه ويحيطه برعايته ويذود عنه ويفديه بكل ما يملك حتى فارق الحياة، فكان الأب والصديق وحامي حمى النبوَّة. وكان أبو طالب شديد الحرص على سلامته منذ طفولته لشدة حبّه له ولوالده عبد الله، فكان يضحّي بعلي في سبيل سلامته. حكى ابن أبي الحديد، في شرح النهج، عن أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب، أن أبا طالب كثيراً ما كان يخاف على رسول الله (ص) البيات فكان يقيمه ليلاً من منامه،

ويضجع ابنه علياً مكانه. فقال له علي ليلة: يا أبة، إني مقتول. فقال له أبو طالب[٥٠]:

اصبرن يا بني فالصبر أحجى	كل حي مصيره لشعوب
قد بذلناك والبلاء شديد	لفداء الحبيب وابن الحبيب
لفداء الأغر ذي الحسب الثا	قب والباع والكريم النجيب
إن تصبك المنون فالنبل تبري	فمصيب منها وغير مصيب
كل حي وإن تملي بعمر	آخذ من مذاقها بنصيب

وكما كان أبو طالب حصناً منيعاً للنبي (ص)، كذلك كانت زوجته فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب، فقد تولّت دور الأم لرسول الله (ص) بعد وفاة أمه آمنة بنت وهب وهو في سن السادسة. فكانت تبرُّهُ على سائر بنيها. كان أولادها يصبحون شعثاً رمضاً ويصبح رسول الله (ص) كحيلاً دهيناً[٥١]. روى الحاكم في المستدرك بسنده، «أنها كانت بمحل عظيم من الإيمان في عهد رسول الله (ص)»[٥٢]. وكانت من السابقات إلى الإسلام. ولذلك لم ينس الرسول (ص) فضلها في تربيته وسبقها إلى الإسلام. فقام بتكفينها، يوم وفاتها في المدينة، بقميصه وأمر مَن يحفر قبرها. فلما بلغوا لحدها حفره بيده واضطجع فيه وقال: «اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسِّع عليها مدخلها» فقيل: «يا رسول الله، رأيناك صنعت شيئاً لم تكن تصنعه بأحد قبلها». فقال: «ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة» أو قال هو أمان لها يوم القيامة أو قال ليدرأ عنها هوام الأرض واضطجعت في قبرها ليوسعه الله عليها وتأمن ضغطة القبر. إنها كانت من أحسن خلق الله صنعاً إليّ بعد أبي طالب»[٥٣]. إذا كان أبو طالب وفاطمة بنت أسد بن هاشم قد أبليا بلاءً عظيماً في تربية رسول الله (ص) ورعايته وحمايته وتفضيله على أبنائهما: طالب وعقيل وجعفر وعلي وأختهما أمّ هاني (فاختة) فإنّ رسول الله (ص) هو رمز الوفاء، فها هو يعبر عن ذلك الحب وتلك التضحيات بالأقوال والأفعال لتعريف الأجيال المتعاقبة من المسلمين بدورهما العظيم في خدمة الرسالة وصاحبها. وها هو يوطّد تلك الوشائج ويتوّجها بزواج زهرة البيت النبوي من علي الذي أصبح

آيةً من آيات النبوّة كما أصبح هو وأبناؤه الأئمة ورثة علمه وأوصياءَهُ في دولته العظيمة . لهذه الأسباب مجتمعة كانت موافقة كل من النبي (ص) والزهراء على هذا الزواج الميمون .

فالزهراء وعلي كلاهما صيغت شخصيته في بيت النبوّة تحت ظل سقف واحد ورعاية وحنو وعطف الزوجين العظيمين النبي (ص) وخديجة . إنه زواج الند للند . وستتّضح نتائج تلك التربية الرسالية في حياتهما الزوجية التي أصبحت نموذجاً تفتخر دولة النبوّة بأن تقدّمه رمزاً لأجيال البشرية المتعاقبة لتضحيات الأسرة المؤمنة في سبيل الدين ومواساة المحرومين بل وإيثارهم على أنفسهم لقوله تعالى : ﴿ . . . ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . . . ﴾(٥٤).

وبالنسبة لتاريخ زواج علي من فاطمة يروى أن النبي زوَّجه بها بعد مقدمه المدينة بخمسة أشهر في دار أبي أيوب الأنصاري إذ أن النبي لم يكن يملك بيتاً وكذلك علي ، فاقتصر الزواج على العقد ودخل بها بعد خروجه من دار أبي أيوب وانتقاله إلى سكنه الخاص ، حيث أن الدخول قد تمّ بعد معركة بدر كما يذكر الطبري(٥٥). وكان علي فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً حينما أقدم على الزواج ؛ حيث كان نموذجاً صادقاً للنبي (ص) فلم يرث مالاً من والده الذي كان على الرغم من علو منزلته في قومه إلا أنه كان يعيش عيشة تقشّف . لذا فلم يكن لعلي مال لا عن طريق تجارة ولا عن طريق إرث . ولم يكن يملك غير فرسه ودرعه . فباع درعه لعثمان بن عفان بأربعمئة وسبعين درهماً فحملها جميعها ووضعها بين يدي رسول الله (ص) ، فقبض النبي (ص) منها قبضة ودفعها إلى بلال وقال له : ابتع لفاطمة طيباً وقبض قبضة خصّصها لمتاع البيت . ثم قبض منها مبلغاً ودفعه لأبي بكر وعمار وطلب منهما شراء ما يصلحها من ثياب وأثاث للبيت ، والباقي من المهر دفعه إلى أم سلمة وقال أبقيه عندك(٥٦). بهذه الروح الأسرية البسيطة كان يتعامل رسول الله (ص) مع أصحابه يشركهم في خصوصياته لخلق الألفة والمحبة بين قمة الدولة النبوية وقاعدتها . وقد حضر عقد النكاح كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار. وقال النبي (ص) في خطبة النكاح :

«الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع بسلطانه ، المرهوب من

عذابه، المرغوبُ إليه فيما عنده، النافذ أمره في أرضه وسمائه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميَّزهم بأحكامه، وأعزَّهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد (ص). ثم إن الله جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأمراً مفترضاً وشج بها الأرحام وألزمها الأنام فقال تبارك اسمه وتعالى جده: **﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾** ثم إن الله أمرني أن أُزوّج فاطمة من علي وإني أشهد أني قد زوّجتها على أربعمئة مثقال فضة أرضيت قال: قد رضيت يا رسول الله ثم خر ساجداً. فقال رسول الله (ص): بارك الله عليكما وبارك فيكما وأسعد جدكما وجمع بينكما وأخرج منكما الكثير الطيب»(٥٧).

قال أنس بن مالك: «والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب»(٥٨).

وبعد أن فرغ رسول الله (ص) من إلقاء خطبته ألقى علي الخطبة التالية:

«الحمد لله الذي قرب حامديه، ودنا من سائليه، ووعد الجنة مَن يتّقيه، وأنذر بالنار مَن يعصيه، نحمده على قديم إحسانه وأياديه، حمد مَن يعلم أنه خالقه وباريه، ومميته ومحييه، وسائله عن مساويه، ونستعينه ونستهديه، ونُؤمن به ونستكفيه، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، شهادة تبلغه وترضيه، وأن محمداً عبده ورسوله (ص)، تزلفه وتحظيه، وترفعه وتصطفيه، وهذا رسول الله(ص) زوَّجني ابنته فاطمة على خمسمئة درهم، فاسألوه واشهدوا».

قال رسول الله (ص): «قد زوَّجتك ابنتي فاطمة على ما زوَّجك الرحمٰن، وقد رضيتُ بما رضي الله، فنعم الختن أنت، ونعم الصاحب أنت، وكفاك برضى الله رضىً».

ثم أمر النبي (ص) بطبق تمر وأمر بنهبه(٥٩).

أبرز الرسول (ص) لأصحابه، خلال عقد القران مكانة الزوجين عنده وعند الله من ناحية والمهر المتواضع الذي أراد للأمة الإسلامية أن تقتدي به ولا تبالغ فيه. وبيَّن أن المبالغة في المهور خروج على سنة الرسول (ص) وعقبة من العقبات التي يعاني منها الشباب في المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر وتؤدي لتأخير زواجهم.

وتكـوَّن جهاز الـزهـراء من قميص بسبعة دراهـم، وخمار بأربعة دراهم وقطيفـة سوداء خيبريـة (دثار له خمل)، وسريـر مزمل (ملفوف) بشريط (خـوص مفتول)، وفراشين من خيش مصر (وهو مشـاقة الكنان) حشو أحـدهما ليف، وحشو الآخر من صوف الغنم. وأربع مـرافق (متكآت) من أدم الطـائف (الجلد) حشوهـا أذخر (نبات طيب الرائحة)، وستر رقيق من صوف، وحصير هجري[٦٠]، ورحى لليد، ومخضب من نحاس (إنـاء لغسل الثياب)، وسقاء من أدم (قـربة صغيرة)، وقعب (قدح من خشب) للبن، وشن للماء (قربة صغيرة عتيقة لتبريد الماء)، ومطهرة (إناء يطهر به) مـرفقة، وجرَّة خضراء، وكيزان خـزف، ونطع من أدم (بساط من جلد)، وعباءة قطوانية[٦١]، وقربـة للماء. فلما وضع ذلك الجهاز بين يديه جعل يقلبـه بيده وبكى وقال: «اللهم بارك لقوم جُلّ آنيتهم الخزف»[٦٢]. أما تجهيز علي لبيته وتأثيثه فقد اشتمل على: رمل لين ونصب خشبـة من حائط إلى حـائط وبسط أهاب كبش ومخدة ليف وقربة ومنخل ومنشفة وقدح[٦٣]. وهكذا كان جهاز الزوجة وأثاث بيت الزوجية.

روى الطبري عن أسماء بنت عميس قـالت: «لقد جهـزت فـاطمة بنت رسـول الله(ص) إلى علي بن أبي طالب وما كان حشو فرشهما ووسائدهما إلا ليفاً»[٦٤]. وقد أكّد علي على ذلك الجهـاز بقولـه: «جهز رسـول الله (ص) فاطمـة في خميلة وقـربة ووسادة من أدم حشوها ليف»[٦٥].

وقال علي أيضاً: «لقد تزوجتُ فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلفُ عليه الناضح[٦٦] بالنهار وما لي ولها خادم غيرها»[٦٧].

وروى الطبري أيضـاً عن أبي بكر بن فـارس عن جـابر قـال: «كان فـراش علي وفاطمة ليلة عرسها إهاب كبش»[٦٨].

بهذا البيت المتواضع بنى علي بـزوجته الزهراء بعـد معركة بدر التي هـزم الله فيها فلـول الشرك على يـد جيش دولـة النبـوَّة وكان عليٌّ في مقـدمـة أبطـال تلك الغـزوة الحاسمة. فكـانت معركة بدر في الشهـر التاسع عشر للهجرة يـوم السابع عشر من رمضان أما علي فبنـى بزوجته في ذي الحجة في الشهر الثـاني والعشرين من الهجرة،

وسنّه يومئذٍ إحدى وعشرون سنة وخمسة أو ستة أشهر وعمر فاطمة خمس عشرة سنة وخمسة أو ستة أشهر كما يذكر ذلك الطبري. كانت فرحة البيت النبوي بزواج علي وفاطمة في غمرة أفراح المسلمين بالانتصار على قريش الذين لحقت بهم هزيمة منكرة واستجاب الله لدعاء النبي (ص) حينما دعا عليهم يوم أن وضع عليه عقبة إبن أبي معيط سلا الجزور وهو يصلي ساجداً عند الكعبة كما مرّ ذكره. وألقى أولئك النفر الذين سخروا برسول الله (ص) في بئر بدر. وقد رثاهم شاعرهم بالأبيات التالية(٦٩):

فماذا بالقليب قليب بدر ... من الفتيان والقوم الكرام

وماذا بالقليب قليب بدر ... من الشيزى تكلل بالسنام

أيخبرنا ابن كبشة أن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام

إذا ما الرأس زال بمنكبيه ... فقد شبع الأنيسُ من الطعام

أيقتلني إذا ما كنتُ حياً ... ويحييني إذا رمت عظامي

الشاعر هنا يرثي قتلى المشركين الذين ألقى بهم في بئر بدر كما يسخر من الرسول(ص) والمسلمين وإيمانهم بالبعث والحساب بعد الموت.

ها هي فاطمة الزهراء التي شهدت يوم استهزاء قريش بأبيها تعيش فرحتين فرحة والدها ومجتمع الدولة البكر وإعزاز الله لدينه وفرحة زواجها بابن عمها علي أفضل رجل بعد أبيها وهو الذي أثبت وفاءه لرسول الله (ص) وتفانيه في سبيل الله في مواقف عديدة: المبيت على الفراش ليلة الهجرة، وذوده عن الفواطم يوم الهجرة وقتاله المرير يوم بدر. إذا كان أبو طالب حامي حمى الإسلام قبل الهجرة، فها هو بعلها اليوم يثبت في أول مواجهة عسكرية مع كفار قريش أنه حامي حمى الإسلام بعد الهجرة. لقد تزوجت فاطمة فخر الرجال: أخلاقاً وعلماً وشجاعة فدونه يهون كل متاع.

وفي يوم زواج علي من فاطمة أقام المسلمون من المهاجرين والأنصار حفلاً كبيراً، فأقيمت وليمة تبرع لها المهاجرون والأنصار بالبر والسمن والبقر والغنم فتمّ عمل

وجبة شهية من الخبز واللحم وهي الشريد، حضرها أربعة آلاف رجل وجميع نساء المدينة، وعمّت الأفراح بني هاشم وجميع المسلمين فكانت أفراح المدينة بأسرها(٧٠).

وليلة الزفاف أمر النبي ببغلته الشهباء وثنى عليها قطيفة وقال لفاطمة اركبي فأركبها وأمر سلمان الفارسي أن يقودها ومشى (ص) خلفها ومعه عمه الحمزة وبنو هاشم شاهرين سيوفهم. ونساءُ النبي (ص) وبنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار في صحبة فاطمة يرجزن ويكبرن ويحمدن كما أمرهن الرسول (ص). ثم إن النبي (ص) بعث إلى علي ثمّ هتف بفاطمة، فأخذ علياً بيمينه وفاطمة بشماله وضمهما إلى صدره فقبل بين أعينهما وأخذ بيد فاطمة فوضعها في يد علي وقال: «بارك الله لك في ابنة رسول الله». وقال: «يا علي، نعم الزوجة زوجتك، وقال: يا فاطمة نعم البعل بعلك» ثم قال لهما: «إذهبا إلى بيتكما جمع الله بينكما وأصلح بالكما». وقام يمشي بينهما حتى أدخلهما بيتهما. وقال: لا تهيّجا شيئاً حتى آتيكما وجلس علي في البيت وفيه أمهات المؤمنين يفصلهن حجاب عن علي. وجلست فاطمة مع النساء حتى قدم رسول الله (ص). ثم أتي له بإناء فيه ماء فملأ فاه ثم مجه فيه. ثم قال: «إنهما مني وأنا منهما اللهم كما أذهبت عني الرجس وطهرتني تطهيراً فطهرهما». ثم أمرها أن تشرب منه وتتمضمض وتستنشق وتتوضأ ثم دعا بإناء آخر وصنع كالأول. وقال: اللهم إنهما أحب الخلق إليّ فأحبهما وبارك في ذريّتهما واجعل عليهما منك حافظاً وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم، ودعا لفاطمة فقال: «أذهب الله عنك الرجس وطهرك تطهيراً». وقال: «مرحباً ببحرين يلتقيان ونجمين يقترنان». وقال: «اللهم إن هذه ابنتي وأحبُّ الخلق إليّ، وهذا أخي وأحب الخلق إليّ اللهم اجعله لك ولياً وبك حفياً وبارك له في أهله»، ثم قال: «يا علي ادخل بأهلك بارك الله تعالى لك ورحمة الله وبركاته عليكم إنه حميد مجيد». ثم خرج من عندهما فأخذ بعضادتي الباب فقال: «طهركما الله وطهر نسلكما أنا سلم لمن سالمكما وحرب لمن حاربكما أستودعكما الله وأستخلفه عليكما». ثم أغلق عليهما الباب بيده ولم يزل يدعو حتى توارى في حجرته ولم يشرك معهما أحداً في الدعاء(٧١). إن علياً وفاطمة هما شمّامتاه من نصيريه أبي طالب وخديجة، إن دعاءه

يترجم ويعبر عن حبه الكبير للزوجين والوفاء العظيم للنصيرين اللذين نذرا نفسيهما لخدمة الإسـلام. ها هو رمـز الخلق العظيم كما وصفه الله في محكم كتـابه يسجل لله وللتاريخ حبه ووفاءه. إنه يضع للبشرية سنة في صيانة العهود وحفظ الجميل. وفي الوقت نفسه فإنـه قد أوضح لمجتمع دولة النبوة في عهـده وللأجيال المتعاقبـة مكانة هذيـن الزوجين وذريتهما عنـده وعند الله لما سيحملانـه من مسـؤولية تجاه الله وتجاه الأمة.

٤ ـ حياتها الزوجية وتضحياتها:

ها هي الطفلة النحيلـة التي خلفتها خديجة يتيمة بيت النبـوَّة تصبح زوجة بطل دولة النبوَّة، ذخيرتها الإيمان العميق بـالله ورسوله، وبما جاء بـه من شريعة سمحاء لهدايـة البشرية، وكـذلك أخلاقهـا الفاضلـة وسلاحهـا الصبر لمواجهة مصـاعب الحياة، حيث كان لتجربتها القصيرة في مكة أثر كبير في نفسها؛ إذ كانت كلها مليئة بالمتـاعب والآلام. لم تجلب فاطمـة الزهـراء معها إلى بيت الـزوجية الحقـائب المليئة بالملابس الفاخـرة، أو المجوهرات الثمينة، أو صكـوك العقارات والأموال الكثيرة، وإنما جلبت معهـا خلاصـة خبرتها القصيرة في حياة كلهـا غبن واضطهاد. جـاءت وذهنها مليء بأحاديث والدهـا ونصائحه وتوجيهاته التي كـانت نعم الزاد لها لتنوير طريقها وتمكينها من التعامل مع مختلف الظروف الحيـاتية. جاءت وهي تتذكر قول رسول الله (ص) لها: «يا فاطمة اصبري على مرارة الدنيا لتفوزي بنعيم الآخرة»(٧٢).

ولم تكن تستشرف بنظـرها إلى مـا ليس من حقهـا، أو تنـزل إلى سؤال أحـد غير ربها، بل كانت غنية بنفسها قانعة بما قسم الله لها، لأنها سمعت أباها يقول: «ليس الغنى كثرة المال إنما الغنى غنى النفس»(٧٣).

ولم تكن تحفل بزخارف الحياة وزينتها لأنها سمعت أباها يقول: «مَن أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمـره وجعل فقره بين عينيه ولم يُؤته من الدنيـا إلا ما كُتِبَ له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله لهُ همه وحفظ عليه ضيعتـه وجعل غناهُ في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»(٧٤). وقال يوماً لعلي وفاطمـة تسمعه: «يا علي، مَن عُرضت له دنياه وآخرته فاختـار الآخرة على الدنيا فله الجنة ومَن اختار الدنيا استخفـافاً بآخرته

فله النار»(٧٥). وسمعت أباها يقول ذات يوم: «إن ربي عز وجل عرض عليَّ أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلتُ: لا يا رب، ولكن أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً فأما اليوم الذي أجوعُ فيه فأتضرَّعُ إليك وأما اليوم الذي أشبعُ فيه فأحمدُ وأثني عليك»(٧٦).

وروت عن أبيها أنه قال: «إن الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه، فإن صبر احتباه وإن رضي اصطفاه»(٧٧). وروت عنه أيضاً أنه قال: «إنّ الله أوحى إلى موسى بن عمران وقال له: أنا أعلم بما يُصلح عبدي المؤمن فليصبرن على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرضَ بقضائي أكتبه في الصدِّيقين عندي»(٧٨).

أحاديث والدها الشريفة وتجربتها القاسية جعلت الصبر من أبرز الصفات التي تحلّت بها، كما تعلمت من والدها السخاء لأنها سمعته (ص) يقول: «السخاء شجرة من أشجار الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة بعيداً عن النار. وإن الله جواد يحب الجواد»(٧٩).

وسمعت زوجها الإمام علياً (ع) يقول: «من يبسط يده بالمعروف، إذا وجده، يخلف الله له ما أنفق في دنياه ويضاعف له آخرته»(٨٠). وروى الإمام الحسين (ع) عن أمه الزهراء عليها السلام أنها قالت: قال لي أبي رسول الله: إياك والبخل فإنه عاهة لا تكون في كريم، إياك والبخل فإنه شجرة في النار وأغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخله النار»(٨١).

وتتأصّل فيها صفات البيت النبوي يوماً بعد يوم، فقد تعلمت الكثير خلال طفولتها حينما كانت تنعم بدفء الحياة مع الأبوين، ولكنها لا تزال تكتسب الكثير من العبرمن سيرة والدها العظيم وسداد رأي زوجها علي. روى الطبري عن أسماء بنت عميس أنها كانت عند فاطمة إذ دخل عليها النبي (ص) وفي عُنُقها قلادة من ذهب أتى بها علي بن أبي طالب(ع) من سهم صار إليه فقال لها: «يا بُنية لا تغترّي بقول الناس فاطمة بنت محمد وعليك لباس الجبابرة». فقطعتها لساعتها، وباعتها ليومها، واشترت بالثمن رقبة مؤمنة فأعتقتها، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فسر بعتقها وبارك عليها» (٨٢).

هذه هي فاطمة بنت رسول الله الزوجة التي حملت أعباء الحياة الزوجية، وزيّنت بيتها وجملته بذكر الله وعبادته كما زينت نفسها بأجمل الصفات الحميدة بالتواضع والزهد والصبر والجود، إلى جانب إيمانها العظيم ومعرفتها الحقيقية العميقة بشرائع الدين والقرآن والحديث. بهذه الذخيرة تولّت إدارة بيتها وتولّت استقبال الأولاد وتربيتهم تربية صارت حديث الأجيال وفخراً لدولة النبوَّة. حيث كان أولادها مصدر فرح وسرور وافتخار للنبي محمد (ص) طوال حياته الميمونة، كما عبر عن ذلك في أحاديثه الشريفة في عدة مواقف. وتخرّج من حجر هذه المرأة العظيمة رجال فرض الله ورسوله محبتهم واتباع سيرتهم بل والتمسّك بهم لعمق إيمانهم وقوته وغزارة علمهم وسمو أخلاقهم وتضحياتهم في سبيل الله وصاروا أعلم المسلمين جميعاً بتفسير كتاب الله وسنة رسوله (ص). كما سيتضح لاحقاً من خلال تأكيدات رسول الله (ص) في مواقف وأحاديث عديدة. كما أن المكانة العظيمة التي نالها آل محمد لم تكن لصلتهم برسول الله (ص) فحسب ولكن لسيرتهم الطاهرة ونكران ذاتهم في سبيل الله.

كان الإمام علي (ع) يساعد الزهراء في قضاء أعمال البيت ما أمكنه ذلك مقتفياً سيرة رسول الله (ص) مع أم المؤمنين الأولى خديجة. وكان يتألم حينما يرى آثار الرحى في يدي فاطمة الزهراء الناعمتين لأنه لم يكن يملك المال ليستأجر لها من يخدمها ويخفّف عنها أعباء المنزل. روى الطبري عن علي أنه قال لابن أم عبد: «ألا أحدِّثك عني وعن فاطمة بنت رسول الله (ص) وكانت أحب أهله إليه وكان عندي فجرَّت بالرحا حتى أثَّرت في يدها واستقت بالقربة حتى أثَّرت في نحرها وقمَّت البيت حتى اغبرت ثيابها وأصابها من ذلك ضرر فسمعنا أن رقيقاً أُتي بهم إلى النبي (ص) فقُلتُ لو أتيت أباكِ فسألته خادماً يكفيكِ فأتته فوجدت عنده حدَّاثاً (جماعة يتحدّثون) فاستحت فرجعت. فغدا علينا ونحن في لفاعنا (لحافنا) فجلس عند رأسها فأدخلت رأسها في اللفاع حياءً من أبيها، فقال: ما كان حاجتك إلى محمد فسكتت مرتين. فقُلتُ أنا والله أُحدِّثُك يا رسول الله، إنّ هذه جرَّت عندي بالرحا حتى أثرت في يدها واستقت بالقِربة حتى أثَّرت في نحرها وقمَّت البيت حتى اغبرَّت ثيابها وأوقدت القدر حتى دكنت (اتسخت واغبر لونها) ثيابها وبلغنا أنه أتاك رقيق وخدم فقُلتُ لها سليه خادماً، فقال: ألا أدلُّكما على خير مما سألتما إذا أخذتما مضاجعكما

فكبرا ثلاثـاً وثلاثين وسبحا ثـلاثاً وثـلاثين واحمدا ثلاثاً وثـلاثين فهو خير لكما من خادم يخدمكما» (٨٣).

وروى الطبري عن عطاء قـال: «إن كانت فـاطمة لتعجن وإن قصَّتهـا (خصلة من الشعر) تكـاد تضربُ الجفنة» (٨٤) (القـدر). وروي عن الإمام الصـادق (ع) أن علياً كـان يحطب ويستسقي ويكنس، وكانت الـزهراء تطحن وتعجن وتخبـز وترقع (٨٥). وروى الطبري أيضاً عن أنس: «أن بلالاً أبطأ عن صلاة الصبح فقال له النبي (ص): ما حسبك؟ قال مـررت بفاطمة تطحن والصبيُّ يبكي فقُلتُ لها: إن شئت كفيتُك الرحـا وكفيتني الصبي وإن شئتِ كفيتُك الصبي وكفيتني الرحـا. فقالت: أنـا أرفق بابني منك فـذاك الذي حبسني. قـال: فرحمتهـا رحمك الله» (٨٦). وروى الـذهبي عن أبي البختري قال: قـال علي لأمـة: «اكفي فاطمـة الخدمـة خارجـا وتكفيك هي العمل في البيت، والعجن والخبز والطحن» (٨٧).

هذا هو نمـوذج الحياة الذي اختارتـه فاطمة الزهـراء وعاشت قانعـة قريرة العين طالما أنها ضمنـت سعادة زوجها وبنيهـا وكذلك رضـا الله ووالدهـا فمن أجل ذلك تهون كل آلامها ومعاناتها. ولم يقتصر الأمرفي معاناتها على التعب الجسمي إنما تعدّى ذلك إلى لقمـة العيش التـي لم تكن تتـوفّـر بشكل دائم، ومع ذلك فقـد عـاشت راضية. روى الطبري عن أسماء بنت عميس عن فاطمة بنت رسول الله (ص): «أن رسول الله (ص) أتـاها يـوماً فقال: أين ابنـاي يعني حسناً وحسينـاً؟ قالت: قلتُ أصبحنا وليس في بيتنا شيء يذوقـه ذائق فقال علي: أذهب بهما فإني أتخوّف أن يبكيا عليك وليس عندكِ شيء. فذهب بهما إلى فلان اليهودي. فوجّه إليه رسول الله(ص) فوجدهما يلعبان في مشربة (غـرفة) بين أيديهما فضل من تمر فقال: يا علي ألا تقلب ابني (تراجعهما) قبل أن يشتد الحر عليهما؟ قال: فقال علي: أصبحنا وليس في بيتنا شيء فلو جلست يارسول الله حتى أجمع لفاطمة تمرات فجلس رسول الله (ص) وهو ينزع لليهودي كل دلو بتمرة حتى اجتمع له شيء من تمر فجعله في حجزته. ثم أقبل فحمل رسولُ الله (ص) أحدهما وحمل علي الآخر عليهم السلام (٨٨).

هذا هو نبيُّ الأمة وقائدها ومبلِّغ رسـالة السماء إلى البشرية يراقب عن كثب حياة الأسرة التي أعـرضت عن الدنيـا ومفاتنهـا لتكون أهـلاً للتربية النمـوذجية لـلأمة، ولتكون أهلاً للقيادة والنموذج لدولـة النبوّة بعد النبي (ص)، ولتكون نبراساً يقتدي بسيرتها المؤمنون والمحرومون والمستضعفون من أجيال البشرية وعبر تعاقب العصور.

كـانت هذه الأسرة كلهـا تضحيـات. فكأنّما الله ورسـوله أراد لهذه الأسرة أن تكـون نموذجاً لحيـاة الأسرة وبنائها في دولة النبوّة. كأن الرسـول (ص) يخاطب نساء العالم من خلال حواره مع فاطمة بشأن تحمل أعباء الحيـاة والاستعاضة عن الخادمة بذكر الله، وكأنه (ص) يخاطب الزوجين، في كل زمان، بتربيـة أبنائهم على بساطة العيش والبعد عن الترف. وها هما الحسنان يتحمّلان حياة الكفاف برضا ويتعوّدان القناعة في العيش بأبسط الأشياء مقتفين سيرة جدهما ووالديهما.

روى الطبري عن أبي سعيـد قـال: «قـال [كذا] علي (ع) ذات يـوم فقـال: يـا فاطمـة، هل عندك من شيء تغدينه؟ قـالت: لا والذي أكرم أبي بالنُّبـوَّة ما أصبح عندي شيء أغديكه ولا أكلنا بعدك شيئاً ولا كان لنا شيء بعدك منذ يومين إلا شيء أوثرك بـه على بطني وعلى ابني هذين. قـال: يا فاطمـة ألا أعلمتيني حتى أبغيكم شيئاً؟ قـالت: إني أستحي من الله أن أُكلّفك ما لا تقـدر عليه. فخرج من عنـدها واثقاً بالله، حسن الظن به، فاستقرض ديناراً. فبينما الدينار في يده أراد أن يبتاع لهم ما يصلحُ لهم إذ عرض له المقداد في يـوم شديد الحر قد لوَّحته(٨٩) الشمس من فوقه وآذته من تحته. فلما رآه أنكـره فقال: يا مقداد ما أزعجك من رحلك هـذه الساعة؟ قال: يـا أبا الحسن، خلّ سبيلي ولا تسألني عما ورائي. وقال: يـا ابن أخي، إنه لا يحلُّ لك أن تكتمني حـالك. قال: أمـا إذا أبيت فـوالذي أكـرم محمداً بـالنبوَّة مـا أزعجني من رحلي إلا الجهـد، ولقد تـركت أهلي يبكون جـوعاً. فلما سمعتُ بكـاء العيـال لم تحملني الأرض فخرجتُ مغمـوراً، راكبـاً رأسي، فهذه حـالتي وقصتي، فهملت عينا علي بالبكـاء حتى بلّت دموعه لحيته. ثم قـال: أحلف بالذي حلفت به ما أزعجني غير الذي أزعجك، ولقد اقترضتُ دينَاراً فهاك: وأؤثرك به على نفسي فدفع لـه الدينار ورجع حتى دخل على النبي (ص) فصلى الظهـر والعصر والمغرب فلما قضى النبي (ص) صـلاة المغرب مـر بعلي في الصف الأول فغمزه بـرجله فسـار خلف النبي (ص) حتى لحقـه عند بـابَ المسجد ثم قـال يا أبا حسن، هـل عندك شيء تعشينا بـه؟ فأطرق عليٌّ ولم يحر جوابـاً حياءً من النبي (ص). قـد عرف الحال الـذي خرج عليهـا. فقال لـه النبي (ص): إما أن تقـول لا فننصرف عنك أو نعم فنجيء معك. فقـال له: حبـاً وتكريماً فاذهـب بنا، وكأن الله سبحـانه وتعـالى قد

أوحى إلى نبيه (ص) أن تعشَّى عندهم، فأخذ النبي (ص) بيده فانطلقا حتى دخلا على فاطمة (ع) في مصلاَّها وخلفها جفنة تفور دُخانا. فلما سمعت كلام النبي(ص) خرجت من المصلى فسلمت عليه وكانت أعزّ الناس عليه فردَّ عليها السلام، ومسح على رأسها، وقال: كيف أمسيت؟ عشيّنا غفر الله لك، وقد فعل. فأخذت الجفنة فوضعتها بين يديه. فلمّا نظر علي وشم ريحه رمى فاطمة ببصره رميا شحيحا[٩٠] فقالت: ما أشحَّ نظرك وأشده! سبحان الله هل أذنبت فيما بيني وبينك ما أستوجِبُ به السخطة؟ قال: وأيُّ ذنب أعظم من ذنب أصبته اليوم؟ أليس عهدي بكِ اليوم وأنتِ تحلفين بالله مجتهدة ما طعمتِ طعاما يومين؟ فنظرت إلى السماء فقالت: إلهي يعلمِ ما في سمائه ويعلم ما في أرضه، إني لم أقل إلاَّ حقاً. قال: أنّى لكِ هذا الذي لم أرَ مثله ولم أشم مثل رائحته ولم آكل أطيب منه؟ فوضع النبي(ص) كفَّه المباركة بين كتفي علي ثم هزَّها وقال: «يا علي هذا ثواب الدينار، وهذاجزاء الدينار. هذامن عند الله إن الله يرزق من يشاءُ بغير حساب».

ثم استعبر[٩١] النبي (ص) باكياً، وقال: الحمد لله كما لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريك في المجرى الذي أجرى فيه زكريا، ويجريك يا فاطمة المجرى الذي أجرى فيه مريم كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال: يا مريم أنّى لَكِ هذا[٩٢]».

إن هذه الرواية توضح حالة التقشف التي كانت تحياها هذه الأسرة النبوية العظيمة، وتوضح أيضاً سمو الأخلاق عند الزوجين، فبالنسبة لعلي آثر المقداد وأسرته، وفرج عن ضائقته بإعطائه الدينار الذي كانت أسرته بأمس الحاجة إليه، وأوكل أمر أسرته إلى الله وذهب إلى المسجد لتأدية صلواته متوكلا على الله في تفريج ضيقه.

فكيف ينساه الله وينسى أسرته والرسول (ص) يقول: **﴿والله في عون العبد ما دام العبدُ في عون أخيه﴾**. كما أن علياً رحّب برسول الله لتناول العشاء مع علمه بخلو البيت من أي طعام. لذلك فإن المائدة التي نزلت عليهم هي مكرمة من الله لرسوله وللزوجين، فلم يُرد الله أن يخزيهما أو يخجلهما مع النبي (ص) وقد وكلا أمرهما إلى الخالق.

أما بالنسبة لفاطمة فكانت في منتهى الأدب والصراحة مع زوجها فكانت صادقة القول، وخاطبت زوجها باحترام وأدب وهو يستفسر باستغراب عن وجود المائدة.

هكذا كانت كرامة الزوجين وآل رسول الله عند الله. لقد كانت حياة هذين الزوجين العظيمين وسيرتهما دروساً وعبراً وتربية ليس للأسرة المسلمة فقط وإنما لكل أسر العالم على مدى العصور.

إذا كانت هذه الرواية تعطي نموذجاً لإيثار علي أسرة المقداد على آل رسول الله، فكذلك فعلت فاطمة الزهراء في مواقف عديدة منها أن جماعة رووا عن عاصم بن كليب عن أبيه ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة أنه(٩٣).

«جاء رجل إلى رسول الله (ص) فشكا إليه الجوع، فبعث رسول الله (ص) إلى أزواجه فقلن: ما عندهنّ إلا الماء، فقال (ص): من لهذاالرجل الليلة؟ فقال علي: أنا يارسول الله، فأتى فاطمة وسألها: ما عندك يا بنت رسول الله؟ فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، لكنا نؤثر ضيفنا به، فقال علي: يا بنت محمد (ص) نوّمي الصبية وأطفئي المصباح، وجعلا يمضغان بألسنتهما. فلما فرغ من الأكل أتت فاطمة بسراج فوجدت الجفنة مملوءة من فضل الله. فلما أصبح صلى مع النبي(ص)، فلما سلّم النبي (ص) من صلاته نظر إلى علي وبكى شديداً، وقال: «يا أميرالمؤمنين لقد عجب الربّ من فعلكم البارحة، إقرأ ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم(٩٤) خصاصة ومن يوق شح نفسه(٩٥) فأولئك هم المفلحون**﴾(٩٦)».

ليس غريباً أن يحرم أفراد العترة أنفسهم من سد الرمق حتى الأطفال فهم نتاج تربية النبوّة الذين يباهي الرسول (ص) بسيرتهم البشرية عبر تاريخها. إن سيرة آل رسول الله (ص) تعتبر ترجمة أصيلة لسيرة الرسول (ص) قولاً وفعلاً، ولم يبلغ أحد من المسلمين، بمن فيهم جميع الصحابة، أن يلتزم بمثل ما التزمت به العترة النبويةمن اتباع لخطى الرسول (ص). وما نزول آية التطهير(٩٧) وآية المباهلة(٩٨) إلا تأكيداً لدور العترة المميز الذي هيأهم الله كي يقوموا به لأنهم نموذج الرسالة النّبويَّة الذي يجب أن يقتدي به المسلمون في حياتهم بعد رسول الله(ص).

روى أحدهم أن علياً أصابه وعائلته الجوع، يوما، فلم يجدوا في البيت شيئاً يأكلونه. فخرج علي ليعمل في سبيل كسب القوت، وأجّر نفسه ليلة يسقي نخلا

بشيء من شعير حتى أصبح واستلم الشعير، وطحنوا ثلثه فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه ويقال له الحريرة. فلما تم نضجه أتى يتيما يرجو طعاماً فأطعموه، وطووا يومهم ذلك دون طعام(٩٩). فنزلت هذه الآية(١٠٠):

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾.

هذه هي سيرة النماذج الرسالية التي أعدها الله ورسوله لقيادة دولة النبوّة.

وروت فاطمة الزهراء عما كانت تعانيه من متاعب جسدية نتيجة خدمة أسرتها فقالت: «لقد حجلت(١٠١) يداي من الرحى، أطحن مرة وأعجن مرة(١٠٢)».

هكذا كانت حياة فاطمة الزهراء الزوجية كلها تعب ونصب وزهد وتقشف. وكان دأبها الصبر، فلم يحدث أي من أرباب السير أنها تضايقت يوماً من تلك الحياة الخشنة القاسية. وإن ذهابها لوالدها لطلب الخادمة، لم يكن من وحي إرادتها وإنما تنفيذاً لرغبة زوجها علي لشفقته عليها ممّا حل بجسدها من أضرار بسبب خدمة البيت. وحينما نصحهاوالدها بالتسبيح وذكر الله اعتبرت ذلك خير معين لها عن اقتناع وطيب خاطر لتقدّم للبشرية درساً من دروس النبوّة للمرأة وكيفية صمودها لاستقبال الحياة، والتكيف معها مهما كانت قسوتها. هذه حياة بنت النبي وقائد الأمة وزوجة البطل وأم السبطين: الحسن والحسين.

لقد وجدت فاطمة الزهراء، بعد قدوم الأولاد عليها، سلوة ومتعة تخفف عنها شظف العيش وقسوة الحياة التي كانت تعيشها. ولم يكن أولادها مصدر سلوة ومتعة لها ولزوجها وحدهما إنما كان أولادها مصدر سرور وبهجة وراحة لوالدها محمد(ص) الذي حُرِم من الولد، فجعل نسله في ذريتهما الطاهرة.

فقد ولد الحسن ليلة النصف من رمضان في السنة الثالثة للهجرة(١٠٣) كما ولد الحسين في الثالث من شعبان السنة الرابعة للهجرة، وتلتهما زينب الكبرى بطلة كربلاء، ثم زينب الصغرى المكنّاة بأم كلثوم(١٠٤). وجاء في أسد الغابة أن النبي سمى المولود الأول لعلي وفاطمة الحسن. ولم يكن يعرف هذا الإسم في الجاهليّة(١٠٥). وقال النبي (ص)، في أول استقباله لهذا المولود: «اللّهم إني أُعيذُهُ بك وولده من الشيطان الرجيم وأذّن في أُذُنه اليمنى وأقام في اليسرى(١٠٦). وعن

الزّبير بن بكـار في كتاب أنساب قريش، أن رسول الله (ص) سمـى حسنا وحسينا يـوم سـابعهما واشتق إسـم حسين من إسم حسن(١٠٧). وفي اليـوم السابع لـولادة الحسن عق عنـه بكبش، وأمر فـاطمـة أن تحلق رأسه وتتصـدّق بـوزن شعره فضة فامتثلت لما أمرها به.

وكذلك فعلت بأخيه الحسين(١٠٨). وصارت العقيقة والتصدق بوزن الشعر سنة مستمرة إلى اليوم عنـد بعض المسلمين. وعلى الرغم من حبِّ النبي (ص) المفرط لهما إلا أنه حـرص على أن يراعي في تـربيتهما البساطـة وإبعادهما عن أي نـوع من أنواع الترف والبذخ. فقد شاركا والديهما حيـاة الزهد والتقشف والحرمان أحياناً كثيرة، بل وآلام الجوع أحياناً أخرى، كما مر سابقاً في القصص المروية.

روى الطبري عن ثوبان قال: «قدم رسـول الله (ص) من غزوةٍ له، فأتى فاطمة فإذا هو يمسحُ على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين (سوارين) من فضة فرجع رسول الله (ص)، فلما رأت فـاطمة ذلك ظنت أنـه لم يدخل عليهـا من أجل ما رأى فهتكت الستر ونـزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما، فبكى الصبيـان فقسمتـه بينهما، فـانطلقـا إلى رسول الله (ص) وهما يبكيـان، فأخـذه رسـول الله (ص) منهما فقال: يـاثوبان إذهب بهذا إلى بني فلان ــ من أهل بيت في المدينة ـ فاشتر لفـاطمة قـلادة من عصب وسـوارين من عاج، فـإن هؤلاء أهل بيتي ولا أُحِـبُّ أن يُذهبـوا طيباتهم في حياتهم الدنيا(١٠٩)».

هكذا كان الرسول (ص) الأب والمربي والمعلم، فكانت فاطمة الزهراء تشعر من خلال ملامح وجهه الكريم رضاه وغضبه، وتعمل مع أولادها ما يدخل السرورعلى نفسه فنشأ أولادها متخلقين بأخلاق النبوّة التي كانت منهلاً لكل من تخرج من هذا البيت ونشأ فيه. من هنا حـق الله ورسوله ودولة النبوّة إتخاذ العترة الطـاهرة الأنموذج وجعلهم حبل الله وطريق هدايته.

٥ ـ منزلة فاطمة عند الله ورسوله:

كان لفـاطمة الـزهراء منزلـة عند رسول الله(ص) منـذ طفولتهـا لم تبلغها أي من بناته. واشتد تعلقه بها بعد رحيل أمها خديجة، ولزمت دور أمها وهي طفلة فكنيت بأم أبيها. وازداد حُبُّ النبي (ص) لها بعد زواجها من عليٍ أقرب الناس إليه، وبعد إنجابها السبطين اللذين أحبهما وتعلق بهما. وكان لا يملُّ منها ولا يودُّ فراقها.

رُوى عن عـائشـة (ر) قالت: «مـا رأيتُ أحـداً أشبـه سُمْتـا وهديـا ودُلاّ ــ وفي رواية حديثـاً وكلاماً برسـول الله (ص) من فاطمة، كانت إذا دخلت عليـه قام إليها فأخذ بيـدها وأجلسها في مجلسـه، وكان إذا دخل عليهـا قامت إليه فأخـذت بيده فقبّلته وأجلسته في مجلسها»(١١٠).

وعن جُميع بن عمير دخلت عائشـة (ر) فقُلتُ: مَن كان أحبُّ النـاس إلى رسول الله (ص)؟ قالت: فـاطمة. قلتُ: «إنما أسألك عن الرجال؟». قـالت: زوجُها. وما يمنعه، فوالله أن كان لصوَّاما قـوَّاما. ولقد سالت نفس رسول الله (ص) في يده فردَّهـا إلى فيه. قُلتُ: «ما حملك على مـا كان؟»(١١١) فأرسلت خمارهـا على وجهها وبكت وقالت: «أمرٌ قضي عليَّ»(١١٢).

لا غرابة إذن في حب الرسول (ص) لهذيـن الزوجين، فكلاهما تخرَّج من مدرسته وربَّاهما وصاغ شخصية كل منهما. إنهما مـرآة حقيقية للبيت النبوي. ومن الطبيعي أن تنتقل تلك المحبة إلى نسلهما الذي يعتبر نسله.

وذكر الكبـداني عن المستور بن مخرمة أن رسـول الله (ص) قال: «فاطمـة بضعة مني، فمن أغضبهـا أغضبنـي». وفي روايـة «يُـريبني مـا أرابها ويُـؤذيني مـا آذاها»(١١٣).

وقد قال الرسول (ص) هذا الحديث في مكانـة فاطمة ومنزلتها العظيمة عنده في مواقف عديدة ليبين للمسلمين مرتبتها العـالية عند الله لتضحياتها في سبيله. وليس من شك في أن مَن يغضب النبي فكـأنما يغضب الله ومَن يـؤذي النبي فكأنما يُـؤذي الله. ومَن يغضب الله ويُؤذيه فإن مصيره معروف عند جميع الخلق.

وأخرج الطبراني أن النبي (ص) قال: «كل بني أنثى ينتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإني أنا وليُّهم وأنا عصبتهم وأنا أبوهم»(١١٤).

وجـاء في منزلتهـا، أيضـاً، أخرج أحمد والحاكم عـن المستور بن مخرمـة أن النبي (ص) قـال: «فاطمـة بضعة مني يغضبنـي ما يغضبهـا ويبسطني ما يبسطهـا وأن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري»(١١٥).

وعن منزلـة كل من فاطمة وعلي، عند رسـول الله (ص) روىٰ ابن حجر عن أبي هريرة أنَّ النبي (ص) قال لعلي: «فاطمةُ أحبُّ إليَّ منك وأنت أعزّ علي منها»(١١٦).
وروى الطبري عن ابن عباس (ر) قال: لما نزلت ﴿... قل لا أسألكم عليه أجراً إلا

المودة في القربى. . .﴾[117]. قالـوا: يا رسول الله من قرابتُك هـؤلاء الذين وَجَبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفـاطمة وابناها»[118]. ورُوي أنه (ص) قـال: «إن الله جعل أجري عليكم المودة في أهل بيتي، وإني سائلكم غداً عنهم»[119].

وروىٰ الطبري، عن زيد بن أرقم، في منزلـة أهل بيت رسول الله (ص) أيضاً أن رسول الله (ص) قال لعلي وفاطمـة والحسن والحسين: «أنا حربٌ لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم»[120].

إنّ الأحـاديث المذكورة دلت بما لا يـدعُ مجالاً للشك أن آل رسـول الله (ص) هم علي وفاطمة وبنـوهما وأن أجره على أمته نتيجة تحمله المصـاعب في سبيل نشر رسالة الإسلام وهـدايتهم حُبُّ آله والاقتداء بهم فهم نسلـه وثمرة نضاله والأحق بـالاتباع لتخلُّقهم بأخلاقه ونهلهم من علمه، وهم الأعلم بدقائق الأمور بالشريعة التي جاء بها من عند الله، فهم المؤتمنون على وحـي الله وشريعة السماء بعده. ولم يكتف النبي (ص) بهذه الأحـاديث التي اقتبس المؤلف نموذجـاً محدوداً منها للتـوضيح، بل إن رسول الله (ص) واصل طـوال فترة حياته استغـلال كل مناسبـة ليبين لمجتمع دولته البكر آنذاك منـزلة آله عنده وعند الله، وأن أحاديث المنـزلة هي بوحي من الله وليس باجتهاد ذاتي منه، كما توضح آية المودة التي ورد ذكرها سابقاً.

وهناك عشرات الأحاديث النبوية التي تحدث عن منزلـة الزهراء ومكانتها العالية عند الله ورسوله ويمكن الاكتفاء ببعضها للتوضيح كما تتطلبه الدراسة.

عن حذيفة قال: قلتُ لأُمي: دعيني آتي النبي (ص) فأُصلي معه المغرب وأسأله أن يستغفـر لي ولك. فأتيتُ النبي (ص) فصليتُ معـه المغـرب، فصلّى حتى صلى العشاء ثم انفتل فتبعتـه فسمع صوتي فقال: مَن هذا حذيفـة؟ قلت: نعم. قال: «مـا حـاجتك غفر الله لك ولأمك؟ إن هـذا ملك لم ينـزل إلى الأرض قط قبل هـذه الليلـة استأذن ربه أن يسلم عليّ ويبشرني بأن فـاطمة سيـدة نساء أهل الجنـة، وأن الحسن الحسين سيدا شباب أهل الجنة»[121].

وعن تعلّق الـرسـول بسبطيه: الحسن والحسين روى: عـن أسامـة بن زيـد بن حارثـة، قال: «طرقت رسـول الله (ص) ليلة لبعض الحاجة، فخـرج وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليـه؟ فكشفه، فـإذا هو الحسن والحسين على وركيـه، فقـال: هـذان ابناي وابنا

بنتي، اللهم إنك تعلم أني أحبها فأحبها»(١٢٢).

هكذا كان تعلق الرسول (ص) بابنته وريحانتيه من الدنيا الحسنين. فكان لا يصبر عن رؤيتهم ولا يطيق بعداً عنهم، وكان يطيل الجلوس في بيت فاطمة يخفف عنها هموم الحياة بمواساته خلال زياراته المتكررة، ويطمئن على أحوالها. وكانت تجد في هذه الزيارات خير معين لها وخير سلوان.

روى الطبري عن ثوبان قال: كان رسول الله (ص)، إذا سافر آخر عهده إتيان فاطمة وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة «عليها السلام»(١٢٣) وروى الطبري أيضاً، عن ثعلبة قال: «كان رسول الله (ص) إذا قدم من غزوٍ أو سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم أتى فاطمة، ثم أتى أزواجه»(١٢٤).

دلل رسول الله (ص)، بهذا الوصال المستمر لابنته وسبطيه أنه لا يعادلهم أحد من الخلق عنده فهم في أعلى المراتب حباً وتقديراً وعلو منزلة. وكان يتعرض أحياناً لعتاب بعض أزواجه لتفضيل ابنته وأبنائها عليهن فكان يبرر ذلك أن فاطمة لا يعادل حبها أحد عنده بقوله: «أحبُّ أهلي إليّ فاطمة»(١٢٥).

وجاء عن علي بن أبي طالب (ع) أن رسول الله (ص) قال:

«يا فاطمة، ان الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»(١٢٦).

ان هذه الدرجة، التي بلغتها بنت رسول الله ليس لقرابتها من رسول الله، ولكن لتفانيها في ذات الله بأعمالها الصالحة بحرمانها نفسها وبنيها حتى من لقمة العيش وتقديمها للبائسين، فعلو منزلتها عند والدها بسبب رضا الله عنها وعلو منزلتها عنده، وكذلك لقناعتها وزهدها ورضاها بحياة التقشف التي قبلتها عن طيب خاطر في بيت الزوجية، فالنبي (ص) يقدمها للبشرية من خلال مجتمع دولته البكر على أساس أنها البنت المثالية والزوجة المثالية والأم المثالية لدولة النبوّة بعد شريكته في النضال أم المؤمنين الاولى خديجة.

ومن علو منزلة فاطمة وولديها الحسن والحسين وبعلها علي ان الله اصطفاهم دون خلقه، وطهّرهم من الدّنس وعصمهم من الخطأ كرامة على زهدهم وصبرهم وصدق إيمانهم وتضحياتهم، في سبيل الله كما توضح ذلك آية التطهير. أخرج ابن مردوية والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: كان يوم أم سلمة أم المؤمنين فنزل

جبريل على رسول الله (ص) بهذه الآية: ﴿... إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ (١٢٧) فدعا رسول الله (ص) بحسن وحسين وفاطمة وعلي فضمهم إليه ونشر عليه الثوب، والحجاب على أم سلمة مضروب، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا». قالت أم سلمة: فأنا معهم يا نبي الله؟ فقال: أنت على مكانك وانك على خير (١٢٨). وروى الطبري عن أنس بن مالك (ر) أن رسول الله (ص) كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: الصلاة يا أهل البيت: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾(١٢٩).

وروى الطَّبري، أيضاً، عن أبي الحمراء قال: «صحبتُ رسول الله (ص) تسعة أشهر، فكان إذا أصبح أتى على باب علي وفاطمة، وهو يقول: يرحمكم الله: ﴿إنما يريد الله...﴾ الآية (١٣٠).

لقد أوضح الله ورسوله تعريف أهل البيت، وهم الذين خصَّهم بالطهارة في حديث الكساء وآية التطّهير، فالقرآن الكريم والسنة النبوية كلاهما أكد طهارة أهل البيت، وهم آل رسول الله الذين لم يشرك معهم أحدا. ومعنى ذلك أن درجتهم لم يصل إليها أحد لا من زوجات الرسول (ص) ولا من صحابته. لأن مرتبة جهادهم وإيمانهم لم يصل إليها أحد، فهم يلون رسول الله (ص) مباشرة في الامتثال لأوامر الله والابتعاد عن نواهيه، وأنهم خير من يمثل رسول الله (ص) في حياته وبعد مماته. وقد سمِّي الحديث الذي تزامن مع آية التطهير حديث الكساء لأن النبي (ص) وآله تغطوا بغطاء واحد وعددهم خمسة: النبي وفاطمة وعلي والسبطين، فأكد بأن الآل هم الأربعة الذين كانوا مع النبي تحت الكساء في بيت أم سلمة (ر) (١٣١).

وفي رواية لابن حجر أن رسول الله (ص) قال بعد تطهير (كذا) حينما كان الخمسة متغطين بالكساء في بيت زوجته أم سلمة (ر): «أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم»(١٣٢) وفي رواية أخرى، القى عليهم كساء ووضع يده عليهم ثم قال: «اللهم ان هؤلاء آل محمد فاجعل صلاتك وبركاتك على آل محمد إنك حميد مجيد»(١٣٣) ودليل آخر على كرامتهم أن الله، سبحانه وتعالى، استجاب لدعاء رسوله (ص) المذكور آنفاً خلال تواجدهم تحت الكساء بأن الله وملائكته يصلون على النبي ويكلف المؤمنين بالصلاة عليهم أيضاً بقوله تعالى: ﴿ان الله

وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾[١٣٤] .

روى ابن حجر قال: صحيح، عن كعب بن هجرة قال: «لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ فقال: «قولوا، اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم، انك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد»[١٣٥] .

ويروى أن النبي (ص) قال: لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء. فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال تقولون: «اللهم صل على محمّد، وتمسكون. بل قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»[١٣٦] .

بهذه الصّورة كان النبي (ص) يبرز مكانة آله ـ عنده وعند الله ـ للمسلمين، ولم يكن ذلك عبثاً بل إنما يقوم بذلك ليوضح للمسلمين المهمة التي ستلقى على عاتق الآل وهم عترته من بعده، وهي قيادة الأمة في شؤون دينها ودنياها، لأنهم الخيرة والصفوة الإلهية والنبوية في الخلق، وهناك آيات عديدة نزلت لتعريف المسلمين أهمية فضل أهل البيت عند الله وأهمية أتباعهم والتمسك بسيرتهم منها قوله تعالى: ﴿سلام على آل ياسين﴾ [١٣٧] وقد نقل جماعة من المفسرين عن ابن عباس (ر) أن المراد بذلك سلام على آل محمد (ص) و (كذا)، قاله الكلبي [١٣٨] . وقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . . . ﴾ [١٣٩] أخرج الثعلبي في تفسيرها عن جعفر الصادق (ع) أنه قال: «نحن حبل الله الذي قال الله فيه: ﴿واعتصموا . . . ﴾ الآية»[١٤٠] .

وجاء، من طرق عديدة كما يروي ابن حجر، يقوي بعضها بعضاً أن رسول الله (ص) قال: «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا». وفي رواية مسلم «ومن تخلف عنها غرق». وفي رواية «هلك»، «وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له»، وفي رواية «غفر له الذنوب»[١٤١] .

بهذا الوضوح وهذا التأكيد بيَّن رسول الله (ص) للأمة مكانة أهل بيته عند الله، وقدمهم للمجتمع الاسلامي الصغير آنذاك وفي دولته البكر على أن اتباع سيرتهم

والتمسك بهم كأهمية سفينة نوح في الطوفان الذي عصف بكل شيء، فكانت تلك السفينة هي وسيلة النجاة الوحيدة، كما شبههم بباب حطة في بني إسرائيل وأنه المدخل الوحيد لمن أراد المغفرة. وهنا يأتي التأكيد أيضاً على اتباع سيرتهم ومودتهم لأنها الطريق إلى رضا الله وغفرانه. وجاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾(١٤٢). قال ثابت البناني. اهتدى إلى ولاية أهل بيته(ص). وجاء ذلك عن أبي جعفر الباقر أيضاً(١٤٣).

وأخرج الدّيلمي مرفوعاً «إنما سميت ابنتي فاطمة لأن الله فطمها ومحبيها عن النار»(١٤٤).

كذلك من الأدلة التي أثبت الرسول (ص) فيها للمسلمين علو درجة أهل البيت ـ أصحاب الكساء عند الله ورسوله نزول آية المباهلة من سورة آل عمران، وذلك في السنة العاشرة للهجرة حينما قدم لزيارة النبي في المدينة وفد من اليمن من نصارى نجران للتحاور معه، فنزلت آية المباهلة بقوله تعالى: ﴿إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾(١٤٥) قال الرازي في تفسيره: «أجمع المفسِّرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران عند الرسول (ص)»(١٤٦).

وقال الواحدي في أسباب النزول، قال المفسرون:

«قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكباً على رسول الله (ص)، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر اليهم يؤول أمرهم. فالعاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، والسيد أمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم وأمامهم وصاحب مدارسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم وكان ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وبنوا له الكنائس لعلمه

واجتهاده. فقدموا على رسـول الله (ص) ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات جبات وأردية في جمال رجال الحارث بن كعب. يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله (ص): «ما رأينا وفدا مثلهـم»، وقد حانت صلاتهم فقاموا فصلـوا في مسجـد رسـول الله (ص). فقال رسـول الله (ص) دعـوهم. فصلـوا إلى المشرق فكلم السيـد والعاقـب رسول الله (ص) فقـال لهما اسلما فقـالا: قد اسلمنـا قبلك قال منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولـدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير. قالا: ان لم يكن عيسى ولـد الله فمن أبوه وخاصمـوه جميعاً في عيسى، ثم روى انهما قالا للنبي (ص) ما تقول في عيسـى؟ فسكت. ونزل القرآن وفيه: **﴿ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾** إلى قوله **﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم..﴾** الآية.

فدعاهما رسول الله إلى الملاعنة»(١٤٧)

وقـال ابن الأثير في يوم المبـاهلـة: «وأما نصـارى نجـران فإنهم ارسلوا العـاقب والسيـد في نفـر إلى رسول الله (ص)، وأرادوا مبـاهلتـه فخـرج ومعه علي وفـاطمـة والحسن والحسين، فلما رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها. ولم يبـاهلوه وصـالحوه على ألفي حلـة ثمن كل حلة أربعـون درهماً وعلى أن يضيفـوا رسله، وجعل لهم ذمـة الله تعالى وعهـده أن لا يفتنوا عن دينهم ولا يعشـروا وشرط عليهم ان لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به»(١٤٨).

لقد أوضحت آية المباهلة ومناسبة نزولها مكان آل رسول الله عند الله ورسوله وعند وفد النصـارى. ان اختيار الوفد النبـوي جاء بوحي من السماء ففاطمـة ابنته أحب النساء إلى قلبه وأقربهم إليه والسِّبطان هما قرة عينيه وابنيه وعلي أقرب الخلق إليه فهو نفسه. ان الألفاظ القرآنية تمثل مكانة هـؤلاء الأربعة ـ أهل بيت الرسول ـ بصدق في قلب رسـول الله (ص) لاخلاصهم وانقيـادهم المطلق لله ولـرسـوله، ولـذلك رهب منهم أفـراد وفد نصـارى نجران، وتخلـوا عن المباهلـة حينما استقرأوا من وجـوههم مكانتهم العظمى عند الله. فحديث الكساء وآيـة المباهلة دليلان واضحان لا يرقى إليهما الشك على أن الأربعـة هم آل رسـول الله فقط. هذه نبـذة مـوجزة عـن منزلة فاطمة الـزهراء وبعلها وبنيها عند الله ورسـوله. وقد أظهر الله ورسوله لمجتمع دولة

النبوة مظهراً من مظاهر تلك المنزلة في حياة الرسول (ص) لإلقاء الحجة على الأمة الإسلامية بعد رسول الله وكيف سيخلفونه في أهل بيته الذين أعزهم الله ورفع شأنهم.

٦ ـ فاطمة الزهراء والغزوات:

تعتبر غزوة أُحُد من الغزوات التي لم تلحق بالمسلمين هزيمة مثلها، فقد استشهد من المسلمين واحد وثمانون مقاتلاً، وأوشك النبي على الهلاك. وخرجت أربع عشرة إمرأة لمساعدة المقاتلين وتوفير الطعام لهم والماء وتضميد جراحهم. فشاركت فاطمة الزهراء في تضميد جراح[١٤٩] والدها، كما مر في المقدمة.

وحينما عاد علي إلى بيته بعد أن دافع عن حياة رسول الله (ص)، وأنجاه الله من الهلاك ناول فاطمة السيف وانشدها بيتي شعر وهما[١٥٠]:

أفاطم هاك السيف غير ذميم ... فلستُ برعديد ولا بلئيم
لعمري لقد جاهدتُ في نصر أحمد ... وطاعة رب بالعباد رحيم

يتباهى علي في هذين البيتين أمام زوجته، بشجاعته وجهاده بين يدي رسول الله (ص)، حيث أرضى الله تعالى بنضاله وانقاذ رسوله من كيد المشركين.

وفي غزوة الخندق روى علي عن جزء من مساهمتها فقال: كنا مع النبي (ص) في حفر الخندق إذ جاءته فاطمة بكسرة من خبز فرفعتها إليه فقال: «ما هذه يا فاطمة؟ قالت: من قرص اختبزته لابني وجئتك منه بهذه الكسرة».

فقال: يا بنية أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث[١٥١]. وهذا يعكس مدى المعاناة التي عاشها المسلمون وشاركهم فيها النبي (ص) خلال حفر الخندق ليحموا المدينة من دخول جيش المشركين.

وفي فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة شاركت فاطمة الزهراء زوجها ووالدها جيش دولة النبوة العظيم أفراح انتصاراته وهو يدخل مكة فاتحاً ومنهياً بذلك مقاومة قريش لدولة النبوة ومؤسسها محمد (ص). كان النبي (ص) قد وقع مع قريش عهداً ينظم العلاقات بين دولة النبوة وقريش، وذلك في شهر ذي القعدة في السنة السادسة للهجرة وكان علي بن أبي طالب هو كاتب صحيفة ذلك العهد. وسمّي

ذلك العهد صلح الحديبية نسبة إلى المكان، وهو بئر قريب من مكة. وقد أنابت قريش في هذا الصلح سهيل بن عمرو. وجاء في تلك الصحيفة(١٥٢):

«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو. اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمد من قريش بغير اذن وليه ردَّهُ عليهم. ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وان بيننا عيبة مكفوفة(١٥٣) وأنه لا إسلال ولا إغلال(١٥٤)، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه وأن من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة. وانه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها».

وقد دخلت قبيلة خزاعة في حلف محمد (ص) كما دخلت قبيلة بكر في حلف قريش. وشهد على كتابة تلك الصحيفة أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان وابو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص (وكانا مشركين) وعلي بن أبي طالب. وكتب الكتاب من نسختين أحداهما عند رسول الله (ص) والأخرى عند، سهيل بن عمرو(١٥٥).

وحدث أن انتهكت قريش عهد الصلح مع المسلمين بسبب تعاونها مع بني بكر وغدرهم بقتل عشرين رجلاً من خزاعة، حلفاء دولة النبوّة. فجاء وفد منهم إلى المدينة مستصرخين لنجدة النبي (ص)(١٥٦).

أما قريش فقد توقعت رد فعل النبي (ص)، فحاولت أن تقوم بعمل وقائي فأرسلت زعيمها أبا سفيان لتجديد اتفاقية الصلح. وقد فشل أبو سفيان في جميع محاولاته لاقناع الرسول (ص) بالاستجابة لطلبه، علما بأنه سعى لتوسيط أبي بكر وعمر وعلي وفاطمة الزهراء(١٥٧)، حتى ابنته رملة بنت أبي سفيان، زوجة الرسول استقبلته بجفاف وطوت عنه الفراش وقالت: «هو فراش رسول الله (ص) وأنت رجل مشرك فلا ينبغي لك أن تجلس عليه»(١٥٨).

وكان الرسول (ص)، بعد أن سمع قصة ما حدث لخزاعة من وفدهم، قام يجر

رداءه وهو يقول: «لا نُصرت إن لم أنصر خزاعة مما أنصر منه نفسي»(١٥٩).

شاهدت الزهراء أبا سفيان، وهو أكبر زعامة قُرشية، يتململ ذليلاً بين أيدي المسلمين، متوسلاً وراجياً مساعدته لاقناع رسول الله بتمديد أجل الهدنة بين دولة النبوة الناشئة وبين قريش التي أذاقتها ووالديها وبني هاشم وجميع المسلمين صنوف العذاب انه النصر الإلهي لدولة الإسلام وانـدحار الشرك. ان رجوع أبي سفيان إلى مكة منكسراً كان كسراً لشوكة الباطل وانتصاراً للحق، هـا هو طريد قريش واتباعه المستضعفون، يؤسسون لهم دولة مؤيدة بنصر الله وإيمان أهلها الذين نذروا أنفسهم للدفاع عنها بأرواحهم وهذا غاية البذل وأسمى أنواع التضحية.

ووضع الرسول خطة محكمة للزحف على مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة؛ حيث سد جميع المنافذ المؤدية لمكة خشية تسرب نبأ زحفه إليهم إلى أن تمكن من مباغتتهم بنجاح(١٦٠). وقد وعده الله بالنصر المؤزر بقوله تعالى: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا**﴾(١٦١).

رافقت فاطمة الزهراء مع عـدد من النسوة، جيش دولة النبوة الذي زحف على وكر الشرك والضلال قريش في عقر دارها مكة. وخرج رسول الله مع جيشه من المدينة يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان السنة الثامنة للهجرة، في عشرة آلاف مقاتل، بينهم مئات الفرسان وقد وزع الألوية والرايات وجعل لـواءه مع ابن عمه علي بن أبي طالب. فوصلوا قريباً من مكة ونزل مع جيشه عشاء، فأمر أصحابه فأوقدو ا عشرة آلاف نـار، على عدد المقاتلين بغية إدخال الرعب والفزع إلى قلوب القرشيين وأئمة الضلال والجهل وكانت قريش قد تحسبت للخطر بعد فشل مهمة زعيمها أبي سفيان. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التكتم الشديد الذي أحاط الرسول به زحفه على مكة كان من أبرز عوامل النجاح. وفتحها سلماً دون قتال فأخذهم المسلمون على غرة منهم. فخرج عشية ذلك اليوم أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يستكشفون الأخبار فذهلوا لمشاهدتهم، الجيش والنيران فجأة فكان وقع ذلك عظيماً عليهمْ وأسقط ما في أيديهم. وكان العباس بن عبد المطلب، عم النبي (ص) قد ركب بغلة رسول الله (ص) والتقى أبا سفيان فأخبره بأن جيش رسول الله يحيط بمكة ونصحه بمقابلته واستئمانه. فأردفه على البغلة وقدم بـه إلى رسول الله وهو يطوف على النيران، حتى وصل إلى رسول

الله(ص)، واستأذنه في أجارة أبي سفيان لصباح الغد، فلبى طلبه وقال (ص) لعمه العباس: «اذهب فقد أمناه حتى تغدو به علي». وفي الصَّباح أسلم أبو سفيان أمام رسول الله (ص) على مضض. وجعل له ميزة في قومه فقال (ص): «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن»(١٦٣). وقد حبسه العباس بن عبد المطلب عند خطم الجبل بمضيق الوادي. ومرت عليه قبائل مقاتلي جيش النبوة والعباس يعرِّفه بأسماء تلك القبائل واحدة واحدة، حتى مر رسول الله (ص) في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد لا يُرى منهم إلا الحدق فقال: من هؤلاء يا ابا الفضل؟ فقال: هذا رسول الله (ص) في المهاجرين والأنصار، فقال: يا أبا الفضل: لقد أصبح ملك بن أخيك عظيما، فقال ويحك انها النبوة، فقال: نعم. ثم رحل أبو سفيان ينادي قومه بالاستسلام والأمان وعدم القتال، لأنهم لاقبل لهم بجيش دولة النبوة، ودخل جيش الإسلام مكة من عدة جهات كما دخل النبي (ص) الكعبة واستلم الحجر الأسود وحطم الأصنام التي على سطح الكعبة كما أمر بتكسير الاصنام التي كانت حول مكة. وكان رسول الله بعد أن دخل الكعبة وصلى بها ركعتين. وخرج فأخذ بعضادتي الباب فخطب الناس وجموع قريش حاضرة نساء ورجالا فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعىٰ فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» ثم قال: «يا معشر قريش، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب ثم تلا: ﴿**يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم...**﴾(١٦٤) يا معشر قريش ويا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»(١٦٥). وبذلك سمي الذين أسلموا يوم الفتح وبعده الطلقاء وأبناءهم أبناء الطلقاء لأنهم أسلموا على مضض وكراهية، لأن دخولهم الإسلام لم يكن طواعية وفي ذلك اليوم بايعه الرجال على الإسلام بنطق الشهادتين وعلى السمع والطاعة. وبعد الرجال بايعته النِّساء فقرأ عليهم ما أنزل الله من شروط البيعة ـ بعد أن وضع على يده ثوبا ـ على ألاَّ يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن،

ولا يعصينك في معروف ﴿لا يقتلن أولادهن﴾ بوأد ولا اسقاط ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه﴾ بكذب يكذبنه في مولود ﴿بين أيديهن وارجلهن﴾ فلا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم(١٦٦) .

وقد نزل رسول الله في قبة ضربت له بالأبطح ، ومعه زوجتاه أم سلمة وميمونة ، وأقام بها خمس عشرة ليلة . وكان دخول مكة لعشر بقين من رمضان .

إذا كانت فاطمة الزهراء قد خرجت من مسقط رأسها مكة حزينة مرعوبة ، كما خرج والدها فها هي الآن تعود إليها فرحة مرفوعة الرأس مع والدها وابن عمها علي ابن أبي طالب وجيش الإسلام الظافر يدخل الرعب والفزع في قلوب القرشيين أعداء الله واعداء الحق .

إن زهرة النبوّة قد شاهدت أبا سفيان وجموع جيش الإسلام تمر عليه وهو واقف مذهول . لقد تذكرت محاولات قريش اذلال والدها بمختلف الأساليب الهمجية من الايذاء والتعذيب اللذين الحقوهما بالمسلمين وبوالدها . تذكرت تضحيات والدتها ومرضها ورحيلها . وتمنت أن تحضر كرامة الله لوالدها وعزه لدينه . وقد حمدت الله عندما علمت بمصرع الحويرث بن نقيد أو منقد الذي روَّعها يوم هجرتها حيث قتله الإمام علي بعد فتح مكة ضمن عدد من الرجال والنساء أمر النبي (ص) بقتلهم لمبالغتهم في إيذاء المسلمين(١٦٧) .

كما شاهدت فاطمة الزهراء مدى حلم والدها وعفوه عن أهالي قريش بعد فتح مكة ، حيث عاملهم بالحسنى ليثبت لهم أنه نبي الرحمة حيث كان في قمة الاقتدار ليقتص منهم ما الحقوه به من الأذى ليس في مكة وإنما واصلوا أحقادهم بالأعمال العسكرية وتأليب القبائل في الحجاز وما جوله ضده ومع وحشيتهم وقسوتهم لم ينس أنه ينتمي اليهم ، فكانت تلك المعاملة دليلاً على سمو أخلاقه الكريمة في التعامل مع الأعداء . إنه درس للبشرية في العفو عن العدو عند المقدرة . فهل حفظ له الطلقاء وأبناء الطلقاء هذه المكارم الخلقية؟

إن الأحداث التاريخية اللاحقة ستجيب عن هذا السؤال .

لقد رأت فاطمة الزهراء ، في رحلة النصر التي دامت شهرين تقريباً قبيلتي هوازن وثقيف وأحلافهما من العرب الذين ظلّوا حتى ذلك التاريخ على موقفهم المتصلب

المعادي للإسلام ينهارون وتدكُّ حصونهم ومعاقلهم، وتقع أموالهم ونساؤهم غنيمة للمسلمين في معركة حنين خلال فترة قصيرة وعددهم يزيد ثلاثة أضعاف على أعداد المسلمين. وكانت تلك الغزوة في شوال بعد فتح مكة (١٦٨) مباشرة. رأت الزهراء هذه الانتصارات العظيمة كلها في هذه المدة القصيرة. ثم عادت مرفوعة الرأس إلى مدينة النبوة وعزِّ الإسلام، وهي ترى والدها يجني ثمرات جهاده بدخول الناس في دين الله أفواجاً وجماعات فتزداد إيمانا وشكراً وبذلاً في سبيل الله. انه الوفاء الإلهي بوعده للصابرين. وعاشت الزهراء بعد ذلك فترة تربو على الستين قليلاً عزيزة بين والدها وزوجها وبنيها، سعيدة بحياتها البسيطة، التي لم تتغير منذ دخلت بيت الزوجية من غير أن يتخللها ما يكدِّر صفوها.

٧ ـ الزهراء المناضلة:

على الرغم من قصر حياة فاطمة الزهراء التي لم تبلغ الثلاثة عقود، في بعض التقديرات وأقل من عقدين في تقديرات أخرى إلا أن هناك إجماعاً عند غالبية المؤرخين أنها واجهت حياة قاسية سواء كان في طفولتها أم في حياتها الزوجية أم بعد وفاة النبي (ص) وهذه فترة لم تتعد بضع عشرات من الأيام اختلف الرواة في تقديرها. وعلى الرغم من حياة التقشف التي عاشتها خلال حياتها الزوجية، وفي ظل والدها إلا أنها كانت سعيدة بها في ظل الوالد والزوج والبنين. بيد أنها بعد رحيل والدها لاقت ما لم تلقه هاشمية في تاريخ دولة النبوة إلا بناتها بعد إبادة الحسين وآله وأنصاره على يد جيش سلطنة قريش التي كانت نتاجاً طبيعياً لسلطة الخلافة الواقعية التي برزت على الساحة السياسية في دولة النبوة وفرضت نفسها لحكم المسلمين بعد رسول الله (ص). وكانت فاطمة الزهراء هي الصوت النسائي الذي ارتفع في مجتمع دولة النبوة رافضاً تلك السلطة وسياستها، وهي عزلاء بدون نصير سوى مكانتها العظيمة مع زوجها وبنيها التي تضمنها القرآن والسنة كما مر سابقاً، ووصية والدها لها بالتسلح بالصبر بعد موته وكأنها على موعد مع ضيم الزمان لآل رسول الله (ص) الذي لا يتوقف.

روى الترمذي، عن أم سلمة أن رسول الله (ص) دعا فاطمة عام الفتح فناجاها

فبكت ثم حدّثها فضحكت، فلما توفي رسول الله (ص) سألتها عن بكائها وضحكها، فقالت:

«أخبرني رسول الله (ص) أنه يموت فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنّة إلا بنت عمران فضحكت»(١٦٩).

وروت عائشة الحديث نفسه بصيغة أخرى، فقالت: «كنا أزواج النبي (ص) عنده فأقبلت فاطمة ما تخفى مشيتها من مشية أبيها رسول الله (ص). فلما رآها قال: مرحبا بابنتي ثم أجلسها ثم سارّها فبكت بكاءً شديدا. فلما رأى حُزنها سارّها الثانية فإذا هي تضحك. فلما قام رسول الله (ص) سألتها عما سارّك قالت: ما كُنت لأفشي على رسول الله (ص) سره.

فلما توفي قلت: عزمتُ عليك من الحقّ لما أخبرتني قالت: أما الآن فنعم: أما حين سارّني في الأمر الأول فإنه أخبرني أن جبرئيل كان يعارضني القرآن كل سنة مرّة، وأنه عارضني به العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري، فإني نعم السّلف أنا لك فبكيتُ. فلما رأى جزعي سارني الثاني قال: يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أهل الجنة أو نساء العالمين وفي رواية «فسارني وأخبرني أني أول أهل بيته أتبعه فضحكت»(١٧٠) هل المقصود، في هذا الحديث المتّفق عليه عند جميع كتاب السيرة أن الرسول قد أوصاها بالصبر على فراقه وأن تحتسبه في الله، أم أنه أضاف إلى ذلك أن سارها بما يجري عليها من ضيم وظلم فطلب منها أن تتسلح بالصبر الجميل كما ربّاها على ذلك وواجهت معه شتى المتاعب والآلام نتيجة ظلم قريش.

وها هو الرسول (ص) أيضاً يوصي علياً بها وبالسبطين، حيث جاء في رواية ابن عباس عن النبي (ص) أنه قال: «يا علي إن فاطمة بضعة مني ونور عيني وثمرة فؤادي يسوءني ما ساءها ويسرني ما سرّها وهي أول من يلحقني من أهل بيتي فأحسن إليها من بعدي، والحسن والحسين ابناي وريحانتاي وسيدا شباب أهل الجنة فليكونا عليك كسمعك وبصرك». وأضاف ابن عباس، إلى ذلك أن النبي(ص) رفع يديه إلى السماء، وقال: (اللهم إني أشهدُك أني محبٌّ لمن أحبهم

ومبغض لمن أبغضهم وسلم لمن سالمهم وحرب لمن حاربهم وعدو لمن عاداهم وولي لمن والاهم»(١٧١).

إن علي بن أبي طالب لا يحتاج لتعريفه بمكانة فاطمة والحسنين عند رسول الله، وإنما كان هدف الرسول (ص) أن تكون مثل تلك الوصية لعلي رسالة إلى الأمة الإسلامية، أيضاً في حفظ آل رسول الله (ص).

فهذا علي الذي كان يمثل نفس رسول الله، كما جاء في آية المباهلة، يوصيه أيضاً بالمحافظة على بضعته وسبطيه لإلقاء الحجة والبيّنة على الأمة.

كان تعويد فاطمة على الصبر من قبل والدها، من أبرز الصفات التي تميزت بها لمواجهة شتى مصاعب الحياة التي تجرعتها في مواقف عديدة. روى الطبري عن عمران بن حصين مستوفي ولفظه قال: خرجت يوماً، فإذا برسول الله (ص) قائم فقال لي: «يا عمران ان فاطمة مريضة فهل لك أن تعودها؟ قال: قلت: فداك أبي وأمي، وأي شرف أشرف من هذا؟ قال فانطلق رسول الله (ص) وانطلقت معه حتى أتى الباب فقال: السلامُ عليكم أدخل؟ قالت: وعليكم السلام ادخل. فقال(ص) أنا ومن معي؟ قالت: والذي بعثك بالحق نبياً ما عليَّ إلا هذه العباءة. قال: ومع رسول الله (ص) ملاءة خلقة فرمى بها إليها. فقال شدي بها رأسك ففعلت ثم قالت: ادخل فدخل ودخلت معه، فقعد عند رأسها وقعدت قريباً منه فقال رسول الله «أي بنية كيف تجدينك؟» قالت: والله يا رسول الله إني لوجعة وإنَّه ليزيدني وجعاً إلى وجعي أني ليس عندي ما آكل. قال: فبكى رسول الله (ص) وبكت وبكيت معهما فقال لها: «أي بُنية تصبري» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال لها: «أي بنية أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين» قالت: «يا ليتها ماتت وأين مريم بنت عمران؟» قال لها: «أي بنية تلك سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك. والذي بعثني بالحق لقد زوجتك سيدا في الدنيا والآخرة لا يبغضه إلا منافق»(١٧٢).

ما يمكن أن يستنتج من هذا الحديث، أن رسول الله (ص) بين مكانتها وزوجها في الدنيا والآخرة، وأنه نصحها بالتحلي بالصبر حتى في حالة ندرة لقمة العيش. فتلك رسالته (ص) إلى الزوجات أيضاً عبر تعاقب الأجيال فهذا درس

تربـوي للمرأة من خـلال تعامله مع ابنتـه ، فهي نموذجـه لكل نساء البشريـة منذ مبعثه إلى يـوم القيامة حيث خلقهـا بأخلاق النبوة العظيمـة . كذلك من العبر التي يمكن استنتـاجها من هـذا الحديث الكريم أنـه يوجـه رسالـة إلى الآباء من خـلال تعاملـه مع ابنتـه ويعطي درساً لهم في آداب الـزيارة وحرمـة بيت الـزوجية . والعبرة الأخيرة التي يمكن استنتاجها هي أنه يوجـه رسالة إلى الأمة في كيفية التعامل مع آل رسول الله في حياته وبعـد مماته ، فها هو الرسـول الكريم والأب البار يجلُّ ابنته ذلك الإجـلال العظيم بشهادة عمـران راوي الحديث ، فـالأحرى بأبنـاء الأمة ان يقتـدوا بنبيهم في طريقـة التعامل مع أهل البيت الـذين أذهب الله الرجس عنهـم وطهرهم تطهيرا ، كما ورد في آية التطهير.

٨ ـ فاطمة الزهراء وحضور حجة الوداع :

كانت فـاطمة الزهراء ونسـاء رسول الله التسع قد أدين فريضـة الحج مع رسول الله (ص) والكثير من المسلمين رجالاً ونساءً في السنة العـاشرة للهجرة . فبعد رحيل وفد نصـارى نجران الذي زار النبي من المدينـة إلى اليمن ، بعث إليهم ابن عمه علي بن أبي طالب في شهر رمضان من العام نفسه ليقبض ما وقع عليه الصلح معهم .

وكانت أقاليم شبه الجزيرة العربية في تلك السنة ، قد دخلت كلها ضمن الحدود السيـاسيـة لـدولـة النبـوة ، وتم إبـلاغ جميع المسلمين في هـذه الاقـاليم . ، بعـزم الرسـول(ص) على أداء حجة الـوداع . فبلغ عدد الحجيـج ذكوراً وانـاثاً حـوالى مئة واربعة وعشرين الفاً في أغلب التقديرات .

ولحق علي ومن معـه بالنبي بمكـة في مطلع مـوسم الحج ، وأدوا الفـريضة معـه وأشرك النبي علياً في هديه (١٧٣) . وفي حجة الـوداع أزال رسول الله (ص) كل لبس وغموض فيما يتعلق بجميع أحكام الحج ومناسكه(١٧٤) .

ويعتقـد أتبـاع مـدرسـة الإمـامـة أنـه بعـد أن أتم النبي (ص) والمسلمـون أداء الفريضة ، وبلغهم وصـاياه للتمسك بالدين والتعاون كما أوصـاهم بالمرأة خيراً وفقاً للخطبـة التي ذكرت في المقـدمة ، تـوجّه وجميع الحجـاج إلى المدينة حتى وصلـوا إلى منطقة يفترق فيها الحجيج ، وهـي المعروفة بغدير خم ، وذلـك في اليوم الثامن عشر

من ذي الحجة السنة العاشرة للهجرة[١٧٥] .

وهناك، نـزل عليه أمين الـوحي جبرئيل بـآيـةٍ تتضمَّن أمراً إلهيـاً مباشراً للرسول(ص) بتنصيب علي إماماً وخليفة له على الأمة من بعده، كما تتضمن وعداً إلهيّاً بحمايته من الناس إذا كان يخشى ذلك: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس. . . ﴾**[١٧٦] .

كان ذلك اليوم قـائظاً شديد الحر، فـورد أن أكثر الحاضرين كان يلف رداءه على قدميه من شدة الحر. فأمر بدوحات هناك فقُمّ ما تحتها، وأمر بجمع الرحال ووضع بعضها على بعض ثم أمـر مناديه فنـادى في الناس: الصـلاة جامعة فـاجتمعوا من رحالهم، فصعـد على تلك الرحال حتى صـار في ذروتها واصعد علياً معـه حتى قام عن يمينه ثم خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ فأبلغ في الموعظة ونعى إلى الأمة نفسه الشريفة وقال: «إني قـد دعيت ويوشك أن أجيب وقد حان مني خفوق من بين أظهركم وإني مخلف فيكم مـا إن تمسكتم به لن تضلوا من بعـدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

ثم نادى بأعلى صـوته: «ألست أولى بكم منكم بأنفسكم؟» قـالوا: اللهم بلى، فقال لهم على النسق وقد أخذ بضبعي علي فـرفعهما حتى بان بياض ابطيهما: «فمن كنت مـولاه فهـذا علي مـولاه اللهم وال من والاه وعـاد مـن عـاداه وانصر من نصره وأخـذل من خذله»[١٧٧] . ثم نـزل فصلى ركعتين، ثـم زالت الشمس، فصلى بهم صلاة الظهر وجلس في خيمته وأمر علياً أن يجلس في خيمة له بإزائه وأمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً يهنئونه بمقام الإمامة ويبايعونه بإمرة المؤمنين.

ففعل جميع الحاضرين ما أمـرهم الرسول (ص) في ذلك المشهـد العظيم، وكان يقول (ص) كلما أتى فـوج: «الحمد لله الذي فضلنـا على العالمين»[١٧٨] . وبعد أن فـرغ الرجـال أمـر الرسـول أزواجـه وسائر نسـاء المؤمنين ممن معـه أن يدخلن عليـه ويسلمن عليه بـامرة المؤمنين ففعلن ما أمـرن ولم يتخلف رجل أو امرأة عن المبـايعة ذلك اليوم لعلي بالإمامة وأمرة المؤمنين. وكان عمر بن الخطاب ممن غبط علياً بذلك المنصب فقـال فيما قـال: «بخ بخ لك يـا علي أصبحت مـولاي ومـولى كل مؤمن

ومؤمنة»(١٧٩) . وقد استأذن حسان بن ثابت رسول الله في وصف ذلك المشهد فقال له رسول الله (ص) . «قل يا حسان على اسم الله» فوقف على نشز من الارض، واشرأبت أعناق المسلمين لسماع شعره فأنشأ يقول(١٨٠) .

يناديهم يوم الغدير نبيهم ... بخم، واسمع بالرسول مناديا
وقال: فمن مولاكم ووليكم ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا ... ولن تجدن منا لك اليوم عاصياً
فقال له قم يا علي فإنني ... رضيتك من بعدي إماما وهادياً
فمن كنت مولاه فهذا وليه ... فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه ... وكن للذي عادى علياً معادياً

وبعد فراغ حسان من القاء الأبيات في وصف يوم الغدير، قال له رسول الله(ص) :

«لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك»(١٨١) .

وقد نزلت على رسول الله (ص) في غدير خم بعد تنصيبه علياً إماماً وخليفة للأمة من بعده هذه الآية :

﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾(١٨٢) فقال رسول الله (ص) : (الله أكبر على إكمال الدين ورضى الرب برسالتي والولاية لعلي «ع»). وهذا التفسير يرويه اتباع مدرسة الإمامة عن العترة النبوية. ويوصف أهل البيت كما يقول ابن حجر بأربعة الفاظ : آل رسول الله ، أهل البيت ذوو القربى والعترة(١٨٤) . لقد وصف الرسول في خطبته بغدير خم تركته في أمته الكتاب والعترة بالثقلين للأهمية العظمى لكل منهما في حياة الأمة لأن الرسول (ص) قد أكد على أن في التمسك بهما النجاة وفي مخالفتهما الهلاك(١٨٥) . فإذا كان القرآن والسنة هما مصدرا التشريع في الإسلام، ، فإن خير مؤتمن عليهما هم العترة لطهارتهم وعصمتهم كما ورد في آية التطهير ومكانتهم العظمى عند الله ورسوله كما ورد في آية المباهلة بالإضافة إلى أنهم أعلم الناس بتفسير القرآن والإحاطة الكاملة بالسنة النبوية .

ويؤكد على ذلك جميع الرواة وكتاب السيرة من مدرستي الإمامة والخلافة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن وصيته (ص) بالثقلين قد وردت أيضاً في خطبته يوم عيد الأضحى بمنى[١٨٦]. أما عن حديث الولاية لعلي يوم غديرخم، فجاء في قوله تعالى: ﴿وقفوهم انهم مسؤولون﴾[١٨٧] حيث أخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ص) قال: «وقفوهم انهم مسؤولون عن ولاية علي»[١٨٨] ويذكر ابن حجر: «وكأن هذا هو مراد الواحدي بقوله: روي في قوله تعالى: وقفوهم انهم مسؤولون عن ولاية علي وأهل البيت، لأن الله أمر نبيه (ص) أن يعرف الخلق أنه لا يسألهم عن تبليغ الرسالة أجرا إلا المودة في القربى، المعنى أنهم يسألون هل والوهم حق الموالاة كما أوصاهم النبي (ص) أم أضاعوا الوصية وأهملوها فتكون عليهم المطالبة، والتبعة»[١٨٩].

وقد ذكر حديث الثقلين والموالاة غالبية الرواة وكتاب السيرة من اتباع مدرسة الخلافة مثل، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الذي كتب في حديث الغدير مجلدين تناول فيهما بالشرح والتحليل كل ما يتعلق بهذا الموضوع بالإضافة إلى الإمام أحمد حنبل في مسندة والنسائي في سننه، وابن ماجه وابن حجر في صواعقه وابن كثير في تاريخه والحاكم في المستدرك، والذهبي في تلخيص المستدرك والسيرة الحلبية وغيرها. ويمكن القول إن تناول موضوع الغدير والوصية ليس من مهمات هذا البحث، ولذلك يمكن الاكتفاء بهذا القدر فيما يتعلق بموضوع الغدير. ومن الجدير بالذكر أن أتباع مدرسة الإمامة يحتفلون بيوم الغدير وهو الثامن عشر من ذي الحجة في كل عام ليس فقط في العالم الإسلامي بل في أوساط أتباع مدرسة الإمامة في جميع أرجاء المعمورة حيث تقام المآدب والمهرجانات الأدبية يتحدثون فيها عن أمجاد الأمة الإسلامية ودور أهل البيت في توطيد دعائم الإسلام والدعوة لانتهاج سبيلهم لإعادة أمجاد الأمة.

إن السيدة فاطمة الزهراء واحدة من المجتمع النسائي المسلم اللاتى شهدن يوم الغدير، وشاركت النساء المسلمات في المبايعة لعلي بإمرة المؤمنين، لقد فرحت بانتصار الإسلام ورأت عشرات الآلاف وهم يلهجون بذكر الله والتلبية في مكة انه

انتصار ونجاح لنبوة والدها وجهوده وتضحيات المسلمين بما يملكون، وفي مقدمتهم المهاجرون والأنصار. انه ثمرة لجهاد دام ثلاثة وعشرين عاماً، وها هي تعود إلى المدينة عزيزة بعز الإسلام، فرحة بنجاح والدها بتأمين مستقبل الدين والأمة بتنصيب ابن عمها إماماً وهادياً للأمة بعد والدها.

وصار المسلمون يلقبون علياً وصي رسول الله (ص) منذ ذلك اليوم وحتى فترة إمارته يوم آلت إليه امرة المؤمنين بعد ربع قرن من وفاة رسول الله (ص) كما يتضح ذلك من روايات الصحابة وأشعارهم(١٩٠).

ومن الأمثلة على ذلك كما ينقل ابن أبي الحديد مخاطبة أبو الهيثم بن التيهان ـ وكان بدريا ـ لبعض قادة حرب الجمل بقوله(١٩١).

قل للزبير، وقلْ لطلحة اننا	نحن الذين شعارنا الأنصار
نحن الذين رأت قريش أننا	يوم القليب أولئك الكفار
كنا شعار نبينا ودثاره	يفديه منا الروح والابصار
ان الوصي امامنا وولينا	برح الخفاء وباحت الأسرار

٩ ـ حضور الزهراء مرض أبيها (ص) ووفاته:

تزامن مرض الرسول (ص) مع الإعداد العسكري لغزو الروم، وذلك في شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة، حيث أمر جميع المسلمين بالخروج للقتال بقيادة اسامة بن زيد بن حارثة حيث عقد الرسول (ص) لأسامة اللواء بيده فخرج وعسكر بالجرف خارج المدينة، ليكون مكاناً للتجمع والانطلاق، وكان أسامة في أول شبابه ولما طعن بعض المسلمين في إمارته تأذى رسول الله من ذلك وقال (ص): «ان تطعنوا في امارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل وإيم الله إن كان خليقاً للإمارة وان كان لمن أحبَّ الناس إليَّ وانَّ هذا لمن أحبَّ الناس إليَّ بعده»(١٩٢). وحينما رأى الرسول (ص) تردد بعض المسلمين عن الخروج وتجهيز جيش أسامة، صار يذهب إلى المسجد عدة مرات، وهو معصب الرأس لشدة الألم ويدعو المسلمين من على منبره للتوجه إلى المعسكر للحاق بجيش أسامة. وهناك من يعتقد

أن الرسول (ص) أراد تفريغ المدينة كلية من وجهاء الأنصار والمهاجرين ليوفر المناخ الأمني الملائم لانتقال السلطة سلمياً ويمنع حدوث صراع السلطة بعد وفاته أو حدوث تغيير (١٩٣) . وكانت فاطمة الزهراء قد رأت والدها (ص)، قبيل مرضه يكثر زيارة القبور في البقيع وشهداء أحد ويستغفر لهم، بعد أن يسلم عليهم ويخاطبهم بكلمات تشعر بدنو أجله(١٩٤) وكان الرسول (ص) قد بدأ به المرض في بيت زوجته أم سلمة ثم استأذن زوجاته أن يمرض في بيت عائشة كما ينقل عنها(١٩٥).

ولازمت فاطمة وعلي والعباس بن عبد المطلب الرسول (ص)، طوال مرضه في بيت عائشة وحتى وفاته. وقد شاهدت معاناة والدها في مرضه وسمعت من أبيها ما قاله لأصحابه حينما كانوا يأتون لزيارته، فكانت تتألم كثيراً وتبكي لفراقه حينما سمعته ينعي نفسه لأصحابه ولأهله، فكان الرسول (ص) يهون عليها ويأمرها بتحلي الصبر. فكانت، على الرغم من احساسها بألم الفراق ولوعته، إلا أنها كانت تتجلد وتصبر ولا تبدى ما في نفسها لأحد. وخاطب الرسول (ص) المسلمين في المسجد، وهو في مرضه وطلب منهم براءة ذمته كما عرض نفسه عليهم، لكي يقتص منه أي انسان لحقته منه ظلامة. وكذلك خطبهم في بيت زوجته عائشة وأخبرهم بدنوّ أجله والزهراء تسمعه(١٩٦) فأيقنت بنهاية أيامه وكذلك نهاية أيامها كما أخبرها بذلك فيزداد ألمها لفراقة وحرمانها وأطفالها من حنانه وحبه العظيم، الذي لا يمكن أن يعوض وغالباً ما كانت الزهراء مع ولديها الحسن والحسين يحيطون برسول الله (ص) خلال مرضه لأنه لا يطيق فراقهم(١٩٧) وفي يوم الخميس قبيل وفاة الرسول حيث اشتد به الألم فكان يغمى عليه مرة ويفيق أخرى طلب من الحضور أن يؤتى إليه بدواة وكتف ليكتب كتاباً يهتدي به المسلمون بعد موته، فحيل بينه وبين ما طلب، والزهراء تسمع وتنظر كلّ الذي حدث وكان النساء والأطفال والحاضرون يجهشون بالبكاء لما حل برسول الله من ألم المرض(١٩٨) . وقد سمى عبد الله بن عباس يوم الخميس بيوم الرزية لاختلاف الحاضرين على تمكين رسول الله (ص) من كتابة وصيته إلى الأمة لضمان وحدتها واستقامتها فعن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله(ص) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي (ص): «هلموا أكتب

لكم كتاباً لن تضلوا بعده» فقال عمر: قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبكم كتاب الله. فاختلف الحاضرون(١٩٩) واختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم النبي (ص) كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله (ص) قوموا عني قال عبيد الله فكان ابن عباس يقول: «إن الرزيَّة كل الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم» (٢٠٠).

ورُوِيَ هذا الحديث بصيغ مختلفة إلا أن مضمونه واحد. فقد روى سعيد بن جبير قال ان ابن عباس رحمه الله يقول يوم الخميس وما يوم الخميس ثم يبكي حتى تبلَّ دموعه الحصباء فقلنا وما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول الله (ص) وجعه فقال ائتوني باللوح والدواة، أو قال بالكتف والدواة أكتب لكم مالا تضلون بعدي فتنازعوا، فقال اخرجوا ولا ينبغي عند نبي أن يتنازع قالوا ما شأنه اهجر استفهموه فذهبوا يعيدون عليه فقال: «دعوني فما أنا فيه خير مما تدعوني إليه»(٢٠١).

وروى ابن حجر أيضاً ان رسول الله (ص) قال في مرض موته دون تحديد للمكان، ويحتمل أن يكون المسجد: «أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي وقد قدمت إليكم القول معذرةً إليكم ألا اني مخلِّف فيكم كتاب ربي عزَّ وجل وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض فأسألهما ما خُلِّفتُ فيهما»(٢٠٢).

وكان رسول الله (ص) قد قال في علي أحاديث كثيرة تبين مكانته عند الله، لتفانيه في سبيل الله ليس هذا موضعها، ويكتفي المؤلف منها بالحديث الذي يرويه ابن حجر قال: «اخرج أبو نعيم وابن عساكر عن أبي ليلى« أن رسول الله (ص) قال: «الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل يس فقال يا قوم اتبعوا المرسلين، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم»(٢٠٣) لقد عاشت فاطمة الزهراء كل هذه الأحداث وسمعت الكثير مما قاله الرسول (ص) في مكانة ابن عمها علي (ص) وعرفت توجهات بعض وجهاء المسلمين تجاه المستقبل السياسي لدولة النبوة من خلال المواقف التي حضرتها فهناك جيش على أبواب المدينة وقد تقاعس بعض المسلمين عن الإنصياع لأمر الرسول

والالتحاق بـه. وها هو الـرسول يخذله المسلمـون في بيته ويحولون بينـه وبين تدوين كتـاب يتعلق بمصلحة دولـة النبوة ومستقبلهـا نتيجـة الاختلاف، وهـا هو القـرآن الكريم يتنبأ بانقلاب المسلمين على أعقابهم بعد موت رسول الله (ص) لقوله تعالى:

﴿ومـا محمد إلا رسـول قد خلت من قبلـه الرسل أفإن مـات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾[٢٠٤].

ومات رسـول الله (ص) بكمده وهو يرى بـوادر اختلاف الأمة، وكـان ذلك يوم الاثنين قيل في صفر وقيل في ربيع الأول في السنة الحادية عشرة للهجرة. وتولى غسله بناء على وصية منه علي بن أبي طالب وساعده كل من الفضل بن العباس وأسامة بن زيد كما قام علي بتكفينه[٢٠٥].

وعاد أسامة بن زيد حينما ثقل رسول الله ثم عاد من معه إلى المدينة دون تحقيق ما أراده الرسول (ص)[٢٠٦]. وكـان علي بن أبي طـالـب أقـرب الناس عهـدا بـرسـول الله(ص) كما روت ذلك زوجتاه عائشة وام سلمة.

روى الطبري عن أم سلمة (ر) قالت: «والذي أحلف ان كان علي لأقرب الناس عهدا برسول الله (ص) قالت: عدنا رسول الله (ص) غداة بعد غداة يقول جاء علي وأظنه كان بعثـه في حاجة فجاء بعد فظننت أن لـه حاجة فخرجنـا من البيت قعدنا عنـد البـاب فكنت من أدنـاهم إلى الباب فـأكبّ عليه فجعـل يساره ويناجيـه ثم قبض(ص) يومه ذلك فكان أقرب الناس به عهدا»[٢٠٧] يتضح من خلال حديث أم سلمة وكذلك من حديث عائشة المماثل مـدى تعلق الرسول (ص) بابن عمه فكان حريصاً على ان يكون بجانبه قبل أن يحين الفراق حتى يتمكن من تزويده بما بقي من الوصايا والأسرار التي تتعلق بإمامته ودوره المناط به في الأمة. كان ابن عباس يلقب بحبر الأمة لمكانته العلمية المرموقة، فلماذا كانت تسيل دموعه على خديه كأنها اللؤلؤ المنظوم حينما يتذكر يوم الخميس الذي سماه «يوم الرزية»، ألأن الحاضرين حالوا بين الرسول وبين تثبيت بيعة الغدير في كتاب لتكـون ثابتة في أعناق الأمة إلى يوم القيامة وليكون وثيقـة تاريخية ضـد من تسول لـه نفسه التطاول على عهـد رسول الله (ص) للأمة.

إن أحاديث الرسـول (ص) التي توضح مكانة علي والمهـام العظيمة التي قام بها لخدمة الإسـلام بشهادة الرسـول (ص) كلها تجعله مـؤهلاً لقيادة الأمـة وإذا كانت تلك الأحـاديث المدونة في حق علي كلهـا صحيحـة فإن التطاول على علي وحقـه في الخلافة تطاول على الله ورسوله والأمة الإسلامية.

ومما قاله الإمام علي وهـو يلي غسل رسول الله وتجهيزه كما أمره: «بأبي أنت وأمي، يا رسـول الله لقد انقطع بموتك مـا لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبـاء وأخبار السماء. وخُصِصْت حتى صرت مسليـا عمن سـواك. وعممْتَ حتى صار النـاس فيك سواء. ولولا أنـك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفذنـا عليك ماء الشؤن. ولكان الـداء مماطلاً والكمدُ محالفـاً. وقلاّ لك ولكنه مـالا يملك رده. ولا يستطاعُ دفعه. بأبي أنت وأمي اذكـرنا عند ربك واجعلنـا من بالك»(٢٠٨) انها كلمات تأبينية بليغة تصدر من قلب يفيض حبـاً وولاء وطاعة وإيماناً وحزنـاً عميقاً، كما تعبر هذه الكلمات عن حجم الرزية التي عمت آل رسول الله بشكل خـاص والأمة الإسلامية بشكل عام، وصلى المسلمون على رسول الله (ص) بدون امام: الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد أفـواجاً، أفواجاً وسبق علي الجميع بالصلاة عليـه ودفنه في بيته ـ وهو المكان الذي قبض فيه منتصف ليلة الاربعاء ونزل في قبره علي والفضل ووالده، العباس بن عبد المطلب وأسامة بن زيد(٢٠٩).

١٠ ـ فاطمة الزهراء وموت أبيها:

حينما توفي الرسول (ص) كانت فاطمة قد أذهلتها المصيبة فتارة يغشى عليها من شـدة البكاء والحزن، وتـارة تفيق حتى تم دفن أبيها في قبره. ثم تحاملت نفسهـا إلى القبر ومشت والقت بنفسهـا على قبر حبيبهـا وعـزهـا فأغشي عليهـا. ولما أفـاقت أخـذت حفنة من تـراب القبر وأدنتهـا من عينيهـا اللتين قرَّحهما البكـاء، كما روى البخاري وراحت تشمها وتقول:

مـاذا على من شم تـربـة أحمد	ألا يشم مـدى الـزمـان غـواليـا
صبت عليّ مصـائب لـو أنها	صبت على الأيـام عـدن ليـاليـا

وقد تأثر المسلمـون لبكائها رجالاً ونسـاء، وشاركوها أحـزانها، وهم يشاهدونها

تقلب تربة قبر أبيها بيديها وتشمّها وتقول:

إنـا فقـدنـاك فقـد الأرض وابلهـا — وغاب مذ غبت عنّا الوحي والكتب

فليت قبلك كـان الموت صـادفنـا — لما نعيت وحـالت دونك الكثب

ثم التفتت إلى أنس بن مـالك قائلة: «يـا أنس، كيف طابت نفـوسكم أن تحثوا التراب على رسول الله؟»[٢١٠]. ومن الألفاظ التي اشتهـرت بها فاطمة بنـدب أبيها يوم موته، وبعد ذلك اليوم:

«يا أبتـاه، جنة الخلـد مثواه يا أبتاه عند ذي العـرش مأواه يا أبتـاه كان جبرائيل يغشاه يا أبتاه لستُ بعد اليوم أراه»[٢١١].

ومما يثبت عظم فـاجعة فاطمـة الزهراء بفقد رسـول الله أنها لم تر ضاحكـة طوال حياتها بعـده وهي حياة تتجاوز الأيـام كما جاء في رواية الإمـام الصادق (ع)[٢١٢]. وجاء عن الإمـام علي (ع) أنه قـال: «لقد غسلت النبي في قميصـه فكانت فـاطمة تقول لي: أرني القميص يـا أبا الحسن، فإذا أريتها إياه أخذتـه وشمته وبكت حتى يغشى عليها، فلما رأيت منها ذلك غيبته عنها»[٢١٣].

وحدث ابن شهر أشوب عن حزنها البالغ في مناقبه قائلاً:

«انها ما زالت بعد أبيهـا معصبة الرأس ناحلة الجسم، منهدة الـركن باكية العين محترقة القلب يغشى عليها ساعة بعد ساعـة، وتقول لولديها: «أين أبوكما الذي كان يكرِّمكما ويحملكما، أين أبوكما الذي كان من أشد الناس حباً لكما وشفقة عليكما».

ولا تزال تعـدد معاملته الحنـونة لهما ومواقفـه منهما حتى يغشى عليها[٢١٤]... واستمر حزن فاطمـة الزهراء وبكاؤها على فراق أبيهـا حتى تأذى منها أهل المدينة، وقـالوا لها: «لقـد آذيتنـا بكثرة بكـائك» فاضطـرت للخـروج إلى المقابـر في البقيع، فتجلس حتى تقضي وطرهـا من البكـاء، ثم تعود إلى بيتهـا كما روى الصـدوق في أماليه عن الإمام الصادق (ع)[٢١٥]. وروى أنها تضررت من حرارة الشمس فبنى لها الإمام علي بيتاً في البقيع كانت تأوي إليه في ساعات من الليل والنهار تبكي أباها فيه سمِّي بيت الأحزان، مصحوبة ببعض النسوة[٢١٦].

وبما ضاعف من أحزانها بعد وفاة أبيها موقف سلطة الخلافة، بشكل خاص والمسلمين بشكل عام من آل رسول الله، لما لحقهم من الظلم والجور وتربة قبر الرسول لم تجف بعد فكانت ترثي والدها كما جاء في مناقب ابن شهر اشوب وتبثه أحزانها، بل وتعبر من خلال هذه الأبيات عن الضيم والظلم الذي لحقها قائلة: (٢١٧)

قل للمغيب تحت أطباق الثرى إن كنت تسمع صرختي وندائياً
صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا
قد كنت ذات حمى بظل محمد لا أختشى ضيما وكان جماليا
فاليوم أخشع للذليل واتقي ضيمي وأدفع ظالمي بردائيا
فإذا بكت قمرية في ليلها شجنا على غصن بكيت صباحيا
فلأجعلن الحزن بعدك مؤنسي ولأجعلن الدمع فيك وشاحيا
ماذا على من شم تربة أحمد أن لا يشم، مدى الزمان، غواليا

كذلك أورد أحمد زيني دحلان في السيرة النبوية، هذه الأبيات لفاطمة الزهراء، وهي ترثي الراحل العظيم بقولها(٢١٨).

اغبر آفاق السماء وكوّرت شمس النهار وأظلم العصران
والأرض من بعد النبي، كئيبة أسفاً عليه وكثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربه وليبكه مضر وكل يماني

وجاء في مناقب ابن شهر اشوب، أيضاً من رثاء الزهراء البيتين التاليين اللذين ينسبهما أحمد بن زيني دحلان في السيرة النبوية، لحسان بن ثابت(٢١٩).

كنت السَّواد لناظري فعليك يبكي الناظرُ
من شاء بعدك فليمت فعليك كنتُ أحاذر

وجاء في رواية الصدوق لما قبض النبي (ص) امتنع بلال من الأذان، وقال: «لا أؤذن بعد رسول الله (ص)». فقالت فاطمة ذات يوم: «إني أشتهي أن أسمع صوت بلال مؤذن أبي، فأخذ في الأذان فلما قال: الله أكبر ذكرت أباها وأيامه ولم تتمالك

نفسها عن البكاء فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله شهقت وسقطت لوجهها وغشي عليها. فقال الناس: «أمسك عن الأذان يا بلال فإن ابنة رسول الله قد فارقت الدنيا» فلما أفاقت من غشوتها سألته أن يتم الأذان فلم يفعل وقال لها: يا سيدة النساء إني أخشى عليك مما تنزلينه بنفسك إذا سمعت صوتي»، فأعفته من ذلك(٢٢٠).

ويتضح مما سبق أن فاطمة الزهراء كانت متعلقة بوالدها منذ سنوات طفولتها الأولى، لفقدانها أمها فأصبح يمثل كل آمالها وحياتها على الرغم من زواجها وإنجابها خيرة النسل البشري. وتتحدث الزهراء عن المصائب التي لحقت العترة من سلطة الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة.

١١ ـ فاطمة الزهراء وسلطة الخلافة:

قال الله تعالى مخاطباً المسلمين بالأمر: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم. . .**﴾(٢٢١) لماذا لم يستجب المسلمون وخاصة وجهاؤهم امثال ابي بكر الصديق، عمر بن الخطاب، سعد بن أبي وقاص، أبي عبيدة بن الجراح وغيرهم لدعوة الرسول في اللِّحاق بجيش أسامة؟

لماذا حال الحاضرون عند رسول الله، يوم الرزية بينه وبين كتابة عهده للأمة؟ وما هي أبعاد التنبؤ القرآني بالإنقلاب بعد وفاة الرسول؟ لماذا وجه الرسول (ص) إلى علي السؤال التالي الذي ورد في هذا الحديث؟.

روى الطبري، عن علي بن أبي طالب قال رسول الله (ص): «كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة ورغبوا في الدنيا، وأكلوا التراث أكلا لمّا وأحبوا المال حباً جمّاً واتخذوا دين الله دغلا، ومال الله دولا؟ قلت أتركهم وما اختاروا وأختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأصبر على مصائب الدنيا وتقواها حتى ألحق بك ان شاء الله تعالى»

قال: «صدقت، اللهم افعل ذلك به»(٢٢٢).

لماذا تنبأ الرسول (ص) بالتشريد والمطاردة والبلاء لأهل بيته؟ روى ابن حجر أن رسول الله (ص) رأى فتية من بني هاشم فاغرورقت عيناه، وتغير لونه ثم قال: «إنا

أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءاً وتشريداً وتطريداً»(٢٢٣).

لماذا أخبر الرسول (ص) المسلمين بارتداد جماعة من أصحابه واقدامهم على التغيير؟ وما هو هذا التغيير أو الإحداث الذي يقصده؟ كما جاء في الحديث التالي الذي ورد بصيغ مختلفة ومضمون واحد. روى البخاري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خطب رسول الله (ص) فقال: «يا أيها الناس انكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً» ثم قال: ﴿ ... **كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين**﴾(٢٢٤) ثم قال: ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وانه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول يا ربّ أصحابي فيقال انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ **ما دمتُ فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم** .. ﴾(٢٢٥) فقال: «ان هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»(٢٢٦).

من هم المرتدون على أعقابهم منذ أن فارقهم الرسول (ص)؟ وهذا أحد أصحاب الرسول (ص) وواحد من الذين رووا الكثير من الأحاديث عن رسول الله يعترف بالاحداث كما في الحديث التالي، فما هو هذا الإحداث؟

روى البخاري عن العلاء بن المسيب، عن أبيه قال:

«لقيت البراء بن عازب، فقلت: طوبى لك صحبت رسول الله (ص) وبايعته تحت الشجرة. فقال: يا ابن أخي إنك لا تدري ما أحدثنا بعده»(٢٢٧).

إن الإجابة على جميع هذه الأسئلة يمكن معرفتها بشكل تفصيلي في دراسة مستقلة ستصدر للمؤلف لاحقاً، وسيكتفي هنا، بتوضيح الإجابة على تلك الأسئلة بشكل مختصر.

إن ظهور سلطة الخلافة كقيادة للأمة الإسلامية، في دولة النبوة بعد رحيل النبي(ص)، والمتمثلة في شخصية الصحابيين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب والتي تمخّضت عن اجتماع السقيفة والرسول (ص) لم يقبر بعد ان سلطة الخلافة هذه ليست وليدة السقيفة وإنما كانت السقيفة محطة أو معبراً فهي وليدة تخطيط مسبق.

ومن العلامات البارزة للعيان ذلك التخطيط المسبق وآية الإنقلاب وحديث الإنقلاب وتجاهل دعوة الرسول للالتحاق بجيش أسامة وتوجهه إلى بلاد الروم ويوم الرزية وترتب على ذلك كلّه توديع الرسول (ص) للدنيا، وهو كسير القلب لما سيحدث لأمته من تمزق ولشريعته من تشويه حيث عاش الإرهاصات بشكل جلي.

١٢ ـ سلطة الخلافة:

بعد أن علم الأنصار بموت الرسول اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة[٢٢٨]. وكان الأوس والخزرج أكبر تجمعين قبليين للأنصار فحضروا ذلك الاجتماع وكان رئيس الخزرج سعد بن عبادة بن ديلم بن حارثة الخزرجي، وأسيد بن خضير الاوسي زعيم الأوس وتحاوروا في مسألة الخلافة ومن أحق بها المهاجرون أم الأنصار فيما بينهم وقدوم بعض وجوه المهاجرين إلى ذلك الاجتماع وهم أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح.

وقد تمَّت لأبي بكر، كان عمر بن الخطاب هو بطل السقيفة الذي حسم الأمر بسرعة لصالح المهاجرين قبل أن يستأثر به الانصار فكان أول المبايعين، ولحقه أبو عبيدة ثم بشير بن سعد الخزرجي. ثم تبعهم الباقون، غير أن سعد بن عبادة الذي كان مريضاً ذلك اليوم لم يبايع وقاطع سلطة الخلافة[٢٢٩]. ولعمر بن الخطاب مقولة بشأن الطريقة التي تمت بها بيعة أبي بكر قالها في فترة خلافته: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها فمن عاد (أو فمن دعاكم) إلى مثلها فاقتلوه»[٢٣٠] وكانت المعايير التي اعتمدها عمر، في تقديم أبي بكر ومبايعته للخلافة السنّ والأسبقيّة للإسلام وصحبة الرسول في الغار عند الهجرة.

ورُوي أنه لما ولي أبو بكر الخلافة كان أبوه أبو قحافة بالطائف. فلما بويع لأبي بكر كتب لأبيه كتاباً، عنوانه: من خليفة رسول الله (ص) إلى أبيه أبي قحافة. أما بعد، فإن الناس قد تراضوا بي فاني اليوم خليفة الله، فلو قدمت علينا كان أحسن بك. فلما قرأ أبو قحافة الكتاب، قال للرسول: «ما منعكم عن علي؟» قال: هو حدث السن وقد أكثر القتل في قريش وغيرها، وأبو بكر أسن منه قال أبو قحافة إن كان الأمر في ذلك بالسن فأنا أحق من أبي بكر، لقد ظلموا علياً حقه وقد بايعه

النبي(ص) وأمرنا ببيعته، ثم كتب من أبي قحافة إلى أبي بكر أما بعد، فقد أتاني كتابك فوجدته كتاباً أحمق ينقض بعضه بعضا، مرة تقول خليفة رسول الله . ومرة تقول خليفة الله ومرة تقول تراضوا بي الناس، وهو أمر ملتبس فلا تدخلن في أمر يصعب عليك الخروج منه غداً وتكون عقباك منه إلى الندامة وملامة النفس اللوامة لدى الحساب يوم القيامة، فإن للأمور مداخل ومخارج وأنت تعرف من هو أولى منك، فراقب الله كأنك تراه ولا تدعن صاحبها، فإن تركها اليوم أحق عليك وأسلم لك»(٢٣١) وكان أبو قحافة في ذلك الوقت منقطعاً في بيته مكفوفاً عاجزاً عن الحركة، وتوفي في عهد عمر سنة ١٤ هـ وسنّه سبع وتسعون سنة(٢٣٢) . أما عمر بن الخطاب فقد أوضح خلال الخلافة لابن عباس: «إن أولى الناس بالأمر بعد رسول الله هو علي، إلا اننا خفناه على اثنتين: حداثة سنة وحبه بنى عبد المطلب»(٢٣٣) وكان عمر علي عند وفاة الرسول (ص) ثلاثا وثلاثين سنة، كما تشير إلى ذلك أغلب الروايات. كما روى الثقفي والسدى أن عمر قال:

«إن النبوة والإمامة لا تجتمعان في بيت واحد»(٢٣٤) . ومع أن غالبية مجتمع المدينة بايعت ابا بكر، إلا أن حركة معارضة علنية حدثت لسلطة الخلافة بالمدينة قادتها ثلة من كبار الصحابة. ستة من المهاجرين هم: خالد بن سعيد بن العاص، سلمان الفارسي، أبو ذر الغفاري، المقداد بن الأسود الكندي، عمار ابن ياسر، وبريدة الأسلمي. ومن الأنصار قيس بن سعد بن عبادة، أبو الهيثم بن التيهان، خزيمة ابن ثابت ذو الشهادتين، أبي بن كعب، سهل بن حنيف، وأبو أيوب الأنصاري، فهؤلاء الاثنا عشر صحابياً امتنعوا عن البيعة(٢٣٥) وبدأت اتصالات حركة المعارضة منذ مساء اليوم الذي توفى فيه الرسول (ص).

إلا أن المواجهة العلنية الخطابية مع سلطة الخلافة، ، تأخرت لغياب بعض شخصياتها خارج المدينة مثل بريدة الأسلمي وخالد بن سعيد بن العاص(٢٣٦) .

ولذلك حينما علم الخليفة أبو بكر وعمر بن الخطاب بهذا التحرك أرادوا محاصرته واحتواءه بسرعة، فتشاوروا مع أبي عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة، وهؤلاء كانوا جميعهم يمثلون أركان السلطة، في الليلة نفسها، والتقوا العباس بن عبد المطلب

حيث عرضوا استمالته إليهم، وأغروه باشراكه وعقبه في السلطة، ولكنّه امتنع من التعاون معهم[٢٣٧].

١٣ ـ سلطة الخلافة والعترة:

استشار رجال المعارضة من المهاجرين والأنصار علياً فيما يأمرهم بفعله لاعتقادهم بحقه في الخلافة واستنكارهم لما تم في سقيفة بني ساعدة. فأوضح إليهم ما أوعز إليه رسول الله (ص) من غدر الأمة وانقلابها بعده وتكليفه بالجهاد إذا توفر الناصر، وبالكف في حال الخذلان.

وبين الإمام علي لرموز المعارضة أنه اصطحب زوجته وولديه ليلاً ومرّ بهم على بيوت البدريين، وذلك بعد دفنه رسول الله (ص) لإلقاء الحجة على الناس وتنفيذاً لأمر الرسول (ص)، قال: «فما أجابني إلا أربعة وهم: المقداد، سلمان، أبو ذر الغفاري، وعمار»[٢٣٨].

وأخيراً أشار عليهم الإمام علي بالألتقاء بأبي بكر بأجمعهم وتعريفه ما سمعوه من رسول الله (ص) لتأكيد الحجة عليه، فذهبوا إلى المسجد فأحدقوا بالمنبر، وكان يوم جمعة. فلما صعد أبو بكر المنبر بدأ فريق المهاجرين الحوار مع أبي بكر، وكان أول المتحدثين خالد بن سعيد بن العاص، وقد ذكّر رجال المعارضة أبا بكر في كلماتهم بجميع الأحاديث والآيات والمقامات التي نصت على مكانة العترة، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب[٢٣٩].

ويقول راوي الخبر، عن الإمام الصادق (ع)، ابان بن تغلب:

وأفحم أبو بكر على المنبر فأنزله عمر، وقال له: «يا لكع، إذا كنت لا تقوم بحجة فلم أقمت نفسك هذا المقام؟ والله لقد هممت أن أخلعك وأجعلها في سالم مولى حذيفة، وانطلقا فلم يدخلا مسجد رسول الله (ص) إلا بعد ثلاثة ايام[٢٤٠].
وفي اليوم الرابع، حضر رجال سلطة الخلافة بأجمعهم يحرسهم أربعة آلاف سيف في مقدمتهم عمر وخالد بن الوليد وسالم مولى حذيفة ومعاذ بن جبل فدخلوا المسجد شاهرين السيوف، فقال عمر: «والله، ياصحابة علي، لئن ذهب الرجل منكم يتكلم بالذي تكلم به بالأمس، لنأخذن الذي فيه عيناه»[٢٤١].

وكـان جميع الممتنعين عن البيعـة بـالمسجـد، وهم علي والهاشميين وجماعـة المعارضةـ الاثني عشرـ وأوشكت أن تحدث مواجهة بين الفريقين لـولا أن تداركها علي فصرف أصحابه من المسجد، وقـال: والله لا أدخل إلا لزيارة رسول الله (ص) أو لقضيـة أقضيها، فإنـه لا يجوز لحجـة أقامـه رسول الله (ص) ان يترك النـاس في حيرة»(٢٤٢).

ونتيجة لتأخر علي عن البيعـة مع بني هاشم وباقي المعارضين فـان رجال سلطة الخلافة رأوا أن استمرار ذلك الوضع يشكل خطراً على كيانها السياسي الوليد خاصة لما يتمتع به المعارضون للبيعة مع قلتهم من مكـانة في المجتمع الإسلامي آنذاك سواء داخل المدينة أم خارجهـا ولذلك قرّروا الالحاح على علي للمبايعـة، خاصة وأن بيت علي صار ملتقى للمعارضين لسلطـة الخلافة فصاروا يبعثون الرسل إليـه يحثونه على المبايعـة، ويحدث ابن أبي الحديد عن غسان بن عبد الحميـد في شأن الحاح السلطة على مبايعة علي قائلاً: «لما أكثر في تخلف علي (ع) عن بيعـة أبى بكر واشتد أبو بكر وعمر عليـه في ذلك خرجت أم مسطح بن أثـاثة، فـوقفت عند قبر الـرسول (ص) وقالت: (٢٤٣).

كـانـت أمـور وأنبــاء وهنبثـة ... لو كنت شاهـدها لم تكثر الخطب
انـا فقـدنـاك فقـد الأرض وابلهـا ... واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وكان علي قد اعتكف في بيته بعد أن خذله مجتمع المدينة وتفرغ لجمع القرآن وفقاً لـوصية الـرسـول (ص) حيث أخبره النبي بكل مـا يجري عليه وعلى العترة بحضـور زوجته والحسنين(٢٤٤).

وذهب عمر بن الخطاب مع جماعة فيهم خالد بن الوليد وقنفذ بن عمر وزيد بن أسلم وأسيد بن حضير وسلمة بن سـلامة إلى بيت علي فوجدوا البـاب مغلقاً فنادوا علياً للخـروج للبيعة فلم يجبهم أحـد فهدَّدهـم عمـر بحرق البيت قـائلاً: «والذي نفسي بيده لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت عليكم»(٢٤٥) وإلى هذا التهديد لبيت العترة بالحرق يشير شاعر النيل في ديوانه قائلاً: (٢٤٦)

وقـولـة لعلي قـالها عمـر ... أكـرم بسامعهـا أعظم بملقيهـا
حـرّقت دارك لا أبقي عليك بها ... إن لم تبايع، وبنت المصطفى فيها

مـا كان غيرُ أبي حفص يفـوهُ بها   أمـام فـارس عـدنـان وحـاميهـا

فلما سمعت فاطمـة الزهراء ذلك وهي لا تـزال مهدودة الأركان لمصاب والـدها خرجت فوقفت على الباب، ثم قالت:

«لا عهد لي بقـوم أسوأ محضرا منكم، تركتـم رسول الله جنازة بين أيـدينا وقطعتم أمركم فيما بينكم، فلم تؤمرونا، ولم تروا لنا حقنـا، كأنكم لم تعلموا ما قال يوم غدير خم؟! والله، لقد عقد لـه يومئذ الولاء ليقطع منكم بـذلك الرجاء، ولكنكم قطعتم الأسباب بينكم وبين نبيكم، والله حسيب بيننا وبينكم في الدنيا والآخرة»(٢٤٧).

ولما فتحت فـاطمة الـزهراء الباب دفعـه عمر فـاختفت وراء البـاب كما جاء في الرواية: «فعصهـا بالباب، فكان ذلك سبب اسقاطها ودلل انـه كان سبب موتها، ودخلوا فـوثبوا على أمير المؤمنين عليه السـلام فأخرجوه عنفـاً فحالت فاطمـة عليها السـلام بينهم وبينه وقـالت والله، لا أدعكم تخرجـون بابن عمي ظلماً، ويلكم مـا أسرع ما خنتم الله ورسوله فينا، فأمر عمـر بن الخطاب قنفذ بن عمر فضربها بسوط حتى أثّـر في جسمها وخـرجوا بعلي عليـه السلام يقـودونه إلى مجلس أبي بكـر إلى أن وصلوا بـه ثم عرضـوا عليه البيعـة له فامتنع فـوضعوا يـده قهراً في يـد أبي بكر فضم أصابعه فأرادوا فتحهـا فلم يمكنهم فمسح عليها أبو بكر وهي مضمومة وقـالوا انه بايع»(٢٤٨). وخرج من كان مع علي في الدار من الهاشميين ووجوه المهاجرين، مثل المقداد وسلمان وأبي ذر والزبير إلى أبي بكر حيث بايعوا كـرهاً. وهؤلاء هـم الوحيدون الذين بايعوا آخر الناس بـالمدينة بالإكراه لا بالرضا(٢٤٩). وعلى الرغم من هـول ما حدث ببيت العترة من قبل رجال السلطة لتعديهم على بيت آل رسول الله وترويعهم الأطفال والنسـاء وما حـدث للزهراء الا أنها خـرجت في طلب ابن عمها خـوفاً على حياته.

فقد رُوي عن الإمام الصادق (ع) أنـه قال: «لما استخرج أمير المؤمنين، صلوات الله عليه من منـزله، خرجت فاطمـة (ع) فما بقيت هاشمية إلا خـرجت معها حتى انتهت قريباً من القبر، فقالت: خلوا عن ابن عمي، فوالذي بعث محمداً بالحق لئن لم تخلـوا عنـه لأنشرن شعـري، ولأضعـن قميص رسـول الله (ص) على رأسي،

ولأصرخن إلى الله تبارك وتعالى، فما ناقة صالح بأكرم على الله مني، ولا الفصيل باكرم على الله من ولدي. قال سلمان (رض): كنت قريباً منها، فرأيت والله أساس حيطان المسجد، مسجد رسول الله (ص) تقلّعت من أسفلها، حتى لو أراد رجل أن ينفذ من تحتها نفذ، فدنوتُ منها فقلت يا سيدتي ومولاتي، إن الله تبارك وتعالى بعث أباك رحمة، فلا تكوني نقمة. فرجعت ورجعت الحيطان حتى سطعت الغبرة من أسفلها فدخلت في خياشيمنا(٢٥٠). وخاطب سلمان الفارسي الصحابي الجليل، المسلمين في المسجد بعد أن بايع كُرهاً فقال: «أصبتم ذا السن منكم وأخطأتم أهل البيت لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان ولأكلتموها رغداً»(٢٥١).

ومهما كانت صحة هذه الروايات، أو عدمها بشأن تعامل رجال سلطة الخلافة مع العترة إلا أن هناك إجماعاً لرواة المدرستين الإسلاميتين، الإمامة والخلافة بأن عمر ابن الخطاب هدّد بحرق بيت العترة وأن حرمة البيت هتكت، وأخرج عليٌ بالاكراه من بيته للمبايعة. ولا شك ان هتك حرمة بيت ذرية الرسول يعني هتك حرمة رسول الله (ص) وقبره لا يزال ندياً، فكانت تلك الخطوة بداية لانتهاك حرمة الإنسان في دولة النبوة إلى يوم القيامة. لقد تزعزعت الأركان التي قامت عليها دولة النبوة وهي الحق والعدل والمساواة والحرية. كما سيتضح ذلك فيما بعد. ان نظام الخلافة بعد الرسول هو نظام سياسي مستحدث لا تتفق مصالحه وتطلعاته مع نظام الامامة والولاية الذي وضعه الرسول (ص) كنظام الهي نصي. فمن الناحية السياسية البحتة فإن كل ما قام به رجال سلطة الخلافة يعتبر عملاً صحيحاً لحماية مشروعهم وتوفير كل أسباب الأمن والنجاح له. ويعتبر عمر بن الخطاب صاحب الفضل الأول لنجاح نظام سلطة الخلافة وتوفير كل أسباب سلامته منذ قيامه. إلا أن أبا بكر لم يكن يملك حماساً واقداماً للسلطة كالذي امتلكه عمر. ولذلك بعد أن بايع علي ومن معه خطب الناس واعتذر إليهم وقال:

«ان بيعتي كانت فلتة وقى الله شرها، وخشيت الفتنة وأيم الله ما حرصتُ عليها يوماً قط لقد قُلّدت أمراً عظماً ما لي به طاقة...»(٢٥٢).

ويمكن أن يكون اعتذاره للأمة بسبب انتهاك حرمة بيت عترة الرسول (ص)

الذي ترك أثـراً سيئاً في نفوس المسلمين. ولذلـك لم يخف أبو بكر ندمـه وإحساسه بـالذنب على تلك الجرأة، وتـرويع آل رسـول الله وإيذائهم. فمما قـالـه لابنه عبـد الرحمن، وهو على فراش الموت: «وددت أنني لم أكن كشفت عن بيت فاطمة وتركته ولو أغلب على خرب. ووددتُ أني يوم سقيفة بني سـاعدة كنتُ قذفتُ الأمر في عنق أحد الرجلين عمر أو أبي عبيدة، فكان أميرا وكنتُ وزيرا. . . »(٢٥٣).

وفي الوقت الذي تجمع فيه مصادر مدرسة الإمامة على أن علياً بايع كرهاً في حياة فاطمة الزهراء إلا أن بعض مصادر مدرسة الخلافة تقول إن علياً بايع طوعاً بعد وفاة فاطمة(٢٥٤)، وبعضها الآخر يقول بايع برضا في حياة فاطمة، بعد استخدام العنف معه كالتهديد بحرق بيته، واقتياده من بيته إلى المسجد ومعه الزبير بن العوام وآخرون من أنصاره(٢٥٥).

لم يكن اقتحـام بيت آل رسـول الله، وهتك حرمتهم وإيـذائهم واكـراه علي على البيعة مع الصَّفـوة من صحبته نهايـة المطاف فقد عمـدت سلطة الخلافـة إلى تجريد فاطمة الزهراء من نحلتها فدك التي نحلهـا إياها والدها (ص) في حياته وهي عبارة عن قريتين من قرى خيبر، حيث ان رسول (ص) لم يوجف عليهما بخيل ولاركاب، وصـالح أهلهما على نصف المحصـول ومنحها فاطمـة ابنتـه(٢٥٦) بعد نـزول الآية: ﴿فآت ذا القربى حقه. . . ﴾(٢٥٧).

وكانت خيبر مليئة بالبساتين، ومن أشهرها بساتين فدك ولأهمية محاصيلها روي عن عائشة قالت: «لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر»(٢٥٨). وعن ابن عمر قال: «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»(٢٥٩).

ان استيلاء سلطـة الخلافة على ميراث فـاطمة الـزهراء، في خيبر، قـد يكون من متطلبات توفير أسباب النجاح للنظام السياسي الجديـد واجراءً وقائياً للحيلولة دون أن يستثمره علي ويستفيد من امواله في اعداد ثورة مسلحة ضدّ السلطة الجديدة.

ولما علمت فاطمـة الزهراء بما أقدمت عليـه سلطة الخلافة بالسَّيطـرة على ميراثها من والدها، ذهبت إلى أبي بكر تلتمسه أن يرد لها ارثها. وجاء في صحيح البخاري، باسناده عن عـائشة، أن فاطمة بنت النبي (ص) أرسلـت إلى أبي بكر تسأل ميراثها

من رسول الله (ص) مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر:

«ان رسول الله قال: لا نورث ما تركناه صدقة. إنما يأكل آل محمد من هذا المال، واني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ولأعملنّ فيها بما عمل رسول الله (ص)». فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت»(٢٦٠). وقد استغربت فاطمة الزهراء من حديث الارث الذي رواه لها أبو بكر خلال لقائها معه، لأنها لم تسمع به مع أنها بنت النبي (ص) وأقربهم إليه وتعلم بالقرآن والسنة أكثر من غيرها ولذلك أخرج ابن قتيبة قولها في جوابه: يرثك أهلك ولا نرث رسول الله؟ وأخرج الترمذي أنها قالت: «من يرثك؟ قال: أهلي وولدي، قالت: فمالي لا أرث أبي؟ وقالت له: أترث أباك ولا أرث أبي؟ أين أنت من قوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود..﴾(٢٦١)، وقول زكريا ﴿... فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرثُ من آل يعقوب...﴾(٢٦٢). وإذا أجمع على أنها أتت بآيتي الميراث في احتجاجها وثبت الدليل على عصمتها كما جاء في آية التطهير وجب الجزم بحقية قولها(٢٦٣). ويمكن أن يقال ان ما لحق ذرية الرسول من ظلم وجور إنما هو حسد وحقد من قريش لعلي ونكاية فيه. اكتشفت فاطمة الزهراء من خلال حديثها مع أبي بكر أن رجال السلطة مصرون على التمسك بموقفهم على ابعاد الحق عن ذرية الرسول (ص) ليكونوا عبرة لمجتمع دولة النبوة في ذلك الوقت فصممت على مواجهتهم على الرغم من تدهور صحتها، كما عزمت على كشف الحقائق للأمة الإسلامية من خلال مجتمع المدينة وتعريفهم بأبعاد ما حصل لعترة الرسول (ص) بعد رحيله بزمن قصير.

واختارت يوم جمعة لتوجيه خطبتها إلى جمهور المدينة لإلقاء الحجة عليهم لتقاعسهم عن نصرة آل رسول الله بعد اغتصاب حقهم. وممن دون خطبتها الطبرسي في الاحتجاج حيث قال(٢٦٤): روى عبد الله بن الحسن باسناده عن آبائه (ع) أنه لما أجمع أبو بكر على منع فاطمة فدكاً وبلغها ذلك لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها ما تخرُمُ من مشية رسول

الله (ص) شيئاً فدخلت عليه وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم فنيطت دونها ملاءة فجلست ثم أنَّت أنه أجهش القوم لها بالبكاء فارتجَّ المجلس ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله أبيها (ص) فعاد القوم في بكائهم فلما امسكوا عادت في كلامها وبدأت خطبتها(٢٦٥) .

ويمكن أن نستنتج من خطبة فاطمة الزهراء الكثير من الأمور ومن أهمها :

١ ـ رباطة جأشها وشجاعتها وقوة إرادتها مع تراكم المصائب عليها كما عبرت عن ذلك في الشعر الذي رثت به والدها وكانت تردده على قبره الشريف. تلك المصائب تمثلت ـ اذا صحت الروايات ـ في فقد والدها ، وانتهاك حرمة بيتها الذي كان الرسول (ص) لا يدخله قبل الاستئذان ، وضربها واسقاط جنينها وترويع أطفالها ، على الرغم من مكانتهم العظيمة عند رسول الله ، واقتياد زوجها من بيته إلى المسجد على الرغم من دوره العظيم في تشييد أركان الدين ومكانته الفريدة عند الرسول (ص) واستبعاده عن منصبه الإلهي كوصي لنبيه على أمته .

٢ ـ فصاحة الزهراء وقوة بلاغتها وغزارة علمها ، ولا عجب في ذلك فهي خرِّيجة حجر النبوة وزوجة الوصي ، وهو سيد العرب وأفصحهم .

٣ ـ تأكيدها للحاضرين ، بعد تعريف نفسها أنها تتوخى الصدق والحق لكي تجذب انتباه الناس لأهمية مضمون خطبتها .

٤ ـ إيضاحها الدور الذي قام به والدها للم شتات العرب وهدايتهم بعد ان كانوا متفرقين فجاءهم بشريعة سماوية تضمن لهم سعادة الدارين وجعل منهم نواة لأمة دولة النبوة التي تقوم على مبادئ ثابتة .

٥ ـ تأكيد الدور الفعال الذي قام به زوجها لبناء صرح الإسلام ودولة النبوة ونضاله الدؤوب في كل الحروب بين يدي رسول الله (ص) وتذكيرها الناس بالجبناء الذين كانوا يفرون من ساحات القتال .

٦ ـ إيضاحها أن ما أقدموا عليه من بيعة إنما هو خلاف للكتاب والسنة .

٧ ـ خاطبت الرجل الأول في سلطة الخلافة أبا بكر بالاسم وسألته عن مصادرة ارثها باستغراب وحاججته بالقرآن ، وكذبته بطريق غير مباشر وفضحت أعمال

رجال سلطة الخلافة أمام الملأ بأن ما قاموا به لا يتفق مع الكتاب والسنة حينما قالت: «أفخصكم الله بآية وأخرج منها أبي؟». انها تشير بذلك إلى الحديث الذي أورده عن النبي (ص) خلال لقائها الأول به حينما طالبته بإرثها فقال: «قال رسول الله(ص): نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة». وترد عليه بقول رسول الله (ص): «إذا ورد عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فاقبلوه والا فردوه».

٨ ـ تعلن للملأ عن ظلامتها، وتعاهد خليفتهم على السكوت عن حقها حتى تلقى الله وتشكوه يوم المحشر عند الله ورسوله.

٩ ـ في الوقت الذي أشادت فيه بجهود الأنصار للدفاع عن الدين والمسلمين واحتضانهم لدولة النبوة عابت عليهم صمتهم وتخاذلهم عن نصرة آل رسول الله(ص) وانتهاك حرماته واغتصاب حقهم في خلافة رسول الله وتؤكد أن هدفها من القاء تلك الخطبة، هو القاء الحجة على الناس وتذكرهم بأن بيعة السقيفة ستكون عاراً أبدياً عليهم في الدنيا وعقاباً في دار الآخرة.

١٠ ـ أما أبو بكر فإنه، في الوقت الذي يثني فيه عليها يؤكد أن مصادرة ارثها يتفق مع السنة النبوية فهو لم يحد عنها.

١١ ـ اتهام فاطمة الزهراء رجال السلطة بالتزوير على أبيها بعد مماته وتشبّه ذلك بالمؤامرات التي تعرّض لها في حياته(٢٦٦). وتمسكها بالاحتجاج بالآيات القرآنية الخاصة بتوريث الأنبياء لأولادهم يؤكد ان مصادرة ارثها جزء من مؤامرة دبروها.

١٢ ـ حاول أبو بكر احتواء سخط فاطمة وغضبها بتلقي تقريعها بصدر رحب حتى لا يثير سخط المسلمين الذين سمعوا الكثير من الأحاديث عن رسول الله(ص) التي تنص على علو مكانتها عند الله ورسوله ويكرر ثناءه على كلامها، ويشيد بعظيم مكانتها. وقد عرف أن المطالبة بالارث ليست غاية وإنما هو وسيلة لغاية أكبر وهي المطالبة بحق علي في الخلافة. لذلك قال لها إن المسلمين قلّدوني هذا الأمر بناء على اتفاقهم ودون إجتراء عليهم، وهم يشهدون بذلك.

١٣ ـ ولذلك، فإن فاطمة الزهراء اختتمت خطبتها بتوجيه نقد لاذع لجمهور

الحاضرين من المسلمين، وأخذت تقرعهم بآيات قرآنية وتذكِّرهم بالعواقب الخطيرة التي ستترتب على ما أقدموا عليه.

أما الأبيات التي ذيّلت بها الخطبة، وخاطبت بها قبر والدها فتفصح فيها عن خيانة الأمة لعهد رسول الله، وأن رجال السلطة أظهروا للعترة بعد ممات الرسول ما أضمروه في حياته، فأصبح آله مستضعفين بعده؛ حيث اغتصب الارث كله.

ان الحركة التي قامت بها الزهراء ليس هدفها المطالبة بقطعة من الأرض خاصة وأنها قد علمت بسرعة لحاقها بوالدها بعد وفاته وهي الزهراء الورعة التقية التي تعودت على شظف العيش برضا، وإنما تلك الحركة تعبيراً عن رفضها لسياسة الأمر الواقع التي كان رجال السلطة بصدد فرضها باستحداث نظام سلطة الخلافة واغتصاب الارث النبوي، لذلك فإنَّ خطابها يأتي تعرية تامة لما أقدمت عليه سلطة الخلافة وكأنها تقول للأمة في محاولة لكشف الحقيقة لهم: لقد زوروا سيطرتهم على الارث النبوي وهو امارة المؤمنين التي كانت حقاً لعلي كما زوَّروا مصادرة فدك من الزهراء.

وبما أن مصادرة فدك لا تتفق مع الكتاب والسنة فكذلك السيطرة على الخلافة.

أما بالنسبة لكلمتها العتابية التي وجهتها لابن عمها الإمام علي(٢٦٧) بعد عودتها إلى المنزل حيث كان في استقبالها فيمكن أن تكون كشف سر موقفه إلى الأمة لتعريفها أن سكوته واعتكافه في البيت ناتج عن أمرين: تقيده بوصية الرسول من جانب وخذلان الامة وتخليها عن نصرته من جانب آخر وقد وجهت إليه كلمات قاسية تهدُّ الجبال وتنطق الصخر تصدر من قلب مفعم بالألم والحسرة ويحترق على مصير الأمة وما ستلقاه من ويلات. إنها كانت تنظر ببصيرة تربية النبوة، كما وضحت في تلك الكلمات البليغة ما لحق بها، من ضيم وانفردت بها الأمة بدون كفيل فهذا علي الليث الهصور أصبح سجين عرينه قد سجنته وكتفته وصية أخيه وابن عمِّه الرسول(ص). هذا البطل المغوار الذي بلغت إصاباته في أحد نيفا وسبعين جرحاً حيث قتل أصحاب الألوية وفي خيبر قتل بطل اليهود مرحبا ودحا باب حصن خيبر وجعله ترساً يقاتل به الأعداء، وها هو بعد رسول الله يصبح قعيد داره، تهتك حرمة الدار، ويقاد إلى المسجد للمبايعة. لذلك تقرعه الزهراء بكلمات قاسية

وتشكو وحدتها بعد رسول الله (ص) فأصبحت وحيدة بغير كفيل لأن كفيلها مقيد.

لذلك يمكن القول. إذا كانت شجاعة علي قد أذهلت معاصريه، فان صبره على تجرّع غصص المحنة كان أعظم من شجاعته.

لذلك تقبّل كلمات الزهراء القاسية بصدر رحب، وطلب منها ان تحتسب ظلامتها عند الله. إن الحركة التي قامت بها الزهراء لمقارعة السلطة واستنهاض الأمة إنما هي أداء لدورها الرسالي الذي يفرضه عليها واجبها الدينيّ فقامت به خير قيام.

ان الزهراء التي كانت تخاطب جماهير المسلمين في المسجد وكأنها تسألهم: كيف ترضون نظاماً لا يقيم حرمة لآل رسول الله؟

هذه هي البداية. هذا هو ما حل بالعترة كيف سيكون مصيركم أنتم؛ لقد أدت الزهراء رسالتها وتوقعت الذل والهوان للأمة. لقد استشرفت مستقبل الأمة الإسلامية في خطبتها من خلال ما حدث لعترة الرسول، فهل صدقت تنبُّؤات الزهراء بما يلحق أمة الإسلام من ذل وعار في الحياة أم لا؟

لقد رسمت الزهراء، بحركتها الرسالية تلك، للمجتمع النسائي في دولة النبوة نموذجاً للدور الذي يجب أن تضطلع به المرأة في الأوقات العصيبة التي تعصف بالأمة والوطن. فهي قد رسمت، بتلك الخطوات نموذجاً يستحق أن يحتذى لأجيال الأمة من النساء في دولة النبوة عبر تعاقب الأجيال والعصور.

إن حركتها تلك أشبه ما تكون بتظاهرة نسائية. انها درس للمجتمع النسائي في دولة النبوة وكأنها بحس التربية النبوية تقول للأجيال النسائية هكذا يجب أن يكون دور المرأة حينما تعصف الأخطار والمحن بالأمة. يجب ألاَّ تجلس قعيدة الدار، وإنما عليها دوراً نضالياً من أجل الدفاع عن مصالح الأمة وسلامة الوطن وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دولة النبوة لا يقتصر على الرجال وإنما يشمل الجميع.

لقد أدارت الأمة ظهرها لرجل نزلت به ثلاثمئة آية في القرآن كما أخرج ابن

عساكر[٢٦٨]. لقد أنكروا أو تنكَّروا لبيعة من رُدت عليه الشمس ذات يوم كرامة له حينما كان رأس النبي في حجره كما يروي ابن حجر والوحي ينزل عليه وعلي لم يصلِّ العصر فلما سُرّي عنه (ص) إلا وقد غربت الشمس» فقال النبي (ص): «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس ولكن ربما أراد الرسول (ص) أن يبين للمسلمين بعض كرامات علي عند الله بأنه إنسان مميز بطاعته لله وتأهيله للوصية[٢٦٩].

وذكر ابن حجر عن أن سبط بن الجوزي حدَّثهُ جماعةٌ من مشايخ العراق «أنهم شاهدوا أبا منصور ابن أزدشير القباوي الواعظ ذكر بعد العصر، الحديث المذكور عن ردّ الشمس على علي وذكر فضائل أهل البيت فقطعت سحابةٌ الشمس حتى ظن الناس أنها قد غابت فقام على المنبر وأومأ إلى الشمس وأنشدها:

لا تغربي يا شمس حتى ينتهي	مدحي لآل المصطفى ولنجله
واثني عنانك إن أردت ثناءهم	أنسيتِ إذْ كان الوقوف لأجله
إن كان للمولى وقوفك فليكن	هذا الوقوف لخيله ولرجله[٢٧٠]

قالوا: فانجاب السحاب عن الشمس وطلعت[٢٧١].

لقد خذلوا رجلاً، تجمعت فيه صفات لم تجتمع في أحد من الخلق غيره. لذا فحينما وصل إليه كتاب من معاوية يتضمن فخراً خلال خلافته (٣٥ ـ ٤٠ هـ) قال لغلامه أكتب إليه، ثم أملى عليه:[٢٧٢]

محمد النبي أخي وصهري	وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحى	يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعُرسي	منوطٌ لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ابناي منها	فأيكموا له سهم كسهمي
سبقتكُم إلى الإسلام طُراً	غلاماً ما بلغت أوان حلمي

ومن الجدير بالذكر أن رواة مدرستي الإمامة والخلافة يتفقون على حديث الأئمة

الأثني عشر وأنهم من قريش، ولكن يختلفون على النص عليهم وتحديدهم. أخرج الطبراني عن جابر بن سمرة أن النبي (ص) قال: «يكون بعدي اثنا عشر أميراً كلهم من قريش»(٢٧٣).

كذلك يتفقون على الأحاديث الخاصة بالمهدي الذي سيخرج آخر الزمان فيملأ الأرض قسطاً وعدلا كما مُلئت ظلماً وجورا. من ذلك ما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والبيهقي وآخرون: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»(٢٧٤) وفي أخرى لأحمد وغيره: «المهدي من أهل البيت يصلحه الله في ليلة»(٢٧٥).

وفي أخرى للطبراني: «المهدي منا يختم الدين بنا كما فُتح بنا»(٢٧٦). وأخرج الحاكم في صحيحه: «يحلُّ بأمتي في آخر الزمان بلاءٌ شديد من سلاطينهم لم يسمع بلاءٌ أشد منه حتى لا يجد الرجل ملجأ. فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما مُلئت ظلماً وجورا، يحبه ساكن الأرض وساكن السماء، وترسل السماءُ قطرها وتخرج الأرض نباتها لا تمسك فيها شيئاً. يعيش فيهم سبع سنين أو ثمانياً أو تسعاً يتمنى الأحياء الأموات [كذا..] مما يصنعُ الله بأهل الأرض من خيره»(٢٧٧).

ويتفق رُواة المدرستين على جميع هذه الأحاديث المذكورة.

ومن روايات مدرسة الإمامة، عن الأئمة الاثني عشر ما روي عن محمود بن لبيد قال: لما قبض رسول الله (ص) كانت فاطمة عليها السلام تأتي قبور الشهداء وتأتي قبر حمزة وتبكي هناك، فلما كان بعض الأيام أتت قبر حمزة رحمه الله فوجدتها صلوات الله عليها تبكي هناك، فأمهلتها حتى سكتت فأتيتها فسلمت عليها وقلت: يا سيدة النسوان قد والله قطعت نياط قلبي؟ فقالت: يا أبا عمر، يحق لي بالبكاء فلقد أصبت بخير الآباء رسول الله (ص) ثم أنشأت عليها السلام تقول:

إذا مات يوما ميت قل ذكره ... وذكر أبي ما دمت والله أكبرُ

قلتُ: يا سيدتي أسألك عن مسألة تلجلج في صدري؟ قالت: سل، قلت: هل نصَّ رسول الله (ص) قبل وفاته على علي بالإمامة؟ قالت: واعجباه أنسيتم يوم غدير خم؟ قلتُ: كان ذلك ولكن أخبريني بما استتر إليك؟ قالت: أشهدُ الله

تعالى يقـول ولقد سمعتـه : عليّ خير من أخلّفه فيكم، وهـو الإمام والخليفـة بعدي وأبـو سبطاي، وتسعـة من صلب الحسين أئمة أبـرار لئن اتبعتمـوهم لوجـدتموهم هادين مهديين، وان خالفتموهم ليكون الاختـلاف فيكم إلى يوم القيامة . قلت : يا سيدتي فلم قعد عن حقه؟ قالت : يا أبا عمر لقد قال رسول الله (ص) : مثل الإمام مثل الكعبة اذ تؤتى ولا تأتي . أو قالت مثل علي، ثم قـالت : أما والله لو تركوا الحق على أهله واتبعوا عترة نبيهم لما اختلف في الله تعالى اثنان، ولورثنها سلف عن سلف وخلف بعد خلف حتى يقوم قائمنا التـاسع من ولد الحسين، ولكن قدّموا من أخره الله وأخروا من قدّمه الله، حتى إذا الحدوا المبعوث وأودعوه الجدث واختاروا شهوتهم وعملوا برأيهم تبّـالهم، ألم يسمعوا الله يقول : ﴿**وربك يخلق ما يشاء ويختـارُ ما كان لهم الخيرة . . .**﴾[٢٧٨] بل سمعوا ولكنهم كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿. . . **فإنها لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلوب التي في الصـدور**﴾ . «هيهات بسطوا في الـدنيا آمـالهم ونسـوا آجـالهم، فتعسـاً لهم وأضل أعمالهم، أعـوذ بـك يـا رب من الحور والكور»[٢٨٠] . ويمكن أن يستنتج أن دولة النبوة دولة الهيـة الحكم قائمة على أسس دينية سماويـة أفتتحت بمحمد النبي وستختتم بمحمد الوصي، أي خـاتم أوصياء النبي الإثنى عشر، وهو محمد بن الحسن والملقب بالمهدي والمنتظر، إلى غير ذلك من الألقاب .

وروى ابن مثنى أيضاً بشأن عـدد الخلفـاء بعـد رسـول الله (ص) عن أبيـه عن عائشـة قال : «سألتها كم خليفـة يكون لرسول الله (ص)؟ فقـالت : أخبرني رسول الله(ص) انـه يكون بعـده اثنا عشر خليفـة فقلت لها : من هم؟ فقـالت : أسماؤهم عندي مكتوبة بإملاء رسول الله (ص) فقلت لها : فاعرضيه فأبت»[٢٨١] .

وقد واجهت سلطة الخلافة أول إحراج لها في الرد على مسائل عرضها على أبي بكر وفد نصارى قـدم المدينة بعد مبايعـة أبي بكر وأسند الطوسي في أمـاليه وابن جبر في كتاب «الاعتبار في ابطال الاختيار»، إلى سلمان الفارسي (المحمدي) أنه قدم على أبي بكر نصارى وفيهم جاثليق فقال : وجدنا في الانجيل رسولا بعد عيسى وفي كتبنا لا تخرج الأنبياء من الدنيا إلا ولهم أوصياء، فقال عمر : هذا خليفة رسول الله .

فقال الجاثليق: بم فضلتم علينا؟ قال أبو بكر: نحن مؤمنون، وأنتم كافرون، قال: فأنت مؤمن عند الله أم عند نفسك؟ قال: عند نفسي ولا علم لي بها عند الله، فقال: أنا كافر عندك أم عند الله؟ فقال عندي ولا علم لي بها عند الله. قال: أنت شاكٌ في دينك، ولست على يقين من دينك، قال: أفتصل بما أنت عليه من الدين إلى الجنة؟ قال: لا أعلم، قال: أفترجو ذلك؟ قال: أجل، قال فما أراك إلا راجياً لي وخائفاً على نفسك، فما فضلك عليَّ؟ وكيف صرت خليفة النبي (ص) ولم تحط علماً بما تحتاج إليه الأمة؟ قال عمر: كفَّ عن هذا العبث وإلاَّ أبحنا دمك، قال: ما هذا عدل على من جاء مسترشداً، دلّوني على من أسأله.

فجاء سلمان به إلى علي (ع) فسأله، فقال (ع) في جوابه: أنا مؤمن عند الله وعند نفسي، وأصل إلى الجنة بوعد نبيٍّ، المعلوم صدقه بمعجزاته، قال: أين الله اليوم؟ قال (ع): إن الله أين، فلا أين له، قال فيحسُّ؟ أم بم يعرف؟ قال (ع) تعالى الله عن الحواس، ويعرف بصنايعه، قال: فما عندكم في المسيح؟ قال: مخلوق لتغيره. قال: فبم بُنْتَ الرعية؟ قال (ع): لعلمي بما كان وما يكون. قال: هات برهانه. قال: أظهرت في سؤالك الاسترشاد، وأضمرت خلافه، وأريت في منامك مقامي وحذرت من خلافي، فأسلم الجاثليق ومن معه، وأقرّوا بوصايته. فقال عمر: يجب أن تعلم أن الخليفة من خاطبت أولاً برضى الأمة، فأبى ذلك، فقال عمر: لولا أن يقول الناس قتل مسلماً لقتلته، وإني أظنه شيطاناً يريد إفساد هذه الأمة، ثم توعَّد من يذكر هذه القصة»(٢٨٢) إنه يُعد قضاء حاجة النصارى، وهي الرد على اسئلتهم، جزءاً من واجب عليّ كإمام للأمة. ومع تنحّيه عن قيادتها فإنه قد سد ثغره لا طاقة لسلطة الخلافة على سدّها، ولذلك حرص رجال سلطة الخلافة على التقرب من علي واسترضائه ومشاورته في الكثير من الأمور واتفقوا على مواقفه الإيجابية لدعم وحدة الأمة وخدمة الدين.

بعد كل تلك الأحداث الجسام التي عاشتها عترة الرسول وفي مقدمتهم فاطمة الزهراء التي تلقت المصائب بإيمان عميق وصبر لا ينضب انهارت قواها الجسمية واستسلمت للمرض وكان فيه نهاية حياتها المليئة بالنضال من أجل الدين والأمة. وقد شاع خبر ملازمتها الفراش بين مجتمع المدينة من المهاجرين والأنصار، وندم القوم على سوء صنيعهم مع العترة وخذلانهم بضعة رسول الله (ص).

روى ابن قتيبة، في الإمامة والسياسة أن عمر قال لأبي بكر: «انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها». فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا علياً فكلماه فأدخلهما عليها. فلما قعدا عندها حوّلت وجهها إلى الحائط، فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام فتكلم أبو بكر فقال: «يا حبيبة رسول الله والله إن قرابة رسول الله أحبُّ إليّ من أن أصل قرابتي وانك أحبُّ إليّ من عائشة ابنتي، ولوددتُ يوم مات أبوك أني ميت ولا أبقى بعده. أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله إلا أني سمعت رسول الله (ص) يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه فهو صدقه». فقالت: «أرأيتما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله(ص) تعرفانه وتفعلان به؟ قالا: نعم فقالت: «نشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله(ص) يقول: «رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟» قالا: نعم سمعناه من رسول الله (ص) فرفعت عند ذلك كفيها نحو السماء وقالت: «فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ولئن لقيت النبي (ص) لأشكونكما اليه فقال أبو بكر: اني عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة» ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق وهي تقول: «والله لأدعون عليك في كل صلاة أصليها، وأبو بكر يبكي ويقول: «والله لأدعون الله لكِ في كل صلاة أصليها». . ثم خرج باكياً(٢٨٣).

ولا شك في أنه كان لكلمات الزهراء وقعا عنيفا في نفسيهما وعلى مسامعهما وغادرا دار فاطمة التي يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها دون أن يتمكنا من استرضائها ودون أن تقبل عذرهما.

ثم اجتمع الناس إلى ابي بكر، فقال لهم مخاطباً: «أيبيت كلّ رجل منكم معانقاً لحليلته مسروراً بأهله، وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي» فقالوا: «يا خليفة رسول الله، إنَّ هذا الامر لا يستقيم وأنت أعلمنا بذلك، إنّه إن كان هذا لا يقم لله دين». فقال: «والله لولا ذلك وما أخاف من رخاء هذه العروة، ما بتُّ ليلة ولي في عنق مسلم بيعة، بعدما سمعتُ ورأيت من فاطمة»(٢٨٤).

ولا شكّ في أن كلمات أبي بكر تترجم صراعه الداخلي مع نفسه وخشيته من سوء العاقبة لما لحق بعترة الرسول (ص) من أذى وإحساسه بعقدة الذنب.

ولما أشتد عليها المرض بـادرت لزيارتها نساء المهـاجرين والأنصار. ولما اجتمعن عندها سلمن عليها وقلن لها: «كيف أصبحت من علتك يا ابنة رسول الله(ص)؟» فحمدت الله تعالى وصلت على أبيهـا وألقت فيهم خطبة بليغة[٢٨٥] عبرت فيها عن لواعج حزنها ولوعتها وحسرتها تجاه ما حدث للأمة من انحراف إلى درجة أنّها فضلت الالتحاق بأبيهـا (ص) دون حياة الدنيـا والعيش في ظل الذل والهوان كما عبرت عن سخطها على أزواجهنَّ بعـد تجربتها المرة معهم، حيث خذلوا عترة رسـول الله وتخلوا عن نصرتهم وعن عهـدهم لله ورسولـه. كـذلك أظهرت إمتعـاضهـا لزحـزحة أمـر الخلافة عن بيت مهبط الوحي العالمين بأمور الدنيا والدين وهكذا يبدو أن خطبها لا تنطلق من أفق ضيق وإنما تعبر عن واجبها الشرعي وحرصها على الدين والأمة، فلو تمت الخلافـة لعلي لأوصلهم إلى شاطىء الأمـان والخير وكانت تكثـر من الاعتماد في تلك الخطبة على الآيات القـرآنية لتعزّز الحجج التي طرحتها في تلك الخطبـة الرائعة كما تنبأت فـاطمة الـزهـراء بمستقبل مظلم لـلأمة يسـوده الجور والظلم واستبـداد الطواغيت وختمت خطبتها بأن بتتهم حسرتها لما سيحل بالأمـة من ويلات وعندها ينـدم النادمـون حيث لا تنفع الحسرة والنـدم. ويـروي سويـد بن غُفلـة أن زائراتها أخبرن أزواجهن بمضمـون تلك الخطبة وبغضب الـزهراء عليهم فجـاءها قـوم من المهاجرين والأنصار معتذرين وقالوا: «يـا سيدة النساء: لو كان أبو الحسن ذكر لنا هـذا الأمـر من قبل أن يبرم العهـد ويحكم العقـد لما عـدلنـا عنـه إلى غيره»، فقالت: «إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم ولا أمر بعد تقصيركم»[٢٨٦].

١٤ ـ علي يودع فاطمة:

عاشت فاطمة الزهراء بعد أبيهـا، خمسة وسبعين يوماً كما يروي ابن قتيبة[٢٨٧]، ولما أحست بدنـو أجلها استـدعت الإمام علي بن أبي طـالب فأوصته بـوصايـاها، حيث طلبت منه تغسيلها وتكفينها والصـلاة عليها ودفنها ليلاً دون أن يخبر أحداً، وأن يعفى مـوضع قبرها، ولا يجيـز لأحد من الـذين ظلموهـا حضور جنـازتها. كما أوصته أن يتزوج بابنـة أختها أمامة لتقوم برعايـة أولادها، فضمن الإمام علي أن ينفذ كل وصاياها كما أمرت[٢٨٧].

ولشدة حيائها كانت تتحرج من حملها على النعش ظاهرة حينما تموت وتؤخذ إلى قبرهها علماً بأنها أوصت بأن تدفن ليلاً وأن الحضور سيكونون قلة وهم الصفوة من الموالين لزوجها. فقد روى الطبري في ذخائره عن أم أبي جعفر أن فاطمة (ع) قالت لأسماء بنت عميس: يا أسماء إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء. انه يطرحُ على المرأة الثوب فيصفها. وقالت أسماء يا ابنة رسول الله، ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة فدعت بجرائد رطبة فحنتها، ثم طرحت عليها ثوباً فقالت فاطمة ما أحسن هذا وأجمله تعرف به المرأة من الرجل! فإذا أنا متُّ فاغسليني أنت وعلي ولا يدخلَ عليَّ أحد. فلما توفيت جاءت عائشة (ر) تدخل فقالت أسماء: لا تدخلي فشكت إلى أبي بكر قالت: ان هذه الخثعمية تحول بيننا وبين بنت رسول الله (ص) وقد جعلت لها مثل هودج العروس فجاء أبو بكر فوقف على الباب فقال يا أسماء ما حملك على أن منعت أزواج النبي (ص) يدخلن على بنت رسول الله (ص) وجعلت لها مثل العروس؟ فقالت: «أمرتني أن لا يدخل عليها أحد وأريتها هذا الذي صنعت وهي حيّة فأمرتني أن أصنع ذلك لها. قال أبو بكر: أصنعي ما أمرتك». ثم انصرف وغسلها عليٌّ وأسماء».

وذكر أنها لما أرتها النعش تبسمت «وما رؤيت متبسمة يعني بعد النبي (ص) إلى يومئذ»(٢٨٩).

ومعلوم أن الإبتسامة فارقت فاطمة بعد وفاة والدها لسببين الأول: حزنها العميق على والدها لتعلقها به من ناحية ولشدة تعلقه بأولادها وعدم استغناء كل طرف عن الآخر. الثاني: غدر الأمة بآل البيت بعد وفاته مباشرة حسب إخباره لهم إلا أن حجم الظلم والعدوان فاق كل التصورات على الرغم من تأكيدات القرآن والسنة بحرمة العترة ومكانتهم العظيمة عند الله. هذا إضافة لألمها وحسرتها على ما ستلاقيه ذريتها من الخلافات من أمة أبيها مستقبلاً، وما سيحل بالأمة من تجاوزات وانحرافات عن الطريق الذي رسمه لها صاحب الرسالة ومؤسس الدولة النبوية.
وعن آخر لحظات حياتها روى الطبري عن أم سلمة قالت: «اشتكت فاطمة بنت رسول الله (ص) في مرضها فأصبحت يوماً كأمثل ما رأيناها في شكواها، فخرج علي ابن أبي طالب لبعض حاجته. قالت فاطمة اسكبي لي يا أمة غسلا، فسكبت لها

غسلا فاغتسلت كأحسن ما كنتُ أراها تغتسل. قالت ثم قالت: يا أمة ناوليني ثيابي الجدد، قالت، فناولتها ثم جاءت إلى البيت الذي كانت فيه فقالت: قدمي فراشي وسط البيت واضطجعت ووضعت يدها اليمنى تحت خدها ثم استقبلت القبلة ثم قالت: يا أمة اني مقبوضة الآن فلا يكشفني أحد ولا يغسلني أحد. قالت فقبضت مكانها صلى الله عليها قالت ودخل علي، فأخبرته بالذي قالته وبالذي أمرتني. قال علي والله لا يكشفها أحد فاحتملها فدفنها بغسلها ذلك ولم يكشفها ولا غسلها أحد»(٢٩٠).

وتعتبر فاطمة الزهراء أول من غُطّي نعشها من النساء في الإسلام على الصفة المذكورة، وبعدها زينب بنت جحش صنع بها ذلك، كما رواه البخاري عن أبي عمر(٢٩١).

وحينما توفيت فاطمة الزهراء علت الصيحة في المنزل فاجتمع الناس حول الدار رجالاً ونساء، وقد اشتد حزنهم لفراق ابنة الرسول (ص) وللمشاركة في تشييعها. فأمر الإمام ابا ذر بصرفهم وقال: انصرفوا فإن ابنة رسول الله (ص) قد أُخّر اخراجها هذه العشية فقام الناس وانصرفوا(٢٩٢).

وقام الإمام علي بتكفينها في سبعة أثواب وحنطها بفاضل حنوط رسول الله (ص) ثم صلى عليها وكبر خمسا ودفنها في جوف الليل، وعفى قبرها ولم يحضر دفنها والصلاة عليها إلا عليّ والحسنان وعمار والمقداد وأبو ذر وسلمان وعقيل والزبير وبريدة ونفر من بني هاشم وخواص علي (ع)(٢٩٣).

وروى الحاكم بسنده عن عائشة، قالت: «دفنت فاطمة بنت رسول الله (ص) ليلا ولم يشعر بها أبو بكر حتى دفنت وصلى عليها علي بن أبي طالب»(٢٩٤).

واختلف في موضع دفن فاطمة، حيث قيلت روايات متعددة. فقيل انها دفنت في بيتها وقيل في البقيع حيث سوى علي (ع) حول قبرها عدة قبور مزورة حتى لا يعرف أحد موضعه(٢٩٥).

وهناك روايات تقول: دفنت في الروضة. فيروي البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على

حوضي»(٢٩٦) فربّما أن الرسول أشار إليها لأنها ستحوي قبر فاطمة وستكون بذلك إحدى رياض الجنة.

وعن الطبري في دلائل الإمامة، عن محمد بن همام أن عليا (ع) دفنها بالروضة وعفى موضع قبرها قال واصبح البقيع ليلة دفنت وفيه أربعون قبراً جدداً(٢٩٧).

وفي مسألة دفنها ليلا واعفاء قبرها قال أحدهم متسائلاً: (٢٩٨).

ولأي الامور تدفن ليلا بضعة المصطفى ويعفي ثراها؟

وروي أن عليا حوّل وجهه إلى قبر رسول الله مناجياً بعد دفنها وقال كلمات(٢٩٩) تفيض بالحزن والأسى على فراقها وفراقه. ويخاطب الرسول خجلا مما حلي بالزهراء من أمته حتى اضطر لدفنها ليلا وهي بنت النبوة، كما يخاطبه باستجواب الزهراء لتخبره بإجماع الأمة على اغتصابها حقها وهو حق العترة ثم يحتكم إلى الله فيما حدث ويودعها. ويعدها وقف على شفير قبر الزهراء وأنشأ(٣٠٠).

لكل إجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل

وإنّ افتقادي فاطما بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل

وعن الطبري في دلائل الإمامة عن محمد بن همّام أن المسلمين لما علموا وفاتها جاءوا إلى البقيع فوجدوا فيه أربعين قبراً فأشكل عليهم موضع قبرها من سائر القبور فضج الناس ولام بعضهم بعضا، وقالوا لم يخلّف نبيكم فيكم إلا بنتا واحدة تموت وتُدفن، ولم تحضروا وفاتها والصلاة عليها ولا تعرفون قبرها». ثم قال ولاة الأمر منهم هاتوا من نساء المسلمين من ينبش هذه القبور حتى نجدها فنصلي عليها ونزور قبرها. فبلغ ذلك أمير المؤمنين (ع) فخرج مغضباً قد احمرّت عيناه ودرّت أوداجه وعليه قباؤه الأصفر الذي كان يلبسه في كل كريهة وهو متكىء على سيفه ذو الفقار حتى ورد البقيع فسار إلى الناس النذير وقالوا: هذا علي بن أبي طالب قد أقبل كما ترونه يقسم بالله لئن حوّل من هذه القبور حجر ليضعنّ السيف على غابر الآخر. فتلقاه بعضهم، فقال له: مالك يا أبا الحسن، والله لننبشنّ قبرها ولنصلينّ عليها فضرب علي (ع) بيده إلى جوامع ثوبه فهزّه ثم ضرب به الأرض وقال أما حقي فقد

تركتـه مخافة أن يـرتدَّ الناس وأمـا قبر فاطمـة ، فوالله الـذي نفس علي بيده لأن رُمتَ وأصحـابك شيئاً من ذلك لأسقين الأرض من دمـائكم ، فإن شئت فأعرض فتلقـاه آخـر فقال يـا أبا الحسن بحق الله وبحق من فـوق العرش الا خليت عنـه فانـا غير فاعلين شيئاً تكـرهه فخلى عنه وتفرق النـاس ولم يعودوا إلى ذلك»(٣٠١) . ويروى أن الذي تحاور مع علي وهدد بالنبش هـو عمر حينما قال : «والله لقد هممت أن أنبشها فأصلي عليها»(٣٠٢) . ويمكن أن يكون دافع أحد رجال السلطـة لذلك التهديد هو غضبهم لاستبعـادهم عن المشاركـة في تشييع بنت النبي وإحساسهم أن ذلك كـان إهانة لهم .

وقـد تـوفيت السيـدة الـزهراء في الثـالث من جمادي الآخـرة سنـة احـدى عشرة للهجرة ، وهو المروي عن الإمام الصادق (ع)(٣٠٣) .

وردت روايات مختلفة في تحديد يوم وفـاتها ، كما اختلفت تلك الروايات في تحديد عمـرها وأقلهـا يقدِّر عمـرها بثماني عشرة سنـة وسبعـة أشهر وأكثـرها يقـدِّره بتسع وعشرين سنة .

وكذلك اختلفت الروايـات في مدة بقائها بعد رسول الله ، فأقلُّ الـروايات حدّده بأربعين يوماً وأكثرها بأربعة أشهر وقيل ستة(٣٠٤) .

وظل الإمام علي بعـد فراق الأحبة الرسول (ص) وابنتـه صامدا كالطـود الشامخ بعـد أن وارى رفيقة دربـه الثـرى وظهـر من خـلال مناجـاتـه لهما نثـرا وشعرا هـول الفـاجعة ، فـراق الأحبـة وخـذلان الأمة . لقـد ظل وحيـدا سوى أربعـة من كبـار الصحابـة الأخيار هم سلمان وابو ذر والمقـداد وعمار الذين أثبتـوا ولاءً حقيقياً للعترة فكانوا رفـاق دربه الطويل المظلم كما وصفه في احدى خطبه ، وإذا كـان قد خاض الغمـرات بالأمس بسيفـه ذي الفقار فهـا هـو اليوم في عهـد سلطة الخلافـة يخوض الدرب المظلم بسلاح الصبر والإيمان خلال فترة أبي بكر وعمر وعثمان ، ويحرص على تقديم النصح والمشورة إليهم .

وإذا كان سيفه ذو الفقار قـد لعب دوراً رئيساً في إذلال الشرك وبناء صرح الدين ودولته فهـا هو اليـوم بعلمه وحلمه وحكمتـه ، يحاول تثبيت وحدة الأمـة بتضحيته

للتخفيف من الآثار التي ترتبت على بيعة السقيفة ويتكيف مع الأوضاع القائمة وفقاً لوصية النبي (ص) له، ولمواجهة أخطار الذين إدَّعوا النبوة، مثل مسيلمة الكذاب في اليمامة وطليحة بن خويلد الأسدي في نجد(٣٠٥).

إن فاطمة الزهراء قد رحلت إلى جنان الخلد بعد أن سطرت للأجيال النسائية المتعاقبة في دولة النبوة مواقف شجاعة لا تعتبر موضع فخر واعتزاز للمرأة المسلمة فحسب وإنما لكل نساء العالم. رحلت بعد أن عاشت تجربة مرة وقاسية في طفولتها بمكة وبعد رحيل والدها (ص). وكما رحل والدها كسير القلب لعصيان الأمة أوامره حيث ارهاصات المؤامرة قد بدأت، كذلك رحلت الزهراء عن عالم الدنيا إلى عالم الخلود، وهي مكسورة القلب غاضبة على سرعة تنكر الأمة لآل رسول الله(ص) رحلت وخلفت ذريتها في وسط أمة أبت إلا مواصلة إذلال آل رسول الله ومطاردتهم، ومع اجماع الأمة على إيذائهم إلا أن الله أبى إلا اعزازهم لقوله تعالى: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾**(٣٠٦).

لقد منَّ الله على فاطمة الزهراء جزاء صبرها وتضحياتها في سبيل الله أن جعلها أما لأحد عشر إماماً وزوجة لأبيهم، فهي زوجة الإمام وأمُّ الأئمة وجميعهم القادة إلى سبيل الله (٣٠٧) وكان زادهم في هذه الحياة الفانية التقوى، وجعلهم ورثة لعلم الأنبياء جميعا من أولهم إلى خاتمهم محمد (ص). وقام علي بتدوين كتاب لفاطمة بعد وفاة أبيها(ص) ليكون سلوة لها، وأطلق عليه مصحف فاطمة.

وقد أصبح الكتاب أحد مواريث الأئمة، من علي إلى المهدي (ع). إن الأئمة لم يورثوا ذهباً ولا فضة وإنما ورثوا علماً عن رسول الله عن الله.

روى الصدوق في «الفقيه» عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا (ع) قال: للإمام علامات يكون، أعلم الناس وأشجع الناس وأعبد الناس وأسخى الناس ويولد مختوناً ويكون مطهراً، ويرى من خلفه كما يرى من بين يديه ولا يكون له ظل. وإذا وقع على الأرض من بطن أمه وقع على راحتيه رافعاً صوته بالشهادة ولا يحتلمُ وتنام عيناهُ ولا ينام قلبه. ويكون محدثاً ويستوي عليه درع رسول الله (ص) ولا يُرى له

بول ولا غـائط لأن الله عز وجل قد وكّل الأرض بابتـلاع ما خرج منه وتكـون رائحته أطيب من رائحة المسك ويكون أولى الناس منهم بأنفسهم وأشفق عليهم من آبائهم وأمهاتهم ويكون أشد الناس تواضعاً لله ـ جلَّ ذكـره ـ ويكون آخذ الناس بما يأمر به وأكف الناس عما يُنهى عنـه. ويكون دعاؤه مستجـاباً حتى أنه لو دعـا على صخرة لأنشقت نصفين ويكون عنده سلاح رسول الله (ص) وسيفه ذو الفقار ويكون عنده صحيفة فيها أسماء شيعته إلى يوم القيامة وصحيفـة فيها أسماء أعدائه إلى يوم القيامة ويكون عنده الجامعـة وهي صحيفة طولها سبعون ذراعاً فيها جميع مـا يحتاجُ إليه من ولد آدم ويكون عنـده الجفر الأكبر والأصغر وأهاب مـاعز وأهاب كبش فيهما جميع العلوم حتى ارش الخدش وحتى الجلـدة ونصف الجلدة وثلث الجلدة ويكـون عنده مصحف فاطمة»(٣٠٨).

وقد انتقلت هـذه العلوم إلى الأئمة عـن طريق رسول الله (ص) الـذي نقلها إلى علي في حياتـه. ويروى أن رسول الله (ص) حينما مـرض مرضه الـذي انتقل فيه إلى جوار ربـه طلب علياً وأدناه منـه وعلمه علـوم مدة عمره الشريف بلحظـة واحدة. فلذا قال علي (ع): ـ لما سئل: ما علمك رسـول الله (ص)؟ ـ أنه علمني ألف باب من العلم ينفتح من كل بـاب ألف بـاب ومن هـذا صـار البطين لتراكم العلـوم في صدره الشريف فهو (ع) بعد النبي (ص)، يقـول «اني عرفت الله سبحانه بما علمته من النبي حتى لـو كُشف الغطاء لم أزدد علما يضـاف إلى معـرفتي الكاملـة ويحتمل معان أخرى أيضاً»(٣٠٩).

...Organization of the Alexandria Library (GOAL
Bibliotheca Alexandrina

هوامش الفصل الثاني

(١) سورة الكوثر: ١ ـ ٣.

(٢) ابن حجر: الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، جـ١، ص١٨٧.

(٣) نفسه؛ أيضاً، الطبري: ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى، ص ٧٢.

(٤) ابن حجر: نفسه، جـ١، ص ١٢٤، ١٥٦.

(٥) الطبري: المرجع نفسه، ص ٥٣؛ أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: التتمة في تواريخ الأئمة، ص ١٢.

(٦) الامين: المرجع السابق، مجلد ١، جـ٢، ص ٣٠٧.

أيضاً الحسني: المرجع السابق، ص ٦٥.

(٧) الأمين: نفسه، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٨) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٢؛ أيضاً، الامين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٠٧؛ أيضاً الحسني: المرجع نفسه، ص ٦٥.

(٩) الأمين: نفسه؛ أيضاً، الحسني: نفسه،

(١٠) بنت الشاطىء: تراجم سيدات بيت النبوة، عن الحسني: نفسه.

(١١) الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٦؛ أيضاً الجزائري: الأنوار النعمانية، جـ١، ص ٨٠.

(١٢) الطبري: نفسه، أخرجه أبو الفضل بن خيرون؛ أيضاً، القرّماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ: ص ٨٦.

(١٣) الطبري: نفسه، ص ٤٥؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٣.

(١٤) الطبري: نفسه، ص ٢٥؛ أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، ص ١٦٠.

(١٥) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٣.

(١٦) نفسه.

(١٧) نفسه.

(١٨) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد٣، جـ١٤، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨؛ أيضاً، الأمين: المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ص ٢٣٥.

(١٩) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ٧.

(٢٠) الأمين: نفس المرجع، مجلد١، جـ٢، ص ٣٠٧.

(٢١) عقبة بن أبي معيط.

(٢٢) البخاري: المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ص٤٢، جـ١١، ص ٢٢٧، جـ١٢، ص٢٤٩، جـ١٥، ص٣٠٠؛ أيضاً الكبداني: المرجع السابق، ص٣١٣.

(٢٣) سورة غافر: ٢٨، انظر البخاري: نفسه، جـ٢، ص ٣٩٥.

(٢٤) الحسني: المرجع السابق، ص٦٦.

(٢٥) سورة القلم: ٤.

(٢٦) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٢٧) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٣٦، ٢٣٩.

(٢٨) الحسني: المرجع نفسه، ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٢٩) نفسه.

(٣٠) الطبراني، (٢٢/ ٤٣١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٣)، وابن هشام (٢/ ٢٩٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٥٥) عن يماني: المرجع نفسه، ص ١٧٣.

(٣١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٣)، ابن سعد في الطبقات (٨/ ٣٣)، عن يماني: نفسه، ص ١٧٤ ــ ١٧٥؛ أيضاً الحسني: نفسه، ص ٥٨.

(٣٢) الحسني: نفسه، ص ٧٥-٧٦.

(٣٣) نفسه، ص ٧٦.

(٣٤) ابن هشام: السيرة البوية، مجلد١، جـ١، ص ١١١؛

أيضاً، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١، ص ٦١٥-٦١٦؛

أيضاً، الامين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٣٦.

(٣٥) الأمين: نفسه، ص ٢٣٨.

(٣٦) نفسه، ص ٢٣٦، ٢٣٩؛ جـ٣، ص ٣٧٧.

(٣٧) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٣٨) الأمين: نفسه، مجلد١، ص٢، ص ٢٣٨.

(٣٩) نفسه، مجلد١، ج٣، ص ٣٧٨؛ أيضاً ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد٣، ج١٣، ص ٢٥٧.

(٤٠) ابن حجر: المرجع السابق، جـ١ ص ١١٥، ١٤١، ١٤١-١٤٢؛

أيضاً النسائي: خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص ١١٤-١١٥.

(٤١) الحسني: المرجع السابق، ص ٨١.

(٤٢) الطبري: المرجع السابق، ص ٢٧-٢٩؛

أيضاً ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١-١٤١-١٤٢؛ أيضاً،

الامين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٣٧٨.

(٤٣) الحسني: المرجع نفسه، ص ٨٢، أيضاً،

الأمين: نفسه، مجلد١، ج٣، ص ٣٧٨.

(٤٤) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٤٥) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٣٦، ٢٣٩.

(٤٦) نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٣٧٨.

(٤٧) الحسني: نفس المرجع، ص ٨٠.

(٤٨) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٢٤؛ أيضاً،

ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، جـ١٣، ص ٢٥٧.

(٤٩) الحسني: نفسه، ص ٨٣.

(٥٠) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢١٩.

(٥١) نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٣٢٥.

(٥٢) نفسه.

(٥٣) نفسه.

(٥٤) سورة الحشر: ٩.

(٥٥) الطبري: المرجع السابق، ص ٢٦-٢٧.

(٥٦) نفسه ص ٢٧ ـ ٢٩ ؛ الأمين : المرجع نفسه ،
مجلد١ ، جـ٣ ، ص ٣٧٩ ؛ أيضاً الحسني : المرجع نفسه ، ص٨٣ .
(٥٧) الأمين : نفسه ، ص ٣٧٨ .
(٥٨) نفسه .
(٥٩) نفسه .
(٦٠) معمول بهجر في اقليم البحرين .
(٦١) عباءة قصيرة الخمل معمولة بقطوان ، موضع بالكوفة .
(٦٢) الأمين : المرجع نفسه ، مجلد١ ، جـ٣ ، ص ٣٧٩ ؛
أيضاً ، ابن حجر : المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ .
(٦٣) الأمين : نفسه ، ؛ أيضاً ، النسائي :
المرجع السابق ، ص١١٥ ـ ١١٦ .
(٦٤) الطبري : المرجع السابق ، ص ٣٤ ، خرجه الدولابي .
(٦٥) نفسه ، خرجه أحمد في المناقب . الخميلة : القطيفة هي كل ثوب له خمل من أي شيء كان ، وقيل هي السواد من الثياب ؛ الخمل : أهداب الثوب .
(٦٦) الناضح : النواضح : الابل التي يستقى عليها ، ومفردها ناضح .
(٦٧) الطبري : المرجع نفسه ، ص ٣٥ .
(٦٨) نفسه .
(٦٩) ابن أبي الحديد : المرجع السابق ، مجلد١ ، جـ١ ، ص ٣٩ ؛
أيضاً : البخاري : المرجع السابق ، مجلد١ ، جـ١٦ ، ص ٣٠٨ .
(٧٠) الطبري : نفسه ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .
(٧١) الأمين : المرجع نفسه ، مجلد١ ، جـ٣ ، ص ٣٨٠ ؛
أيضاً ، الطبري : نفسه ، ص ٢٥ ، ٢٧ ـ ٢٩ .
(٧٢) الحسني : المرجع السابق ، ص ٨٦ .
(٧٣) نفسه .
(٧٤) نفسه ، ص ٨٧ .
(٧٥) نفسه .
(٧٦) نفسه .
(٧٧) نفسه .
(٧٨) نفسه .
(٧٩) نفسه .
(٨٠) نفسه ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .
(٨١) نفسه ، ص ٨٧ .
(٨٢) الطبري : المرجع نفسه ، ص ٥١ أخرجه الإمام علي بن موسى الرضا (ع) .
(٨٣) نفسه ، ص ٥٠ ـ ٥١ ؛ كما ورد الحديث نفسه بصيغ مختلفة في نفس المصدر ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ؛
أيضاً ،

البخاري: المرجع السابق، مجلد٢، جـ٢٦، ص ٥١١.
(٨٤) الطبري: المرجع نفسه، ص ٥١، خرجه في الصفوة.
(٨٥) المجلسي: بحار الأنوار، جـ٤١، ص ٥٤، ١٣١.
(٨٦) الطبري: نفسه.
(٨٧) نفسه.
(٨٨) نفسه، ص ٤٩، خرجه الدولابي.
(٨٩) لوحته الشمس: غيّرت لونه.
(٩٠) الشُّح: البخل.
(٩١) استعبر: دمعت عيناه.
(٩٢) الطبري: المرجع نفسه، ص ٤٥ـ٤٧، خرجه الحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال.
(٩٣) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٤١، ص ٢٨، ٣٤.
(٩٤) خصاصة: مجاعة.
(٩٥) يعني علياً وفاطمة والحسن والحسين.
(٩٦) سورة الحشر: ٩.
(٩٧) سورة الأحزاب: ٣٣ ﴿... إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾.
(٩٨) سورة آل عمران: ٦١ ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.
(٩٩) القرّماني: المرجع لسابق، ص ٧٦.
(١٠٠) سورة الإنسان: ٨ـ٩.
(١٠١) مجلت يداي: ظهر في كفيها بقع صغيرة متنفخة صفراء تحتها ماء.
(١٠٢) أحمد في المسند (٦/٢٩٨) عن يماني: المرجع السابق، ص ٧٩.
(١٠٣) الأمين: المرجع السابق، مجلد١، جـ٤، ص ٥٦٣.
(١٠٤) نفسه، ص ٥٧٨.
(١٠٥) نفسه، جـ٣، ص ٣٢٦.
(١٠٦) نفسه، جـ٣، ص ٥٦٢.
(١٠٧) نفسه.
(١٠٨) نفسه، جـ٤، ص ٥٧٨.
(١٠٩) الطبري: المرجع السابق، ص ٥١ـ٥٢.
(١١٠) الكبداتي: المرجع السابق، ٢٤٠ـ٢٤١؛ أيضاً
الطبري: المرجع السابق، ص ٤٠ـ٤١.
(١١١) يعني خروجها لقتال الإمام علي (ع) في معركة الجمل بالبصرة حينما تولى امرة المسلمين.
(١١٢) الابشيهى: المرجع السابق، ص ٩٤.
(١١٣) الكبداتي: المرجع السابق، ص ٣٤٠؛ أيضاً.
النسائي: المرجع السابق، ص ١٢٢؛ أيضاً،
البخاري: المرجع السابق، مجلد١، جـ١٥، ص٢٩٢، ٢٩٤.

(١١٤) ابن حجر: المرجع السابق، جـ١، ص ١٨٨ .
(١١٥) نفسه .
(١١٦) نفسه، ص ١٩١ .
(١١٧) سورة الشورى: ٢٣ .
(١١٨) الطبري: المرجع نفسه، ص، ٢٥٥، أخرجه أحمد في المناقب .
(١١٩) نفسه، ص ٢٦، أخرجه الملافي سيرته .
(١٢٠) نفسه، ص ٢٥، أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب: وأخرجه أبو حاتم وقال: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم»؛ أيضاً ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٨٧ .
(١٢١) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤٢، رواه الترمذي وقال: هـذا حديث غريب؛ أيضـاً، ابن حجر: المرجع نفسه، ج١، ص ١٨٧ .
(١٢٢) النسائي: المرجع نفسه، ص ١٢٣؛ أيضاً،
الكبداتي: نفس المرجع، ص ٣٤١؛ أيضاً،
يماني: المرجع السابق، ص ٩٤ .
(١٢٣) الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٧، خرجه أحمد .
(١٢٤) نفسه .
(١٢٥) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٩١؛ أيضاً يماني، المرجع نفسه، ص ٩٤ .
(١٢٦) الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٩، خرجه أبو سعد في شرف النبوة والإمام علي بن موسى الرضا في مسنده، وابن المثنى في معجمه .
(١٢٧) سورة الأحزاب: ٣٣ .
(١٢٨) الأمين: المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ـ٣٠٩؛
أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤٠؛
أيضاً، الطبري: المرجع نفسه، ص ٢١ ـ ٢٤؛
أيضاً، العاملي، بهاء الدين محمد: زبدة الأصول، ص ١٦١ ـ ١٦٢ .
(١٢٩) الطبري: نفسه، ص ٢٤ ـ ٢٥، أخرجه أحمد .
(١٣٠) نفسه .
(١٣١) نفسه، ص ٢٤؛ أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
(١٣٢) ابن حجر: نفسه، جـ١، ص ١٤٤؛ أيضاً، الطبري: نفسه، ص ٢٥ .
(١٣٣) ابن حجر: نفسه، الطبري: نفسه، ص ٢١ .
(١٣٤) سورة الأحزاب: ٥٦ .
(١٣٥) ابن حجر: نفسه، جـ١، ص ١٤٦؛ أيضاً الطبري: نفسه، ص ١٩، أخرجه البخاري؛ أيضاً البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ٢٦، ص ٥١٣؛ أيضاً الأبشيهي: المرجع السابق، ص ٣٦٣ .
(١٣٦) ابن حجر: نفسه.
(١٣٧) سورة الصّافات: ١٣٠ .
(١٣٨) ابن حجر: نفسه، ١٤٨ .
(١٣٩) سورة آل عمران: ١٠٣ .

(١٤٠) ابن حجر: نفسه، ص ١٥١ـ١٥٢.
(١٤١) نفسه، ص ١٥٢.
(١٤٢) سورة طه: ٨٢.
(١٤٣) ابن حجر: نفسه، جـ١، ص ١٥٣.
(١٤٤) نفسه، الحديث من رواية أبي هريرة.
(١٤٥) سورة آل عمران: ٥٩، ٦٠، ٦١.
(١٤٦) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٤، ص ٤١٦ـ٤١٨؛ أيضاً، الطبري: المرجع نفسه، ص ٢٥؛ أيضاً.
ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٥٥ـ١٥٧.
(١٤٧) الأمين: نفسه، ص ٤١٧.
(١٤٨) نفسه؛ أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص ٣٤٠.
(١٤٩) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١١، ص ٢٢٦، ج١٢، ص ٢٣٥، جـ١٦، ص ٣٢٠؛ أيضاً.
ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد٣، جـ١٥، ص ٣٩٤، ٤٠٠.
(١٥٠) ابن أبي الحديد: نفسه، ص ٣٩٤.
(١٥١) الطبري: المرجع نفسه، ص ٤٧ خرجه الإمام علي بن موسى الرضا (ع).
(١٥٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٦٩.
(١٥٣) العيبة: وعاء، مكفوفة: مقفلة. والمقصود هنا أن الشَّر يكون مكفوفاً بين الطرفين كما تكف العيبة على ما فيها.
(١٥٤) إسلال: غزو، إغلال، خيانة.
(١٥٥) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢ ص ٢٦٩.
(١٥٦) نفسه، ص ٢٧٤.
(١٥٧) نفسه.
(١٥٨) ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٩٩، ١٠٠)؛ والبيهقي.
في «الدلائل» (٥/ ٨ـ٩). عن يماني: المرجع السابق، ص ٢١٥.
(١٥٩) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٧٤ـ٢٧٥.
(١٦٠) نفسه، ص ٢٧٥.
(١٦١) سورة النصر: ١، ٢.
(١٦٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٧٥؛
أيضاً، الصّغاني: المرجع السابق ـ ص ١٤؛
أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص ٣٤٥.
(١٦٣) الأمين: نفسه، ص ٢٧٥ـ٢٧٦؛ أيضاً،
البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ١٧، ص ٣٣٩ـ٣٤٠.
(١٦٤) سورة الحجرات: ١٣.
(١٦٥) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٧٧.
(١٦٦) نفسه.
(١٦٧) نفسه، ص ٢٧٦.

(١٦٨) نفسه، ص ٢٧٨ـ٢٧٩.
(١٦٩) الكبداتي: المرجع السابق، ص ٣٤٣؛ أيضاً
النسائي: المرجع السابق، ص ١١٧، ١٢٠؛ أيضاً
الطبري: المرجع نفسه، ص ٣٩ـ٤٠؛ ٤١ـ٤٢.
(١٧٠) الكبداتي: نفسه، ص ٣٤٠؛ أيضاً، البخاري:
المرجع نفسه، مجلد١، جـ١٤، ص ٢٨٣ـ٢٨٤، جـ١٥، ص ٢٩٢.
مجلد٢، جـ١٨، ص ٣٥٤؛ أيضاً.
النسائي: المرجع نفسه، ص ١٢٠، متفق عليه.
(١٧١) الحسني: المرجع السابق، ص ٧١.
(١٧٢) الطبري: المرجع نفسه، ص ٤٣ـ٤٤.
(١٧٣) الأمين نفس المرجع، مجلد ١، جـ٢، ص ٢٨٩؛ جـ٣، ص ٤١٨ـ٤١٩، اعتمد الأمين في رواياته عن خطبة الغدير على تاريخ الطبري، وابن عساكر، السيرة الحلبية، والنسائي في سننه.
(١٧٤) نفسه، جـ١، ص ٢٨٩ـ٢٩٠، جـ٣، ص ٤١٩ـ٤٢٠.
(١٧٥) نفسه، جـ٢ ص ٢٩٠ـ٢٩١، جـ٣، ص ٤٢٠ـ٤٢١.
(١٧٦) سورة المائدة: ٦٧.
(١٧٧) الأمين: نفسه، مجلد١، ص ٢٩٠ـ٢٩٢.
جـ٣، ص ٤١٨ـ٤١٩، اعتمد في رواياته عن بيعة الغدير والنص عليها على مجموعة من رواة الحديث لمدرسة الخلافة: ابن كثير والطبري في تاريخيهما، مسند أحمد بن حنبل جـ٤، الحاكم في المستدرك، الذهبي في تلخيص المستدرك، السيرة الحلبية، ابن ماجة، النسائي في سننه؛ أيضاً، البحراني: الانصاف في النص على الأئمة الاثنى عشر من آل محمد (ص)، ص ١٦٧ ـ ١٧٣؛ أيضاً المجلسي: المرجع السابق، جـ٣٧، ص ١٠٨ـ ١٣٣؛
أيضاً، الجزائري: المرجع السابق، جـ١، ص ١٢٩؛
أيضاً؛ الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٣٨؛
أيضاً، ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٢٢؛
أيضاً الصّغاني: المرجع السابق، ص ١٨٤؛
أيضاً الطبري: المرجع نفسه، ص ١٦، ٦٧ـ٦٨؛
أيضاً، النسائي: المرجع نفسه، ص ٨٤ـ٩٦؛
(١٧٨) أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، جـ٣٧، ص ١٣٣.
(١٧٩) الجزائري: المرجع نفسه، جـ١ ص ١٢٨ـ١٢٩؛
أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٣٨؛
أيضاً، الأمين: نفسه مجلد١، جـ٢، ص ٢٩٠.
(١٨٠) الأمين: نفسه؛ أيضاً المجلسي: نفسه، جـ٣٧، ص ١١٢.
(١٨١) الأمين: نفسه.
(١٨٢) سورة المائدة: ٣.
(١٨٣) الجزائري: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٢٩، أيضاً،

المجلسي: المرجع نفسه، جـ٣٧، ص ١١١ ـ ١١٢ .
(١٨٤) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٥١ .
(١٨٥) المجلسي: نفسه، جـ٣٧، ص ١٢٨ .
(١٨٦) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٢٩٩ .
(١٨٧) سورة الصافات: ٢٤ .
(١٨٨) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٤٩ .
(١٨٩) نفسه .
(١٩٠) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد١، جـ١، ص ٤٧ ـ ٥٠ .
(١٩١) نفسه أيضاً الأمين، ص ٤٧ .
(١٩٢) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، ج١٨، ص ٣٥٦ .
أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤١ .
(١٩٣) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٤٢٢ .
(١٩٤) ابن أبي الحديد: المجلد نفسه، مجلد٣، جـ١٣، ص ١٨٩ .
أيضاً الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٢٨ .
(١٩٥) ابن أبي الحديد: نفسه أيضاً الأمين .
مجلد١، جـ٣، ص ٤٢٣ .
(١٩٦) ابن أبي الحديد: نفسه .
(١٩٧) نفسه، ص ١٩٠ .
(١٩٨) نفسه؛ أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٤٢٤ .
(١٩٩) الحاضرون .
(٢٠٠) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١، ص ١٣،
مجلد٢، جـ١٨، ص ٣٥٤، جـ٢٣، ص ٤٦٦؛
أيضاً البحراني: المرجع نفسه، ص ١٨١ ـ ١٨٢ .
(٢٠١) ابن الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، جـ١٣، ص ١٩٠؛
أيضاً، البخاري: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ١٢، ص ٢٤٧،
مجلد٢، جـ١٨، ص ٣٥٤؛
أيضاً الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٢٩ .
(٢٠٢) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٢٦ .
(٢٠٣) نفسه، ص ١٢٥ .
(٢٠٤) سورة آل عمران: ١٤٤ .
(٢٠٥) الطبري: نفس المرجع، ص ٧١ ـ ٧٢؛
أيضاً؛ ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، جـ١٣، ص ١٩٢؛
أيضاً الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٤٢٨ .
(٢٠٦) الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٣٤٢ .
(٢٠٧) الطبري: المرجع نفسه، ص ٧٢ .

(٢٠٨) إبن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ٣، جـ١٣، ص ١٨٨.
(٢٠٩) نفسه، ص ١٩٢؛ أيضاً الأمين؛
المرجع نفسه، مجلد١، جـ٣، ص ٤٢٩
(٢١٠) الحسني، المرجع السابق، ص ١٠٩.
(٢١١) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، جـ١٣، ـ١٩٤.
(٢١٢) الحسني: نفسه، ص ١٠٩.
(٢١٣) نفسه، ص ١١٠؛ أيضاً، الأمين. المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٠.
(٢١٤) الحسني: نفسه، ص ١١٠.
(٢١٥) نفسه، ص ١٠٩، ١١٠ـ١١١.
(٢١٦) نفسه، ص ١١٠ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ١٤.
(٢١٧) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٣.
(٢١٨) نفسه.
(٢١٩) نفسه.
(٢٢٠) نفسه، ص ٣٢٠، أيضاً، البخاري:
المرجع نفسه، مجلد١، جـ١٥، ص ٢٩٤.
(٢٢١) سورة لأنفال: ٢٤.
(٢٢٢) الطبري: المرجع نفسه، ص ١٠١، أخرجه الحافظ الثقفي في الأربعين.
(٢٢٣) ابن حجر: المرجع نفسه، جـ١، ص ١٨١.
(٢٢٤) سورة الأنبياء: ١٠٤.
(٢٢٥) سورة المائدة: ١١٧.
(٢٢٦) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ١٨، ص ٣٧٠.
جـ٢٧، ص ٥٢٩، جـ٢٩، ص ٥٦٦؛
أيضاً، الكبداني: المرجع نفسه، ص ٢٩٠، ٢٩٢؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٢ـ٢٣، ٢٥.
(٢٢٧) البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١٦، ص ٣٣١.
(٢٢٨) سقيفة: ظلة، وبنو ساعدة: جماعة من الأنصار.
حيث تم الاجتماع والبيعة في حيهم. ولذلك سميت البيعة باسم المكان الذي تمت فيه.
(٢٢٩) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ص ١٢٧ـ١٢٨، ١٣٣؛
أيضاً الواقدي: كتاب الردّة، ص ٣٢ـ٤٢؛
أيضاً البخاري: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٥، ص ٩٢، جـ١٤، ص ٢٨٧.
(٢٣٠) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ١٢٣، ١٢٤.
(٢٣١) الجزائري: المرجع نفسه، جـ١، ص ٦٠ـ٦١،
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ـ٣٢٩.
(٢٣٢) ابن أبي الحديد، المرجع نفسه، مجلد١، جـ١، ص ٥٢.
(٢٣٣) نفسه، ص ١٣٤.

(٢٣٤) البياضي: الصِّراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، جـ٢، ص ٥٤،
أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٩٣.
(٢٣٥) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ١٨؛
أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ١٨٩؛
أيضاً البياضي: المرجع نفسه، ص ٧٩.
(٢٣٦) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد١، جـ١، ص ٧٤، جـ٢، ص ١٣٢.
(٢٣٧) نفسه؛ أيضاً المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٩١-٢٩٣.
(٢٣٨) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ١٩١؛ أيضاً،
البياضي: المرجع نفسه، ص ٧٩-٨٠، ولذلك يشير معاوية في رسالته إلى الإمام علي، خلال أمارته إلى تلك الحادثة ليستهجن بعلي، وما علم أن ذكره تلك الحادثة إنما يعني اشادة بفضل عليّ وأدائه لواجبه الرسالي في الأمة تجاه الله ورسوله ومما جاء في تلك الرسالة: «... وأعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلا على حمار ويداك في يدي ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصديق، فلم تـدع أحدا من أهل بدر والسوابق إلا دعوتهم إلى نفسك...» لمزيد من التفاصيل انظر، ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ١٣١.
(٢٣٩) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ١٩٢؛
أيضاً، البياضي: المرجع نفسه، ص ٨٠.
(٢٤٠) المجلسي: نفسه، ص ٢٠١-٢٠٢؛
أيضاً البياضي: نفسه، ص ٨٢
(٢٤١) المجلسي: نفسه، ص ٢٠٢.
(٢٤٢) نفسه، ص ٢٠٣،
أيضاً، البياضي: نفسه، ص ٨٣.
(٢٤٣) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ١٣١-١٣٢.
(٢٤٤) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٥٢-٥٤.
(٢٤٥) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ١٣٤؛
أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٨؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٩٩؛
أيضاً الجزائري: المرجع نفسه، جـ١، ص ٦٤؛
أيضاً، البياضي: المرجع نفسه، ص ٣٠١.
(٢٤٦) حافظ ابراهيم: الجزء الأول من ديوانه، ص ٨٢.
(٢٤٧) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٠٥.
(٢٤٨) ابن طولون: نوادر المخطوطات (الائمة الاثنا عشر)، ص ٥٩؛
أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع نفسه، ص ١٨-١٩؛
أيضاً، ابن أبي الحديد: مجلد١، جـ٢، ص ١٣٢؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٢٦٩-٢٧٠.
(٢٤٩) المجلسي: نفسه، ص ٢٦٢، ٢٨٢.

(٢٥٠) نفسه، ص ٢٠٦ .
(٢٥١) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ٢، ص ١٣١ .
(٢٥٢) نفسه، ص ١٣٢ .
(٢٥٣) نفسه، ص ١٣٠ ؛
أيضاً، البياضي: المرجع نفسه، جـ٢، ص٢٩٦ .
(٢٥٤) البخاري: المرجع السابق، مجلد ٢، جـ١٧، ص ٣٣٧؛
أيضاً، الواقدي: المرجع السابق، ص٤٦ ـ ٤٧ .
(٢٥٥) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ٢، ص ١٣٢ ـ ١٣٥ .
(٢٥٦) البياضي: المرجع نفسه، جـ٢، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣؛
أيضاً، الأمين: المرجع السابق: مجلد١، جـ٢، ص٣١٤.
(٢٥٧) سورة الروم: ٣٨ . .
(٢٥٨) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ١٧، ٣٣٧ .
(٢٥٩) نفسه .
(٢٦٠) نفسه، مجلد١، جـ١٢، ص ٢٤٠، جـ١٥، ص ٢٩١،
مجلد٢، جـ١٧، ص ٣٣٧.
(٢٦١) سورة النمل: ١٦ .
(٢٦٢) سورة مريم: ٥ ,٦ .
(٢٦٣) البياضي المرجع نفسه، جـ٢، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .
وهناك روايات متعددة حول تعامل رجال سلطة الخلافة مع السيدة فاطمة أثناء مطالبتها بإرثها، إلا أنّ المؤلف فضّل الاكتفاء بهذا القدر؛ حيث يتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الدراسة المستقلة المشار اليها في التمهيد .
(٢٦٤) الأمين: المرجع السابق، مجلد١، جص ٢، ص ٣١٥ـ٣١٨.
(٢٦٥) انظر الملحق الأول .
(٢٦٦) سيتناول المؤلف مناقشة هذا الجانب في الدراسة المستقلة المشار إليها في التمهيد .
(٢٦٧) انظر الملحق الثاني .
(٢٦٨) ابن حجر: المرجع السابق، جـ١، ص ١٢٧ .
(٢٦٩) نفسه، ص ١٢٨ .
(٢٧٠) الشطر الأخير من البيت الثالث، يعني الوقوف للمهدي من عترة الرسول (ص) آخر خلفاء الرسول الاثني عشر في دولة النبوة، الذي يقاتل أعداء الإسلام قتالاً تقليدياً .
(٢٧١) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٨ .
(٢٧٢) نفسه، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .
(٢٧٣) نفسه، ص ١٨٩ . أيضـاً، البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ٢٩، ص ٥٧٩؛ أيضـاً، الكبداتي المرجع السابق، ص ٣٣٠ .
أيضاً البحراني: المرجع السابق، ص ١٩٥ ـ ١٩٨، ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .
(٢٧٤) ابن حجر: نفسه، ص ١٦٣، ٢٣٧؛ أيضاً، الطبري المرجع نفسه، ص ١٣٦ .

(٢٧٥) ابن حجر: نفسه، ص ١٦٣؛ الطبري: نفسه؛
أيضاً، الكبداتي: المرجع السابق، ص ٢٨٢-٢٨٣
(٢٧٦) ابن حجر: نفسه.
(٢٧٧) نفسه؛ أيضاً، الكبداتي: المرجع نفسه، ص ٢٨٣
أيضاً، البحراني: نفس المرجع، ص ٢٩٩-٣٠٠.
(٢٧٨) سورة القصص: ٦٨.
(٢٧٩) سورة الحج: ٤٦.
(٢٨٠) البحراني: المرجع نفسه، ص ٢٩٠-٢٩١.
(٢٨١) نفسه، ص ٣٦٤.
(٢٨٢) البياضي: المرجع نفسه، جـ٢، ص ١٥-١٦؛
أيضاً، الشرقاوي: علي امام المتقين، جـ١، ص ٨٣-٨٤.
(٢٨٣) ابن قتيبة: الامامة والسياسة، جـ١، ص ٣١؛
أيضاً، ملا علي: تكفير المكفرين، ص ٣٠؛
أيضاً، الشرقاوي: المرجع نفسه، جـ١، ص ٧٠-٧١؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٣٥٧-٣٥٨؛
أيضاً، البحراني: المرجع نفسه، ص ٢٦٤؛
أيضاً، الأمين: المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ص ٣١٨.
(٢٨٤) ابن قتيبة، نفسه، أيضاً ابن أبي الحديد، المرجع السابق، مجلد١، جـ٢، ص١٣٢.
(٢٨٥) انظر الملحق الثالث.
(٢٨٦) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٠.
(٢٨٧) ابن قتيبة: المرجع نفسه، جـ١، ص٣١.
(٢٨٨) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢١؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٣٠٤؛
أيضاً الحسني: المرجع السابق، القسم الأول، ص ١٣٥-١٣٦.
(٢٨٩) الطبري: المرجع السابق، ص ٥٣؛
خرّجه أبو عمر وخرّج الدولابي معناه مختصراً؛
أيضاً، الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢١-٣٢٢.
(٢٩٠) الطبري: نفسه.
(٢٩١) نفسه، ص ٥٤.
(٢٩٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ٢، ص ٣٢١.
(٢٩٣) نفسه، ص ٣٢٢؛ أيضاً، الطبري: المرجع نفسه، ص ٥٤.
(٢٩٤) الأمين: نفسه.
(٢٩٥) نفسه.
(٢٩٦) البخاري: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ٣٠، ص ٥٨٨.

(٢٩٧) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٢.
(٢٩٨) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٣٠٤.
(٢٩٩) انظر الملحق الرابع.
(٣٠٠) الامين: نفس المرجع، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٢؛
أيضاً، ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، جـ١٠، ص ٥٩٨.
يذكر ابن أبي الحديد أن الشطر الأول من البيت الأخير هو: وان افتقادي واحدا بعد واحد في الأصل، إلا أنّ الناس يروونه: إن افتقادي فاطما بعد احمد...
(٣٠١) الأمين: المرجع نفسه، مجلد١، جـ٢، ص ٣٢٢؛
أيضاً، المجلسي: المرجع نفسه، جـ٢٨، ص ٣٠٥.
(٣٠٢) المجلسي: نفسه.
(٣٠٣) الأمين: المرجع نفسه، مجلد ١، جـ٢، ص ٣١٩؛
أيضاً الجزائري: المرجع نفسه، جـ١، ص ٣٦٨.
(٣٠٤) المجلسي: المرجع نفسه، جـ٤١، ص ١٤٩؛
أيضاً، الطبري: المرجع السابق، ص ٥٢-٥٣.
(٣٠٥) الواقدي: المرجع السابق، ص ١٠٨-١٤٦.
(٣٠٦) سورة القصص: ٥.
(٣٠٧) انظر الملحق الخامس.
(٣٠٨) الجزائري: المرجع نفسه، جـ١، ص ٣٤؛
أيضاً، البياضي: المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٥-١٧٦؛
أيضاً، البحراني: المرجع السابق، ص ٢١-٢٦، ٢٧٤-٢٧٦.
أيضاً، العاملي، بهاء الدين محمد: المرجع السابق، ص ٩٦؛
أيضاً، البخاري: المرجع السابق، مجلد ٢، جـ٢٨، ص ٥٥٣، ٥٥٤؛
أيضاً، الكبداني: المرجع السابق، ص ١٧٧؛
أيضاً، الحسني: المرجع السابق، ص ٩٧-٩٨.
(٣٠٩) الجزائري: نفسه، ص ٣٧.

الفصل الثالث

زينب بنت علي بن أبي طالب
رائدة النضال الثالثة للمرأة الرسالية
في دولة النبوّة

١ ـ مولدها وتربيتها وظروف نشأتها .

٢ ـ زواجها ، وحياتها الزوجية .

٣ ـ الظروف التي مهدت لكربلاء .

٤ ـ خروج ركب الحسين من المدينة إلى مكة وانضمام زينب للركب .

٥ ـ خروج ركب الشهادة من مكة إلى كربلاء .

٦ ـ الوصول إلى أرض الشهادة .

٧ ـ ركب الشهادة يحطّ رحاله في أرض الشهادة الموعودة .

٨ ـ تقاسم بطولة الملحمة الاستشهادية بين الإمام الحسين وأخته العقيلة زينب .

٩ ـ وسائل حركة الإمام الحسين النهضوية .

١٠ ـ زينب ورحلة السبي .

١١ ـ عودة آل رسول الله (ص) إلى المدينة .

١٢ ـ خاتمة .

إنَّ السيِّدة عقيلة الطالبيين، زينب بنت علي بن أبي طالب، تُعتبر رائدة النضال الثالثة للمرأة الرسالية في دولة النبوة، بعد جدتها خديجة وأمها فاطمة الزهراء. إلا أن المهام المقدسة التي حملتها على كتفيها وحيدة، فور انتهاء الملحمة الاستشهادية عسكريا، فاقت تضحيات سلفها، لأنها وريثة كل رزايا البيت النبوي.

وتكمن عظمتها في صعوبة الظروف التي مرّت بها ولكنها لم تعقها عن تأدية تلك الرسالة التي أعدّها البيت النبوي منذ طفولتها للقيام بذلك الدور العظيم. خديجة أدّت دورها النضالي في ظل كفيلها محمد (ص)، والزهراء أدّت دورها النضالي أيضاً في ظل كفيلها الذي وقع بين المطرقة والسّندان: بين وصية النبي (ص) التي قيدته وبين الانحراف الذي طرأ على مسيرة الأمة. فكان نهوض الزهراء من أجل كشف الحقيقة لإلقاء الحجة على الأمة، دورها الرسالي خدمة للدين والأمة، التي فضلت اختيار عيش الذل في مقبرة الأحياء الصامتة. أما زينب، فعلى الرغم من وحدتها ووقوعها وبقية آل رسول الله (ص) تحت رحمة الأعداء، إلا أنها قامت بدورها الرسالي العظيم على أكمل وجه، كما سيتضح ذلك من دراسة ومناقشة هذا الفصل.

١ ـ مولدها وظروف نشأتها:

إنّه مهبط الوحي، بيت النبوّة، بيت القرآن، بيت الذرية النبوية، بيت الطهارة، بيت العصمة، بيت بضعة النبي، بيت الوحي، بيت الأئمة، بيت سفن النجاة، . بيت حامي حمى الإسلام بعد أبي طالب، بيت سيد العر ب ومن علّم قريش الفصاحة، بيت أفقه المسلمين وأعلمهم بعد رسول الله (ص).

في هذا البيت استقبل آل رسول الله (ص) زينب بنت علي بن أبي طالب.

وهي المولود الثالث بعد الإمامين: الحسن والحسين. عاشت في كنف والديها وجدها النبي (ص) فترة قصيرة قبل أن يروّعها الزمان ويجور أهلُه على خير البريّة. عاشت في أجواء القرآن والسنة والمعرفة الحقيقية بالحياة إلى جانب أجواء الورع والزهد والتقى. عاشت في مدرسة النبوّة، في رعاية الأم الحنون سيدة النساء وفخر دولة النبوّة. عاشت زينب، وهي طفلة، ترى والديها يعملان، فعلى الرّغم من عظمتها عند الله وعند رسوله والمسلمين فإن والدها كان يحطب ويستسقي ويكنس، وكانت والدتها كما جاء عن الإمام الصادق (ع) تطحن وتعجن وتخبز حتى أنهكتها أعباء المنزل وتربية الأطفال[1].

عاشت زينب مع والديها وأخويها، ورأت أنهم لا يردّون السائل والمحتاج حتى لو باتوا جياعا، كما مر في الفصل الأول. رُئي والدها علي (ع) حزيناً فقيل له: لم حزنك؟ قال: «السبع أتت لم يضف إلينا ضيف»[2]. ورُوي أنه حينما قسم النبي(ص) الفيء أصاب عليٌّ أرضاً، فاحتفر فيها عيناً فخرج ماء ينبع في المساء كهيئة عنق البعير لقوته، فسمّاها ينبع، فجاء البشير يبشر فقال (ع): «بشر الوارث هي صدقة بتة بتلاء في حجيج بيت الله وعابر سبيل الله لا تباع ولا توهب ولا تورث، فمن باعها أو وهبها، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبلُ الله منه صرفاً ولا عدلاً»[3].

وجاء، في تاريخ البُلاذري وفضائل أحمد، أن غلة الأرض التي وهبها علي صدقة في حجيج بيت الله وعابر سبيل الله بلغت أربعين الف دينار، ومع ذلك فقد باع سيفه يوماً، وقال: «لو كان عندي عشاي ما بعته»[4]. هذا هو الوالد الذي تربت عقيلة الطالبيين في كنفه. كان أباً ومعلماً وصديقاً وفيّاً.

لقد شاركت زينب والدتها في كثير من الظروف العصيبة التي مرت بها في حياتها سواء كان في الطفولة أم بعد النضج. فإذا كانت فاطمة قد فقدت أمها في طفولتها فها هي زينب تفقد أمها فاطمة وهي في أول شبابها وتتركها مع أخويها الحسنين يتجرعون مرارة اليتم ولوعته وهم لم يبلغوا الحلم. وإذا كانت فاطمة الزهراء قد ودعت أمها خديجة وهي في خريف عمرها، فها هي زينب حفيدة خديجة تودعُ أمها

فـاطمة وهي في ربيع عمـرها، تتركهم لقمـة سائغـة لجور الأيام وظلم الأمـة. وإذا كانت فاطمـة الزهراء قد عاشت مـع والدها النبي (ص) محنة فراق عضيـديه: أبو طالب وامها خـديجة وانفردت به قريش وزاد تعذيبها لـه والحاق الأذى به، فها هي زينب تعيش الظروف ذاتها حيث كـان الرسول (ص) والزهراء (ع) كـالعضيدين لها فكانت وفاتها رزية. لقـد عاشت عقيلة الطالبيين في طفولتها رزايا عـديدة. الرزية الأولى تمثلت في وفـاة جدهـا النبي (ص) وحرمـانها وأمهـا وأخويها عطفـه وحنانـه وتوجيهه. والرزيـة الثانية أن الأمة قلبت ظهر المجن لـوالدها وصي رسول الله (ص) وأنكرت عليه حقه ومن ثم لكل العترة، فجلس في بيته كالطير المتكسرة أجنحته، أو كالأسد الجريح في عرينه يجمع القرآن، بعد أن شيـد صـرح الدين والدولة بسيفـه، ـ بشهـادة الأمة ـ. أما الـرزية الثالثـة فهي أن بيت العصمة ومهبط الـوحي وبيت العترة صار هدفاً لرجال سلطة الخلافة بما الحقوه من أذى بآل رسول الله وما صاحب ذلك من ترويع للأطفال الذين كانوا يحظون برعاية و إجلال رسول الله(ص) وتعظيم المسلمين لقـدرهم في حيـاته. إن مثل تلك المشـاهـد لا يمكن أن تمحى من ذاكـرة الإنسان، وخصوصـاً إذا كانت في مرحلة الطفولة. لقـد عاشت زينب مأساة ذلك اليوم الرهيب، تـرى والدها داحي باب خيبر يؤخذ مكرهـا من داره، وأُمها، بضعة رسـول الله تصرخ وتنتخي بأبيهـا رسول الله، وتشكـو خيـانة الأمـة بعـد أن ضُربت وأسقط جنينهـا الذي سماه رسـول الله (ص) محسناً(٥). تلك المنـاظـر لا يمكن أن تغيب عن خيالها. والرزيـة الرابعة مصادرة نحلـة أمها فدك. أما الـرزية الخامسة، وهي الأهم بالنسبـة لها كطفلة فقدهـا أمها فاطمة الـزهراء، وهي لا تزال في مـرحلة الطفـولة المبكـرة. ولا شك في أنّ تعلق الطفل وخصـوصاً الأنثى بـالأم لا يمكن أن يعوَّض بحنان امرأة أخرى.

وهناك فرق آخر بين رحيل كلٍّ من خديجة وفاطمة، فخديجة كانت معززةً مكرمةً باستثناء قسوة الحياة التي عاشتها في الشعب. بينما فاطمة كان موتها نتيجة ما لحقها من ضرب واجهاض يوم هاجم رجال سلطة الخلافة بيت العترة.

ولذلك فإن المتمعّن بكلمات الإمام علي (ع) بعـد دفن فاطمة (ع) وتحويل وجهه جهة قبر رسول الله (ص) يناجيه، يحس بخجل الإمام علي من رسول الله (ص) تجاه

ما حدث لفاطمة من ايذاء رجال سلطة الخلافة لها دون أن يتمكن من نجدتها لالتزامه بوصيته.

وكما تحمَّلت فاطمة الزهراءُ مسؤوليةً تجاه والدها في سن مبكرة، بعد رحيل والدتها خديجة، ها هي زينب تتحمل بالمثل مسؤولية تجاه أخويها الحسن والحسين ووالدها، وهي لا تزال طفلة. وإذا كانت فاطمة الزهراء قد تجرعت في طفولتها أذى قريش، وخصوصاً أيام الشعب، فها هي طفلتها زينب تتجرع كأساً أشد مرارة من الكأس الذي تجرعته أمُّها. فتكون تلك الرزايا ميراثها وعزاءها لأن ما كانت تخبئه لها الأيام لا يقل هولاً عما حدث.

كذلك تلتفت إلى والدها فتجده وحيداً فريداً لم يصفُ له من الأمة سوى أربعة، لزموا صحبته: سلمان وابو ذر وعمار والمقداد. فتتعلم منه الصبر ليكون زادها الذي ستواجه به جور الأمة على العترة. وصبر علي لا يمكن أن يفوقه إلا صبر رسول الله(ص) في مواجهة أذى قريش له ولأتباعه من أوائل المسلمين طوال ثلاث عشرة سنة من البعثة في مكة.

وسمعت زينب، كما سمع أخواها وباقي مجتمع المدينة الكثير من أقوال الإمام علي (ع)، التي تعبر عن صبره ودوافع ذلك الصبر. وقال عن تظلمه من قريش واغتصابهم حقه: «وقد قال قائل إنك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص. فقلت: بل أنتم والله لأحرص وأبعد وأنا أخصُّ وأقرب، وإنما طلبت حقاً لي وانتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه. فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هبَّ كأنه بُهت لا يدري ما يُجيبني به. اللهم إني استعديك على قريش ومن أعانهم فإنهم قطعوا رحمي وصغَّروا عظيم منزلتي وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي: ثم قالوا: «ألا إنَّ في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تتركه»(٦).

إن الإمام علي يشير، في هذه الكلمات إلى محاججته رجال سلطة الخلافة بالمسجد النبوي لاغتصابهم حقه.

إنه يتحدث عن المظلومية فهو يشكو، في هذه الكلمات، أمام حشد من المهاجرين والأنصار لا لتثويرهم ضد سلطة الخلافة وإنما ليوجه من خلالهم رسالة

إلى أجيال دولـة النبوّة المتعاقبـة لتعريفهم حقيقة مـا حدث من مظلوميـة لآل رسول الله(ص) فـور لحاقـه بـربـه. إنه يقـول: إن رجـال سلطـة الخلافـة لم يقتصروا على اغتصابي حقي ساكتين عن الدعـوى، ولكنهم أخذوه وادعوا أن الحق لهم وأنّه يجبُ عليّ أن أترك المنـازعة فيه. فليتهم أخـذوه معترفين بأنه حقي فكـانت المصيبة أخف وأهون[٧].

ويقصد الإمام علي أنَّ الخطأ، من قبل سلطة الخلافة، كان مضاعفاً لظلمهم آل رسول الله (ص) باغتصـاب الخلافة، وإجبار وصي رسول الله (ص) على المبـايعة، ويعني ذلك إكراهـه على التخلي عن عهد عهـده إليه رسـول الله (ص)، بمعنى أنّه أجبر على معصية رسول الله (ص) ومن ثم على معصية الله. وخلاصة ذلك أن بيعة السقيفة، كانـت خيانة الأمة لعهـد الله ورسوله، وقد أجبر الإمـام علي على مشاركة الأمة تلك الخيانة. وهذا عدا مـا لحق بآل رسول الله من أذى، كما اعترف بذلك أبو بكر في نهاية حياته كما مرّ في الفصل الثاني.

ومن الكلمات التي تعلمت منها زينب مظلومية والدها وبقيّة آل رسول الله(ص) خطـاب أبيها في النـاس بمناسبـة رفضـه عرض أبي سفيـان وعمه العبـاس وغيرهما لمبايعته، بعد أن تمت مبايعة أبي بكر، حيث قـدم أبو سفيان المدينة بعد الانتهاء من بيعة السقيفة، فقال الإمام علي:

«أيها الناس، شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المغامرة وضعوا تيجان المفـاخرة، أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح. هذا مـاء آجن، ولقمة يغُصُّ بها آكلها. ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزراع بغير أرضه فإن أقل يقولوا حرص على الملك، وإن أسكت يقـولوا جزع من الموت. هيهات بعـد اللتيا والتي، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية[٨] في الطَّوي[٩] البعيدة[١٠]».

في عهد الرسول (ص) ظلَّ سيف علي مسلولاً طوال حياته جاهد به الشرك وأهله من أجل إعـلاء كلمة الحق ونشر الـدين وحمايـة الأمة ودولـة النبـوّة، فها هـو يضع سيفـه في غمــده بعـد رسـول الله (ص) مـن أجل الأهـداف نفسهـا لتبقـى الأمـة

موحدة . لذلك رفض علي مبايعة أبي سفيان له ونهره ، لأن علياً يعرف ما في نفس أبي سفيان من حقد دفين على الإسلام وأهله ، لفقدانه زعامته وتضرر مصالحه .

فقد كان إسلامه يوم فتح مكة استسلاماً ، عن رهبة لا عن رغبة ، ففسر الإمام حركته تلك بنية سيئة ضد سلامة الدين ووحدة الأمة .

علي في هذه الكلمات البليغة ، يحث الناس على وحدة الكلمة والقضاء على الفتن بالتمسك بسفن النجاة وهم أهل البيت النبوي ، حيث رُوي عن الرسول(ص) في ذلك أحاديث متواترة عند محدثي المدرستين الإمامة والخلافة . جاء من طرق عديدة يقوي بعضها بعضاً ، كما ذكر ابن حجر: «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا» . وفي رواية مسلم : «ومَن تخلف عنها غرق»(١١) .

وعن أهمية أهل البيت للأمة ودورهم الإلهي فيما روي كذلك عن سعيد بن المسيب عن أبي ذر قال : «قال رسول الله (ص) : الأئمة بعدي اثنا عشر، تسعة من صلب الحسين تاسعهم قائمهم» . ثم قال (ص) : «ألا إن مثلهم فيكم مثل سفينة نوح مَن ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك ، ومثل باب حطة في بني إسرائيل»(١٢) .

وفي المعنى نفسه عن دور آل رسول الله (ص) في الأمة رُوي عن سعيد المقري عن أبي هريرة قال : «قلتُ لرسول الله (ص) : إنّ لكل نبيّ وصياً وسبطين فمن وصيُّك وسبطاك؟ فسكت ولم يرد جواباً ، فانصرفتُ حزيناً . فلما حال الظهر قال : «ادنُ يا أبا هريرة» ، فجعلت أدنو وأقول : أعوذُ بالله من غضب الله وغضب رسول الله ، ثم قال : إن الله بعث أربعة آلاف نبي وكان لهم أربعة آلاف وصي ، وثمانية آلاف سبط ، فوالذي نفسي بيده لأنا خير النبيين ووصيي خير الوصيين ، وأنّ سبطيَّ خير الأسباط : الحسن والحسين (عليهما السلام) سبطي هذه الأمة ، وإن الأسباط كانوا من ولد يعقوب وكانوا اثني عشر رجلاً ، وأن الأئمة من بعدي اثنا عشر من أهل بيتي ، عليٌّ أولهم وأوسطهم محمد وآخرهم محمد ، وهو مهديُّ هذه الأمة الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه ، ألا إنّ مَن تمسك بهم بعدي فقد تمسك بحبل الله ، ومن تخلف عنهم فقد تخلى عن الله»(١٣) .

تربت زينب في بيت مَن قال فيه رسول الله (ص) بإجماع رواة الحديث من

المدرستين: «أقضاكم علي»، و «علي أقضى الأمة»(١٤). فهو إذن أفقههم. ولذلك قال فيه عمر بن الخطاب بعد تجربته الطويلة معه خلال عهد رسول الله (ص)، وعهد أبي بكر، وعهده: «لولا علي لهلك عمر، لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن، لا يفتينّ أحد في المسجد وعليٌّ حاضر»(١٥).

وينقل ابن أبي الحديد أنه خلال خلافة عمر أيضاً استعدى رجل على علي بن أبي طالب (ع) عمر بن الخطاب وعلي جالس فالتفت عمر إليه فقال: «قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك فقام فجلس معه وتناظرا ثم انصرف الرجل ورجع علي (ع) إلى مجلسه فتبين عمر التغير في وجهه. فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيّراً أكرهت ما كان؟ قال: «نعم». قال: وما ذاك؟؛ قال: «كنيتني بحضرة خصمي هلا قلت: قم يا علي فاجلس مع خصمك». فاعتنق عمر علياً وجعل يقبّل وجهه وقال: بأبي أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمة إلى النور»(١٦).

ولما كان علي أفقه الناس في دولة النبوة، بعد رسول الله (ص) فقد أخذ عنه فقهاء الصحابة كعبد الله بن عباس المعروف بحبر الأمة. كما أن فقهاء مدرسة الخلافة الأربعة وغيرهم أخذوا علومهم عن علي، بشكل مباشر أو غير مباشر. فقد قرأ أبو حنيفة على جعفر بن محمد الصادق (ع) وينتهي علم جعفر إلى علي، وعن أبي حنيفة أخذ بقية فقهاء مدرسة الخلافة بعضهم عن بعض أيضاً بوسائل مختلفة(١٧).

لقد كان علي سعيداً بذلك لتأدية واجبٍ من واجبات الإمامة وهو حماية حدود الشريعة، وتلك حسنة من حسنات سلطة الخلافة لأنها رأت أن لا غنى عن فقه حامي الشريعة وعلومه الإلهيّة التي تعلمها من النبي (ص).

تربت زينب ونشأت وتعلمت على يدي مَن قال فيه رسول الله (ص): «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأتِ الباب»، و «أنا دار الحكمة وعلي بابُها»، و «علي باب علمي»(١٨). ورُوي عن الإمام علي أنه قال: «إسألوني قبل أن تفقدوني عن كتاب الله ما من آية إلا وأنا أعلم حيث نزلت، وما من فتنة إلا وقد علمتُ كبشها، ومَن يقتلُ فيها، والعلم بما يكون لا يكون إلا للرسول لقوله تعالى:

﴿عـالم الغيب فـلا يظهـرُ على غيبـه أحـداً إلا مَن ارتضى من رسـول. . . ﴾[١٩]. والرسول يطلع الإمام ليستدل به على استحقاقه لذلك المقام[٢٠].

وتعلمت زينب وأخواها القرآن وعلومه على يديه.

ومما جاء في وصف علي للقرآن وأهميته في حياة الأمة:

«جعلـه الله ريّـا لِعَطَشِ العلماءِ، وربيعـاً لقلـوب الفقهـاء، ومحاجّ لطُـرُقِ الصُّلحـاء، ودواء ليس بعده دواءٌ، ونـوراً ليس معه ظلمـةٌ، وحبلاً وثيقـاً عُروتـه. ومعقلاً منيعاً ذِروتُه وعِزّاً لمن تـولاّه. وَسِلْماً لِمن دخله. وهُدى لمن أتمَّ به، وعُذراً لمن انتحله، وبُرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاجّ به. وحامِلاً لمن حَمَلَـهُ، وَمطيّـةً لِمن أعملـه، وآيـةً لمن تـوَسَّم وجنّـةً لمن استـلأم وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحُكماً لمن قضى»[٢١].

وتعلمت زينب وأخـواها إلى جـانب القرآن وعلـومه والسنـة النبويـة الشريفة، الفصاحة والبلاغة على يدي والدهم الـذي مدح فصاحته أشد الناس عداوة للعترة معاوية بن أبي سفيان بقوله: «إن علياً هو الذي سنَّ الفصاحة لقريش»[٢٢]. ومنزلة قريش الأدبية وشهرتها معروفة تماماً عند جميع العرب. وكتاب نهج البلاغة الذي جمع فيه الشريف الرضي ــ أحد علماء مدرسة الإمامية البـارزين ــ خطب الإمام علي (ع) خير دليل على مستوى فصاحتـه وبلاغته وقد قيل فيه: إنَّ كـلامه دون كلام الخالق وفوق كـلام المخلوقين، ومنه تعلم النـاس الخطابة والكتـابة، فكيف بأولاده فهـم أولى بذلك وأجدر، فهو إمـام الفصحاء وسيد البُلغاء[٢٣]. كـان علي لأولاده الأب والمعلم والصديق والمربي. أصبح حـاضناً لأيتـامه بعد رحيل عضيـديه النبي (ص) وفـاطمة في فترة قصيرةٍ بينهما، كما كـان فقـد النبي لعضيـديـه: خديجة وعمـه أبي طالب.

حق لعلي أن يحزن، وحق له أن يحمـل هم تربية العيـال وهم لا يزالـون أطفالاً، أصبحوا أيتاماً من الجد والأم في سن مبكرة من حياتهم. وكان يقول:

ما إن تأوّهتُ مـن شيء بليتُ به كما تأوّهتُ لـلأيتـام في الصغـر

فهو المعلم الأكبر بعد رسول الله (ص) لأنه آيته. ولذلك وجب عليه أن يتحمل

هموماً تزول منها الجبال وتنهدُ هدّاً، وهو صامد لا يزول ولا يتزعزع. فغذّى أولاده بصبر الإمامة، فأخلاقياته امتداد لأخلاقيات النبوّة. أسند ابنُ قرطبة في مراصد العرفان إلى زيد بن حارثة: «أن رسول الله (ص) بايعنا على أن نحفظه في نفسه وفي علي بن أبي طالب، وقال: أعطى الله تعالى العصا لموسى، والكلمات لإبراهيم وأعطاني هذا ـ يعني علياً ـ ولكل نبي آية، وهذا آيتي والأئمة الطّاهرون من بعده آياتُ الله، ولم تخلُ الأرض من الإيمان ما بقي أحد من ذريته، وعليهم تقوم الساعة»(٢٤).

لذلك فلا عجب في تميُّزه أنه معجزة النبي بعد القرآن، ومن هنا جاء التلازم في حديث الثقلين بين القرآن والعترة.

نهلت زينب وأخوها من علوم النبوة، كما تعلموا الفصاحة والبلاغة من والدهم الذي غمرهم بحنانه وأغدق عليهم من فيض حبه، فهم سلوته بعد غياب الأحبة وخذلان الأمة وغياب الناصر. تخلقت زينب وأخواها بأخلاق النبوة، إلى جانب اتقانهم للقرآن والسنة وعلم الفقه واللغة. فقد تعلموا من والدهم ووالدتهم التواضع والحلم وبساطة العيش والكرم والورع والزهد والتقوى، فكانت هذه كلها حليتهم في الحياة الدنيا، كما ورثوا عن والدهم الشجاعة والإقدام، وكذلك كانت والدتهم بضعة الرسول (ص).

لم ينحصر جود علي في السلم فقط، فقد كان جواداً في الحرب أيضاً. ذلك أنه كما يروى تنازل عن سلاحه الذي يحاربُ به لخصمه في عهد رسول الله (ص) خلال المبارزة، حينما طلب المبارزُ سيف علي. فقد روي أن علياً كان يحارب رجلاً من المشركين في إحدى الغزوات، فقال المشرك: «يا ابن أبي طالب هبني سيفك، فرماه إليه، فقال المشرك: يا ابن أبي طالب في مثل هذا الوقت تدفع إليّ سيفك؟ فقال: يا هذا إنك مددت يد المسألة إليّ، وليس من الكرم أن يرد السائل. فرمى الكافر نفسه إلى الأرض، وقال: هذه سيرةُ أهل الدين، فقبّل (في المصدر: فباس) قدمه وأسلم»(٢٥).

لقد تربت زينب وأخواها في بيت مَن قال فيه رسول الله (ص): «هذا سيد العرب»(٢٦). وقد جهلت الأمة حقه كما جهلت حق ذريته وقدرهم، بعد أن جعل

الله إمامته إكمالاً للدين وإتماماً للنعمة الإلهية على المؤمنين. سُئل الإمام الصادق (ع) عن قوله تعالى: ﴿**يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها...**﴾[٢٧]. قال: «يعرفونها يوم الغدير وينكرونها يوم السقيفة»[٢٨]. وجاء عن الإمام الصادق (ع) تحميله رجال سلطة الخلافة مسؤولية الدماء التي تراق في دولة النبوة منذ بيعة السقيفة إلى يوم القيامة[٢٩] إنّه لما كان قتل قابيل لأخيه هابيل بداية لتأسيس الظلم على وجه الأرض، فإن ظلامة آل رسول الله (ص) بعقد بيعة السقيفة هي البداية لتأسيس الظلم في دولة النبوة وجر المحن وتواليها على الأجيال المتعاقبة لأمة محمد (ص) من قبل الحكومات الجائرة التي كانت وليدة ذلك اليوم.

إن الإمامة أخت النبوّة وهما ركنان من الإيمان، وجاء تثبيت الإمامة في غدير خم في الثامن عشر من ذي الحجة السنة الحادية عشرة للهجرة إيذاناً بنهاية المطاف لإنجاز الرسالة السماوية بواسطة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ص)، وإيذاناً كذلك بإقتراب رحيلة من دار الدنيا إلى نعيم الخلد في دار الآخرة.

وعن دور الإمام في حياة الأمة قال الإمام علي (ع): «أنا صراط الله المستقيم وعروته الوثقى التي لا إنفصام لها»[٣٠]. يعني أن معرفته والتمسك به طريق إلى معرفة الله سبحانه. وعن إرتباط الإمام علي بالنبي (ص) وكونه إمتداداً له قال (ع): «أنا من محمد (ص) كالضوء من الضوء، والضوء الثاني مثل الأول لا مستقل ولا أجنبي بل هو كالمالك المتصرف في الملك بتمليك مالك الأول»[٣١]. فعلي يوضح للأمة أنه صنو النبوّة، فشجاعته من شجاعته، وعلمه من علمه، وأخلاقه من أخلاقه، فهذا إمتداد لحياة النبوّة ونسخة أصلية منه لا يمكن أن يرقى إليها سائر البشر، وأن التميز بينهما النبوّة، كما وضح النبي (ص) ذلك لعلي يوم خروجه إلى غزوة تبوك وتخليفه في المدينة ليحل محله بقوله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي»[٣٢].

ومن كرامات علي عند الله ورسوله أن جعل حبه معياراً للتمييز بين المؤمن والمنافق، عن أنس بن مالك قال: «لما نزلت الآيات الخمس في طس ﴿**أمن خلق السماوات والأرض... إن كنتم صادقين**﴾[٣٣]. إنتفض علي إنتفاض العصفور فقال له رسول الله (ص): (مالك يا علي؟ فإنه لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق،

ولولا أنت لم يعرف حزبُ الله)(٣٤). فالأئمة وفي مقدمتهم علي والموالين لهم السالكون طريقهم هم حزب الله، كما يدل عليه الحديث الشريف.

وعلى الرغم من تعاونه مع سلطة الخلافة الواقعية خصوصاً خلال خلافة أبي بكر وعمر حيث حظى بإحترامهما وتقديرهما لحاجتهما إليه فكان يزودهما بمشورته ونصائحه إلا أنه حدثت تجاوزات عديدة لم يتمكن من إيقافها خصوصاً في خلافة عثمان بن عفان لأنه لم يكن يملك السلطة السياسية. وكثيراً ما ضاق عثمان ذرعاً بمشورته خصوصاً في نهاية حياته. وكان الإمام علي يبث همومه أولاده والصفوة من أصحابه في بعض الأحيان ليكونوا على علم بكل تلك التجاوزات التي تحدث للدين ولمصالح الأمة ومقدراتها.

وقد وصف الإمام علي بإيجاز ما قام به عثمان بن عفان الخليفة الثالث تجاه دولة النبوّة من أخطاء بقوله:

«إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه(٣٥) بين نثيله(٣٦) ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون(٣٧) مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث(٣٨) فتله وأجهز(٣٩) عليه عمله وكبت(٤٠) به بطنته»(٤١).

يصور الإمام علي ما لحق بدولة النبوّة من إستغلال لمقدراتها وإلحاق الأذى بأبنائها خصوصاً الآمرين بالمعروف حينما تولى عثمان بن عفان حكم المسلمين وهو ثالث رجال سلطة الخلافة الواقعية الذي فتح الباب على مصراعيه للأمويين والمروانيين الذين حذر الرسول (ص) منهم في أحاديث متواترة عند رواة ومحدثي المدرستين. فيصور الإمام علي (ص) تلاعب الأمويين بمقدرات الأمة ومصادرتها كما تقبل الإبل على أكل نبات الربيع بنهم. وكان ختام عهد سلطنة الخلافة مأساوياً بالنسبة لإنتهاك حدود الله والإساءة إلى الأمة ودولة النبوّة وتمثل ذلك في الأخطاء الشنيعة التي أرتكبت في حق الإسلام والمسلمين في عهد عثمان وهي: (٤٢).

١ ـ رد الحكم بن العاص (طريد رسول الله) بعد أن نفاه النبي ومنع دخوله المدينة إلى الأبد قائلاً له: «لا تجاورني حياً وميتاً»، علماً بأن أبا بكر وعمر رفضا إعادته حينما طلب منهما ذلك، إلا أن عثمان أعطاه مئة ألف درهم وأعاده.

٢ ـ نفى أبي ذر من المدينة إلى الشام ثم من المدينة إلى الربذة حتى مات وحيداً فريداً، وبذلك قرب عثمان من أبعده رسول الله وهو الحكم، وأبعد من قربه رسول الله (ص).

٣ ـ طلب منه عبد الله بن خالد بن أسير صلة فأعطاه أربعمئة ألف درهم.

٤ ـ تصديق رسول الله (ص) بموضع سوق بالمدينة يعرف بنهروز على المسلمين فأقطعه عثمان الحرث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

٥ ـ اقطع عثمان مروان بن الحكم فدك نحلة الزهراء التي حرمتها منها سلطة الخلافة منذ بداية حكمها بعد وفاة الرسول (ص) وظلت فدك يتوارثها آل مروان حتى أعادها العبدُ الصالح عمر بن عبد العزيز إلى ورثة فاطمة الزهراء بالمدينة في عهده.

٦ ـ حمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية.

٧ ـ أعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقيه بالمغرب وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه أحد من المسلمين، كما ولاه مصر.

٨ ـ أعطى أبا سفيان بن حرب مئتي ألف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمئة ألف من بيت المال، وقد كان زوجه ابنته أم أبان.

٩ ـ أتاه أبو موسى بأموال كثيرة من العراق فقسمها كلها في بني أمية.

١٠ ـ أنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مئة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن مسؤولية بيت المال لتذمره من هذا التلاعب.

١١ ـ ضرب عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل حتى كسر أضلاعه.

١٢ ـ ضرب غلمان عثمان عمار بن ياسر حتى انفتق بطنه وكسروا ضلعاً من أضلاعه.

١٣ ـ عثر على نسخة من كتاب موجه الى معاوية يأمره بقتل بعض المسلمين.

١٤ ـ أحاط نفسه ببطانة من بني أمية وآل مروان وفي مقدمتهم مروان بن الحكم الذي أصبح الخليفة الفعلي لدولة النبوَّة في عهده، مما أدى إلى تأليب الرأي العام في أقاليم الدولة ضده ومن ثم مقتله. كل ذلك حدث وعلي وصي رسول الله والإمام من بعده بمسمع وبمنظر. كل هذه التجاوزات طيلة ربع قرن منذ موت رسول الله (ص) إلى مقتل عثمان وهو يعيش تلك الإنتهاكات للدين وحدوده ولمقدرات المسلمين، وقد شلَّت يمناه وكتفته وصيةُ الرسول وفقدان الناصر، وهذا معنى قوله(ع): «وطفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء»(٤٣) وصف تلك الفترة التي غاب فيها الناصر وكثرت بها التجاوزات والإنتهاكات كالليل البهيم والمظلم لكثرة المظالم التي حلت بالأمة ونهب ثرواتها والتعدي على حرمات الله. هذه هي الظروف العصيبة التي عاشتها زينب مع والدها وأخويها كانت ظلامة العترة هي البداية وقد غاب عن الأمة الأبعاد الحقيقية التي ستترتب على تنكرهم لعهدهم لرسول الله (ص) لقد خانت الأمة الثقلين الثقل الأكبر كتاب الله والثقل الأصغر العترة أنهما الجدار الأمني لحرمة الدين والأمة فإذا انتهكت حرمتهما ورضيت الأمة بذلك فلن تقوم لها قائمة وهذا ما حصل.

تخرجت زينب بنت علي بن أبي طالب من حجر النبوَّة ومدرسة الإمامة، إنها سليلة البضعة النبوية، نشأت فصيحة بليغة حتى أنها أفحمت أعداءها في عقر دارهم حيث أخرستهم الخطب لحسن منطقها وعمق بلاغتها وفصاحتها مع أنها كانت مسبيه وتحت رحمة أولئك الأعداء كموقفها مع عبيد الله بن زياد والي الكوفة في قصر الإمارة ومع يزيد بمجلسه في القصر الأخضر بدمشق كما سيتضح ذلك لاحقاً. أمها فاطمة الزهراء وجدتها خديجة بنت خويلد وأبوها علي بن أبي طالب وجدودها النبي (ص) وخويلد وأبو طالب وشقيقاها السبطان الحسن والحسين(ع). لقد حازت شرف النسب العالي في قريش إلى جانب شرف النبوَّة وشرف الإمامة وشرف العلم والفصاحة والبلاغة والأخلاق الإيمانية كالزهد والورع والتقوى والصبر والتواضع والحلم. إن شجرة نسبها من أعلى الأشجار قدراً ومنزلة عند الله وعند الناس. فكانت بحق نموذجاً مشرفاً للمرأة الرسالية بعد جدتها

خديجة وأمها فاطمة. من ألقابها العقيلة وفخر المخدرات وعقيلة الطالبيين.

٢ ـ زواجها وحياتها الزوجية:

تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر (الطيار) بن أبي طالب. أمه أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن ختعم، وأبوه جعفر بن أبي طالب الملقب بالطيار لاستماتته في الدفاع عن الإسلام في غزوة مؤته السنة الثامنة من الهجرة، التي استشهد فيها وعوضه الله بجناحين يطير بهما في الجنة بعد قطع يديه في تلك المعركة الحاسمة. وقد وُلد عبد الله بن جعفر في الحبشة خلال هجرة والديه إليها فراراً بعقيدتهم من مطاردة قريش للمسلمين فكانت الحبشة الملاذ الأول للمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة. ومن أبرز الصفات التي اشتهر بها عبد الله الجود لذلك لقب بالجواد(٤٤).

وعلى الرغم من ترحيب على بن أبي طالب بتزويج ابنته زينب لإبن أخيه عبد الله ابن جعفر إلا أنه إشترط عليه ضمن العقد أن لا يمنعها من الخروج مع أخيها الحسين (ع) إلى العراق(٤٥). ولا شك أن الإمام علياً قد علم من رسول الله (ص) بما يجري عليه وعلى ذريته من ظلم الأمة وجورها عليهم. وإن إصرار الإمام علي في اشتراطه على ابن أخيه يعكس علامتين بارزتين الأولى أن إلتحاق السيدة زينب بالحسين في معركة الشهادة بكربلاء هو عمل مقدس لأنها ستقوم بدور عظيم بعد الحسين حيث ستحمل بعد إنتهاء المعركة المسلحة رسالة الإستشهاد لتبليغها إلى الأمة. والثانية أنه على الرغم من أن العمل الذي ستقوم به هو عمل رسالي إلا أنه لا بد وأن يكون عن إذن من زوجها. فثبت الإمام علي الشرط خشية وقوع المحذور. وإلى جانب هذا وذاك كشف الإمام علي علمه بالأحداث المستقبلية التي زوده بها النبي (ص) ورُزقت زينب من ابن عمها عبد الله أربعة أولاد: علي وعون ومحمد وعباس، وبنتاً واحدة هي أم كلثوم(٤٦). وقد وفى عبد الله بن جعفر بوعده حينما أذن للسيدة زينب بمصاحبة أخيها حينما سار في ركب الشهادة إلى كربلاء وتوّج ذلك

الإلتزام أن قدَّم ولديه عوناً ومحمداً قربانين لدين الله حيث إستشهدا بين يدي خالهما الحسين وبحضور أمهما زينب(٤٧).

إن انتـداب الإمام علي السيـدة زينب لتكـون شريكـة الإمـام الحسين في نضالـه بكربـلاء يعكس مكـانة هـذه المرأة وعظمتها ودورهـا الرسـالي. فكما صاغ الـرسول وخديجة شخصية فاطمة الزهراء، فإن شخصيةالسيدة زينب هي من صياغة فاطمة الزهـراء وعلي بن أبي طالب. لقد هيأها الإمـام علي (ع) لذلك الدور الرسـالي الذي أذهل الأعـداء قبل الموالين، وستتضح عظمـة هـذا الـدور فيما بعـد. وكما كـان الرسول(ص) متعلقاً بفاطمة، كذلك كانت علاقة الإمام علي (ص) بالسيدة زينب على الـرغم من زواجها فقـد كـانت حريصـة على الإستفادة مـن علمه وتـوجيهاتـه وأخلاقه المثـالية إلى جانب حبه وحنـانه الأبوي. لقد رافقتـه خلال فترة إقصائه عن السلطة ولمست عن قرب مدى آلامه وشكاويه وتظلماته مما حل بالأمة نتيجة تنكرهم لحقه، كما كانت قريبة منه خلال تسلمه مقاليد الحكم.

٣ ـ الظروف التي مهدت لكربلاء:

لقد عـانى علي بن أبي طالب صابـراً على أمره خمسا وعشرين سنة خـلال سلطة الخلافـة كما غُلب الـرسـول (ص) على أمـره وحـوصر في شعب أبي طـالـب بمكـة وعاشت السيدة زينب مع والدها وأخويها آلام العترة وكل الإنحرافات التي حدثت خصـوصاً في عهـد عثمان بن عفان كما مـر ذكر نبـذة مختصرة عن أخطائه. كـذلك عاشت السيدة زينب فترة حكم والدها لدولـة النبوّة وفرح المؤمنون بعهده كما استاء أصحـاب الأطماع والشهوات من سيـاسته.فثـاروا عليـه حيث لم يدم عهـده إلا فترة قصيرة (٣٥ ـ ٤٠ هـ). بعد مقتل عثمان بن عفان الخليفة الثالث فقد أجمع على بيعة علي أهل الحل والعقد ولم يوافق إلا بعد إلحاح شديـد من كبار المهاجرين والأنصار. ويصف الإمام علي مشهد الجماهير المحتشدة التي إنهالت عليه للمبايعة بقوله: «فما راعني إلا والناس كعُرف الضَّبُع إليَّ ينثالون(٤٨)عليَّ من كل جانب. حتى لقد وُطِيء الحسنان، وشُقَّ عِطفاي(٤٩)، مجتمعين حولي كربيضة الغنم»(٥٠). فعلي أعجبه أمر الناس وهم ينصبون عليه كانصباب الماء مجتمعين حوله كإجتماع الغنم حول راعيها.

ومع أن نفراً من كبار الصحابة إمتنعوا عن بيعته مثل عبد الله بن عمر، سعد بن أبي وقاص، حسان بن ثابت وزيد بن ثابت إلى جانب ثلاثة نفر آخرين بالإضافة إلى الأمويين والمروانيين[٥١]، إلا أن علياً أبى أن يذل أولئك النفر من كبار الصحابة على الرغم من تخلفهم عن بيعته واكتفى بقوله: «أولئك قوم خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل. تخلفوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل»[٥٢]. لم يقاتلهم كما فعل غيره، ولم يتهمهم بالإرتداد عن الاسلام لأنهم تخلوا عن بيعته كما فعل غيره مع أنه وصيُّ رسول الله وبيعته واجبة في أعناقهم.

ولذلك كان مما قاله حينما تولى مقاليد حكم دولة النبوّة يقارن بين مكانة عترة الرسول وأهليتهم لقيادة الأمة وبين من تقدم عليهم وحالوا بين العترة وحقهم: «زرعوا الفجور، وسقوه الغرور وحصدوا الثُبور لا يقاسُ بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد ولا يُسوَّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائصُ حق الولاية، وفيهم الوصية والوِراثة. الآن إذ رجع الحقُّ إلى أهله، ونُقِلَ إلى منتقله»[٥٣]. إنه يشير إلى الذين أسسوا ظلم آل محمد (ص) منذ وفاته، ومع الجهود التي بذلوها لإقصائهم عن قيادة الأمة إلا أن تلك الجهود ذهبت أدراج الرياح وقد عاد الحق إلى نصابه. أراد علي أن يمارس حكم الله في الأرض. علي أراد أن يعيد لدولة النبوّة نضارتها وعزتها كما كانت أيام رسول الله. أراد أن يحيى سُنة الرسول(ص) ويعمل بجوهرها، إلا أنه قد مضى على رحيل الرسول (ص) ربع قرن من الزمن وغيَّر المال نفوس الناس كما توقع رسول الله (ص) للأمة في أحاديث متواترة عند رواة ومحدثي المدرستين. ولذلك ثار عليه الناكثون والقاسطون والمارقون كما أخبره الرسول(ص) وأخبر الأمة بذلك. روى كل من أبي يعلى والبزار أن علياً قال على المنبر في مطلع خلافته بالمدينة: «عهد إليَّ النبي (ص) أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»[٥٤]. كما أكد الإمام علي في إحدى خطبه بمسجد الكوفة قبيل وفاته على تظلمه من تظاهر الأمة عليه وخذلانه وإشارته الى الفرق الثلاث التي قاتلها بقوله: «فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون»[٥٥] ويقصد بالناكثين زعماء حرب الجمل وهم طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين الذين فضح علي تآمرهم مع معاوية عليه

حيث إستخدمهم جنوداً لتنفيذ تطلعاته للحكم(٥٦)، أما القاسطون فهم بنو أمية وأما المارقون فهم الخوارج. لقد ضرب علي المثل الأعلى للتواضع والزهد خلال حكمه والمشهور عن الإمام علي أنه لم يبنِ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة(٥٧). وحينما إنتهى من معركة الجمل في البصرة قدم الكوفة في رجب سنة ٣٦ من الهجرة ومعه أشراف البصرة، فخرج أهل الكوفة لإستقباله قبل دخولها يهنئونه بالنصر. وحينما عرضوا عليه النزول في القصر الأبيض الذي كان معداً لسكناه أبى قائلاً: «لا أنزلُ القصر، ولكني أنزلُ الرحبة»(٥٨) وهي ساحة المسجد الجامع، فنزلها وأقبل ودخل المسجد فصلى ركعتين. فبنى له أهل الكوفة منزلاً صغيراً بناء على توجيهاته يكون في مستوى أفقر بيت في الكوفة(٥٩). ومن كلامه في أسلوب عيشه: «أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر»(٦٠). فسكنه في ذلك المنزل المتواضع إنما هو مواساة للمحرومين. لذلك أحبه المساكين والمحرومين وتبعوه. قال عنه رسول الله (ص): «علي إمام المساكين»(٦١) ولحب السيدة زينب وتعلقها بأبيها إلتحقت به مع أسرتها وفضلت أن تعيش إلى جواره لتسعد بعطفه وحنانه الأبوي وتتزود من علمه وحكمته ومن مواريث النبوّةالتي آلت إليه، لتجمع لها زاداً من مواريث النبوّة يكون لها عوناً وعزاء في مستقبل الأيام الحبلى بالرزايا التي تنتظرها.

إن الإمام عليا أمة في رجل فكما كانت النُّبوّة نعمة ونوراً وهداية للعرب فكذلك دور الوصي الذي جهلوا قدره، ولم يعلموا أن تظاهرهم عليه خلال مدة حكمه إنما كان حطاً لقدرهم وتضييعاً لمقدراتهم وسحقاً لكرامتهم كما تنبأ لهم الإمام علي بذلك وبالذل الشامل على أيدي الأمويين فقال: «فعند ذلك لا يبقى بيتٌ مدر ولا وبر إلا وأدخله الظلمةُ ترحةً وأولجوا فيه نقمة فيومئذٍ لا يبقى لهم في السماء عاذر ولا في الأرض ناصر. أصفيتم بالأمر غير أهله وأوردتم غير مورده. وسينتقم الله ممن ظلم مأكلاً بمأكل ومشرباً بمشرب من مطاعمَ العلقم ومشارب الصبر والمِقْر. ولباس شعار الخوف ودثار السيف. وإنما هم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام. فأُقسم ثم أُقسم لتنخمنَّها أُميَّة من بعدي كما تلفظُ النُّخامة. ثم لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ما كرَّ الجديدان»(٦٢). يتحدث عما سيحل بالأمة من جور وظلم في عهد بني

أمية الذين كان شعارهم بث الرعب في نفوس الناس بواسطة السيف كما يتحدث عن زوال ملكهم الذي أسسوه، وهو هنا يشير إلى ملك الشرق وليس الأندلس. وفي معركة صفين وصف الإمام علي معاوية وجيشه بحزب الشيطان فقال: «ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه، وإستجلب خيله ورجله»(٦٣). كما روي عن الإمام علي (ع) أنه لما نظر إلى رايات معاوية وأهل الشام بصفين قال: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن رجعوا إلى عداواتهم لنا إلا أنهم لم يتركوا الصلاة»(٦٤). كما توقع الإمام علي أن يأمر معاوية بسبه لأنه لم يهادنه بل أصرَّ على إقصائه عن حكم الشام فقال: «أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحبُ البلعوم مندحق البطن يأكلُ ما يجد ويطلب ما لا يجد، فأقتلوه ولن تقتلوه. ألا وأنه سيأمركم بسبي والبراءة مني. أما السب فسبُّوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة. وأما البراءة فلا تتبرأوا مني فإني وُلدت على الفطرة وسبقتُ إلى الإيمان والهجرة»(٦٥).

كم كانت قصيرة فترة حكم الإمام علي لم يتمكن من تحقيق أحلامه في إقامة حكم الله في الأرض ويعيد لدولة النبوَّة مجدها وعزها الإلهي حيث ثار عليه الناكثون والقاسطون والمارقون إلى درجة أن الأموال التي صار معاوية يوزعها يميناً وشمالاً لشراء رجال علي قد أثرت في بعضهم فرحل وقلبه مليء بالغصص على ما وصل إليه حال أمة نبيه، وكانت وفاته في الحادي والعشرين من رمضان سنة أربعين من الهجرة بعد أن ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالسيف على رأسه في محراب المسجد الجامع. ودفن بمقبرة الغرى بالكوفة حيث دفنه الحسنان وبعض المخلصين من أصحابه وأخفيا قبره خوفاً على نبشه من الأمويين كما فعل علي نفسه بقبر فاطمة.

ها هي زينب تتوالى عليها الرزايا تموت أمها شهيدة لظلامة الأمة وها هو والدها وصي رسول الله يلحق بركب الراحلين شهيداً بعد أن ذاق الكثير من ظلم الأمة وخذلانها له وجهلها لقدره وحقه بعد أن أفنى حياته في خدمتها وخدمة الدين ولم يُعرف مكان قبره إلا في زمن هارون الرشيد(٦٦). لقد كان الصراع بين علي ومعاوية سباقاً بين خطين خط دولة النبوَّة وخط سلطنة قريش فخط علي هو إقتفاء سنة الرسول (ص) لتحقيق المبادىء التي أقام عليها دولته وهي الحق والعدل والمساواة

والحرية فقاد المساكين (المتواضعين) والمتقين ليجعل من تلك المبادىء دستور الحياة، وهذه سيرته في الأمة خلال حكمه، وخطبه في كتاب نهج البلاغة، وعهده إلى مالك الأشتر النخعي لما ولاه على مصر وأعمالها(٦٧)، يعد دستوراً متكاملاً للسياسة الشرعية بدولة النبوّة لأنه مستنبط من القرآن والسنة.

وقد وصف معاوية عهد علي للأشتر حينما وقع في يده بعد أن تمكن من التآمر على قتل مالك سماً وهو في طريقه إلى مصر بقوله يخاطب بطانته(٦٨):

«دعوني أتأملُ في عهد علي للأشتر فما قرأتُ علماً أجمع منه ولا أغزر ولا أحكم، ولا أشد إلماماً بالآداب والقضايا والأحكام والسياسة»(٦٩).

وقد وضع الإمام علي سياسة للإنفاق في الدولة تبلورت في الإلتزام بما كان يحدث به قائلاً:

«إن الله وضع في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما مُتع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك»(٧٠). وقال: «ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيَّع»(٧١).

تلك هي السياسة التي أغضبت البخلاء من الأغنياء الذين أرادوا الإستئثار بالمال دون غيرهم وجعلتهم يتعاونون مع معاوية لتقويض حكم علي الذي يتعارض مع مصالحهم»(٧٢).

أما سياسة معاوية فكانت تقوم على تشويه أخلاق الناس وإغراقهم في ملذات الحياة عن طريق وسائل ثلاث:

أ ـ الترغيب

ب ـ الترهيب

جـ ـ الفتيا ووضع أحاديث نبوية تمدح في الأمويين وتذم في الطالبين وتحريف تفسير الآيات القرآنية لإغواء المجتمع الإسلامي وجذبه الى الصف الأموي أو إبعاده

عن عترة الرسول . كل ذلك لإعادة نفوذ زعامة قريش التي قضى عليها ظهور محمد (ص) وثورته النبوية عن جميع مظاهر الحياة في البيئة العربية . فكانت حروب الجمل وصفين والنهروان والأهواز وأرد شير هي إحدى وسائل الترهيب لمقاومة خط السياسة النبوي الذي إنتهجه وصيّ رسول الله ، والتي راح ضحيتها من الأمة خلال خمس سنوات تقريباً مئة ألف قتيل(٧٣) . وهذا يعكس إستماتة الأمويين وأتباعهم الذين كانوا يسعون لتأسيس سلطنة قريش في التصدي لنضال السائرين على الخط النبوي حتى النهاية فكانت الحروب الداخلية خلال عهد علي ليس فقط هدراً لطاقات الدولة النبوية البشرية والمالية وإنما كانت عائقاً لحركة التنمية بمعناها الشمولي وشل حركة الفتوحات لنشر مبادىء الدولة الفتية في أرجاء العالم إضافة إلى أن تلك الحروب أعطت إنطباعاً سيئاً للأمم الأخرى عن سلامة نهجها الإنساني .

أما وسيلة الترغيب فكانت تقوم على إغداق الأموال على رؤساء القبائل لإستمالتهم إلى صفّه كما ركز على إستمالة رجال علي المقربين إليه وقادة الجيش وعرض عليهم الوعود بالجاه والمناصب في السلم والحرب . كما إستخدم تلك الوسيلة لأصحابه أيضاً لضمان ثباتهم على ولائه(٧٤) . ومعاوية يُقسم بالله أن يجذب من علي ثقاته وأن يغلبهم بدنياه على دينه(٧٥) .

أما الوسيلة الثالثة ، فإن معاوية حشر في القصر الأخضر مقر حكمه بدمشق برجال هم دخلاء على الدين اصطنعهم معاوية وجعلهم زينة لبلاطه ليتقي بهم عامة الناس ويستخدمهم سلاحاً وقت الحاجة لتفسير القرآن كما يشاء وتقتضي مصلحته السياسية وليضعوا الأحاديث النبوية التي تتفق وتلك السياسة(٧٦) . إنه اسلوب الطواغيت الذين ابتليت بهم أمة الإسلام . فمثلاً حينما قتل عمار في حرب صفين سنة ٣٨ من الهجرة جاء الرجلان الشاميان الثريان إلى معاوية وهما يتسابقان طمعاً في الجائزة أحدهما طعن عمار والآخر احتزّ رأسه ، فقال لهما عبد الله بن عمرو بن العاص : «ليطب كل واحد منكما نفساً لصاحبه بقتل عمار، فإني سمعتُ رسول الله(ص) يقول : (قاتله وسالبه في النار، إنما تقتله الفئة الباغية»(٧٧) . وقد وصف عبد الرحمن الشرقاوي الدور الذي قام به علماء بلاط القصر الأخضر وثوابهم بقوله :

«لقد عرفت الجاهلية صاحبات الرايات الحمراء اللائي يبعن الأعراض واللذات وعرفت الأمة في عهد معاوية أصحاب الأهواء الذين يبيعون ضمائرهم، ويغلون في الثمن، ويبذلون عرضهم العلمي، وشرفهم الديني مقابل الأموال والضياع والمناصب»(٧٨).

هذه هي السلطوية التي حكم بها بنو أمية بعد علي. لم يبدل علي أسلوب عيشه في عهد حكمه عما كان عليه قبل ذلك. فقد رفض أن يسكن القصر الأبيض الذي أعدَّ له.

أما معاوية فقد بنى له قصراً غلَّفه بالرخام الأخضر ومن هنا إشتق اسمه. واتبع في بنائه فن العمارة الرومانية حيث جلب له مهندسين رومانيين، وزينه من الداخل بزخارف تبعاً للفن الساساني. كما استبدل فرقة الطرب التي تتكون من مجموعة من أعراب البادية بجوقة موسيقية من عازفين على آلات موسيقية مختلفة كاملة من أفضل الموسيقيين الفرس. كذلك جلب فرقة رقص رومانية. إنه حاكىٰ بذلك تقاليد وعادات دواوين القياصرة والأكاسرة، كما قلدهم في أساليب معيشتهم(٧٩).

ولذلك حينما زار عمر بن الخطاب خلال خلافته معاوية بدمشق ورأى كثرة جنوده وأُبهة ملكه أعجبه ذلك وأُعجب به ثم قال: «هذا كسرى العرب»(٨٠) لفخامة ملكه وباهر جلالته وعظمة أبهته.

كما روي أن عمر بن الخطاب حث الناس على الهجرة الى معاوية بالشام إذا وقعت فتنة أوجبت إفتراق الصحابة، وأن يفوضوا إليه أمر الفتنة لسداد رأيه وحسن تدبيره(٨١).

وقال معاوية، يوماً وهو بين حاشيته يصف بإيجاز حياة رجال سلطة الخلافة الثلاثة: أبو بكر، عمر وعثمان قائلاً: «رحم الله أبا بكر، لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه، أما نحنُ فتمرغنا فيها! والله انه لملكٌ آتانا اللهُ إيّاه!»(٨٢).

إن سلطة الخلافة هي التي مكنت الطلقاء وأبناء الطلقاء من تأسيس نفوذهم السياسي في دولة النبوّة. فمعاوية بن أبي سفيان تولى حكم دمشق بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان في نهاية عهد أبي بكر، وعمر بن الخطاب ثبت معاوية على حكم

دمشق، وعثمان ولاه على كل الشام كما فتح البــاب على مصراعيـه لأقـاربـه، من الأمويين وسلطهـم على رقاب المسلمين دون قيد أو شرط. وتكفـي شهادة معـاوية بنفسه.

ودليل آخر على أن نفوذ الأمويين الـذي مكنهم من تأسيس سلطنة قريش مدان لعهد سلطة الخلافة وصية أبي سفيان لإبنه معاوية حينما زار الأخير أباه فقال له: «إن هؤلاء الرهط من المهاجرين والأنصار سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخـرنا، فصرنا أتباعاً وصـاروا قادة، وقد قلدوك جسيماً من أمـرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه، ولو قد بلغته لنوفست عليه»[٨٣].

عمـر بن الخطــاب يطلق على معـاويـة «كسرى العــرب»، ويحث النـاس على الإلتحاق به حال حدوث فتنة، وأبو سفيان يأمره بطاعة من قلدوه مهام الحكم.

هذه لمحة مـوجزة، ومؤشراً على أن سلطنة قـريش مدانة في وجودهـا ونفوذها إلى سلطة الخلافـة، وأن كل الأخطاء التـي إرتكبتها سلطنة قـريش بحق الديـن والأمة تتحمل مسؤوليتها سلطة الخلافة التي حكمت دولـة النبوّة بعد رحيل مؤسسها مدة ربع قرن. علماً بأن الطلقاء وأبنـاء الطلقاء لا يحل إئتمانهم أمور المسلمين ومصالحهم بإتفاق المسلمين.

وفوق هذا وذاك فإن الرسول (ص) قد حذر الأمة من شرور بني أمية وبني مروان وآل مخزوم في أحـاديث عديـدة، قالها في منـاسبـات مختلفة، فكيف يخالف رجـال سلطة الخلافة ما نهى عنه رسـول الله (ص)؟. فقد أخبر الرسول (ص) أن بني أمية تملك الخلافة بعده وقد ذمهم في أحاديث متواترة عند رواة المدرستين الامامة والخلافة حيث رُوي عنه كما يذكر ابن أبي الحديد في تفسير قوله تعالى:

﴿. . . ومـا جعلنـا الـرؤيـا التي أرينـاك إلا فتنة للنـاس والشجـرة الملعـونـة في القرآن. . ﴾[٨٤] أنــه رأى بني أُميــة ينـزون على منبره نـزو القـردة ـــ حسب لفظ الرسـول(ص) ـ فساءه ذلك. ثم قال: «الشجـرة الملعونة بنو أُميـة وبنو المغيرة»[٨٥] ونحو قوله (ص): «إذا بلغ بنو أبي العـاص ثلاثين رجلاً إتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً»[٨٦]. وكذلـك قولـه (ص) في تفسير قولـه تعالى: **﴿ليلة القـدر خيرمن ألف شهر﴾**[٨٧]. قال: «ألف شهر يملك فيها بنو أمية»[٨٨].

كذلك حـذر الرسول (ص) الأمـة بما يلقاه آله من أذى على يـد فئات محددة من النـاس ذكرهـا بـالإسم لإلقاء الحجـة على الأمـة وكشـف المستقبل لهم بعلم من الله بقولـه: «إن أهل بيتي سيلقون بعـدي من أمتي قتلاً وتشريداً، وإن أشـدَّ قومنـا لنا بغضاً بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم»[٨٩]. وروى عبد الرحمن بن عوف قال: «كان لا يولد لأحد مـولود إلا أتى به النبي (ص) فيدعو له فـأُدخل عليه مروان بن الحكم فقال هذا الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون»[٩٠].

وفي ذم الأمة لسيرة هـؤلاء الذين حذرهم منهم الرسـول (ص) وذمهم على لسان كبار الصحـابة، رُوي عن محمـد بن زياد قـال: «لما بايع معـاوية لإبنـه يزيـد قال مروان: سنةُ أبي بكر وعمـر فقال عبد الرحمن بن أبي بكر سنةُ هـرقل وقيصر فقال له مروان: أنت الذي أنزل الله فيك: ﴿**والذي قال لوالديه أُفٍّ لكما . . .**﴾[٩١]. فبلغ ذلك عائشـة فقالت: «كـذب والله ما هو بـه ولكن رسول الله (ص) لعن أبـا مروان ومروان في صلبه»[٩٢]. إن رسول الله (ص) لم يخبر عنهم وبـدورهم المستقبلي السيء الذي سيحـدثونـه في الأمة بعده إلا بـوحي من الله وبعد أن عـاش المسلمون معهم تجربـة مريـرة قبل الهجـرة وبعدهـا. ولـولا أن منَّ الله على المسلمين بـالقوة والمنعـة وحاصروا مكة بعد فتحها وفي قبضة أيديهم عشرة آلاف سيف كلها كانت مشهورة لم يستسلموا فكان إسلامهم إستسلاماً، كما ورد سابقاً. فلو كانت لهم فرصة للقتال لما ترددوا لحظة واحدة. ها هو معاوية يحول الشام من ولاية إسلامية خلال عهد سلطة الخلافة إلى نـواة لسلطنة قريش ونفـوذها فقاتل الـرجل الذي ارتضته الأمـة بالإجماع أميراً للمؤمنين، إلا معاوية، فقد خرج عن الطـاعة وفارق الجماعة وشق شمل الأمة وتسبب في إزهـاق أرواح عشرات الآلاف من أبنـاء الأمـة وأثار العصبيـات القبليـة والجاهلية متذرعاً بأخذ الثأر لدم عثمان مخالفاً في ذلك قول الله ورسوله، إذ أن الأخذ بالثأر إحدى العصبيات الجاهلية التي نبـذها الإسلام وأن القصاص من مسؤوليات ولي الأمـر، قـال تعـالى: ﴿**ولكم في القصـاص حيـاة يـا أولي الألبـاب لعلكم تتقون**﴾[٩٣].

إن الرسول لم يحذر الأمة من شرور تلك الفئات إلا لما تمثله من خطورة على الدين والأمة. وقد عاش المسلمون تلك الشرور منذ موته ولا تزال وستظل قائمة. فإذا كانت غزوة الأحزاب في عهد الرسول (ص) زلزالاً وقتياً إمتحن الله به المؤمنين كما وصفه الله تعالى بقوله: **﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً﴾**[٩٤].

إن سلطنة قريش التي أسسها فلولُ الأحزاب قد أحدثت زلزالاً أبدياً لدولة النبوَّة أضعف الدين والأمة، ولن تزول آثار ذلك الزلزال إلا بظهور قائم آل محمد (ص) الامام المهدي الوصي الثاني عشر لمؤسس الدولة فيملأُ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وقال محي الدين في فتوحاته بشأن المهدي (ع) ودوره ومصيره[٩٥].

ألا إنَّ ختم الأنبياء شهيدُ — وعينُ إمام العالمين فقيدُ
هو القائم المهدي من آل أحمد — هو الصَّارِمُ الهندي حين تبيدُ
هو الشمسُ يجلو كل غيم وظُلْمةٍ — هو الوابلُ الوسمي حين يجود

لقد أخبر الامام علي في أقواله وخطبه التي مرت على هيئة مقتطفات توقعاته للبلاء الشامل الذي سيحل بالدين والأمة من بني أمية فهل صدقت توقعات النبي(ص) وعلي أم لا؟ بعد إغتيال الإمام علي (ع) بايع المسلمون في الكوفة والبصرة الإمام الحسن (ع) إلا أنه لم يستطع الصمود أمام سلاح معاوية الفتاك وهو الإغراءات بالمال والجاه والمناصب فتساقط رجال الإمام الحسن (ع) أمام تلك المغريات مما اضطره لمصالحة معاوية على أساس:[٩٦].

أ ـ رفع السب عن أبيه.

ب ـ أن لا يؤذي أحد من السائرين على خط الإمام والعترة.

غير أن معاوية لم يفِ بأي شرط واستمر سب الإمام علي وآله على منابر المسلمين

بما فيها منبر رسـول الله (ص) في المدينة ولم يتـوقف الشتم إلا في عهد عمـر بن عبد العزيز[٩٧] . فهاجـر بعدها سبطـا رسول الله الحسن والحسين (ع) وكـذلك السيدة زينب وآل رسول الله (ص) إلى المدينة واستقروا فيها[٩٨]. وبدأ الأمويون يصبُّون جام غضبهم وحقـدهم على آل رسـول الله (ص) وكأنهم يصفُّـون حسـاباتهم القـديمـة معهم. إنهم يظهـرون الحقـد والكـراهيـة لعترة الـرسـول (ص) عـلانيـة في مقـر الرسـول(ص) ودار هجرتـه. ومن تبجح معاويـة واستهتاره بـذرية الـرسول (ص) وحقـده الدفين على محمـد (ص) وآله أنـه لما قـدم المدينة بعـد أن استقر آل رسـول الله(ص) فيهـا بعـد هجرتهم من مكة، صعـد المنبر في المسجـد النبـوي ونـال من علي(ع) فقام إليه الإمام الحسن (ع) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الله عز وجلّ لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدواً من المجرمين فأنا ابنُ علي وأنت ابن صخر وأُمك هند وأُمي فـاطمـة وجدتك قتيبـة وجـدتي خـديجة فلعن الله الأدنى حسباً وأخملنا ذكـراً وأعظمنا كُفـراً وأشدُّنا نفاقـاً فصاح أهل المسجد آمين آمين. وقطع معاويـة خطبته ودخل منزله»[٩٩] . إن الإمـام الحسن (ع) سليل بيت النبوَّة والإمـامـة والفصاحـة والبلاغـة فلا يستطيع معاويـة أن يدانيه في الحجـة والمنطق على الرغم من كـونه من دهاة العرب. ورُوي عن سعـد بن أبي وقاص قال: «قدم معاويـة في بعض حجاته فدخل عليه سعد فذكر علياً فنال منه فغضب سعد وقال: يقول هذا الرجل سمعتُ رسول الله يقول: من كنتُ مـولاه فعلي مولاه، وسمعته يقول أنت مني بمنـزلة هارون من موسى إلا أنـه لا نبي بعدي. وسمعتُه يقـول لأُعطينَّ الراية اليـوم رجلاً يحِبُّ الله ورسوله»[١٠٠]. ومن المعروف أن سعد بـن أبي وقاص كان من كبار الصحابـة الذين إعتزلوا علياً ولم يبايعوه وكذلك عبد الله بن عمر ومحمد بن سلمة الأنصاري إلا أنهم حفظوا لعلي مكانتـه في قلوبهم ورفضوا التعاون مع معاويـة في حياة علي حينما حاول استـدراجهم إلى جـانبـه وعنفـوه وذكـروه بمنـاوأتـه للـدين والأمـة قبل الإسـلام وبعده[١٠١]. النبي (ص) يقـول: «من سب علياً فقـد سبني ومن سبني فقـد سب الله»[١٠٢] . ويقـول في حديث آخـر عن مكانـة علي: «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث ما دار» متفق عليـه. وأخرج الطبراني بسند حسن عن أم سلمة عن رسول الله (ص): «من أحبَّ علياً فقد أحبَّني ومن أحبَّني فقد أحبَّ الله ومن أبغض

علياً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله». إن هذه الأحاديث المتواترة عند رواة المدرستين الإمامة والخلافة في فضل علي وذرية الرسول (ص) ليست من أجل أن يجامل الناس رسول الله (ص) في ذريته وإنما من أجل أن يحفظوه فيهم ويسلكوا طريقهم، لأنه الطريق السوي لمعرفة الله والدين والحياة. إن العترة هم حبلُ الله وصراطه المستقيم. لقد بلغت الجُرأة بمعاوية أن ينال على المنبر من علي الذي لولا سيفه ومال خديجة لما قام الإسلام ولما صنعت أعواد المنابر. ولذلك روي أن الرسول حثَّ على ضرب عنقه إذا صعد منبره. رُوي عن عبد الله بن مسعود قال: «قال رسول الله (ص): «إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطب على منبر فاضربوا عنقه فقال الحسن فوالله ما فعلوا ولا أفلحوا»[١٠٣].

كما حثَّ الإمام علي (ع) على قتله أيضاً[١٠٤]. وإنما حث على قتله لكثرة الجرائم التي ارتكبت بحق الدين والأمة ولا تزال. ولذلك حينما نزل به الموت قال: «يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذي طُوى وإني لم أل من الأمور شيئاً»[١٠٥]. يتمنى أنه لم يحكم لكثرة المظالم التي ارتكبها بحق دولة النبوّة ديناً ودولة. وكان مروان واليه على المدينة يتعمد سب أهل البيت كل جمعة من على منبر رسول الله (ص) وهو يخطب، فقد سب الحسن والحسين، حتى قال مرة للحسين: «والله إنكم أهل بيت ملعونون»، فتأثر الحسين وقال لئن قلت هذا فوالله لقد لعنك الله على لسان نبيه وأنت في صلب أبيك فسكت مروان»[١٠٦]. هذه كرامة أهل بيت رسول الله بعد موته وهذه وصيته في أمته وهذه أحاديثه التي قالها ورددها على أسماع المهاجرين والأنصار في فضلهم وكرامتهم عند الله ورسوله كأنما ذهبت أدراج الرياح وكأن شيئاً لم يكن.

لم يكتفِ معاوية بإلحاق الهزيمة السياسية بالإمام علي والإمام الحسن واستئثاره بالسلطة والملك وتشريع سب العترة على منابر المسلمين والإهانات التي توجه إلى البيت النبوي وكأن أصحاب هذا البيت أحدثوا جريمة بحق الإنسانية وإنما إمتدت أيادي سلطنة قريش وباني عزها ونفوذها الى بيت الإمام الحسن فأشترى ضمير زوجته جعدة بنت قيس بن الأشعث على أن تقدم على سم الحسن مقابل مئة ألف درهم وتزويجها من ابنه يزيد، فبعث السم إليها وسقته الإمام الحسن حيث استشهد

من أثر ذلك السم(١٠٧) . ورُوي أنه لما سُـمَّ الإمام الحسن جاءهُ الإمام الحسين فلما رأى ما بـه بكى فقال لـه الإمام الحسن مـا يبكيك يا أبـا عبد الله؟ قـال له الحسين: أبكي على ما أراك فيه. فقال له الحسن:

«إن الذي يأتي إليَّ بسمّ يدبَّـرُ إليَّ فأُقتلُ به، ولكن لا يوم كيومك يـا أبا عبد الله، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل يدَّعون أنهم من أمة جدنا، وينتحلون دين الإسلام، فيجتمعـون على قتلك وسفك دمك، وإنتهـاك حـرمتك، وسبى ذراريك ونسـائك وأخـذ ثقلك، فعنـدها تحل ببني أميـة اللعنـة، وتمطر السماءُ رمـاداً ودمـاً، ويبكي عليك كل شيء حتى الـوحـوش في الفلـوات والحيتـان في البحـار»(١٠٨). عامل الأمـويون آل رسـول الله معـاملـة سيئة في حيـاتهم وممـاتهم إظهـاراً للحقد الـدفين تجاههم. فبعد أن تـوفي الإمام الحسن بعـد معانـاة من أثر السم دامت أربعين يـوماً وذلك في السابع من صفر سنة ٥٠ من الهجرة في عـز رجولته حيث كان عمره ثمانية وأربعين عاماً وقد أوصى لأخيه الحسين بأن يحمل بعـد موته إلى عند قبر جده (ص) ليجدد به عهداً ثم يدفن في البقيع. وأخبره بأن أعداء العترة لن يمكنوه من دفنه عند جده، كما أوصاه بأن لا يـريق بسيفه محجمة دم(١٠٩). ولما جهزه الحسين (ع) شيعه والهاشميون الى قبر جده تنفيذاً للوصية فظن مروان بن الحكم أنه يريد دفنه عند جده فأظهر المنع والنهي عن ذلك(١١٠). وأتت في نفس الوقت عائشة (ر) وهي تقول «ما كـان عثمان ليـدفن بالبقيع ويـدفن الحسن عنـد رسـول الله (ص)؟»(١١١) فقال لها الحسين (ع): «ويحكِ يا عائشـة يوماً على جمل ويومـاً على بغل والله لولا وصية أخي لفعلت وفعلت»(١١٢). وقد أنشأ أحدهم مخاطباً عائشة(١١٣).

تبغلتـــــي تجملتـــــي ... وإن عشتـــي تفيَّلتـــي
لـك التسـع مـن الثمـن ... وبـــالكل تحيَّـــزت

ثم دفن الإمام الحسين أخاه في مقبرة البقيع فأنشأ أحـدهم مستغرباً من إبعاد قبر الحسن عن جده(١١٤):

وكيف ضـاقت على الأهلين تربتـه ... ولـلأجـانب في جنبيـه مُتَّسَعُ

أصبح الطواف بجسد سبط رسول الله عبر قبر جـده أمراً غير مرغوب فيه فكيف بدفنه.

لقد فجعت عترة الـرسول بفقـد الإمام الحسن وكـانت رزية السيـدة زينب بفقد أخيها عظيمة فقد عاشت خذلان الأمة لأبيهـا قبل خلافته وخلالها وعاشت خذلان الأمة لأخيها الحسن خـلال خلافته التي لم تدم سوى ستـة شهور. وعاشت فترة في المدينة بعد استقرارهم فيها وهي تشاهـد تظاهر الأمة بقيادة الأمويين والمروانيين على ذرية رسول الله وشتمهم علانية من على منبر رسول الله بواسطة مروان حاكم المدينة.

وكانت فاجعتها برحيل أخيها عظيمة لأنها كانت ترى فيه السند والعون لأخيها الحسين بعد رحيل والدهما العظيم بعطائه وتضحيـاته من أجل الحفاظ على مبادىء النبوّة من أجل تطبيق السنة النبوية وتعليم أبنـاء الأمة كيفية الإستفادة من كتاب الله في شؤون الدين والدنيا. ها هـو الحسن قد ودعهم وترك الإمام الحسين وأخته زينب يواجهان فلول الأحزاب والطلقاء وأبناء الطلقاء الذين لا يعرفون لله حرمة ولا لرسوله عهداً ولا لذريتـه مودة أو إحتراماً. ها هو الحسين يحمـل الثقل العظيم للأمة يحمل همومها. لقـد آن الأوان ليصدق حديث الـرسول (ص) فيـه: «حسين مني وأنا من حسين. أحب الله من أحب حسيناً. حسين سبط من الاسباط»(١١٥) إنه على موعد مع مشيئة الله. إنـه على موعـد لتأدية دَيْنْ عليـه منذ بدايـة الخليقة، إذا كـان جده خـاتم الأنبيـاء والمرسلين والشريعـة التي أتى بها خـاتمة الشرائع السماوية فهـا هـو الحسين يحين موعده لحمل ثقل الرسالات. بدأت إمامة الحسين بعد إستشهاد أخيه الإمـام الحسن بالنص عليـه من جده ووالـده وأخيه الحسن فهـو الإمام الثـالث بين أوصياء الرسول (ص) في دولة النبوة. كانت سلطنـة قريش قد سيطرت على مقاليد الأمـور بتزويـر أحاديث عن رسـول الله (ص) وتحريف تفسير آياتـه بواسطـة علماء سلطنـة قـريش ورواتها وكتـابها وفقهـائهـا وحفظـة القـرآن والقـراء. جميع سيـوف المجاهدين في سبيل الله وضعت للإستخدام بواسطة الجلادين في سلطنة قريش التي أصبحت تسيطر على مقاليد الأمور في دولة النبـوة بأكملها منذ إعتزال الإمام الحسن (ع). جميع مـوارد دولـة النبـوّة من زكـاة، خـراج، جـزيـة وضرائب أخـرى كلهـا

استخدمت للإنفاق على بلاط القصر الأخضر بدمشق وملذات الأمويين والمروانيين وحواشيهم. أصبح معاوية الحاكم بأمره في دولة النبوّة وعلى جميع شؤون الأمة الدينية والدنيوية. تاريخ الأمة يكتبه مؤرخو القصر الأخضر.

الوحي، القرآن، السنة، الوحدة، القيم كلها تحت رحمة بلاط القصر الأخضر وعلمائه، وكتابه ورواته وقضاته. أراد معاوية أن يحنط الحسين ويضمه الى بطانة علماء سلطنة قريش ليزين به قصره الأخضر ويزيد عدد علماء البلاط. أراده أن يجلس في مسجد دمشق ويدرس الفقه والثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي أو أي شيء يرغبه الإمام الحسين، معاوية أراد أن يجلب الحسين الى دمشق حتى يكون تحت رقابته وبعيداً عن أي نشاط سياسي. فأنظار الأمة تتجه نحوه لأنه كما يعلم الوصي الشرعي الثالث لرسول الله بعد أخيه الحسن(ع)[١١٦].

ورحل معاوية بعد أن وطّد البلاد والعباد لإبنه يزيد وحذره من أربع شخصيات وشرح له كيفية التعامل مع كل منهم وهم: الحسين بن علي بن أبي طالب، عبد الله ابن عمر، عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. الذين رفضوا مبايعة يزيد بولاية العهد في عهد أبيه[١١٧]. أما عن صفات يزيد هل كان مؤهلاً لقيادة الأمة أم لا فهو خريج حجر معاوية وطليق ابن طلقاء فيمكن الإكتفاء بما قاله فيه زياد بن أبيه والي البصرة ـ الذي ألحقه معاوية بوالده أبي سفيان ليضمن ولاءهُ.

طلب معاوية من زياد أن يأخذ بيعة المسلمين في البصرة، فكان جوابه له: «ما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبّغات، ويدمن الشراب، ويمشي على الدفوف وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، ولكن تأمره يتخلّق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين فعسينا أن نموّه على الناس»[١١٨].

وقد حذّر النبي (ص) الأمة مما سيلحقها من شرور وإساءة للدين من يزيد. فقد أخرج الروياني في مسنده عن أبي الدرداء قال: سمعتُ النبي (ص) يقول: «أول من يبدّل سنتي رجل من بني أمية يقال له يزيد»[١١٩]. حتى معاوية نفسه لم يكن مقتنعاً

بتقليد ابنه يزيد مقاليد أمور الحكم لأنه صنيعته وخريج حجره إلا أن حبه له جعله يقدم على تنصيبه ويجعل الدين والأمة قرباناً لهواه. فقد قال معاوية قبيل وفاته في إحدى خطبه بمكة:

«ولولا هواي في يزيد أبصرتُ قصدي»[١٢٠].

هذا هو حديث النبي (ص) وحديث معاوية في يزيد الذي إرتكبت في عهده جرائم قلَّ أن يحدِّث بمثلها التاريخ البشري، لذا فإن عهده لا يعتبر فقط صفحة سوداء في تاريخ دولة النبوّة بل سُبّة في التاريخ البشري. لذا فليس غريباً ما قام به العبدُ الصالح عمر بن العزيز خلال حكمه حينما سمع أحدهم يلقب يزيد بأمير المؤمنين. فقد حدث نوفل بن أبي الفرات قائلاً: «كنتُ عند عمر بن عبد العزيز فذكر رجل يزيد فقال: (قال أمير المؤمنين يزيد بن معاوية فقال: تقول أمير المؤمنين فأمر بضربه عشرين سوطاً)»[١٢١] لماذا أمر ابن عبد العزيز ضرب ذلك الرجل لأنه يعرف حق المعرفة ما ارتكب من ويلات بحق الدين والأمة في عهده.

الإمام الحسين (ع) لم يتمكن من إشهار سيفه في عهد معاوية لهيمنته الكاملة على جميع أنحاء دولة النبوّة وغياب الناصر فهو الإمام الوحيد الذي يرى هتك حرمات الله وقتل النفس المحرمة ونهب مقدرات الأمة، فكان ملازماً بيته بالمدينة إلى أن مات معاوية سنة ٦٠ من الهجرة[١٢٢].

وفور وفاة معاوية كتب يزيد إلى الوليد بن عتبة وإلى المدينة في صحيفة كأنها أُذُنُ فأرة: «أما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام»[١٢٣]. فالتقى الإمام الحسين والي المدينة وفي معيته ثلاثين رجلاً من أهل بيته ومواليه وانتهى اللقاء برفض الإمام الحسين مبايعة يزيد وقال عليه السلام في ختام اللقاء: «إنا لله وإنا إليه راجعون وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد. وقد سمعتُ جدي رسول الله (ص) يقول: (الخلافة محرَّمة على آل أبي سفيان)»[١٢٤].

إذا كان خاتم النبيين محمد (ص) قد حارب رأس الكفر وقائد الأحزاب أبا

سفيان، وخاتم الوصيين وإمام دولة النبوّة الأول وحامي حمى الإسلام بعد الهجرة وقائد حزب الله ومقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين علي بن أبي طالب قد قاتل قائد فلول الأحزاب وقائد حزب الشيطان وقائد الطلقاء وابن الطلقاء معاوية فها هو سبط رسول الله (ص) الثاني وإمام دولة النبوة. ووصي رسول الله الثالث وسيد شباب أهل الجنة وسليل النبوّة وخريج مدرسة علي وفاطمة بضعة رسول الله يواجه سليل الشرك وخريج حجر ابن آكلة الأكباد وسليل الطلقاء وأبناء الطلقاء والمرتكب لكل رذيلة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي أصبح الزعيم الأول لسلطنة قريش في دمشق والمهيمن على كل صغيرة وكبيرة في دولة النبوّة. إنه يرفض الإستسلام والمبايعة لمثل يزيد لأنه لا يحلُّ له أن يستسلم وأن يبايع لأن في ذلك اعترافاً بشرعية نظام متسلط على رقاب المسلمين لا شرعية له إلا السيف وكل أنواع الأعمال الهمجية. فقرر الإمام الحسين التصدي لذلك الطاغوت وهو وحيد لا ناصر له ولا معين سوى مواريث النبوّة التي يريد أن يصونها من عبث الطغاة أعني الكتاب والسنة والمبادىء التي قامت عليها دولة جده. بعد ستين سنة من الهجرة وخمسين سنة على رحيل مؤسس دولة النبوة يتولى يزيد حكم الأمة وتصدق نبوءة محمد (ص) بعد تضحيات المهاجرين والأنصار بكل ما يملكون من أجل إقامة صرح دولة النبوة وتشييد أركان الدين يأتي يزيد على قمة هرم دولة النبوّة ليزيل كل ما بناه محمد (ص) وأنصاره، ليزيل كل القيم الدينية والإنسانية، ويعزز الإرستقراطية الجديدة والجاهلية الجديدة، والمادية الجديدة التي أسسها والده في القصر الأخضر بدمشق. ولكن لن يهنأ يزيد إلا بإستئصال شجرة البيت النبوي وآل رسول الله. لم يقنع بنو أمية بتأسيس ملك لهم داخل دولة النبوة، إنهم يريدون تصفية حساباتهم القديمة مع رسول الله (ص) من خلال ذريته.

٤ ـ خروج ركب الحسين من المدينة إلى مكة وانضمام زينب للركب:

كانت كلمات الإمام الحسين خلال لقائه بالوليد بن عتبة ـ والذي سبق ذكره ـ وبعد حوار حاد معه ومع مروان ـ قال الإمام الحسين كلمات تدل على الإباء والشموخ وأنه لا خيار له بعد الرفض إلا النهوض بحركة إصلاحية تهزُّ وجدان الأمة

وكان مما قاله: «إنا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة وبنا فتح الله وبنا ختم الله(١٢٥) ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحرمة معلن بالفسق ومثلي لا يبايع مثله»(١٢٦).

وأوعز الإمام الحسين (ع) إلى أهل بيته وإخوته وبني عمومته بالإستعداد للرحيل لتلبية نداء الإستشهاد في سبيل الله، إذ أن الرسول (ص) قد أوحي إليه عن استشهاد الإمام الحسين منذ ولادته وتحدث للأمة بذلك، وأخبر فاطمة وعلياً بما يجري على ذريتهما حتى خاتم الأوصياء الإمام محمد المهدي. وأحاديث مقتل الإمام الحسين متواترة عند رواة المدرستين الإمامة والخلافة(١٢٧). وقبل خروج ركب الإمام الحسين (ع) من المدينة توجه لزيارة قبر جده (ص) ليلاً وصلى ركعتين وبعد فراغه جعل يقول: «اللهم هذا قبر نبيك محمد (ص) وأنا ابن بنت نبيك وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللهم إني أحِبُّ المعروف وأُنكر المنكر وإني أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحق هذا القبر ومن فيه ألا اخترت من أمري ما هو لك رضىً ولرسولك رضىً وللمؤمنين رضىً»(١٢٨). ثم جعل يبكي. كما زار قبر أمه فاطمة وقبر أخيه الحسن وودعهما(١٢٩). كذلك كتب كتاباً إلى أخيه من أبيه محمد ضمنه وصيته إليه لتبليغها للأمة بشكل عام وبنى هاشم بشكل خاص يبلغهم نهضته المباركة وعزمه على التصدي لطاغوت قريش يزيد هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية أن الحسين يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، جاء بالحق من عند الحق، وأن الجنة والنار حق، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي (ص)، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن ردَّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين وهذه وصيتي إليك وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»(١٣٠). ثم طوى الحسين الكتاب وختمه بخاتمه ودفعه إلى أخيه محمد ثم ودَّعه وخرج في جوف الليل

لثلاث خلـون من شعبان سنة ٦٠ من الهجـرة متوجهـاً الى مكة[١٣١]. كان معه في الركب جميع أبنـائه وبناته وزوجاته وإخـوته من والده وأخواتـه وعلى رأسهم السيدة زينب شريكتـه في نهضتـه المبـاركـة وأولاد أخيـه الإمـام الحسن (ع) وبعض بني عمومته[١٣٢]. إن مبـادىء نهضة الحسين كما هي واضحـة من وصيتـه لأخيه محمـد تقوم على مـا يلي: طلب الإصلاح والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر والعمل بسنة الـرسول (ص) وسيرة علي والحسن عليهم السـلام، بمعنى أنه كـان يريـد تصحيح الانحرافات وتقويم الأحداث التي أخذت تؤثر على حياة المسلمين بعد موت رسول الله (ص) والتي تمخض عنها في نهاية الأمر تأسيس سلطنـة قريش التي آل أمرها إلى من تخوَّف الـرسول على الأمة مـن شره وهو يزيـد كما مر في الحديث من قبـل. وكان خروج الإمام الحسين من المدينة ليلاً وهو يتلو[١٣٣]. ﴿**فخرج منها خائفاً يترقب قال ربّ نجني من القوم الظالمين**﴾[١٣٤].

فخروج سبط رسـول الله (ص) من مدينة جـده كخروج موسى من مصر خـائفاً على نفسه من جبروت فرعون فشبه الإمام الحسين خروجه من موطن جده وهو سبطه وشمامته بعلم كل المسلمين، هـا هو يخرج بـآل رسول الله خائفـاً من طاغيـة قريش ويلجأ إلى حرم الله في مكة، وحينما دخلها صار يقرأ[١٣٥] حين دخوله ما رواه القرآن الكريم عن قول موسى بن عمران ولجوئه الى نبي الله شعيب بمدين «**ولمَّا توجه تلقاء مديَن قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل**»[١٣٦].

لقـد كـان سير الحسين عليـه السلام في رحلتـه تلك تنفيـذاً لارادة السماء ووفقـاً لمنهاج خطهُ له جده وأبوه وأخوه بوحي من الله.

مكث الإمام الحسين بمكة بقية شعبان ورمضان وشوال وذي القعدة حتى الثامن من ذي الحجـة من نفس السنـة ٦٠ من الهجرة حيث خـرج لتلبيـة نداء الله وبلـوغ الشهادة. أما لماذا إختار الإمام الحسين مكة؟ فيرجع ذلك لعدة أسباب أهمها:

١ ـ أنها بلدُ الله الآمن وبها بيته الحرام الذي جعلـه الله آمناً لكل من يدخله وكان العرب يجلونه ويحترمـونه قبل الإسلام ولا يقربون من يدخلـه بسوء حيث تعارفوا على

ذلك وأن الإسلام أكد على حرمته لقوله تعالى: «ومن دخله كان آمناً» وقبلة المسلمين في صلواتهم وإليه يحجون.

٢ ـ إن مكة مكان لتجمع المسلمين وليس يقتصر هذا التجمع وزيارة حرم الله في موسم الحج إنما يكون عامراً بشكل متواصل طيلة العام وهناك مواسم مفضلة لأداء حج العمرة. فالأشهر التي مكثها الإمام الحسين بمكة هي أفضل الشهور لأداء حج العمرة.

٣ ـ إن الإمام الحسين يستطيع أن ينشر رسالة حركته الإصلاحية لمقاومة حكم يزيد إلى الأمة الإسلامية عن طريق حجاج مكة وتجارها فكأنها مركزاً استراتيجياً للإعلام عن أية حركة وشواهد التاريخ على ذلك عديدة. فالإمام الحسين نشر عن طريق الحجيج مبادىء وشعارات حركته المقدسة من مكة خلال فترة إقامته فيها.

٤ ـ إن مكة ملتقى لجميع المسلمين بجميع شرائعهم بما فيهم كبار الصحابة فمثلاً إلتقى الإمام الحسين بمكة كل من عبد الله بن عباس، عبد الله بن عمر، عبد الله بن الزبير وغيرهم.

٥ ـ إن اختيار الإمام الحسين لمكة وإقامته تلك الفترة التي زادت على أربعة أشهر تقريباً تمكن من إلقاء الحجة على جميع المسلمين في ذلك الوقت فمن تخلف عن نصرته إنما تخلف عن نصرة الحق المتمثل في شخص الإمام الحسين بقية العترة ووصي رسول الله بعد أخيه الإمام الحسن وسبطه وأمين الله على وحيه وسفينة نجاة الأمة، وفي الوقت نفسه فإنّ المتخلف عن نصرة الإمام الحسين مهادن للباطل بل وظهير له وهو المتمثل في قائد فلول الأحزاب والطليق ابن الطليق الذي اغتصب هو وأبوه حق العترة في قيادة الأمة ذلك الحق الذي نصت عليه الرسالة النبوية المحمدية.

ما إن سمع أهل الكوفة بوصول الإمام الحسين إلى مكة وإمتناعه عن البيعة حتى بدأوا عقد إجتماعات متعددة بينهم على كل المستويات[١٣٧]، وأخذوا يكاتبون الإمام الحسين ويرسلون له الوفود حاملين رسائل التأييد والمساندة ويدعونه للتعجيل

بـالحضور الى الكـوفـة حتى بلغ عـدد الـرسائل التي وصلتـه منهم إثنتـا عشرة ألف رسالة[١٣٨]. وكان أبـرز الإجتماعات التي عقدت في الكوفـة وأولها وحضره كبار أهل الكوفة الإجتماع الذي عقد في منزل سليمان بن صرد الخزاعي. يقول ابن طاووس في اللهوف: «فلما تكاملـوا قام سليمان بن صرد فيهم خطيباً وقال في آخـر خطبته: (يا معشر الشيعة[١٣٩] أنكم قـد علمتم بأن معاويـة قد هلك وصـار إلى ربه وقـدم على عمله وقـد قعد في موضعـه ابنه يزيـد وهذا الحسين بن علي عليـه السلام قد خـالفه وصار إلى مكة هارباً من طواغيت آل أبي سفيان وأنتم شيعته وشيعة أبيه من قبله وقد إحتاج الى نصرتكم اليوم فإن كنتم تعلمـون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوّه فـاكتبوا إليه وإن خفتم الوهن والفشل فلا تغرن الرجل عن نفسه)»[١٤٠].

وتمخض ذلك اللقـاء عن إتفـاقهم على إرسـال رسالـة لـلإمـام الحسين موقعـة بأسمائهم فكتبوا إليه كتاباً يعبر عن سخط الأمـة على حكم سلطنة قريش وممارسات رجـالها وإخـلاصهم الدعـوة لآل رسـول الله، جـاء فيه: بسم الله الـرحمن الـرحيم للحسين بن علي أمير المؤمنين، من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبـة ورفـاعـة بن شداد وحبيـب بن مظاهـر وعبد الله وائل وشيعة مـن المؤمنين سلام عليك أمـا بعد فالحمد لله الذي قصم عدوَّك وعدو أبيك من قبل الجبار العنيد الغشوم الظلوم الذي ابتزَّ هـذه الأُمة أمـرها وغصبهـا فيئها وتأمَّـر عليها بغير رضى منهـا ثم قتل خيـارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دُولـة بين جبابرتها وعتاتها فبُعداً لـه كما بُعدت ثمود ثم إنـه ليس علينـا إمـام غيرك فـاقبل لعل الله يجمعنـا بك على الحق والنعمان بن البشير[١٤١] في قصر الإمارة ولسنا نجمع معـه في جمعة ولا نخرج معه في عيـد ولو قد بلغنا أنك أقبلت أخـرجناه حتى يلحق بالشـام والسلام عليك ورحمة الله وبركاتـه يا ابن رسول الله وعلى أبيك من قبلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١٤٢].

ومن نماذج ما كتبـه أهل الكوفة إلى الحسين في بعض رسـائلهم لدعوته ومـؤازرته قـولهم: «إلى الحسين بن علي، من شيعتـه المؤمنين والمسلمين، أما بعـد فحي هـلا [كـذا]، فـإن النـاس ينتظـرونك ولا رأي لهم في غيرك فـالعجل العجـل والسـلام عليك»[١٤٣].

وكتب إليه شخصيات من رؤساء الكوفة كتاباً ورد فيه:

«فأقدم على جند لك مجندة والسلام عليك»(١٤٤). وفي رواية الطبري.

كتب إليه أهل الكوفة «أنه معك مئة ألف»(١٤٥).

أما آخر رسالة وردت على الإمام الحسين من أهل الكوفة فكان نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن علي أمير المؤمنين، من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين(ع) أما بعد فإن الناس ينتظرون لا رأي لهم في غيرك فالعجل العجل يا ابن رسول الله (ص) فقد اخضرَّ الجناب وأينعت الثمار وأعشبت الأرض وأورقت الأشجار، فأقدم علينا إذا شئت فإنما تقدم على جند مجندة لك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبلك»(١٤٦). وكان الإمام الحسين حينما يستقبل الوفود التي تحمل الرسائل من الدعاة والمؤيدين له يسألهم عن حقيقة الموقف وعن الموقعين على تلك الرسائل ليعرف حقيقة الأمر(١٤٧).

وبعد إستقباله آخر وفد كوفي صلى ركعتين بين الركن والمقام ليشهد الله على أولئك الذين وعدوه بالنصرة، وأنه لا يصح للإمام أن يتقاعس عن الجهاد حال وجود الناصر. ثم كتب رسالة عامة إلى أهل الكوفة خصَّ فيها الذين كاتبوه وها هو يرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب لأخذ البيعة منهم والتمهيد لقدوم الإمام الحسين إليهم بناء على استنهاضهم إياه. ومما جاء في تلك الرسالة: «... وإني باعث إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهلي (مسلم بن عقيل) ليعلم لي كنه أمركم، ويكتب إليَّ بما يتبين من جمعكم...»(١٤٨).

وقد بلغ عدد الذين بايعوا مسلماً أكثر من ثمانية عشر ألف رجل من شيعة أهل بيت رسول الله (ص)(١٤٩). وفي رواية خمسة وعشرين ألفاً وفي أخرى أربعين ألفاً(١٥٠). ونتيجة لوجود العديد من جواسيس سلطنة قريش في كل ولاية من ولايات دولة النبوّة، فقد بعثوا إلى يزيد يحيطونه علماً بما يجري في الكوفة، ويحذرونه من إحتمال خروجها عن طاعته ما لم يعجل بإتخاذ إجراء حاسم، نتيجة لتقاعس الوالي. فكان رد يزيد على ذلك أن أصدر أمراً بعزل النعمان بن بشير والي الكوفة، وأمراً آخر بضم ولاية الكوفة إلى إمرة عبيد الله بن زياد إضافة لإمرته على

البصرة(١٥١). فقدم الكوفة وأفسد على الإمام الحسين (ع) كل منجزات مسلم، فتفرق عن مسلم كل الذين بايعوه إلى أن بقي وحيداً حتى ألقى القبضُ عليه وقتل بعد أن دافع عن نفسه دفاع الأبطال كما قتل معه هاني بن عروة الذي ألجأ مسلماً عنده في بيته، وقطع رأسيهما وألقيت جثة مسلم ورأسه من على قصر الإمارة وجرّت جثتيهما في الأسواق، ليكونا عِبرة لمن يخرج عن طاعة يزيد بن أبي سفيان وأميره على الكوفة عبيد الله ابن زياد(١٥٢). وفي قتل مسلم وهاني بتلك الصورة البشعة أنشأ عبد الله بن الزبير الأسدي ويقال أنه للفرزدق شعراً(١٥٣):

فإن كنتِ ما تدرين ما الموت فانظري ... إلى هاني في السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشّم السيف وجهه ... وآخر يهوى من جدار قتيل
أصابهما جور البغيّ فأصبحا ... أحاديث من يسعى بكل سبيل
فتى كان أُحي من فتاه. حيئةٍ ... وأقطع من ذي شفرتين صقيل
أيركب أسماء العماليج آمنا ... وقد طالبته مدحج بدخول
تطوف حواليه مراراً وكلهم ... على رقبة من سايل ومسول
فإن أنتم لم تثأروا لأخيكم ... فكونوا بغا ما أرضيت بقليل

قائل الأبيات يصور ما جرى لمسلم بن عقيل وهاني بن عروة شيخ قبيلة مدحج ويلومهم على عدم تخليص سيدّهم من قبضة ابن زياد على الرغم من كثرة عددهم، وجلال قدر سيدهم. كما يشير الى إحاطة مدحج بالقصر واستخدام ابن زياد الدهاء لتفريقهم بسلام(١٥٤).

وأرسل ابنُ زياد برأس مسلم وهاني هدية إلى يزيد مع كتاب. فكان فيما جاء في رد يزيد على كتاب ابن زياد:

«أما بعد فإنك لم تعد إن كنت كما أحب عملت عمل الحازم وصلت صولة الشجاع الرابط الجاش، فقد أغنيت وكفيت وصدّقت ظني بك ورأيي فيك...»(١٥٥).

هذه شهادة يزيد في ابن زياد الذي إستخدم ثلاثة أسلحة لتوطيد سلطنة قريش

في الكوفة: نشر الجواسيس، وتوزيع الأموال، والسيف(١٥٦).

وكان ابن زياد حينما ألقى القبض على مسلم بن عقيل وجيء به إلى قصر الإمارة اتهمه ابن زياد بتفريق كلمة المسلمين. فرد عليه مسلم ـ سليل الطالبين وصديق مقرب للإمام الحسين الذي وصفه في رسالته إلى أهل الكوفة بأخيه ـ قائلاً:

«ما لهذا أتيت، ولكنكم أظهرتم المنكر ودفنتم المعروف وتأمّرتم على الناس بغير رضى منهم وحملتموهم على غير ما أمركم الله به، وعملتم بأعمال كسرى وقيصراً فأتيناهم لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر وندعوهم إلى حكم الكتاب والسنة فكنا أهل ذلك»(١٥٧). إن مسلم بن عقيل خرّيج مدرسة علي والحسن والحسين ولعظم قدره فقد أوفده الإمام الحسين ممثلاً لحركته الإصلاحية النهضوية في دولة جده. ولما عرّى مسلم بن عقيل سلطنة قريش أمام ممثلهم وخريج بلاطهم وأظهر أمام الحاضرين أهداف نهضة الإمام الحسين كما لخصها مسلم في كلماته رأى ابن زياد أنها أصابت منه مقتلاً فخرس لسانه وأفحم بحجة مسلم فلجأ إلى أسلوب الجبناء فصار يشتم مسلماً ويشتم علياً والحسن والحسين فقال له مسلم:

«أنت وأبوك أحقُّ بالشتم فاقضِ ما أنت قاضٍ يا عدو الله»(١٥٨). ثم أمر ابن زياد بقتل مسلم. رجال جُبلوا على قول الحق مهما كان الموقف صعباً ومهما كلفهم الثمن إنهم رساليون. الثبات على العقيدة والمبدأ غاية مقصدهم في الحياة. تاجروا مع الله فخلدوا في الدنيا والآخرة. وقد تزامن مقتل مسلم وهاني مع خروج الحسين من مكة وهو الثامن من ذي الحجة سنة ٦٠ من الهجرة(١٥٩).

وكان الإمام الحسين قد كتب أيضاً رسالة إلى جماعة من أشراف البصرة يدعوهم فيها إلى نصرته، فكان مصير رسوله سليمان إليها كمصير مسلم، بل وصلب سليمان بعد قتله، وكان ذلك قبل مقتل مسلم وقبل توجه ابن زياد إلى الكوفة(١٦٠). ولا شك أن قتل رسول الحسين بتلك الوحشية هي رسالة عنيفة الى كل من يتعاون أو يتعاطف مع حركة الإمام الحسين. ومنذ أن وطأت أقدامُ الحسين مكة أقبل عليه أهلها كما أقبلت وفود عديدة من بقية ولايات الدولة النبوية للإستفادة من مصاحبة

سبط رسول الله والانتفاع بعلومه وفقهه في الدين من ناحية ولكي يحجوا بحجه من ناحية أخرى(١٦١).

كان مسلم بن عقيل ممثل الإمام الحسين إلى أهل الكوفة قد كتب رسالة قبل إستشهاده إلى الإمام الحسين يخبره فيها بالأعداد التي بايعته ويخبره أن الناس في إنتظاره ويدعوه للقدوم كما أوضح ذلك مسلم في وصيته(١٦٢). كان الإمام الحسين خلال إقامته بمكة قد طاف به شريط الذكريات عن أحاديث جده وأبيه وأمه فاطمة الزهراء عن إيذاء قريش لهم وما تحمله المسلمون الأوائل من آلام وها هو يرى بيت جده الذي خرج منه حاملاً رسالة الإسلام وداعياً إلى وحدانية الله ونبذ عبادة الأصنام وها هو يرى دار جده أبي طالب عضيد رسول الله وحامي حماه قبل الهجرة إلى المدينة. إذ كان جده رسول الله قد أيدهُ الله بأبي طالب وخديجة لنصرته قبل الهجرة وبعلي وفاطمة في نصرته والتخفيف عن همومه بعد الهجرة فها هو اليوم يواجه حفيد أبي سفيان وزعيم سلطنة قريش يزيد بكل جبروته وطغيانه وحيداً فريداً لا ناصر له ولا معين ولكنه قرر الصمود لإنقاذ دين جده الذي قرر أن يفتديه بروحه. لقد أصبحت كل منجزات النبوّة في قبضة وريث القصر الأخضر كل المواريث النبوية ومصير الأمة رهائن في بلاط يزيد وألعوبة في أيدي حاشيته يتصرفون بها كما تقتضي مصلحة سلطنة قريش إنهم شر خلف لشر سلف.

٥ ـ خروج ركب الشهادة من مكة إلى كربلاء:

وقرر الإمام الحسين الخروج من مكة يوم الثامن من ذي الحجة سنة ٦٠ من الهجرة بعد رحيل جده إلى نعيم الخلد بخمسين عاماً، في الوقت الذي تتهافت الناس على مكة لأداء فريضة الحج ليحجوا بحج الإمام الحسين ليتعلموا منه الأداء الصحيح لمناسك الحج فكيف يخرج قبل موقف عرفه بيوم؟ وقبل النحر والعيد بيومين؟ ما هو السر في ذلك؟ والجواب على ذلك يتمثل في الآتي:

١ ـ إن الإمام الحسين (ع) هو خير من يعرف حرمة بيت الله بعد الرسول (ص) وأبيه وأخيه من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه يعرف دناءة مستوى خصمه الذي لا يعرف لله حرمة ولذلك حينما حاوره أخوه محمد بن الحنفية بأن مكة هي أعز وأمنع

بقعة له على وجه الأرض أجابه الحسين «يا أخي أخاف أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت»(١٦٣). كما ردَّ بالمثل على عبد الله بن الزبير(١٦٤). فإذا اغتيل الإمام الحسين وهو أكرم خلق الله في بيت الله، فلن تبقى للبيت حرمة إلى الأبد.

٢ ـ إن مغادرة الإمام الحسين أرض مكة يوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية تاركاً الحج بدون تكملة إنما كان يريد أن يعلم أمة جده عبر تعاقب الأجيال والعصور درساً أعظم من شهادته. إنه يترك التجمع العبادي لأداء فريضة الحج نصف منجز، هذه الفريضة التي ناضل من أجل إقامتها جده ووالده وأخوه وجميع أسلافه. أنه يترك نصف حجه غير منجز ويدعو الى الشهادة قبل رحيله من أجل أن يعلم جميع الحجاج في التاريخ، جميع العابدين في التاريخ، وجميع المعتقدين في ديانة إبراهيم، أنه إذا لم يوجد إمامة وزعامة رسالية، إذا لم يوجد هدف، إذا لم يوجد حسين، وبدلاً من ذلك يوجد يزيد طائفاً ببيت الله يكونوا أنفسهم كالطائفين ببيوت الوثن. الأفراد الذين واصلوا طوافهم حول الكعبة في غياب الحسين مساوين لأولئك الذين يواصلون طوافهم وتحركهم حول القصر الأخضر بدمشق لأنهم خذلوا المعروف وهادنوا المنكر. إن صمتهم وعدم تلبيتهم نداء الحسين إنما هو تكريس للباطل ودعم نظام لا شرعية له. إن كل حجة بدونه في العصور التالية طوفان لكعبة الأوثان (الكعبة قبل الإسلام).

٣ ـ قال تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾(١٦٥). إن الذبح العظيم الذي فدى الله به إسماعيل هو الإمام الحسين كما ورد في تفسير هذه الآية عن الأئمة (ع) خلفاء رسول الله (ص)(١٦٦). لذا فإن إستشهاده (ع) كان أمراً حتمياً ليتمكن من إنقاذ الدين من الطوفان الذي أحدثه تآمر الطلقاء وأبنائهم والمنافقين بعد وفاة الرسول (ص). فها هو نظام الوصاية الذي وضعه الرسول (ص) يستبدل بملك وراثي عضوض في آل أبي سفيان ومن بعدهم آل مروان وما فترة سلطة الخلافة إلا مرحلة إنتقالية، تم التمهيد خلالها لسلطنة قريش. لقد كان إقدام الإمام الحسين على الإستشهاد أمراً إلهياً، وقد تقبله الإمام الحسين بإرادة إيمانية حُرّة(١٦٧). إنه يحمل حراسة الثورة الإلهية العظيمة ومنجزاتها. إنه لا يستطيع أن يبقى صامتاً أمام الدمار الشامل الذي حل

بأمة ودين جده فلا يستطيع أن يبقى صامتاً ولا يستطيع أن يقاتل وحيداً فليس أمامه إلا طريق الإستشهاد الذي سيكشف حقيقة التآمر لأجيال الأمة المتعاقبة ويرسم لهم منهاجاً في مقاومة الطواغيت الذين ينهجون نهج يزيد ومعاوية لتحقيق حياة كريمة.

وقبل خروج الإمام الحسين من مكة ألقى خطاباً في جموع الحجيج نعى فيه نفسه الشريفة ودعا الأمة الإسلامية من خلال وفود الحجيج إلى نصرته وبذلك فإن الإمام الحسين قد طوّق أعناق الأمة آنذاك بدمه كما طوق جدَّه النبي (ص) أعناق الأمة يوم الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة بمبايعتهم الإمام علي بن أبي طالب. وقال في خطابه التاريخي العظيم:

«الحمدلله وما شاء الله ولا قوّة إلا بالله وصلى الله على رسوله. خُطَّ الموت على ولد آدم مخطَّ القِلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي إشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوّفاً وأجربة سُغباً لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذَّ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة بل هي مجموعة له في حضيرة القدس، تقرُّ بهم عينه وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل فإني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى»(١٦٨).

كما أعلن رسول الله (ص) صرخته المدوية في مكة يدعو أهلها إلى الإسلام في مطلع الدعوة فها هو حفيده وسبطه الإمام الحسين يعلن من نفس المكان ليترجم للأمة بشكل عملي معنى الحديث النبوي «حسين مني وأنا من حسين» بعد ستين سنة من الهجرة وخمسين سنة من وفاة المؤسس. هذه دولته التي تمتد من دمشق إلى خراسان شرقاً ومن دمشق إلى المغرب غرباً قد تحولت إلى مقبرة صامتة للأحياء تظللها الأعمال السوداء التي يرتكبها حكام القصر الأخضر الذين حذر من شرورهم الرسول(ص) وها هي نبوءته تتحقق حيث أصبح الدين والأمة تحت رحمة غلمان بني

أمية وبني مروان. إن حركة الإمام الحسين النهضوية والتي أعلن عنها طيلة إقامته بمكة ها هو يؤكدها قبيل رحيله من مكة. إنها صرخة أشرف المخلوقات في ذلك الوقت ليقضي على صمت المقبرة الرهيب. وإذا كان مقتل الصحابي الجليل عمار بن ياسر في صفين قد كشف للأمة سراً من أسرار نبوءة الرسول (ص) لتعريف الأمة بأن قتلته هم الفئة الباغية فها هو الإمام الحسين يقدم على الشهادة بثبات ويقين ليكشف للأمة صدق نبوءة جده كما حدث بمقتله وحدث عن قاتليه، لتعرف الأمة الخطر الذي يحدق بها وبدينها وتراثها وكل منجزات الشهداء عبر العهد النبوي، أصبحت دولة النبوة تحكم بواسطة نفس الأنظمة التي حاربها النبي (ص) الأكاسرة والقياصرة ولكنهم أكاسرة وقياصرة العرب المتمثلين في سلطنة قريش. إن إقدام الإمام الحسين على الشهادة ليعيد للأمة نبضها ويحيي في الأجيال قيم جده التي طمستها سلطنة قريش وليعيد للأمة نخوتها وحميتها وكل القيم الإنسانية التي ورثها الإسلام عن الحضارات الإنسانية.

وكان خطاب الإمام الحسين في الحجيج قبل رحيله بيوم واحد. وقد إلتقى بنفر من الأهل والصحابة ونصحوه بعدم التوجه إلى الكوفة التي كانت وجهته قبل أن يصله خبر إستشهاد مسلم وهاني، حيث كان خروجه قد تزامن مع مقتلهم وهو الثامن من ذي الحجة سنة ٦٠ من الهجرة كما مرّ ذكر ذلك سابقاً. ومن الشخصيات التي تحدثت مع الإمام الحسين قبيل رحيله: عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري وأخوه محمد بن الحنفية ومع أنهم حذروه من غدر أهل العراق الذين غدروا بأبيه وأخيه إلا أنه رد عليهم أنه يسير إلى العراق إمتثالاً لأمر جده رسول الله (ص)(١٦٩). وجاء في رد الإمام الحسين (ع) على نصيحة عبد الله بن عمر فقال:

«يا أبا عبد الرحمن أما علمت أنَّ من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل أما تعلم أن بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون وكأن لم يصنعوا شيئاً فلم يعجل الله عليهم، بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي إنتقام، إتقِ الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعنَّ نصرتي»(١٧٠).

وفضل عبد الله بن عمر والآخرين الذين نصحوه أن يركنوا الى زوايا العبادة التي

فضلوها على نصرة إمامهم الحق كما بايعه النبي (ص) بذلك في حياته بإجماع المسلمين. فما فائدة التعبد في ظل أسر الدين ومصادره في يد الطغاة وتعطيل سننه وأهمها التخلي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي فريضة الجهاد في السلم والحرب لضمان إستقامة أمور الدين والدنيا في دولة النبوة والتي حث عليها الرسول(ص) في مواقف عديدة.

أما محمد بن الحنفية فقد وصل إلى مكة في الليلة التي أراد الإمام الحسين الخروج في صبيحتها. ولما علم بعزمه على الرحيل إلى الكوفة في الصباح تحاور معه، فأدرك تصميم الإمام على قراره وأنه ينفذ أمر جده رسول الله (ص) الذي رآه في المنام ليلة خروجه وأنه جدد إخباره بمقتله. فقال محمد بن الحنفية: «إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟» فقال له: «إن الله قد شاء أن يراهنَّ سبايا» فأفترقا بعد الوداع(١٧١). كذلك كتب الإمام الحسين كتاباً إلى بني هاشم يدعوهم إلى نصرته ويخبرهم بإستشهاده، وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى بني هاشم، أما بعد: فإنه من لحق بي استشهد ومن تخلف لم يدرك الفتح والسلام»(١٧٢). كما لحق بالإمام الحسين عون ومحمد إبني عبد الله بن جعفر والسيدة زينب بنت علي قبل خروجه من مكة وانضما الى ركب الشهادة وقد طلب ابن جعفر من الإمام الحسين التريث في السير ليلحق به من أجل توديع الهاشميين جميعاً وزوجته زينب في رسالة حملها ولداه إلى خالهما الإمام الحسين(١٧٣).

إلتقى الإمام الحسين (ع) قبيل خروجه من مكة بشخصين قدما من الكوفة وهما أبو محمد الواقدي وزرارة بن صالح اللذان حضرا الى مكة لأداء فريضة الحج. ولما سألهما عن الكوفة أخبراه بضعف الناس فيها وأن قلوبهم معه وسيوفهم عليه(١٧٤).

وكان يزيد قد عزل والي المدينة الوليد بن عتبة، ربما لعدم تمكنه أخذ البيعة من الإمام الحسين وعبد الله بن الزبير، وولّى على الحرمين سعيد بن العاص في نفس فترة إقامة الإمام الحسين بمكة(١٧٥). فمن البديهي أن يكون الوالي مع جواسيس سلطنة قريش قد أخبروا يزيد بخروج الإمام الحسين من مكة متوجهاً إلى الكوفة.

لذلك كتب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد والي الكوفة والبصرة: «أنه قد بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة وقد أبتلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلدان، وابتليت به أنت من بين العمال، وعندها تعتق أو تعود عبداً كما تعتبد العبيد»(١٧٦).

إذا كانت هذه لغة يزيد مع ولاته فكيف تكون لغته مع عامة الناس؟ إنه أسلوب طاغوتي من أجل إذلال كل من تضمه أراضي دولة النبوّة. لمثل هذا خرج الإمام الحسين لتحرير الأمة من الأسر الطاغوتي.

وربما أراد يزيد أن يذكر عبيد الله بأبويه زياد وسُميّة الذين كانا عبدين عند بني سفيان وأن معاوية ألحق زياد بأبيه أبي سفيان، فأصبح أموياً بهذا الإلحاق وحراً(١٧٧). فهو يهدده، إن لم يقم بالقضاء على الإمام الحسين فسينفيه من النسب السفياني فيعود عبداً. إن الطلقاء وأبناء الطلقاء يردون أيادي محمد (ص) عليهم يوم أطلق سراحهم يوم فتح مكة دون عقاب، بمطاردة عترته بل ومحاولة إبادتهم في كل مكان.

وخرج الإمام الحسين في مسيرته المقدسة من بيت الله الحرام من أم القرى قبل أن يتم حجه، خشية أن تهتك حرمته، إلى أرض الشهادة حيث موعده مع مصرعه ومصرع أحبته من الأهل والأنصار الذين كانوا يمثلون صفوة البشرية آنذاك. ها هو الرجل الذي ظهر من بيت الأحزان من بيت فاطمة الذي عاش مأساة بيت النبوّة حينما صار ذلك البيت تحت رحمة رجال سلطة الخلافة وما لحق بعلي وفاطمة من أذى. جده النبي مات كسير القلب وأمه فاطمة الزهراء شهيدة العقيدة والمبدأ وأبوه شهيد العدالة والحق والمساواة والحرية وأخوه الإمام الحسن شهيد غدر مؤسس سلطنة قريش معاوية. فطريق الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الحق وإحياء السنن التي طمست وإنقاذ الأمة كلها أهداف غالية على الإمام الحسين كانت عنده أغلى من حياته فأفتدى تلك الأهداف السامية بروحه وأرواح أصحابه الميامين، الذين جعلوا من أرواحهم وأجسادهم ودمائهم جسوراً لبلوغ تلك الغايات النبيلة. إنه وارث الألم العظيم للإنسانية إنه الوريث الوحيد لآدم وإبراهيم ومحمد. حِمْل جميع المسؤوليات قد وضع على كتفيه. رجل وحيد. ولكن لا إنه ليس وحيداً في حركته

النهضوية . فقد برزت معه امرأة من نفس بيته ونهلت من نفس منهله النبوي، وورثت من الآلام والمسؤوليات ما ورث، لقد اصطحبته جنباً إلى جنب منذ بداية توديعه مدينة جده، وحتى أرض الشهادة في كربلاء . إنها تحمل نصف الإنتداب الثقيل لأخيها على كتفيها إنها زينب بنت علي شقيقته عقيلة الطالبيين ذات المكانة الرفيعة في البيت النبوي بعد أمها فاطمة . لقد ورثت آلام جدتها خديجة، كما ورثت مصائب أمها، بل إن المصائب التي تراكمت على عقيلة الطالبيين فاقت ما تحملته أمها من مصائب حتى لقبت بجامعة الرزايا وسيتضح ذلك من خلال مناقشة دورها المقدس الذي قامت به خير قيام في أرض الشهادة وفي مناطق السبي والتفرُّج على نساء وأطفال آل رسول الله بعد إنتهاء فاجعة كربلاء .

معلم الشهادة العظيم يسوق ركبه الى كربلاء ليعلم أولئك الذين يعتبرون الجهاد للتسلط فقط، وأولئك الذين يفكرون ويعتقدون أن النصر يكمن في الفتح فقط يريد أن يعلمهم مفهوماً جديداً، ذلك أن المحارب الذي يضحي بنفسه على عتبة معبد الحرية هو المنتصر. الإمام الحسين، وارث آدم، الذي يعطي حياة الحرية إلى أطفال البشرية، خليفة الأنبياء العظام الذي علم البشرية كيف تعيش يأتي الآن ليعلم البشرية كيف تموت .

ومضى الإمام الحسين يقود ركب الشهادة ومعه زوجاته وأخواته، وبناته وإخوته وأبناء إخوته وأبناءه وأبناء عمومته ونفراً من أنصاره وصحبه(١٧٨). وفي الطريق تفرق عنه أصحابُ الأطماع كما إنضم إليه من كتب الله له الشهادة مثل زهير بن القين(١٧٩). وكان الفرزدق بن غالب الشاعر المعروف من أوائل الذين التقى بهم الإمام الحسين خلال توجهه إلى الكوفة، وحينما سأل عن حال أهلها قال: «تركتهم، قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء»(١٨٠). وفي بعض المياه بالطريق إلتقى بعبد الله بن مطيع العدوي فعبر للحسين إشفاقه عليه حينما عرف وجهته وحذره بطش الأمويين وإنتهاك حرمة الإسلام بقتله فرد عليه الإمام الحسين(ع): ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾(١٨١). وظل يواصل سيره حتى بلغ الثعلبية ظهراً وأناخ رحاله فغفت عيناه ثم استيقظ فقال: رأيت هاتفاً

يقول: «أنتم تسيرون والمنايا تسير بكم إلى الجنة» فقال له ابنه علي: يا أبت أو لسنا على الحق؟ قال بلى يا بني والذي إليه مرجع العباد «فقال: يا أبتِ إذا لا نبالي بالموت» فقال له الحسين: «جزاك الله يا بني خير ما جزى والدا عن ولده(١٨٢) وقضوا ليلتهم في الثعلبية، حيث وافاهم في صبيحتها رجل من الكوفة يكنى أبا هرَّة الأزدي فحّيا الإمام الحسين وصحبه وسأله مستغرباً تركه المدينة وتوجهه الى الكوفة فقال له الإمام الحسين (ع): «ويحك يا أبا هِـرَّة إن بني أمية أخذوا مالي فصبرت وشتموا عرضي فصبرت وطلبوا دمي فهربت وأيم الله لتقتلني الفِئة الباغية وليلبسنهم الله ذلاً شاملاً وسغباً قاطعاً وليسلطنَّ الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قوم سبأ إذ ملكتهم امرأة فيهم فحكمت في أموالهم ودمائهم»(١٨٣) ثم واصل الإمام الحسين (ع) حتى بلغ زباله حيث ورده خبر استشهاد مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، فتفرق عن الإمام الحسين جماعة من أصحاب الأطماع أيضاً وبقي الصفوةُ معه. ولقد كان لورود خبر مقتل مسلم وهاني وقعاً أليماً في نفس الحسين وصحبه خاصة لوجود زوجته أم كلثوم شقيقة العقيلة وأطفالها بالركب بالإضافة إلى إخوة مسلم(١٨٤). ولكن الإمام الحسين وقف كالطود الشامخ لا يتزعزع كما عبر للأزدي عن أن الفئة الباغية ستقدم على قتله. وكان تعليق الحسين على ذلك الخبر المؤلم أن استعبر باكياً ثم قال: «رحم الله مسلماً فلقد صار إلى روح الله وريحانه وتحيته ورضوانه أما أنه قد قضى نحبه وما عليه وبقي ما علينا» ثم أنشأ يقول: (١٨٥):

فإن تكن الدنيا تعدُّ نفيسة ... فدار ثواب الله أعلا وأنبلُ
وإن تكن الأبدان للموت انشئت ... فقتل الفتى بالسيف في الله أفضل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً ... فقلةُ حرص المرء في السعي أجملُ
وإن تكن الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به الحُرُّ يبخلُ

إن الإمام الحسين قد أوضح بكلماته نثراً وشعراً أنه لا خيار لنا غير الإستشهاد في سبيل الله وهو أفضل أنواع الموت فالإمام الحسين وصحبه إختاروا الشهادة ووقعوا عليها ولم تقع عليهم وهنا تكمن عظمة الإمام الحسين في إقدامه على الاستشهاد ليزلزل الصمت المطبق. كان الإمام الحسين يعلم في رحلته الإستشهادية أنه لا وجه

للمقارنـة بين استعداداته العسكـرية واستعدادات خصمـه الذي سيحشد لـه ـ كما أخبره أخـوه الإمـام الحسن (ع) قبيل استشهـاده ـــ ثـلاثين ألف رجل. إنـه يعلم بإمكاناته المتواضعة، لكنه عشق الشهـادة إنه يريد أن يدافع عن الحقيقة عن طريق ضرب رأس عدوه المهاجـم بموته، فأختار بعد ذلـك الموت، إنه يشتري حياة الموت بموت الحياة وقد قيل: «أطلبوا الموت تـوهب لكم الحياة». وقال الإمام الحسين(ع) «موت في عز خير من حياة في ذل»(١٨٦).

ويواصل الإمـام الحسين (ع) إقامة الحجة على أهـل الكوفة الذين دعـوه لنصرته ليجعل ذلك ضمن وثـائق التاريخ الإنسـاني بشكل عام والإسلامـي بشكل خاص بأنه قـد أدى ما عليه تجاه الناس لـدعوتهم لتحريـر الأمة والدين من طاغيـة قريش يزيـد، بصفته الـوريث الشرعي والوحيـد لكل شرائع السماء آنذاك على الـرغم من الأنباء المثبطة لهمم الجبناء بشأن القبضة الحديـدية التي أمسك بها عبيد الله بن زياد الكـوفة والبصرة ومـا فعلـه برسـولَيّ الإمـام الحسين إليها. فكتـب كتابـاً إلى أول من راسلهم من زعماء الكـوفة: سليمان بن صرد الخزاعي والمسيَّب بن نجبـة ورفاعـة بن شدَّاد وجماعـة من شيعة أهل البيت وبعثه مع قيس بن مِسهِّر الصيـداوي يقول ابن طاووس: «فلما بلغ مشـارف الكوفة إعترضه الحصين بن تميم صـاحب عبيد الله بن زيـاد ليفتشه فما كـان من رسـول الإمـام الحسين إلا أن أخرج الكتـاب ومـزقه بغيـة الحفاظ على حياة المعنيين بالأمر. فكان عقـابه أن أُخذ إلى ابن زياد فلما طلب منه أن يعرف نفسه قال: أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وابنه قال: فلماذا أحرقـت الكتاب؟ «قال: لئـلا يعلم ما فيـه، قال: وممن الكتـاب وإلى من؟ قال: من الحسين إلى جماعـة من أهل الكوفة لا أعـرف أسماءهم. فغضب ابن زياد وقال والله لا تفـارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القـوم أو تصعد المنبر فتلعن الحسين بن علي وأبـاه وأخـاه وإلا قطعتك إربـاً إربـاً، فقـال قيس: أمـا القـوم فـلا أخبرك بأسمائهم وأما الحسين وأبـوه وأخوه فافعل. فصعـد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي وآله وأكثر من الترحم على علي وولده صلوات الله عليهم ثم لعن عبيد الله بن زياد وأبـاه وأخاه ولعن عتـاة بني أمية عن آخرهم. ثم قـال أيها الناس أنـا رسول الحسين عليه السلام إليكم وقد خلّفتـه بموضع كذا فأجيبوه(١٨٧) «وقد أمر ابن زياد بإلقائه من أعلى قصر الإمارة» فلحق بقافلة شهـداء كربلاء في نعيم الخلد إلى جانب

سليمان رسول الحسين الى البصرة ومسلم وهـاني فهؤلاء الأربعة هم أول قافلـة شهداء حركة الإمام الحسين النهضوية خارج ميدان معركة كربلاء.

لقد مثل الـرسل الثلاثة الإمـام الحسين (ع) خير تمثيل وأثبتوا بمـواقفهم الإيمانية وثبـاتهم على العقيدة والمبـدأ وهـم يواجهـون لحظـات الموت بأسمى معاني الشمـوخ والإباء فأثبتوا الولاء والإنتماء إلى مدرسة آل رسول الله. وقد تمكن قيس أن يبلغ رسالة الحسين (ع) بأمانة فـاقت حدود الخيال، فقد حـافظ على سلامة أرواح المعنيين من ناحيـة وبدل أن يقتصر التبليغ على نفر قليل جـداً من أهالي الكـوفة تمكن قيس أن يقهر الموت وكل جبروت سلطنة قـريش وقوتها فأبلغ رسالـة الإمام الحسين إلى أهالي الكوفة كافة وشتم عتاة الأمويين وسلالة ابن زياد، وهكذا تسامى قيس بعقيدته على الموت ليهرب من موت الأحيـاء الذي أصبحت فيه الحياة مع الظالمين تـافهة. الحياة التي صار المهيمنون على مقـاليد أمور دولة النبـوّة الذين يتباهون بشتم أبنـاء الرسول وعترة النبي الطاهرة، فما قيمـة الحياة حينئذٍ؟ لقد أعطى قيس لأهـالي الكوفة بشكل خاص وللأمة عبر تعاقب الأجيال بشكل عام نمـوذجاً لعظمة شهداء كربلاء الذين أصبحوا حديث البشرية طالما وجدت حياة على وجه الأرض. ولما بلغ الإمام الحسين استشهاد قيس استعبر باكياً وقال: «اللهم اجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً واجمع بيننا وبينهم في مستقـر من رحمتك إنك على كل شيء قديـر»(١٨٨). لم يضعف ولم يستكن بل صمم على مواصلة طريق الحق، طريق الشهادة.

٦ـ الوصول إلى أرض الشهادة:

بدأ ابن زياد يعدُّ العدة لحرب الإمام الحسين منذ أن تسلم كتاب يزيد بن معاوية الذي هدده فيه بإعادته للعبودية إن لم يقض على الحسين كما مر سابقاً. فجهز جيشاً كبيراً مكوناً من ثـلاثين ألفاً حسبما تشير إليه معظم الروايـات وأمّر على ذلك الجيش عمر بن سعـد بن أبي وقاص(١٨٩)ـ الذي كان واحداً من الـذين بادروا بإخبار يزيد عن حركة مسلم بن عقيل وتمثيلـه للإمام الحسين(١٩٠) فربما يكون تأميره على الجيش الذي حـارب الإمام الحسين مكـافأة له على تلك الخدمـة لنيل رضـا وثقة يزيـد بن معاوية وواليـه ابن زياد. وقد أحكم ابن زياد بـالجيش الضخم الذي حشده لحرب

الإمام الحسين حصار الكوفة خشية أن يخرج أحد من أهلها للإلتحاق بركب الشهادة المتوجه نحو الكوفة. وكان ابن زياد قد أمر بتضييق الخناق ومراقبة تحرك كل أهل الكوفة بشكل عام وشيعة أهل البيت بشكل خاص وكل من كان معروفاً بحب الإمام الحسين(١٩١).

وكانت أولى الطلائع العسكرية التي خرجت من الكوفة لمراقبة ركب الإمام الحسين تتكون من ألف فارس بقيادة الحر بن يزيد الرياحي الذي كان مأموراً بأحتجاز الركب أينما وجد وإحاطة ابن زياد علماً بذلك(١٩٢). وبالرغم من التعليمات الصارمة التي يحملها الحر للإساءة إلى الإمام الحسين فإنه خجل من الحفاوة التي إستقبله بها الإمام الحسين وطليعة الفرسان الذين معه حيث سقوهم ماء مع خيولهم حينما إلتقوا بهم عند مرحلتين من الكوفة(١٩٣). ثم اتفق الإمام الحسين مع الحر على أن يأخذ ركب الإمام الحسين طريقاً لا تدخله الكوفة ولا توصله إلى المدينة.

فسار ركب الإمام الحسين تحت رقابة طليعة الجيش الأموي التي يقودها الحر حتى وصلت رسالة ابن زياد إلى الحر تلومه في أمر الإمام الحسين وتأمره بالتضييق عليه. ولما لم يجد الحر بدأ من تنفيذ أوامر ابن زياد منعوا الإمام الحسين من السير. ولما استفسر الإمام الحسين من الحر عن سبب تغيير موقفه أخبره برسالة ابن زياد والجواسيس الذين عينهم لمراقبة مدى إمتثاله لأوامره(١٩٤).

وخطب الإمام الحسين أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إن رسول الله (ص) قال من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله (ص) يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمٰن وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحق من غيّر وقد أتتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (ص) نفسي مع أنفسكم

وأهلي مع أهليكم فلكم فيَّ أسوة وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم والمغرور من اغترَّ بكم فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١٩٥). لقد أوضح كل شيء للحاضرين وبين لهم أنه وريث النبيين جميعاً فحركته امتداد لثورة جده الإلهية فهو حارس الشريعة وعلى كتفيه تقوم كل المسؤوليات لمناهضة الطوفان الذي يكتسح دولة جده. كما يذكرهم بأن مجيئه إلى الكوفة إنما كان بناء على مراسلات وتعهدات وبيعة تم أخذها له. ويحذرهم عاقبة النكوص. ثم واصلوا سيرهم داخل العراق حتى وصلوا ذي حسم. وهناك قام الإمام الحسين خطيباً في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت حتوفها ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً»(١٩٦). هذه إحدى صرخات عملاق الحرية التي أطلقها في بيداء الحياة فصارت تتردد أصداؤها عبر الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يتغنى بها عشاق الحرية على اختلاف ألوانهم وأعراقهم وأديانهم إنه يرى في الموت الحياة الخالدة التي توفر أعلى درجات السمو للشهيد في الدنيا والآخرة لأنه المنقذ للبشرية من الآلام، وأن الموت الحقيقي يكمن في العيش الذليل مع الظالمين ولزوم الصمت على جرائمهم ضد الإنسانية وضد الأديان وضد القيم وضد كل المواريث النبوية وكانت كلمات الإمام الحسين (ع) في أصحابه كالبركان الهادر الذي فجر في أعماقهم ثورة عارمة فقام نفر منهم يعبرون عن أمتنانهم للنعمة التي أسبغها الله عليهم بمرافقته والإستشهاد معه دفاعاً عن العقيدة والمبدأ ومن هؤلاء: زهير بن القين، هلال بن نافع، ويزيد بن حصين(١٩٧). ثم سار ركبُ الإمام الحسين والحر ومن معه من الفرسان يسايرونه، ولما حذر الحر الإمام الحسين بأنه سيكون مصيره القتل إذا صمم على مقاتلة الجيش الأموي رد عليه الإمام الحسين بقوله: «أفبالموت تخوّفني وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني، ما أدري ما أقول لك ولكن أقول كما

قال أخو الأوس لابن عمه حينما لقيه يريد نصرة رسول الله (ص) فقال له: أين تذهب فإنك مقتول! فقال: [198].

سأمضي وما بالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً

وآسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق مثبوراً يغشُّ ويرغما

واكتفى الحر بسماعه هذه الأبيات أن الإمام الحسين مصمم على الإستشهاد، لذلك تنحى عنه وصار كل منهما يسير بأصحابه حتى وصلوا إلى عذيب الهجانات وكان بها هجائن النعمان ترعى هنالك فوجدوا أربعة رجال قدموا من الكوفة على رواحلهم ومعهم فرس لنافع بن هلال يقال له الكامل ومعهم دليلهم الطرماح بن عدي على فرسه وهو يقول: [199]

يا ناقتي لا تذعري من زجري ... وشمّري قبل طلوع الفجر

بخير ركبان وخير سفر ... حتى تحلى بكريم النجر

الماجد الحر رحيب الصدر ... أتى به الله لخير أمر

وكان هؤلاء النفر قد قدموا لنصرة الإمام الحسين على الرغم من إحكام الجيش الأموي الحصار على الكوفة ـ وعلى الرغم من معارضة الحر المبدئية لإنضمام هؤلاء إلى ركب الإمام الحسين إلا أنه تنازل أزاء الموقف المتصلب الذي وقفه الإمام الحسين ضده وهدده بالقتال إذا أصرَّ على المعارضة[200]. وقد أخبر الطرماح ومن معه الإمام الحسين بحشود الأمويين العسكرية الضخمة التي إجتمعت لقتاله[201].

واستمر ركب الإمام الحسين وركب الحر يتسايران يمنعون الإمام الحسين من السير تارة ويسايرونه تارة أخرى حتى بلغوا كربلاء وذلك في اليوم الثاني من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة[202]. فلما سأل الإمام الحسين عن اسم الأرض التي بلغوها قيل كربلاء. فقال: أنزلوا ها هنا والله محطُّ ركائبنا وسفك دمائنا، ها هنا والله محل قبورنا، ها هنا والله تسبى حريمنا، بهذا وعدني جدي رسول الله (ص)[203]. فنزلوا جميعاً وكان الحر في جانب، ونزل الإمام الحسين وصحبه في جانب آخر. فقبض الإمام الحسين (ع) قبضة من تراب كربلاء فشمَّها فقال: «هذه والله هي الأرض التي أخبر بها جبرئيل رسول الله (ص) أنني أقتلُ فيها. أخبرتني أم

سلمة بذلك(٢٠٤). ورُوي أن الإمـام الحسين (ع) حينما ألجأه جيش الضـلال إلى القتال للدفـاع عن نفسه وحريته وعن دين جـده وعن مواريث كل الديـانات وكان يرتجز شعراً وسيفه مصلت في يده كما روى ابن حجر ويقول: (٢٠٥).

أنـا ابن علي الحبر من آل هـاشم كفـاني بهذا مفخـراً حين أفخـرُ
وجدي رسولُ الله أكرم من مشى ونحن سراجُ الله في الناس يـزهرُ
وفـاطمـةٌ أمي سـلالـة أحمدٍ وعمى يدعى ذا الجناحين جعفر
وفينـا كتـابُ الله أُنـزل صـادقـاً وفينا الهدى والوحي والخير يذكرُ

ويمكن أنـه (ع) كان يريـد تنويـر من على قلبه غشـاوة من الجيش الأمـوي وما أكثرهم علّة يوفق لهداية أحد منهم.

٧ ـ ركب الشهادة يحطُّ رحاله في أرض الإستشهاد الموعودة:

وصدقت نبـوءة الإمام علي بعد ثـلاث وعشرين سنة حينما مروا بكـربلاء وهم في طريقهم الى صفين لقتـال معاوية. فيقال أن الحر بن يـزيد الرياحي وصحبـه منعوا ركب الإمام الحسين (ع) من المسير حينما وصلوا إلى هذا المكـان، وقال للإمام: إنزل بهذا المكـان فـالفـرات منك قـريب. وحينما سـأل الإمـام عن إسم المكـان قيل لـه كربلاء. قـال: «ذات كرب وبلاء، ولقد مـرَّ أبي بهذا المكان عند مسيره إلى صفين، وأنا معه، فوقف، فسأل عنه، فأُخبر باسمه، فقال: «ها هنا محط ركابهم، وها هنا مهراق دمائهم»، فسُئل عن ذلك، فقال: «ثقل لِآل محمد، ينزلون ها هنا»(٢٠٦).

ثم أمر الإمام بـأثقاله وحُطت في ذلك المكان. وكتب إلى أخيـه محمد بن الحنفية وجماعة مـن بني هاشم: أمـا بعد فكأن الـدنيا لم تكن، وكأن الآخـرة لم تزل»(٢٠٧)، فكـانت آخر رسـالـة يوجهها إلى أقربـائه ينعى فيهـا نفسه ويخبرهم بتصميمـه على الإستشهاد لإلقـاء الحجة عليهم وحتى يلحق بـه كل راغب في الإستشهاد من أجل هزيمة البـاطـل ونصر الحق وإظهاره. إنه آخر نداء يوجهه لأقـاربه من أجل الحرية وكرامة الإنسـان في دولة النبوة التي أهدرهـا الأمويون منذ سيطـرتهم على حكم هذه الدولة حيث أعـادوا عهد الجاهلية في ثوب جديد: بـزي إسلامي ولكن على الطراز الأموي.

ورُوي أن جيش الأمويين الذي إجتمع لقتال الإمام الحسين قبيل العاشر من محرم سنة إحدى وستين من الهجرة بلغ ثلاثين الفا مع كامل أسلحتهم، بينما بلغ أنصار الإمام الحسين كما رُوي عن الإمام الصادق خمسة وأربعين فارساً، ومئة راجل، ونقل أنهم كانوا نيفاً وسبعين(٢٠٨). وروي أنه حتى السادس من شهر محرم بلغ عدد جيش الأمويين بقيادة عمر بن سعد عشرين ألفاً(٢٠٩) بينما أقلّ الروايات تقدره بأربعة آلاف مقابل اثنين وسبعين وهم أصحابُ الإمام الحسين(٢١٠)(ع). كان أنصار الإمام الحسين خمسين والباقي من البيت الطالبي.

٨ ـ زينب وكربلاء:

بوصول ركب الشهادة إلى أرض البطولات كربلاء بدأ العدُّ التنازلي على اكتمال دور الإمام الحسين وإنجاز ما عليه من مهام لتتسلم عقيلة الطالبين وفخر المخدرات زينب مهامها البطولية لتحمل رسالة ملحمة الشهادة لتحدث بها أجيال البشرية المتعاقبة ويحكوا قصص بطولاتها. إن مهام السيدة زينب في ملحمة الشهادة بكربلاء يمكن تلخيصها في:

١ ـ توصيل رسالة الشهادة إلى الأجيال المتعاقبة عبر العصور في دولة النبوّة بشكل خاص وإلى بقية الأمم بشكل عام عبر ميادين الكوفة، دمشق ومدينة الرسول (ص) وكذلك في القصرين الأبيض بالكوفة والأخضر بدمشق تخاطب سلاطين الجور والفساد وتزلزل الصمت المطبق في مقبرة الأحياء التي غشيها ليل بهيم.

٢ ـ الحفاظ على حياة الإمام زين العابدين بقية العترة وحجة الله في أرضه بعد الإمام الحسين (ع) الذي أراد الأمويون قتله مرتين إحداهما في كربلاء والثانية بالكوفة. وقد شاءت إرادة الله أن يمرض قبيل وصول ركب الإمام الحسين إلى كربلاء وظل مريضاً حتى عودته إلى المدينة حيث أنهكته المصائب، فسقط عنه القتال بين يدي والده الإمام.

٣ ـ كذلك من مهام السيدة زينب لمّ شمل الأطفال والنساء خلال المعركة وبعدها، بل منذ وطأت أقدامهم أرض كربلاء أصبحت السيدة زينب تتحمل

مسؤولية تمريض زين العابدين ورعاية النساء والأطفال. وسيتضح لاحقاً كيف أدت السيدة زينب تلك المهام بإتقان وأمانة.

وقال العلامة الأصفهاني في أرجوزة له يصف فيها ميراث السيدة زينب الذي مكنها من القيام بدورها العظيم في ملحمة الشهادة فقال(٢١١).

مليكة الدنيا عقيلة النسا عديلة الخامس من أهل الكسا
شريكة الشهيد في مصائبه كفيلة السجاد في نوائبه
بل هي ناموس رواق العظمة سيدة العقائل المعظمة
أم الكتاب في جوامع العلا أم المصاب في مجامع البلا
رضيعة الوحي شقيقة الهدى ربيبة الفضل حليفة الندى
ربة خدر القدس والطهارة في الصون والعفاف والخفارة
ما ورثته من نبي الرحمة جوامع العلم أصول الحكمة
سرّ أبيها في علو الهمة والصبر في الشدائد الملمة
وما أصاب أمّها من البلا فهو تراثها بطف كربلاء

الإمام الحسين بدأ في إعداد العقيلة زينب لدورها الرسالي العظيم في ملحمة الشهادة بكربلاء منذ خروجهم في ركب الشهادة من المدينة. ولذلك حينما حطوا برحالهم أرض كربلاء كان الإمام الحسين (ع) يتعهدها بشكل مستمر بتوجيهاته ونصائحه الفذّة يعلّمها كيف تسمو على الجراح، وكيف تؤدي دورها المقدس.

إن قائد الجيش الأموي عمر بن سعد وبناء على توجيهات سيده عبيد الله بن زياد خيّر الإمام الحسين (ع) بين المبايعة أو القتال، فأختار القتال(٢١٢). لماذا؟ لأن المبايعة استسلام وذل والقتال إستشهاد وعز. لأن المبايعة عبودية وتعطيل لحدود الله وانتهاك لحرماته والقتال حرية وإحياء للسنن وإماتة للبدع. وكان ابن زياد قد أمر قائد جيشه بأن يمنع الحسين وأصحابه الماء كما جاء في رسالته إلى عمر بن سعد: «إمنع الحسين وأصحابه الماء، وحُل بينهم وبينه حتى لا يذوقوا منه حسوة، كما فعلوا بالتقي عثمان بن عفان(٢١٣). ليس غريباً على ابن زياد أن يتطاول على الحقيقة

لأنه عـدوٌّ من أعدائهـا ومن سخريـات القدر أن يصل أمـر الأمة الإسـلامية إلى أن يشارك أمثـال ابن زياد في تسيير دفة الأمور فيهـا فجميع المؤرخين للأحداث بـدولة النبوّة يـذكرون دور الإمام علي وولـديه الحسن والحسين في الدفـاع عن عثمان، وهذا مثل متـواضع لتشويـه الحقـائق من قبل أمـراء سلطنة قـريش لتعـرف أجيال الأمـة المتعاقبة في دولة النبـوّة مدى الزيف الذي على أساسه بنى الأمـويون حكمهم. لقد أراد ابن زيـاد أن يجعل الماء سلاحاً يضغـط به على الإمام الحسين وصحبـه من أجل حملهم على المبايعة والإستسلام. ولكن متى كان لمثل ابن زياد أن يعرف معدن الإمام الحسين وصحبه ومدى إبائهم وشمـوخهم وعمق إيمانهم وأن سعادتهم الحقيقية هي في الإستشهاد وأن حيـاتهم مع الظالمين هـي الذل الأبـدي، لقد تأثـر الإمام الحسين وأصحـابـه وثقلـه من آل رسول الله بحظـر الماء عنهـم ولكنهم لم يستسلمـوا كـانـوا عطاشى ولكن تعطشهم للشهـادة كان أبلغ أثراً، لقد عشقـوا الشهادة وعشقتهم. لقد صاروا نبراساً يهتدي به السائرون في دروب الحق والحرية.

٩ـ وسائل حركة الإمام (ع) النهضوية:

تتمثل هذه الوسائل في ثلاث:

أ ـ الكلمة (خطب الإمام الحسين).

ب ـ السيف.

جـ ـ خطب السيدة زينب.

أما الكلمة فتمثلت في خطب الإمـام الحسين بدءاً من رفضه مبايعة يـزيد خلال لقائه، الوليد بن عتبة والي المدينة ثـم خطبته في جماهير الحجاج في مكة قبيل خروجه حيث أوضح للجميع أهداف حركتـه الإصلاحية المباركة ودعا الـراغبين للدفاع عن الحق والقيم الإنسانيـة اللحاق به، ثم خطبته في طليعة الجيش الأموي بقيادة الحر بن يزيـد الرياحي التي خـرجت لإعتراض طريقه وإقتياده إلى الكـوفة[٢١٤]. كذلك خطبته في كربلاء يوم السادس من محرم[٢١٥] حينما إحتشدت جحافل الجيش الأموي وضيقـوا على الإمام الحسين(ع) وصحبـه بمنعهم عن الماء، فخـرج إليهم واتكأ على

سيفه وناداهم بأعلى صوته مخاطباً معرفاً نفسه لهم لإلقاء الحجة عليهم وكان جوابهم الإصرار على عنادهم وعلى حرمان الإمام الحسين وصحبه من الماء حتى يموتوا عطاشى كما ورد في الخطبة، كذلك ألقى خطبة عصماء في الجيش الأموي يوم العاشر من محرم قبيل بدء القتال[٢١٦] عبر الإمام فيها عن غدر أهل الكوفة ونكثهم بيعته ووصفهم بأوصاف تليق بموقفهم الخياني من سبط رسول الله (ص) وخليفة الله في أرضه آنذاك كما أوضح إباءه وإصراره وإختياره لموت الأحرار ونبذه حياة العبيد التي تعتبر الموت الأبدي، كذلك تنبأ بمصير قتلته جميعاً وأولهم قائدهم عمر بن سعد الذي مناه يزيد على لسان واليه ابن زياد بتوليته الري وجرجان بعد قضائه على الإمام الحسين. لم تكن خطب الإمام الحسين (ع) للجيش الأموي من أجل الإستعطاف ليتركوا سبيله، لأنه يعلم من سلفه عن علم الله أنهم لن يتركوه وأنه مقتول لا محالة، إنما كان هدفه تبليغ رسالة الحرية إلى أجيال أمم العالم المتعاقبة بأن الحرية تؤخذ ولا تعطى، ويكشف لأجيال أمة جده بشكل خاص هويَّة النظام الذي قامت عليه سلطنة قريش وشوَّهت كل ما جاء به محمد (ص)، فها هي قوة دولة الخلافة العسكرية تستخدم لإبادة ذرية النبي (ص) واستئصالها من الوجود. توظفت جميع إمكانيات دولة الخلافة المادية والعسكرية للقضاء على العترة النبوية وكل من سار على نهجها، فبدل أن توظف تلك الإمكانيات لمشاريع تنموية تعود بالخير على الأمة وبدل أن يستخدم الجيش لنشر مبادىء دولة النبوَّة في أرجاء العالم. بالإضافة إلى ذلك كان هدف الإمام الحسين (ع) إلقاء الحجة على جميع أفراد الجيش الأموي جنود أو قادة، علَّه يهدي بخطابه أحداً منهم فينقذه من سخط الله وعذابه، إمَّا بتحييده، وإما اللَّحاق به ونصرته، كما فعل الحر بن يزيد الرياحي قائد طليعة الجيش الأموي الأولى، التي لاحقت ركب الإمام الحسين منذ إلتقائه حتى كربلاء. إذ إلتحق الحر بالإمام الحسين يوم العاشر من محرم، وإعتذر له عما بدر منه من إساءة ثم استشهد بين يديه بعد قتال بطولي. فلما حضر الإمام الحسين مصرعه، مسح التراب عن وجهه وقال: «أنت حُرٌّ كما سَمتك أمُك، حُرٌّ في الدنيا والآخرة»[٢١٧]. وكما صنع الحر بإلتحاقه بالحسين كذلك صنع بطل آخر هو «يزيد الكندي» [٢١٨]..

إضافة إلى ذلك فهناك الرسائل التي وجّهها الإمام الحسين (ع) إلى وجهاء شيعة أهل البيت في كل من الكوفة والبصرة كما ورد ذكره سابقاً.

وكما استخدم الإمام الحسين الكلمة مع عامة الناس في مكة والجيش الأموي في الطريق وفي كربلاء لإلقاء الحجة وكشف الحقيقة وتنوير العقول عن الجرائم التي ارتكبتها سلطنة قريش بحق الدين والأمة، كذلك استخدم الكلمة مع أصحابه لغربلتهم و إطلاعهم على حتمية استشهاده. فكما خطبهم واختبرهم في ذي حسم - كما ورد مناقشته - كذلك فعل ليلة العاشر من محرم حينما قام فيهم خطيباً(٢١٩). فتهافت أهل بيته وأصحابه بعد انتهائه من خطبته، أعربوا له عن تعطشهم للإستشهاد بين يديه وبايعوه على الموت مع أنه أحلَّهم في تلك الخطبة من بيعته(٢٢٠). وقضوا ليلتهم تلك في التزود من العبادة. ووصف ابن داود تلك الليلة بقوله: «بات الحسين (ع) وأصحابه تلك الليلة ولهم دوي كدوي النحل ما بين راكع وساجد وقائم وقاعد»(٢٢١). ومن هنا تأتي حكمة الإمام الحسين أنه حينما زحف عمر بن سعد بجيشه على مخيم الإمام الحسين عصر التاسع من محرم كلف أخاه العباس بن علي بن أبي طالب أن يستمهلهم سواد ليلة العاشر، فإستجاب ابن سعد لطلب الإمام(٢٢٢). فكان تأجيل القتال ليتمكن الإمام الحسين من إختبار أصحابه والتزود من العبادة، إنه قائد عسكري محنك يضع اللمسات الأخيرة على خطته العسكرية. كان هول الموقف عظيماً إلا أن صبر الإمام الحسين كان أعظم وإيمانه بسمو أهداف إستشهاده جعله يتعملق على كل شيء حتى على الموت الذي رأى فيه الحياة الأبدية في الدنيا والآخرة. كان حريصاً على تهدئة خاطر عقيلة الطالبين زينب وتزويدها بوصاياه الأخيرة لكي تحمل أعباء توصيل رسالة الإستشهاد إلى الأجيال المتعاقبة من الأمة بشكل خاص والبشرية بشكل عام، يهديء من روعها ويسكن ويخفف من لوعة الفراق وحرقة الثكل التي تهد الجبال الشُّم. فحينما زحف عمرُ ابن سعد بجيش الضلال عصر التاسع من محرم يوم الخميس دون أن يعلم الإمام الحسين بذلك، كان محتبياً بسيفه إذ خفق برأسه على ركبتيه فلما سمعت أخته زينب صيحة الجيش الأموي، دنت منه، وقالت: يا أخي! أما تسمع الأصوات قد إقتربت، فقال الإمام الحسين بعد أن رفع رأسه: «أني رأيت الساعة جدي محمداً

وأبي علياً، وأمي فاطمة وأخي الحسن وهم يقولون: يا حسين إنك رايح إلينا عن قريب»، وفي رواية: «غداً». قال الراوي: «فلطمت زينب وجهها وصاحت»، فقال لها الحسين عليه السلام: «لا تشمتِ القوم بنا»(٢٢٣).

وموقف آخر للإمام الحسين (ع) مع أخته وشريكة نضاله زينب قبل يوم ملحمة الشهادة يوصيها بوصاياه فهو شقيقها وإمامها ولا تستطيع أن تقدم أو تؤخر إليه أمراً مع عظم المصيبة وكونها امرأة. لكن عليها أن تتحمل الرزايا جميعها وتحملها على كتفيها وحيدة ليس معها معين سوى ميراثها النبوي التربوي. وميراث الرزايا الذي ورثته من جدتها خديجة وأمها الزهراء وأبيها علي وأخيها الحسن. يبدو أن الإمام بعد أن خطب أصحابه ليلة العاشر إعتزل في خيمة وكان معه جون مولى أبي ذر الغفاري، فجعل الإمام يصلح سيفه ويقول: (٢٢٤).

يا دهرُ أُفٍ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيلِ
من طالب وصاحب قتيل ... والدَّهرُ لا يقنعُ بالبديلِ
وكلُّ حيّ سالك سبيل ... ما أقرب الوعد من الرحيل
وإنما الأمر إلى الجليل ... إلى جنانٍ وإلى مقيلِ

وقد روى الطبري عن علي بن الحسين بن علي أن عمته كانت تمرضه فسمعا تلك الأبيات التي رددها الإمام الحسين مرتين أو ثلاثاً يقول علي بن الحسين: «حتى فهمتها وعرفت ما أراد بها، فخنقتني عبرتي فرددت دمعي ولزمتُ السكوت، فعلمتُ أن البلاء قد نزل، فأما عمتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة وفي النساء الرقة والجزع فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها وأنها لحاسرة حتى انتهت إليه فقالت: وا ثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياه! اليوم ماتت فاطمة أمي! وعلي أبي! وحسن أخي! يا خليفة الماضي وثِمال الباقي، فنظر إليها الحسين(ع)، فقال: يا أُخيَّة! لا يذهبن حلمك الشيطان، قالت: بأبي أنت وأمي، يا أبا عبد الله استقتلت! نفسي فداك! فردَّ غصته وترقرقت عيناه وقال: لو ترك القطا ليلاً لنام قالت: يا ويلنا! أفتغتصب نفسك إغتصاباً! فذلك أقرحُ لقلبي! وأشدُّ على نفسي! ولطمت وجهها وأهوت إلى جيبها وشقته! وخرت مغشياً عليها! فقام إليها الحسين،

فصبَّ على وجهها الماء! وقال لها: يا أُخيَّة! إتقي الله! وتعزَّي بعزاء الله! وأعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجهَ الله الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده، أبي خير مني، وأُمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة، وفي حثها على الصبر على المصيبة قال لها: «يا أُخية إني أُقسمُ عليك فأبري قسمي لا تشقي علي جيباً! ولا تخمشي عليَّ وجهاً! ولا تدعي علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت! قال ثم جاء بها حتى أجلسها عندي»(٢٢٥).

إن الإمام الحسين لم يلجأ للسيف إلا مضطراً بعد أن فشلت الكلمة في تحقيق غرضها وللدفاع عن النفس الأبية التي شاء الله لها أن تكون في عليين دنيا وآخرة، إن رفض الإمام الحسين المبايعة ليزيد وتصميمه على القتال في تلك الصفوة من أهل بيته وأصحابه جعله يقتسم وإياهم أسمى مراتب الشهادة ولذلك لقب بسيد الشهداء كما لقب قبله الحمزة، وإذا كان الحمزة بن عبد المطلب قد إختارته الشهادة في معركة أحد، فإن الإمام الحسين (ع) وصحبه هم الذين إختاروا الشهادة ووقعوا على الموت لتكتب لهم الحياة الأبدية في الدارين. لقد لقب الإمام الحسين بتلك الوقفة الباسلة والشجاعة المنقطعة النظير التي أبداها يوم الشهادة بشهادة أعدائه أبي الضيم.

أراد الإمام الحسين (ع) برفضه مبايعة الطغاة ومطفئي نور الإسلام ـ كما وصفهم في خطبته يوم العاشر ــ وإقدامه وصحبه على قتال الجموع الغفيرة، أن يجعل من كربلاء معقلاً للثائرين، كل الثائرين على خطى أئمة الهدى وجميع عشاق الحرية في كل زمان ومكان. وعلى الرغم من إستقبالهم لحتوفهم يوم العاشر ـ إلا أن الإمام الحسين وصحبه باتوا تلك الليلة فرحين مستبشرين بما أعد الله لهم من نعيم في جنات الخلد. وقد إغتسلوا في تلك الليلة وتطيبوا(٢٢٦)، وكأنهم عرسان يزفون. نعم لقد زفوا للحور العين بعد إستشهادهم.

فرغ الإمام الحسين (ع) من إلقاء خطابه على الجيش الأموي الذين كانوا كما قال الله فيهم: ﴿صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون﴾(٢٢٧) وقال أيضاً: ﴿ختم الله على

قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾(٢٢٨). فصمموا على إبادة آل رسول الله (ص) لإرضاء طاغية القصر الأخضر يزيد. وكان عمر بن سعد أول من رمى مخيم الإمام الحسين بسهم وتبعه جيشه في الرمى. فقال الإمام الحسين (ع) بعد أن هيأ رجاله للبراز: «قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه فإن هذه السهام رسل القوم إليكم»(٢٢٩) وبدأ القتال، وبعد أن قتل جماعة من أصحابه ضرب بيده على لحيته وجعل يقول: «اشتدَّ غضبُ الله على اليهود إذ جعلوا له ولداً، واشتدَّ غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة واشتد غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر واشتد غضبه على قوم إتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم. أما والله لا أُجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله تعالى وأنا مخضب بدمي»(٢٣٠). كلمات الإباء والشمم في كل موقف حتى في الأوقات العصيبة، لا مهادنة ولا استسلام حتى فنيت رجاله من أصحابه وأهل بيته وبقي وحيداً يقاتلهم بشجاعة لم تشهد الحروب لها مثيلاً سوى شجاعة أبيه داحي باب خيبر. وروى حميد بن مسلم ـــ وكان ممن شهد الواقعة، من أفراد الجيش الأموي ـ واصفاً شجاعة الإمام الحسين (ع) الخارقة بقوله: «كانت الرجال تشدُّ عليه فيشدُّ عليها بسيفه فتنكشف عنه إنكشاف المعزى إذا اشتد فيها الذئب وكان يحمل عليهم وقد تكاملوا ثلاثين ألفاً فيهزمون بين يديه كأنهم الجراد المنتشر ثم أثخنوه بالجراح إلى أن بقي كالقنفذ واختلف عليه الطعن والضرب حتى وقع عن فرسه ثم احتز رأسه سنان بن أنس النخعي وقيل شمر بن ذي الجوشن الضبابي وسلب الحسين عليه السلام وسبيت نساؤه ونهبت أمواله وأحرق فسطاطه ودفع رأس الحسين (ع) إلى خولّي فرفعه على رمح وكان أول رأس حمل على رمح في الإسلام»(٢٣١). ورُوي أنه (ع) وُجد في ثوبه مئة وبضع عشرة ما بين رمية وطعنة وضربة(٢٣٢). وقال الإمام الصادق(ع): «وجد بالحسين (ع) ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة»(٢٣٣).

وهكذا قضى الإمام الحسين وصحبه نحبهم عطاشى وقطعت رؤوسهم جميعاً. ولم يكتفوا بذلك بل سلبوا من الإمام الحسين (ع) كل شيء وتركوه عارياً(٢٣٤). ولم تكن تلك النهاية ولم يشفوا غليلهم بعد. بل انتدب ابنُ سعد ـ تنفيذاً لأمر سيده

عبيد الله ابن زياد ـ عشرة فرسان أوطأوا خيولهم جسد الإمام الحسين ـ بعد أن احتزوا رأسه ورفعوه على رمح ـ ظهراً وصدراً. ولذلك حينما وصل العشرة إلى ابن زياد بالكوفة يهنئونه بالنصر ويسألونه الجائزة ويتباهون أمامه بما فعلوه بجسد الحسين، فقال أسيد بن مالك أحد العشرة شعراً(٢٣٥):

نحن رضضنا الصَّدر ثم الظهرا بكل يعسوب شديد الأسرِ

ولم يكتفوا بذلك بل هجم جيش الطلقاء وأبناء الطلقاء على مخيم الإمام الحسين حتى جعلوا ينزعون ملحفة المرأة عن ظهرها ونهبوا كل المحتويات وسلبوا النساء والأطفال، بل وأشعلوا النار في مخيم آل رسول الله ففرت ربّات الخدور مع الأطفال إلى العراء (٢٣٦) ليس معهم كفيل ولا منكر لتلك الأعمال الهمجية التي قل أن يحدِّث بها التاريخ البشري.

ولما ورد خبر مقتل الإمام الحسين عمرو بن سعيد والي الحرمين (مكة والمدينة) قال: «هذه واعية بواعية عثمان بن عفان»(٢٣٧) بمعنى أن الأمويين انتقموا لدم عثمان باجتثاث آل رسول الله من الوجود في كربلاء.

ورُوي أنه لما ورد خبر مقتل الإمام الحسين (ع) إلى عبد الله بن عمر أنكر ذلك على يزيد واستعظمه فكتب عبد الله بن عمر إلى يزيد: «أما بعد، فقد عظمت الرزية وجلت المصيبة وحدث في الإسلام حدث عظيم ولا يوم كيوم الحسين (ع) (٢٣٨)». فكتب إليه يزيد: «أما بعد يا أحمق، فإنا جئنا إلى بيوت متجددة وفرش ممهدة ووسائد منضدة فقاتلنا عليها فإن يكن الحق لنا فعن حقنا قاتلنا وأن يكن الحق لغيرنا فأبوك أول من سنَّ هذا وآثر واستأثر بالحق على أهله والسلام»(٢٣٩). فسكت عبد الله بن عمر عن جداله، وأظهر للناس عذر يزيد في ما فعله فقال: «هذا ظلم من يزيد لعنه الله لعمر فإن عمر لم يأمر بذلك ولم يعلم أن الأمر يصل إلى يزيد»(٢٤٠).

نعم، لولا تهديد عمر بن الخطاب بحرق بيت فاطمة لما حرقت لثقل رسول الله خيمة في كربلاء بعد خمسين عاماً من موت الرسول (ص) ولولا بيعة السقيفة وإنكار المسلمين لبيعة الغدير لما أنكر الكوفيون بيعة الإمام الحسين بعد خمسين عاماً. ولولا

بيعـة السقيفة لما استئصلت عترة رسـول الله في كربـلاء. ولولا هجـوم رجال سلطـة الخلافة على بيت فاطمة لما هجم جيش الفئة البـاغية على مخيم الإمام الحسين وفرقوا نسـاءه وعيالـه في بيداء كـربلاء حفـاة. ولولا إقتيـاد الإمام علي من بيتـه مكرهـا إلى مسجـد رسول الله (ص) لما اقتيـد ثقل الإمـام الحسين من كـربلاء إلى الكـوفـة ومن الكوفة الى دمشق مسلـوبين مسبيين على جمال هزيلة بدون وطاء كأنهنَّ سبـايا الروم والـديلم. ولولا بيعـة السقيفـة لما أبتليت دولة النبـوَّة بحكم الفـراعنة والطـواغيت والبغاة، والأدعيـاء وأبناء الأدعياء، والطلقاء وأبنـاء الطلقاء الذين تـربوا في القصر الأخضر الذي صار وكراً لتشـويه مصادر الإسلام الرئيسية كتاباً وسنة. في كربلاء، أعـداء الإمام الحسين ممثلين في جيش الفئـة الباغيـة قهـروا أجساد الشهـداء فقط، ولكن آيديولـوجية الشهداء أدانت هؤلاء الأعداء ونظامهم. الشهـداء بدمهم أبطلوا المؤامرة الضخمـة إلى الأبد. إن استشهاد الامام الحسين ورفـاقه في السلاح وأطفـاله وسلب ثقله وسبيهـم فضح كل ما كان العـدو يحاول أن يخفيه عن عيون الناس. أراد أعـداءُ آل رسول الله (ص) أن يخفـوا أحداث كـربـلاء في أعماق التاريخ بعيـداً عن الذاكرة البشريـة للإنسانية بواسطة أسـاليب سلطنة قريش الدعائيـة، والنشاطات الأدبيـة والعلميـة والفلسفيـة والتفسيرية لطـوابير الكتّـاب وعلماء البـلاط المشرئبـة أعناقهم للسلطة والنفوذ والثروة. دمُ الشهـداء نزع جميع الأقنعة، وجرّ جميع أغطية الخداع، صار مستحيلاً في جماعة التوحيد، وجعل حكومة الإكراه والبغي مستحيلة في رسالـة النبوّة، وجعل السحر الفرعوني ممقوتاً أمـام أعين الناس المحبين للحسين وحركته النهضويـة. وإذا كان لكل ثورة مظهران الدم والرسـالة فإن المهمة الأولى قد أنجزها الإمـام الحسين (ع) ورفاقه في ثورته العقـائدية وبقيت المهمة الثانية الـرسالة التي حملتها جامعة الرزايا زينب على كتفيها لتبليغ الأمة حقيقة ما حدث.

فقدت السيـدة زينب من آل رسول الله اثنين وعشرين قتيلاً بينهم أربعـة أطفال للإمـام الحسن وللإمام الحسين أحـدهم رضيع الإمام الحسين، والبـاقي ثمانية عشر شاباً ما على وجه الأرض لهم مثيل في ذلـك الوقت علماً وأدباً وشجاعة وجمالاً (٢٤١). وبين الثمانية عشر ولداها محمد وعون ابني عبـد الله بن جعفر، الذي قال حينما بلغه نبأ الفاجعة «والله إنّـه لممّا يسخى بنفسي عنهما، ويهون عليَّ المصاب بهما، أنهما أصيبا

مع أخي وابن عمي مواسيين له صابرين معه» (٢٤٢). وبين هؤلاء أيضاً ستة من إخوتها: شقيقها الإمام الحسين (ع) بالإضافة إلى إبن أخيها علي الأكبر نجل الإمام الحسين (ع) وعبد الله والقاسم نجلا أخيها الإمام الحسن (ع). قضوا نحبهم جميعاً وهم عطاشى بما فيهم الإمام الحسين (ع) بشهادة هلال بن نافع من جيش الفئة الباغية قال: «إني لواقف مع عمر بن سعد إذ صرخ صارخ أبشر أيها الأمير فهذا شمر قد قتل الحسين (ع) قال: فخرجت بين الصفين فوقفتُ عليه وأنه ليجود بنفسه فوالله ما رأيتُ قط قتيلاً مضمخاً بدمهِ أحسن منه ولا أنور منه وجهاً ولقد شغلني نور وجهه وجمال هيبته عن الفكرة في قتله فاستسقى في تلك الحال ماءً فسمعت رجلاً يقول: والله لا تذوق الماء حتى ترد الحامية فتشرب من حميمها. قال فسمعته يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون والله لا أرد الحامية بل أرد على جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وأسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر وأشربُ من ماء غير آسن وأشكو ما ارتكبتم مني وفعلتم بي قال: فغضبوا بأجمعهم حتى كأنَّ الله لم يجعل في قلب أحدهم من الرحمة شيئاً، فاحتزّوا رأسه وأنه ليكلمهم فتعجبتُ من قلة رحمتهم له وقلتُ والله لا أجامعكم على أمر أبداً»(٢٤٣). وشهد شاهد من أهلها. فهل أبقى الأمويون عذراً لأحد كي يذكرهم بخير؟ فكيف بالدفاع عنهم وعن أعمالهم الهمجية التي فاقت حدود الخيال والوصف؟ نعم هناك من يدافع عنهم، فهذا عمرو بن سعيد الذي أمر بهدم دور بني هاشم بعد توليه أمرة الحرمين وعقاباً للإمام الحسين بسبب خروجه عن طاعة يزيد يعتبر إبادة آل رسول الله (ص) وأنصارهم في كربلاء إنتقاماً لدم عثمان(٢٤٤)، وعُدَّ يوم العاشر عيداً للنصر في دمشق ولا يزال يحتفل به بعض المسلمين الذين يعتبرون إمتداداً لسلطنة قريش وامتداداً لجذور الطلقاء وأبناء الطلقاء وحزب الشيطان كما لقبهم الإمام علي ونجله الإمام الحسين (ع) فيلسوف الحرية ومعلم الإباء.

على الرغم من هول الفاجعة لزينب إلا أنها بعد تقديم القرابين جميعهم أصبحت حفيدة خديجة وابنة فاطمة وحيدة في بيداء كربلاء إرتكزت على كتفيها مسؤولية توصيل رسالة ثورة أخيها الجليلة إلى الأجيال، وكان زادها في رحلتها الرسالية

المقدسة صبر السلف على كل الرزايا التي واجهتهم، وزادها أيضاً وصايا إمامها وأخيها الإمام الحسين (ع) الراحل العظيم الذي قدم رسالة الدم بكل أمانة وبكل شجاعة. نعم هذه المرأة التي منها تتعلم نساءُ البشرية الفضيلة والشجاعة والشموخ. لقد ظن جيش حزب الشيطان أن ثقل رسول الله (ص) قد أذلتهم فاجعة كربلاء وسيحنون رؤوسهم لبني أُمية وجيش الضلال. ولكنهم فوجئوا بعكس ذلك.

فها هي زينب عقيلة الطالبين تنفذ وصايا أخيها بدقة وأمانة تخرج الى جسده الشريف، مقطوع الرأس مضرجاً بدمائه وتجلس عنده بوقار صابرة محتسبة كالجبل الأشم وتمد يديها الناعمتين بهدوء ووقار تحت ظهر جسد شقيقها الحسين، ورفعت جسده عن الأرض وأسندته إلى صدرها، ورفعت طرفها إلى السماء وقالت وهي خاشعة خاضعة بين يدي الله تعالى وهي ترى أجساد الأحبة بدون رؤوس ملقاة في أرض المعركة: «اللهم تقبل منا هذا القربان، اللهم تقبل منا هذا الفداء»(٢٤٥). وعادت إلى النساء الثواكل والأطفال اليتامى وابن أخيها العليل زين العابدين الذي أنهكته علتان: علة المرض وعلة الفاجعة بفقد الأحبة ها هم يقعون أسرى في يد أعداء لم يحدث التاريخ الإنساني بمثلهم. عادت تجر أذيال ملابسها المعطرة بدماء الشهادة إلى الحرم والأطفال والعليل. وكانت السيدة زينب قد تمكنت من تخليص زين العابدين من القتل حينما قاد شمر بن ذي الجوشن الضبابي هجوماً للجيش الأموي على مخيم الإمام الحسين بعد مصرعه مساء العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة وتسابق أفراد الجيش للنهب والسلب وفرَّ آل رسول الله (ص) بالبيداء بعد حرق المخيم وبقي زين العابدين مسجى فدخل عليه شمر فجذب النطع من تحته وقلبه على وجهه ثم جرَّد السيف ليقتله فأنكبت عمته السيدة زينب عليه واعتنقته وصاحت: «إن أردتم قتله فأقتلوني قبله» وبينما كانت العقيلة زينب معانقة لزين العابدين إذ دخل عمر بن سعد قائد الجيش فلما نظر ذلك المشهد قال لشمر: «دعه لها فإنه لما به» فتركه(٢٤٦). نعم لولا وجود زينب لما بقي ذكر لذرية رسول الله (ص) فزين العابدين هو الإمام الرابع بعد الإمام الحسين وأول الأئمة التسعة من صلب الإمام الحسين. هكذا كان تعامل الجيش الأموي مع من بقي من آل رسول الله(ص)

من نساء وأطفال. نعم هذه هي الدنيا التي ترعرع في أحضانها حزب الشيطان. إن قادته سُبّة في جبين العروبة والإسلام، وما قاموا به في كربلاء سربل العروبة بعار سرمدي لا تمحوه الأيام.

إن رسالة زينب هي أكثر صعوبة وأثقل من رسالة أخيها أولئك الذين يملكون الشجاعة لأن يختاروا استشهادهم قد صنعوا ببساطة إختياراً عظيماً، تلك رسالة الدم التي أنجزها الإمام وصحبه الغر الميامين. ولكن مسؤولية الذين بقوا أحياء ثقيلة وصعبة. وها هي زينب بقيت حية لتكون لسان حال الدم الذي رفد نهر الرسالة النبوية وأعاد له التدفق والحياة مرة أخرى. ها هي رسالة زينب تبدأ بعد أخيها سيد الشهداء. إنها تبليغ رسالة الاستشهاد لأجيال الأمة المتعاقبة.

٩ - زينب ورحلة السبي:

في مساء اليوم العاشر قبيل الغروب، وبعد أن أنهى جيش الفئة الباغية مهمته القذرة بعث عمر بن سعد مع خولي بن يزيد الأصبحي وحميد بن مسلم الأزدي رأس الإمام الحسين هدية إلى عبيد الله بن زياد بالكوفة. وفي اليوم نفسه أمر ابن سعد برؤوس الباقين من أهل بيته وأصحابه فنظفت وسُرِّح بها مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمر بن الحجاج وذهبوا بها إلى عبيد الله بن زياد أيضاً هدية له(٢٤٧). ورُوي أن عدد رؤوس أصحاب الإمام الحسين ثمانية وسبعين رأساً، اقتسمتها قبائل كندة، تميم، بنو أسد، مذحج وسائر أفراد الجيش لتتقرب بها إلى ابن زياد ويزيد لنيل عطاياهما(٢٤٨).

وبعد زوال شمس يوم الحادي عشر من محرم نادى منادي عمر بن سعد على ثقل رسول الله (ص) نساء وأطفالاً بالرحيل، وقدمت لهم النياق الهزل للركوب بغير وطاء هذا هو مصير مخدرات رسول الله (ص) وأطفاله وصفوة الخلق في عباده يسامون كما تسام العبيد، فجاء أفراد الجيش ليركبوهم على تلك النياق، فقالت عقيلة الطالبين بشمم وإباء وكبرياء البيت النبوي: «ويلك يا ابن سعد، سوَّد الله وجهك، أتأمر الأجانب أن يركبونا، ونحن بناتُ رسول الله (ص)، قل لهم فليتباعدوا عنا حتى يركب بعضنا بعضاً»(٢٤٩).

وتحرك عمر بن سعد ورجاله بقافلة السبايا والمأسورين من آل رسول الله يحيط بهم

الأعداء من كل جانب ونسـاء رسول الله (ص) مكشفات الوجـوه وساقوهن للسبي كما يساق سبي الترك والروم وفي ذلك يقول الشاعر: (٢٥٠).

يصلّى على المبعوث من آل هاشم   وتُفرى بنوه أن ذا لعـــجيب

ولما مروا بقـافلة الأسرى والسبـايا على مصرع الإمـام الحسين (ع) ومصارع القتلى الكرام ونظرت النسوة إلى القتلى صِحنَ وضربن وجوههن، أما السيدة زينب فكانت تندب الإمـام الحسين (ع) وتنادي بصـوت حـزين وقلب ثـاكل كئيب وجسم قـد أنحلته وهـدَّته الـرزايا العظيمـة وتقول: «يـا محمداه صلى عليك مليـك السماء هذا الحسين مرمَّل بـالدماء مقطع الأعضـاء وبناتك سبايـا إلى الله المشتكى، وإلى محمد المصطفى، وإلى علي المرتضى، وإلى حمزة سيـد الشهـداء، يـا محمـداه هـذا حسين بالعراء، تسفي عليه الصَّبـا، قتيل أولاد البغايا يا حزناه يا كربـاه، اليوم مات جدي رسول الله يا أصحاب محمداه، هؤلاء ذرية المصطفى يساقون سوق السبايا»(٢٥١).

ومشى الركب إلى الكوفة التي كانت عاصمة دولة النبوَّة في عهد الإمام علي (ع). وها هي اليوم تستقبل بناته وأطفاله سبايا. ها هي ابنته زينب التي كان يضرب المثل بخدرهـا تساق مع باقي النسـاء والأطفال مسبيـة إلى عبيد الله بن زياد هـا هي ترى قافلـة المأسوريـن والمسبيات خلفهـا، وصفوف الأعـداء على امتداد الصبر، تـاركة خلفها حـديقة حمراء للشهادة التي يفـوح عبقها من أذيال مـلابسها الملطخة بـدماء أولادها وإخوتها وبني عمومتها.

ولنعم ما قال في وصف دورها أحد الأدباء: (٢٥٢)

وتشاطـرت هي والحسين بنهضة   حتم القضاء عليهما أن يندبـــا

هذا بمعترك الـــرماح وهـــذه   في حيث معترك المكـاره في السبا

وبلغ من كراهيـة وحقد الجيش الأموي على آل رسول الله (ص) أن تـركوا أجساد الإمام الحسين (ع) وجميـع قتلاه بدون دفـن على بوغاء كـربلاء تصهـرهم الشمس، ولكن شاءت إرادةُ الله أن يحفظ لتلك الأجساد الطاهـرة حرمتها، ففي اليوم الثالث عشر من محرم خرج قوم من بني أسـد الذين كانوا نزلوا بـالغاضريَّة فصلّوا على تلك

الأجساد الطواهر المرملة بالدماء ودفنوها على ما هي عليه، وقد حضر زين العابدين الدفن حيث تم تحديد أصحاب القبور بواسطته لأنها كانت أجساداً بلا رؤوس(٢٥٣).

كان عزيزاً على رسول الله وآله والمؤمنين وكل الغيارى من أبناء الإنسانية مع إختلاف ألوانهم وأعراقهم وأديانهم أن يروا قافلة الأسر والسبي من آل رسول الله حين دخولها الكوفة وقد ملأ الناس الطرقات وسطوح المنازل للتفرج على نساء وأطفال رسول الله (ص). وتعود أم كلثوم وزينب وبقية النسوة وكذلك زين العابدين بذاكرتهم قبل ربع قرن حينما كانت دولة النبوة تحت حكم الإمام علي، حيث عاش في وسطهم كأفقر إنسان ولم يبلغ في عدله فيهم أحد من حكام دولة النبوّة سوى رسول الله (ص) وها هي ذريته تدخل إلى نفس المكان، إلى نفس المدينة أسيرة مسبية في منظر يفطر القلب الجلمود، وتأباه الإنسانية. ومن بين المتفرجات الكوفيات أشرفت عليهن إحداهن وسألت من أي الأسارى أنتنَّ؟ فقلن: «نحن أسارى آل محمد (ص)، فنزلت عن سطح دارها، وجمعت ملاءً وأُزراً ومقانع فاعطتهن فتغطَّين»(٢٥٤) وقد رثى الكوفيون والكوفيات لحال آل رسول الله (ص) المأساوي فجعلوا ينوحون، فقال زين العابدين (علي بن الحسين): «تنوحون وتبكون من أجلنا فمن الذي قتلنا؟»(٢٥٥).

وقال شاهد عيان ـ بشير بن جذلم الأسدي ونظرتُ إلى زينب بنت علي يومئذٍ ولم أرَ خفِرة قط أنطق منها كأنها تفرغُ من لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا ثم قالت: «الحمد لله والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار، أما بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر، أتبكون فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنّة، إنما مثلكم كمثل التّي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخدون أيمانكم دخلاً بينكم، ألا وهل فيكم إلا الصَّلف والنطف، والصدر الشّنف وملق الإماء، وغمر الأعداء أو كمدعى على دمنه أو كقصّة على ملحودة ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون أتبكون وتنتحبون، أي والله فأبكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترخصوها بغسل أبداً وأنى ترخصون قتل سليل خاتم النبوّة وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ حيرتكم ومفزع نازلتكم، ومنار حجتكم، ومدرة سنتكم، ألا ساء ما

تزرون، وبُعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبت الأيدي وخسرت الصفقة، وبوأتم بغضب من الله. أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم، لقد جئتم بها صلعاء، عنقاء، سوداء، فقماء، بلاء، حرقاء، شوهاء، كطلاع الأرض، أومل السماء. أفعجبتم أن مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أحرى، وأنتم لا تبصرون ولا يستخفنكم المهل، فإنه لا تحضره البدارة، ولا يخاف فوت الثأر، وأن ربك لبالمرصاد»(٢٥٦). قال شاهد العيان: وكان شيخاً بجانبي قد شارك الحاضرين حيرتهم وبكاءهم حتى اخضلت لحيته وهو يقول: «بأبي أنتم وأمي كهولكم خير الكهول وشبابكم خير الشباب ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير النسل لا يجارى، ولا يبارى»(٢٥٧) كانت تلك الكلمات موجهة إلى آل رسول الله من الأسرى والسبايا. هكذا كانت خطبة العقيلة زينب المعبرة والمؤثرة، والتي أوضحت فيها أن إستشهاد الإمام الحسين خلد، في الدارين وأن الذين قتلوه خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. تلك رسالة العقيلة الإعلامية عن ثورة الإستشهاد توجهها إلى الأجيال المتعاقبة عبر جماهير الكوفة المحتشدة في شوارعها. إنها تكشف أسرار ثورة الشهادة، ثورة الحرية وتبرز حقائقها للأمة. إنها تكشف للأمة بشاعة الجريمة التي ارتكبها الأمويون بمساندة ومؤازرة الكوفيين.

وبعدها ألقت فاطمة الصغرى بنت الإمام الحسين خطبة بليغة في جموع الكوفيين المحتشدة بالشوارع أثبتت فيها براعة آل رسول الله وفصاحتهم وغزارة علمهم رجالاً ونساء وأشادت فيها بدور العترة الإلهي الذي تجاهلته الأمة وإستهانت بجريمتهم المتمثلة في إبادة عترة رسول الله وأنصارهم في كربلاء حتى طلب الحاضرون من فاطمة أن تكف من خطابها لأنها أحرقت أكبادهم بكلماتها(٢٥٨).

كذلك ألقت أم كلثوم بنت الإمام علي (ع) خطبة مماثلة بعد فراغ فاطمة من خطبتها سخرت فيها من جريمتهم البشعة بخيانتهم لآل رسول الله (ص) وأوضحت المصير السيء الذي سيلاقونه جزاء ما عملوا(٢٥٩). وقد أجهش الحاضرون بالبكاء رجالاً ونساء لمعرفتهم حقيقة ما حدث بأرض الشهادة ونتيجة خذلانهم للإمام الحسين (ع) وآل رسول الله (ص) ولعلمهم بالذل الذي سيلحقهم على إثر ذلك(٢٦٠).

كما أنَّ زين العابدين ألقى خطبة فيهم كانت الأخيرة عرفهم فيها بتفصيل ما

حدث منذ كتابة الكوفيين إلى الإمام الحسين (ع) إلى مقتله الشريف مع أهل بيته وأنصاره، وما تحمله ثقل رسول الله (ص) من ويلات بعد إبادة الشهداء على أيدي جنود الفئة الباغية متباهياً باستشهاد والده[٢٦١]. لقد تمكن آل رسول الله (ص) وهم تحت وطأة الأسر وذله، أن يتمردوا ويتعملقوا كما هو دأبهم في الإباء والشموخ وأن يفضحوا جريمة حزب الشيطان وتخاذل الأمة عن نصرة العترة. هكذا كانت كلماتهم لسان حال الدماء الزكية والأجساد الطاهرة لتعريف الأمة بإنتصار الشهادة وهزيمة الطغاة، أمام دم الشهداء الهادر في بيداء كربلاء.

قال تعالى: **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**[٢٦٢].

وقال أيضاً: **﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾**[٢٦٣].

اعتقد قادة حزب الشيطان أنهم بأسر وسبي آل رسول الله إنما يشفون بذلك غليلهم ويذلونهم بالتطواف بهم في شوارع الكوفة وإدخالهم قصر الإمارة ليتفرج عليهم القاصي والداني والشريف والوضيع، وما دروا أنهم بذلك خدموا ثورة الإمام الحسين (ع) إذ أن آل رسول الله وهم في الأسر، لم يحنوا رؤوسهم لأنهم يعلنون بخطبهم العصماء للأمة وأجيالها المتعاقبة جرائم حزب الشيطان وأحقاد الفئة الباغية على رسول الله (ص) وعترته الطاهرة، فكانت الشوارع ودواوين القصور التي دخلوها منابر لهم لإعلان إنتصار الدم على السيف وعلى وحشية وكلاء العبودية والقتلة. كما أن أمراء وجنود الفئة الباغية بعملهم الدنيء بسلب وسبي العترة قد عجلوا بيومهم وحفروا قبورهم بأيديهم لأن كلمات آل رسول الله (ص) التي مثلت الدم ومثلت الشهادة الخرساء، ومثلت تلك الأجساد الطاهرة الصامتة على بوغاء كربلاء، كانت كالصواعق المحرقة تهزُّ الحاضرين هزّاً عنيفاً من أعماقهم وتشعرهم بالخيبة والذل والهوان على تخاذلهم عن نصرة آل رسول الله وتواطؤهم مع حزب الشيطان.

وحينما أمر ابن زياد بإدخال قافلة المأسورين والسبايا من آل رسول الله إلى ديوانه بالقصر الأبيض، أصدر إذناً عاماً للناس بالحضور من أجل الشماتة ولكي يشفي

حقده الدفين على آل رسول الله (ص) ثم جيء برأس الإمام الحسين (ع) ووضع بين يديه، وجميع آل رسول الله (ص) ينظرون إلى رأس الإمام وكلهم لوعة وحسرة. وقد جلست عقيلة الطالبين متنكرة، فلما سأل عنها قيل له: هذه زينب بنت علي (ع) فأقبل عليها شامتاً ومتشفياً وقال: «الحمدُ لله الذي فضحكم وأكذب أُحدوثتكم» نعم يشتم آل رسول الله (ص) في قصر الإمارة الذي بني للإمام علي (ع) ليسكنه فرفض، لأنه لا يرغب في التعالي على أفقر ساكن بالكوفة. وها هم آله أسرى وبناته مسبيات في نفس القصر وتحت رحمة رجل يعتبر عاراً على الإنسانية. صراع بين الحق والباطل، بين الخير والشر، إن هذا الصراع أزلي، وتردُّ عليه فخر المخدرات بإباء النبوَّة وشموخ شهداء كربلاء إنها مندوبة الثورة الإستشهادية، إنها لسان حال الدماء الزكية لا بدّ وأن تفضح المؤامرة في عقر دارها، وها هي الآن في وكر المؤامرات التي حيكت لإستئصال العترة النبوية، ردت عليه بثبات وإيمان لا تزعزعه الرياح العاتية، قالت: «إنما يفضح الفاسق ويكذبُ الفاجر وهو غيرُنا» فردَّ عليها قائلاً: «كيف رأيت ما صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟» فردت عليه بكلمات كالصواعق تقرعه تقريعاً وتفضحه وهو بين حاشيته وجلاوزته دون أن تكترث بسطوته وجبروته لأنها رسالية لأنها ابنةُ فاطمة التي هزت المسلمين من أعماقهم حينما خطبتهم بمسجد الرسول فاضحة المؤامرة على آل رسول الله (ص)، وها هي ابنتها زينب تتأسى بها وتواصل دورها المقدس لفضح المؤامرات وتنوير الأمة لإحقاق الحق، وإزهاق الباطل. قالت: «ما رأيتُ إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتبَ اللهُ عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمعُ الله بينك وبينهم، فتحاج وتخاصم، فأنظر لمن الفلجُ يومئذٍ، ثكلتك أُمُّك يا ابن مرجانة». لقد أفحمته بالحجة والمنطق، لم لا وهي خريجة حجر النبي وعلي وفاطمة، إنها ثمرة النبوَّة إنها خريجة بيت الطهارة والعصمة والمباهلة، لم لا تكون كذلك وأبوها أوّل من علّم الناس الفصاحة والبلاغة بعد رسول الله (ص) فحار ابن زياد جواباً، فلم تكن له وسيلة للرد على هذه المرأة الجليلة المسبية الأسيرة الماثلة في مجلسه مع بقية النساء وزين العابدين (ع) والأطفال من آل رسول الله، إلا الغضب وعزمه على إيذائها فهدأ عمرو بن حريث غضبه وقال إنها امرأة، والمرأة لا تُؤاخذ بشيء من منطقها. فعاودها ابنُ زياد ليخفف من خجله

قائلاً: «هذه سجّاعة، ولعمري لقد كان أبـوكِ شاعراً سجاعاً» فردت العقيلة عليه بدون تردد قائلة: «يا ابن زياد ما للمرأة والسَّجاعة»(٢٦٤) فترك السيدة زينب، ولكنه قد أحسَّ بـالهزيمة في أعماقه أمـام حاشيتـه وجلاوزته وكبـار قادة الجيش، فأراد أن يخفف من ذلك بتطاوله على زين العابدين وهو مقيد، فقال ابن زياد: «من هذا؟» فقيل علي بن الحسين (ع). فقـال: «أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟ فقـال علي (ع): «قد كان لي أخ يقال له علي بن الحسين قتله الناس». فقال ابن زياد: «بل الله قتله» فقال علي (ع) «**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها. . .**» (٢٦٥) فقال ابن زيـاد بعد أن أفحمـه زين العابدين: «ولك جـرأة على جوابي؟ إذهبـوا به فأضربوا عنقه» فسمعت حاملة مسؤولية رسالة الشهادة زينب فقالت: «يا ابن زياد إنك لم تبقِ منـا أحداً، فإن كنت عزمـت على قتله فأقتلني معـه». نعم لم تستعطفه وتطلب العفو عنه، إنما طلبت أن تقتل معه أنه بيت النبوَّة، بيت العطاء المتدفق من أجل حمايـة الدين والـدفـاع عنه ومن أجلـه ترخـص النفوس والـدماء فهي سليلـة الشهـداء، فلم تبخل بنفسها؟ هكـذا تعلموا مـواجهة أحلك اللحظـات من بيت الرزايـا، من بيت الأحزان، من بيت فـاطمة المتواضع الـذي نهلوا منه تعـاليم النبوَّة وتعاليم الإمامة وتعاليم إزدراء الحياة الـذليلة والإقدام على الموت بشجاعة لأنه جسرُ الحيـاة الأبديـة للشهداء، عشَّـاق الحق والحريـة. عندهـا قال علي لعمتـه زينب: «اسكتي يا عمـه حتى أُكلمه» ثم أقبل على ابن زياد فقال: «أبـالقتل تهددني يا ابن زياد، أما علمت أن القتل لنا عـادة وكرامتنا الشهادة»(٢٦٦). هكذا تم ختام الحوار بين الناطق الرسمي للقصر الأخضر والناطقين باسم رسالة الشهادة، الذين أضرموا قصر الإمارة نـاراً بكلمات الحق التي زلزلت ابن زيـاد وأفقدتـه وعيه حتى حكم على أسير مريض مقيد بالقتل، وهنا للمرة الثانية يكون حضور العقيلة منقذاً ومانعاً من قتل الإمـام زين العـابـدين حجـة الله في أرضه بعـد أبيـه، ولـذلك على الـرغم من مسؤولية العقيلـة عن آل رسول الله بعد أخيها إلا أنها لا تستطيع مخالفـة إمامها زين العابـدين (ع) ثم أمر ابن زياد بـوضع السبايـا من آل رسول الله (ص) في دار جنب المسجد الأعظـم الذي كان يخطـب فيه الإمـام علي خلال حكمه. فطلبـت العقيلة زينب أن لا تدخل عليهن عربية، إلا أم ولد أو مملوكة، لأنهن سبين كما سُبيت نساء

رسول الله (ص)[٢٦٧]. ولأجل الإرهاب والشماتة أمر ابنُ زياد أن يطاف برأس الإمام الحسين في سكك الكوفة. وأنشأ ابن طاووس شعراً في وصف ذلك المشهد المخزي للأمة بشكل عام وللفئة الباغية بشكل خاص[٢٦٨]:

رأسُ ابنُ بنت محمد ووصيِّه ... للناظرين على قناة يرفعُ

والمسلمون بمنظرٍ وبمسمعٍ ... لا مُنكِرٍ منهم ولا مُتفجّعُ

كَحَلت بمنظركَ العيونُ عماية ... وأَصمَّ رزؤك كلَّ أُذن تسمعُ

أيقظت أجفاناً وكنت لها كرى ... وأنمت عيناً لم تكن بك تهجعُ

ما روضةٌ إلا تمنَّت أنّها ... لك حفرةٌ ولخطِّ قبركَ مضجعُ

نعم شاهد المسلمون رأس الحسين (ع) يطاف به في سكك الكوفة، إنهم بمسمع وبمنظر، إنهم يرون رأس سبط رسول الله الذي طالما قبل شفتيه وضمه وأغدق عليه من حبه وعطفه وقال فيه وفي أخيه الإمام الحسن (ع) الكثير من الأحاديث التي ما زالوا يعرفونها ولكنهم قد صرعهم مال وسيف طاغية القصر الأخضر.

كانت هزيمة ابن زياد في قصره بواسطة كلمات فخر بيت النبوّة زينب التي كانت تؤدي من خلالها رسالة الثورة الإستشهادية المقدسة فأراد بعقليته العنجهية الهمجية المتغطرسة أن يثأر لتلك الهزيمة بعمل أساء الى سلطنة قريش دون أن يشعر لأن الحقد أعمى بصره وبصيرته. حيث أنه بذلك العمل فضح النظام الدخيل على دولة النبوّة أمام حشد من الناس في مسجد الكوفة، حينما صعد المنبر وقال:

«الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين وأشياعه وقتل الكذّاب بن الكذّاب»[٢٦٩] كلمات قاسية تعبر عن مستوى قائلها الوضيع، ولا يمكن أن يشك أحد في صحتها بعد كل الجرائم التي ارتكبوها إنه تأكيد لصحة نبوءة النبي محمد(ص) وتوقعاته بما يلحق بالأمة من فراعنتها. ولقسوة تلك الكلمات على مسامع المؤمنين قام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي أحد خيار المؤمنين من محبي أهل البيت. فقد عينه اليسري يوم الجمل واليمنى في صفين. وكان يلازم المسجد الأعظم

يصلي فيه طوال اليوم فقاطع ابن زياد بعد تفوهه بتلك العبارة قائلاً: «يا ابن زياد الكذّاب بن الكذاب أنت وأبوك ومن استعملك وأبوه يا عدو الله، أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين؟»(٣٧٠) كانت كلمات الأزدي كالصواعق المحرقة على مسامع ابن زياد فهو يعتقد أنه لم يعد هناك رمق في الأمة للمقاومة بعد اجتثاثه آل رسول الله ببيداء كربلاء. ولكنه أصيب بالذهول لتلك الكلمات النّارية فسأل غاضباً قال: «من هذا المتكلم؟» فقال الأزدي: «أنا المتكلم يا عدوّ الله أتقتل الذرية الطاهرة التي قد أذهب الله عنها الرجس وتزعم أنك على دين الإسلام؟ واغوثاه أين أولاد المهاجرين والأنصار لا ينتقمون من طاغيتك اللعين ابن اللعين على لسان محمد رسول رب العالمين»(٣٧١). أعتقد ابن زياد أن الأزدي سيتململ خوفاً منه، ولكنه أردف بكلمات تنبعث من قلب محترق لما آل إليه أمر دولة النبوّة لوقوعها تحت أسر طاغية سلطنة قريش بعد التضحيات العظيمة للنبي (ص) ورجاله في تأسيسها. ومع أن ابن زياد أراد قتله إلا أن أبناء عشيرته خلصوه وحملوه إلى منزله. إن كلمات الأزدي فتحت جرحاً عميقاً في قلبه لتعريته والنظام الذي يمثله أمام جموع الحاضرين بالمسجد. وبعد عودته إلى منزله تمكن جلاوزة ابن زياد من أسر الأزدي بعد أن دافع عن نفسه دفاع الأبطال مع ذهاب بصره. فأقتادوه إلى ابن زياد فلما رآه قال: «الحمدلله الذي أخزاك» فرد عليه الأزدي الوقور الذي أمضى حياته في ساحات الحروب من أجل الدفاع عن كلمة الحق وفي عبادة الله بقوله: «يا عدو الله وبماذا أخزاني الله؟ والله لو فرّج لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري». فقال ابن زياد يا عدو الله ما تقول في عثمان بن عفان؟ «فقال: «يا عبد بني علاج يا ابن مرجانة» وشتمه قائلاً: ما أنت وعثمان بن عفان أساء أو أحسن، أصلح أم أفسد، والله تبارك وتعالى وليٌّ خلقه يقضي بينهم وبين عثمان بالعدل والحق، ولكن سلني عن أبيك وعنك وعن يزيد وأبيه؟ فقال ابن زياد: والله لا سألتك عن شيء أو تذوق الموت فقال الأزدي: «الحمد لله رب العالمين أما أني قد كُنتُ أسألُ الله ربي أن يرزقني الشهادة من قبل أن تلدك أمك، وسألتُ الله أن يجعل ذلك على يد ألعن خلقه وأبغضهم إليه، فلما كفَّ بصري يَئستُ من الشهادة، والآن فالحمدلله الذي رزقنيها بعد اليأس منها، وعرَّفني الإجابة منه في قديم دعائي» فكان

رد ابن زياد الوحيد على هذا الرجل المؤمن أن أمر بضرب عنقه فضربت عنقه وصُلبت في السَّبخة لإرهاب الناس(٢٧٢). هذا هو سلاح الأنظمة الضعيفة التي تفتقد إلى الشرعية. القتل لكل أنصار الحق مع النبي وآله. كلهم يجب أن يُبادوا لينعم ابن زياد وطاغية القصر الأخضر وحاشيتهم.

وروى ابن حجر أنه لما حمل رأس الإمام الحسين لإبن زياد في مجلسه جعله في طشت وجعل يضربُ ثناياه بقضيب ويقول به (كذا) في أنفه، ويقول: «ما رأيت مثل هذا حسناً إن كان لحسن الثغر»، وكان عنده أنس بن مالك فبكى، وقال: إنه كان أشبههم برسول الله (ص)»(٢٧٣).

كما روى ابن حجر عن ابن أبي الدنيا أنه كان بين الحاضرين أيضاً زيد بن أرقم فقال لابن زياد: «إرفع قضيبك فوالله لطالما رأيتُ رسول الله (ص) يقبل ما بين هاتين الشفتين» ثم جعل زيد يبكي، فقال ابن زياد: «أبكى الله عينيك، لولا أنَّك شيخ قد خرفت لضربتُ عُنُقك». فنهض زيد وهو يقول: «أيها الناس أنتم العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمَّرتم ابن مرجانة، والله ليقتلنَّ خياركم ويستعبدنَّ شراركم، فبُعداً لمن رضي بالذلة والعار». ثم قال: «يا ابن زياد لأحدثنك بما هو أغيظُ عليك من هذا، رأيتُ رسول الله (ص) أقعدَ حسناً على فخذه اليمنى وحسينا على اليسرى ثم وضع يده على يافوخيها ثم قال: «اللهم إني استودعك إياهما وصالح المؤمنين، فكيف كانت وديعة النبي (ص) عندك يا ابن زياد»(٢٧٤). ابن زياد وجيش سلطنة قريش أداتهم الباطشة قهرت أجساد معركة الشهادة، وها هي مجالس قصورهم والمساجد ترتفع فيها كلمات الحق والأحاديث النبوية في فضل أهل البيت، فكانت كل جهود الأمويين وأشياعهم قد ذهبت سدى. إنها هزيمة حقيقية لهم ونصر مؤزر لقرابين الشهادة قرابين فيلسوف الحرية وسيد الشهداء. لقد أصبحت قصور الفئة الباغية منابر لفضح جرائمهم، ومكاناً لإعلان رسالة الدم والشهادة. إلى أجيال الأمة المتعاقبة بشكل خاص والبشرية بشكل عام. أراد فلول حزب الشيطان أن يمحوا ذكر آل محمد (ص) بجريمتهم البشعة في كربلاء، وما علموا أنهم قد حفروا اسم الحسين في قلوب كل من يعشق الحرية عبر امتداد الزمان والمكان. لقد أصبح اسم الإمام الحسين (ع) رمزاً للإباء والحرية عند جميع الأمم.

بعد أن شفى ابن زياد غليله من إبادة آل رسول الله (ص) في كربلاء وتركهم أجساداً بلا رؤوس، دون دفن وبعد أن سبى ونهب وسلب ثقل رسول الله وجعلهم فرجة للناس وتشمتهم بمجلسه بقصر الإمارة وبالمسجد الأعظم وطيف برأس الإمام الحسين (ع) ورؤوس أهل بيته وأنصاره سكك الكوفة جهز ثقل الإمام الحسين(ع) من الأطفال والنساء ومعهم العليل زين العابدين لإرسالهم هدية إلى طاغية القصر الأخضر يزيد. وكان ابن زياد قد كتب رسالتين الأولى إلى يزيد بن معاوية يخبره فيها بقتل الإمام الحسين (ع) وانتصاره على آل رسول الله (ص) وإبادتهم في كربلاء وسبي النساء والأطفال(٢٧٥). والثانية الى عمرو بن سعيد بن العاص والي الحرمين بنفس المضمون، فصعد عمرو المنبر وأخبر الناس بانتصار جيش سلطنة قريش ومقتل الإمام الحسين (ع) وجميع من معه(٢٧٦). فعظمت المصيبة على بني هاشم بشكل خاص وعلى مجتمع المدينة بشكل عام. فأقاموا المآتم لإستشهاد الإمام الحسين (ع) وأهل بيته وأنصاره. وكانت زينب بنت عقيل بن أبي طالب بين الهاشميات اللاتي ندبن الإمام الحسين (ع) فأنشأت تقول(٢٧٧).

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأُممِ
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أُسارى ومنهم ضُرِّجوا بدمِ
ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمِ

وما إن تسلم يزيد بن معاوية كتاب ابن زياد بشأن مقتل الإمام الحسين، حتى أعاد الجواب إليه يأمره بحمل رأس الإمام الحسين (ع) وجميع الرؤوس وآل رسول الله من نساء وأطفال(٢٧٨). فأستدعى ابن زياد خمسين رجلاً وإختار بينهم مخفر بن ثعلبة العائذي ليتسلم مسؤولية القافلة وسلمه رأس الإمام الحسين وجميع الرؤوس وآل رسول الله (ص) من نساء وأطفال، كما أمر بأن تغل أرجل وأيدي الإمام السجاد بأغلال من حديد إلى عنقه فساروا بهم هدية إلى يزيد كما يسار بسبايا الكفار(٢٧٩).

نعم بنات رسول الله (ص) وأطفاله يساقون مع رؤوس القتلى من أهلهم وأنصارهم يتقدمهم رأس الإمام الحسين (ع) من الكوفة إلى الشام على محامل بغير

وطاء يساقـون كما تساق أسارى الروم والديلم. نعم هذا هـو جزاء رسول الله (ص) ووصيته الأمـة في ذريته لقولـه تعالى: «.. قل لا أسألكـم عليـه أجـراً إلا المودة في القربى...»(٢٨٠) لقد حفظـت الأمة عهـدها لـرسول الله (ص) في ذريتـه حفظاً لم يشهـد التاريخ البشري لـه مثيلاً، فهـا هي أم كلثـوم بنت علي بن أبي طالـب، وقـد إقترب ركب السبي إلى دمشق عـاصمـة سلطنـة قـريش تطلـب من شمـر بن ذي الجوشن قضاء حاجة لها قالت: «إذا دخلت بنا البلد فأحملنا على درب قليل النظّارة. وتقدم إليهم أن يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل وينحونا عنها، فقد خزينا من كثرة النظر إلينا، ونحن في مثل هذه الحال»(٢٨١). لأن السيدة أم كلثوم سألت لئيماً، فما كان رده على سـؤالها إلا أن جعل الرؤوس على الرماح في أوسـاط المحامل وسلك بهم بين المتفرجين حتى أتى بهم وهم على تلك الصفة بـوابة دمشق التي تسمى باب الساعـات، فوقفوا بـالسبايا والـرؤوس عند درج باب المسجـد الجامع، حيث يقام السبّي عادة(٢٨٢). ويوم دخول ثقل رسول الله عاصمة الحكم الأموي عطلت الأعمال ونشرت الزينـات وأعلن أن ذلك اليوم عيـد للنصر، وضربت الدفـوف والطبول من قبل النساء والفتيـات الشاميـات والناس كانـوا فرحين مستبشرين بـانتصارهم على الخوارج(٢٨٣).

وكان يزيـد خلال دخول ركب السبايا والرؤوس في منظـرة على رباجيرون فأنشد فرحاً مستبشراً بذلك المشهد(٢٨٤):

لما بـدت تلك الحمـول وأشـــرقت	تلك الشمـــوس على ربـــا جيرون
نعب الغـراب فقُلتُ صح أولا تصح	فلقـد قضيت من الغـــريم ديـوني

نعم، ليس غريباً على يزيد بن معـاوية أن يتفوّه بمثل هذه الأبيات جذلاً، وليس غـريبـاً عليـه أن يستقبل رؤوس آل رسـول الله (ص) وصحبهم من المؤمنين، فهـذا الغصن من تلك الشجرة الملعونة في القرآن، وله في والده أُسوة. ففي عهد الإمام علي أُهدي لمعاويـة رأسا مؤمنين: الأول رأس عمار بن يـاسر في صفين، وعمار هو الذي قال فيه الـرسول أحاديث عديـدة لإيمانه وتفانيه في سبيل الله منهـا «عمار تقتله الفئة الباغية» باتفاق المسلمين(٢٨٥). والثاني رأس محمـد بن أبي بكـر والي الإمام علي (ع)

على مصر، الذي وضعت جثته في جوف حمار وأُحرقت(٢٨٦). وبعد استشهاد الإمام علي (ع) عمد معاوية إلى تصفية جميع من طالته يده من رجالات الإمام علي (ع) فكان عمرو بن الحمق الخزاعي أحد الضحايا، حيث فرَّ هائماً على وجهه، فكان جزاؤه، إلقاء القبض على زوجته آمنة بنت الشديد واقتيادها إلى دمشق حيث سجنت لمدة عامين. وحينما تمكن عبد الرحمن بن الحكم والي معاوية على الموصل من الظفر بعمرو، قطع رأسه وأهداه إلى مؤسس سلطنة قريش معاوية بدمشق فكان ثاني رأس يطاف به من بلد إلى بلد بعد رأس محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر. ولقسوة معاوية بعث رأس عمرو إلى زوجته بالسجن، وطُلب من الحارس أن يحفظ كلماتها. وفوجئت آمنة برأس زوجها يطرح في حجرها فارتاعت من هول المشهد، ثم وضعت يديها على رأسها وقالت: نفيتموه عني طويلاً وأهديتموه إليَّ قتيلاً، فأهلاً وسهلاً بمن كنتُ له غير قالية، وأنا له اليوم غير ناسية»(٢٨٧).

وكان الإمام الحسين (ع) قد كتب إلى معاوية بمناسبة مقتل عمرو وإستشهاده: «أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح بعدما أمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائراً نزل إليك من رأس جبل ثم قتلته جرأة على ربك وإستخفافاً بذلك العهد»(٢٨٨). إن الإمام الحسين (ع) يشير على أن الأمويين ليس لهم عهد ولا ذمة، لأنهم لم يؤمنوا بالله طرفة عين، لأن إسلامهم يوم الفتح كان إستسلاماً، كما وردت مناقشة ذلك.

أما إذا أقدم يزيد على سبي نساء رسول الله (ص) وبناته وأسرهن والتطواف بهن في البلدان، فإنه أيضاً يتبع خطى والده. فبالأمس القريب وخلال عهد الإمام علي(ع) حينما هاجم جيش معاوية الحجاز واليمن بقيادة بسر بن أرطأة إرتكب أعمالاً لا تقل بشاعة عن الأعمال التي إرتكبها جنود يزيد مع آل رسول الله (ص). فقد قتل بسر قائد الجيش شخصيات يمنية مثل عبد الله بن عبد مدان الحارثي وأخيه مالك، وأحرق منزل والي اليمن من قبل علي - عبيد الله بن عباس - ولما علم بأن زوجته في بادية كنانة قصدها بجيشه وقتل طفلي عبيد الله بن عباس في حجر أمهما أمام نسوة بني كنانة، وأباد الرجال والنساء الذين استنكروا عمله لأنهم رفضوا أن يخلعوا بيعة الإمام علي (ع) ويبايعوا معاوية كما سبى بسر النساء وباعهن في

الأسواق، فكن أول مسلمات سبين في الإسلام(٢٨٩).

وقال رجلان من الذين شهدوا المأساة أنهما سمعا أبا ذر يدعو ويتعوَّذ في صلاة صلاَّها، طال قيامها وقعودها وركوعها، فسألناه: «مم تعوَّذت؟ وفيم دعوت؟» فقال: «تعوَّذتُ من يوم البلاء أن يدركني، ويوم العورة أن أدركه» فقلنا: «وما ذاك؟» قال: «أما يوم البلاء فتلتقي فتئان من المسلمين فيقتل بعضهم بعضاً، وأما يوم العورة فإن نساء من المسلمات يسبين فيكشف عن سوقهن فأيّتهن كانت أعظم ساقاً إشتريت على عِظم ساقها! فدعوتُ الله ألا يدركني هذا الزمان» وبكى الناس!!(٢٩٠) نعم هذا هو المنهاج الذي رسمه واختطه معاوية لنجله يزيد ليقود أمة محمد (ص) «إلى طموحاتها وتطلعاتها بين الأمم» بقتل الأطفال، بسبي النساء، بتقطيع رؤوس المؤمنين وإهدائها لطاغية القصر الأخضر ليعم الصمت مقبرة الأحياء، وليتفرغ حفيد هند وأبي سفيان للعَّب بالقردة والكلاب وليالي الأُنس مع القيان والغلمان(٢٩١).

نعم، هذه ذخيرة بيت النبوَّة التي حمَّلها الإمام الحسين (ع) تبليغ رسالة الإستشهاد إلى الأمة تدخل مدينة الجريمة وعاصمة السلطنة القرشية التي أذاق مؤسسوها وآلهم محمداً وآله ألواناً من العذاب منذ بداية دعوته حتى استئصال ذريته في كربلاء، ها هي فخر المخدرات زينب وأخواتها وبنات أخوتها وبقية أطفال وآل رسول الله (ص) وزوجات الإمام الحسين (ع) يدخلن مركز الظلم والطغيان والجور والقتل بسلام واعتداد واعتزاز بالنفس لأنهن يحملن رسالة الإستشهاد لتبليغها إلى الأمة، إلى الأجيال المتعاقبة لفضح الجريمة، لكشف الحقيقة، ها هي زينب المسبية بعد أن تجرعت وبقية آل رسول الله (ص) غصص الأسر وفقد الأحبة، إنها تعلن الإنتصار على السلطة ووحشية وكلاء العبودية إنها تعلن لجميع الأجيال شعوباً وحكومات من بوابتي دمشق: باب الساعات، وباب توما: «الحمدُ لله على جميع كرمه ومجده الذي منحنا شرف النبوَّة وشرف الشهادة».

إنها تقدم مسؤولية إعلان رسالة الحياة الأبدية، لكن الشهادة صامتة. إن زينب أبقت الشهادة حية لأنها قد هيأها الإمام الحسين (ع) لتكون اللسان المعبر لأولئك

الـذين قد قطع لسـانهم بواسطـة سيف القتل. إذا لم يكن للدم رسـالة، فإنـه يبقى صامتاً في التـاريخ. إذا لم تصل رسالة الدم إلى جميع الأجيال، فإنـه يكون كما لو أن القـاتل قد سجن الشهيـد في قلعـة عصر واحد وزمـن واحد. لـو أن زينب لم تنقل رسالة كربـلاء إلى ضمير الأمة، ستبقى كربلاء مجرد حادثة تاريخيـة، وبالتالي الأفراد الذين يحتـاجون هذه الرسالـة سوف يحرمونها. وهكذا لن يقـدر أحد على أن يسمع رسالة أولئك الذين تحدثوا إلى الأجيال عبر دمائهم. وقال أحد الأدباء في وصف حال السيدة زينب: (٢٩٢).

قـــد ورثت زينـب عن أمهـــا ... كل الـذي جرى عليهـا وصـار

وزادت البنـتُ على أمهـــــا ... من دارهــــا تهدىٰ إلى شر دار

وقال آخر في وصف تحملها رعاية الأيتام والنساء: (٢٩٣)

بأبي التي ورثت مصـائب أُمِّهـا ... فغـدت تقـابلهـا بصـبر أبيهـا

لم تلهُ عن جمع العيـال وحفظهم ... بفـراق إخـوتها وفقـد أبيهـــا

روى ابن طـاووس أن بعض فضلاء التـابعين لما شاهـد رأس الإمام الحسين (ع) بالشام أخفى نفسه شهراً من جميع أصحابه فلما وجدوه بعد إذ فقد سألوه عن سبب ذلك، فقال:

«ألا ترون ما نزل بنا؟» فأنشأ يقول: (٢٩٤).

جاءوا برأسك يـا ابن بنت محمد ... مترمـلاً بــدمـائه تــرميـلاً

فكأنما بك يـــا ابـن بنت محمــد ... قتلـوا جهـاراً عــامـدين رسـولا

قتلـوك عطشـانـاً ولما يـرقبـوا ... من قتلك التـأويل والتنــزيــلا

ويكبرون بــأن قتلـــت وإنما ... قتلـــوا بك التكبير والتهليـــلا

أبيات رائعة تعبر عن فهم عميق للفـاجعة التي حلت بالأمة بمجزرة كـربلاء إنه يرثي حال الأمة التي طعنت في دينها بإبادة آل رسول الله (ص).

ومن الأخبار التي تهز كل غيـور من الأعماق ما رواه سهل بن سعد أحد صحـابة

رسول الله (ص)، الـذي شاهد بنـات الرسالـة عند بـاب الساعات بـدمشق يقول سهل: «فدنـوت من إحداهن فقلـت: يا جاريـة من أنتِ؟ فقالت: سكينـة بنت الحسين. فقلتُ لها: ألكِ حـاجـة إليَّ؟ فأنـا سهل بن سعـد ممن رأى جـدَّكِ وسمع حديثه. قالت: يا سهل قل لصاحب الرأس: أن يتقدّم بالرأس أمامنا حتى يشتغل النـاسُ بالنظـر إليه فـلا ينظرون إلينـا! فنحن حـرم رسول الله، قـال: فدنـوتُ من صاحب الـرأس وقلتُ له: هل لك أن تقضي حاجتي وتأخـذ مني أربعمائة دينار؟! قـال: ومـا هي؟ قلتُ: تقـدم الـرأس أمـام الحرم، ففعل ذلك ودفعتُ لـه مـا وعدته»(٢٩٥).

وروى ابن طـاووس أيضـاً أن رجـلاً مسناً دنـا من نسـاء النبـوَّة في نفس الموضع فقـال: «الحمـدُ لله الـذي قتلكم وأهلككم وأراح البـلاد من رجـالكم وأمكن أمير المؤمنين منكم»(٢٩٦). فجعل زين العابدين يعرف نفسه ومن معه للشيخ من خلال الآيـات التي وردت في أهل البيت بـالقـرآن إلى أن تلى قولـه تعـالى: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾(٢٩٧) فسأله زين العابدين هل قـرأت هذه الآيـة؟ قـال الشيخ نعم قـرأت ذلك فقال زين العـابـدين: فنحن أهل البيت الـذين خصَّصنا الله بـآية الطهـارة يـا شيخ. فسكت الشيخ ولم يحر جوابـاً، واستغفر ربه لخطئه، وطلب التوبة والمعذرة من زين العابدين فقال له نعم. إن تبت تـاب الله عليك وأنت معنـا، فقـال: أنـا تـائب». وحينما علم يـزيـد الخبر أمـر بقتله(٢٩٨)، خشيـة أن يكون وسيلـة إعلام لآل رسـول الله بـدمشق فيفضح طاغيـة القصر الأخضر.

قـريش بكل زعـامـاتها لم تستطع أن تقف في وجـه الـزخم الإيماني العقـائدي لمحمد(ص) وأنصاره. لقد هزموا كل زعامات قريش حتى استسلموا في فتح مكة. ولكن بعد رحيل صاحب الرسالة ومؤسس الدولة النبوية محمد (ص) تآمرت أغلبية الأمـة على الثقلين الكتاب والعترة. أمـا الكتاب فمـزقته الـرماح في صفين بحجـة الإحتكام إليه، وأمـا العترة فأبيدت في كربلاء. وأما بنات رسـول الله (ص) وأطفاله فها هـم يساقون في الأسر والسبـي يعبرون الصحاري بـدون كفيل سوى أعـداء قد إمتلأت قلوبهم بالشحناء الجاهلية البغيضة ضد محمد وآله. وها هم يدخلون ديوان يـزيد بـالقصر الأخضر بدمشق الـذي تأسس من أجل تقويض كل المبـادىء التي

تأسست عليها دولة النبوّة ولإستعادة كل أحلام وتطلعات قريش في النفوذ والجاه والسلطان.

وأدخل آل رسول الله جميعاً على يزيد أطفالاً ونساء ومعهم زين العابدين وهم موثقين في الحبال. فسأل زين العابدين يزيد قائلاً: «أُنشدك الله يا يزيد ما ظنك برسول الله (ص) لو رآنا على هذه الصفة؟». فأمر يزيد بالحبال فقطعت(٢٩٩).

ثم وضعت جميع الرؤوس بين يديه. فارتفعت أصوات النساء والأطفال بالعويل عندما شاهدوا رؤوس الأحبة وقائدهم الإمام الحسين (ع) حتى رق لحالهم الحضور.

ولما رأى يزيد الرؤوس بين يديه قال تشفياً(٣٠٠).

يفلّقن هاماً من رجال أعزّةٍ علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

إن يزيد يتذكر قتلاهم الماضين خلال حرب الإسلام مع الشرك، فهو يعتقد أنه أخذ بثأر الأمويين من محمد (ص) وآله العاقين الظالمين كما يصوّرهم.

ثم أنشد يحيى بن الحكم أخو مروان فقال: (٣٠١)

لهام بجنب الطف أدنى قرابة من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل

سُميّة أمسى نسلُها عدد الحصى وبنتُ رسول الله ليس لها نسل

هكذا بلغت الوقاحة والتبجح بالأمويين والمروانيين يستهزئون ويتباهون باجتثاث نسل رسول الله (ص) هذه نبوءة الرسول (ص) تتحقق ويتسلم أمور الأمة غلمان قريش هذه نتيجة تآمر الأمة التي لحقها الذل الأبدي بعد خيانتها للرسول (ص) وعترته. إنهم هم الدين وعلى أكتافهم قامت دولة النبوّة خانوهم فتراكمت عليهم كل المحن والمصائب حتى صاروا لقمة سائغة لأحط الأُمم.

ومن الأعمال المشينة التي قام بها يزيد في ذلك اليوم أن رأس الحسين قد وضع بين يديه في طشت من ذهب، فدعا بقضيب خيزران فجعل ينكت به ثنايا الحسين أمام أهل بيته، وهو يقول: «لقد كان أبو عبد الله حسن الثغر»(٣٠٢). وكان بين الحاضرين أبو برزة الأسلمي رجل من أصحاب رسول الله (ص) فقال ليزيد: «ويحك يا يزيد أتنكثُ بقضيبك ثغر الحسين بن فاطمة (ع) أشهد لقد رأيتُ أن

النبي (ص) يرشفُ ثناياه وثنايا أخيه الحسن (ع) ويقول: «أنتما سيدا شباب أهل الجنة فقتل الله قاتلكما وأعدَّ له جهنم وساءت مصيراً». فأمر يزيد بإخراجه من ديوان قصره سحباً(٣٠٣) هذا مصير كل من ينطق بالحق في دولة النبوَّة لأن ذلك يخالف منهاج سلطنة قريش الذي رسمه المؤسسون لهذه السلطنة.

ثم جعل يزيد يتمثل شماتة بأبيات ابن الزبعري(٣٠٤).

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القوم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فأعتدل

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل

لستُ من خندفِ إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

إنه إعلان صريح بعودة العصبية الجاهلية والأخذ بالثأر فهو يعتبر أن الأمويين أخذوا بثأر قتلاهم في بدر من محمد وآله بإبادة عترته في كربلاء.

وعلى أثر تغني يزيد بتلك الأبيات التهكمية، رأت ذخيرة بيت النبوَّة، وحاملة رسالة الإستشهاد أن تقول كلمتها وتلعب دورها الرسالي المطلوب لتكشف الحقيقة للتاريخ، لفضح الجريمة، لتعلن صرخة الشهادة، لتبلغ الأمة، الأجيال، البشرية رسالة الدماء الزكية التي عطرت بيداء كربلاء وجعلتها منارة وكعبة للأحرار في كل زمان وكل مكان قالت بعد أن وقفت بشموخ النبوة وبلاغة وفصاحة وشجاعة أبيها وإباء سيد الشهداء أخيها(٣٠٥): «الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله سبحانه حيث يقول: «ثم كانت عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذَّبوا بآيات الله، وكانوا بها يستهزئون». أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسرى أن بنا هواناً على الله، وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين

كفروا إنّما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذابٌ مهين﴾ .

«أمن العدل يا ابن الطلقاء، تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله(ص) سبايا، قد هتكت ستورهنَّ، وأبديت وجوههنَّ، تحدوبهنَّ الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهنَّ أهلُ المناهل والمناقل، ويتصفحُ وجوههن القريبُ والبعيد، والدَّنيُّ والشريف، ليس معهن من رجالهم ولي ولا من حُماتِهنَّ حمي، وكيف يرتجى مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه من دماء الشهداء، وكيف يستبطأُ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشَّنف والشنآن، والاحن والأضغان، ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم :

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

«منحنياً على ثنايا أبي عبد الله (ع) سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك وكيف لا تقول ذلك، وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذريَّة محمد (ص) ونجوم الأرض من آل عبد المطلب وتهتف بأشياخك زعمت أنك تناديهم فَلَتَرِدَنَّ وشيكاً موردهم وَلَتَوَدَّنَّ أنك شُلِلْت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت» .

«اللهم خذ بحقنا، وانتقم من ظالمنا، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا، وقتل حماتنا، فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا حززت إلا لحمك ولتردن على رسول الله(ص) بما تحملت من سفك دماءِ ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمعُ الله شملهم، ويلم شعثهم ويأخذ بحقهم، ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون» .

«وحسبك بالله حاكماً وبمحمد (ص) خصيماً، وبجبريل ظهيراً، وسيعلم من سوَّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلاً وأيُّكم شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً، ولئن جرَّت عليَّ الدواهي مخاطبتك، إني لأستصغر قدرك واستعظم تقريعك، واستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرَّى . ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء، بحزب الشيطان الطلقاء . فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، والأفواه تتحلبُ من لحومنا وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها

العواسل، وتعفـرها أُمّهات الفراعل، ولئن إتخذتنـا مغنماً، لتجدنا مغرمـاً وشيكاً، حين لا تجد إلاّ مـا قدّمت يـداك وما ربك بظـلام للعبيد، وإلى الله المشتكى وعليـه المعوّل».

«فكد كيدك، واسعَ سعيك، وناصب جهـدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمـدنا، ولا تدحض عنك عارهـا، وهل رأيك إلا فند وأيامك إلا عدد، وجمعُك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنةُ الله على الظالمين».

«والحمدُ لله رب العـالمين، الذي ختم لِأوّلنا بالسَّعـادة والمغفرة ولآخرنا بـالشهادة والـرحمة، ونسـأل الله أن يكمل لهم الثـواب، ويـوجب لهم المزيـد ويحسـن علينـا الخلافة، إنه رحيم ودود حسبنا الله ونعم الوكيل».

لقد أدت السيدة زينب وهي أسيرة رسالـة الشهداء إلى الأمة، عبر كل العصور، فإذا كان والدها قد زلزل ميادين القتال بصـولاته وجولاته الحيدرية في بدر وفي أحد وفي الأحـزاب وفي خيبر وفي حنين وفي كل المشـاهـد مع الـرسـول (ص) وأيضـاً في البصرة وصفين والنهروان، بسيفـه ذي الفقار وإذا كـان الإمام الحسين (ع) وإخـوته وأنصاره قد أذهلـوا الأعداء بشجاعتهم وثباتهم أمـام آلاف الجنود بكامل أسلحتهم فهـا هي زينب تقـف بنفس الـروح والعـزيمـة والتصميم لتحكي للتـاريخ قصـة المؤامرة، قصة الرسالة النبوية، قصة خيـانة الأمة، قصة الثورة الإستشهادية المقدسة في كربلاء، قصة الحرية والعزة والكرامة. إنها أسيرة، لكنها بنت فاطمة. إنها مسبية لكنها تربية علي بن أبي طالب.

قال يزيد(٣٠٦):

يـا صيحـة تحمـدُ من صـوائح   مـا أهـون الموت على النـوائح

وحينها استشار يـزيد أهل الشام فيما يصنـع بآل رسول الله (ص) قـال له النعمان بن بشر ناصحاً: «أنظر ما كان الرسول يصنع بهم فاصنعه»(٣٠٧).

ومن غريب مـا حدث يوم تـواجد بنـات الرسالـة في ديوان قصر يزيـد أن رجلاً شامياً طلب من يزيد أن يهبه فاطمـة بنت الإمام الحسين (ع) جارية له. فكان نص

قوله كما روته بنت الحسين (ع): «يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية. فلاذت بعمتها وتعلقت بثيابها، فقالت زينب: «لا ولا كرامة لهذا الفاسق». فقال الشامي من هذه الجارية؟ فقال يزيد: هذه فاطمة بنت الحسين (ع) وتلك زينب بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فقال الشامي الحسين بن فاطمة وعلي بن أبي طالب؟ قال: نعم. فقال الشامي لعنك الله يا يزيد أتقتل عترة نبيك وتسبى ذريتهُ؟ والله ما توهّمت إلا أنهم سبى الروم» فقال يزيد: «والله لألحقنك بهم»، ثم أمر به فضربت عنقه(٣٠٨). لماذا؟ لأنه قال كلمة حق عند سلطان جائر.

كان يزيد قد أحرقت فؤاده كلمات بنت الرسالة زينب في خطبتها العصماء ولما وجد نفسه عاجزاً عن الرد عليها بالحجة والمنطق وقرّعته تقريعاً بتلك الكلمات البليغة بعد كشفها الحقيقة كاملة أمام وجهاء الشام لجأ إلى أسلوب العاجزين والمفلسين وطلب من الخطيب أن يصعد المنبر ــ وما أكثر أولئك الخطباء المرتزقة الذين هيأتهم سلطنة قريش لإفساد الدين وتشويهه ـ لينال من كرامة الإمام الحسين وأبيه (ع) ففعل الخطيب ذلك وبالغ في ذمهما من أجل العطيّة(٣٠٩)، وفي الوقت نفسه مدح معاوية ويزيد، وآل رسول الله (ص) بمسمع وبمنظر لكل ما يحدث. إن يزيد ما زال قلبه ينضح حقداً تجاه منجزات النبي (ص) ووصيه الإمام علي، لم يكتفِ بعد بمجزرة كربلاء وبسبي آل رسول الله (ص) واستعراضهم في مجلسه مع الرؤوس، إنها الجاهلية بأبشع صورها.

فصاح زينُ العابدين: «ويل أيها الخطيب إشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق فتبوّء مقعدك من النار»(٣١٠). وقد أحسن ابن سنان الخفاجي في وصف الإمام علي (ع) وما ناله من الأمة: (٣١١).

أعلى المنابر تعلنون بسبه ... وبسيفه نصبت لكم أعوادها

ثم إن زين العابدين علي بن الحسين بعد أن ردَّ على الخطيب بتلك الكلمات التي تفيض بحكمة النبوّة والإمامة، إستأذن يزيد ليصعد المنبر ويتكلم بكلمات فيهن لله رضا، وللحاضرين أجراً وثواباً، فأبى يزيد ذلك، ولكنه استسلم أخيراً تحت ضغوط الحاضرين، فأذن له، فألقى خطبة تعبر عن بلاغة البيت النبوي وتعرّف من خلالها

تاريخ هذا البيت النضالي من أجل إقامة صرح دولة النبوّة، كما عرّف نفسه للناس بذكر نسبه الشريف، لكشف الغمامة عن بصيرة وأبصار الحاضرين، حيث أسر ابن النبوّة قلوب الحاضرين بكلماته البليغة المؤثرة والمعبّرة فأستسلموا للبكاء فقطع يزيد خطبته بالآذان خوف الفتنة.(٣١٢) لأن زين العابدين قد أوضح للحاضرين أن يزيد قد قتل الدين بقتله شهداء كربلاء.

وقبل أن يغادر آل رسول الله (ص) ديوان القصر الأخضر وعد يزيد علي بن الحسين بقضاء ثلاث حاجات له وأسكنهم أربعة أيام في منزل لا يكنهم من حر ولا برد فأقاموا به حتى تقشرت جلودهم هذا إلى جانب متاعب السفر وفاجعة فقدِ الأحبة، وقد إتخذوا من هذا الدار مكاناً لإقامة العزاء والبكاء على شهداء كربلاء(٣١٣).

ويروي ابن طاووس أن زين العابدين علي بن الحسين خرج ذات يوم من أيام إقامتهم يمشي في أسواق دمشق فاستقبله المنهال بن عمرو الصحابي، فقال له: كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟ قال: «أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم! يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمداً عربي، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصوبون مقتولون، مشرّدون، فإنّا لله وإنا إليه راجعون مما أمسينا فيه يا منهال». فأنشد منهال شعراً:(٣١٤)

يعظمون له أعواد منبره ... وتحت أرجلهم أولاده وضعوا

بأيّ حكم بنوه يتبعونكم ... وفخركم أنّكم صحب له تبعُ

وحينما عزم يزيد على ترحيل عائلة الإمام الحسين (ع) من دمشق إستدعى زين العابدين علي بن الحسين وسأله أن يذكر له حاجاته الثلاث التي وعده بقضائهن، فقال له: «الأولى أن تريني وجه سيدي ومولاي أبي الحسين (ع) فأتزوّد منه، والثانية أن تردَّ علينا ما أُخِذَ مِنّا، والثالثة إن كنت عزمت على قتلي أن توجه مع هؤلاء النسوة من يردهنَّ إلى حرم جدهن (ص) فقال يزيد: «أما وجه أبيك فلن تراه أبداً، وأما قتلك فقد عفونا عنك، وأما النساء فما يردهن غيرك إلى المدينة، وأما ما أُخِذَ منكم

فأُعوِّضكم عنه أضعاف قيمته» . فقال علي بن الحسين: «أما مالك فلا نريده وهو موفر عليك، وإنما طلبتُ ما أُخِذَ منا لأنَّ فيه مغزل فاطمة بنت محمد (ص) ومقنعتها وقلادتها وقميصها» فأمر يزيد برد ذلك وزاد فيه مئتي دينار فأخذها زين العابدين وفرقها على الفقراء(٣١٥).

ويبدو أن يزيد قد بدأ يشعر ببشاعة الجريمة التي إرتكبها في كربلاء وما ألحقه من ذل وهوان بآل رسول الله من جانب، وتذمر الناس مما حصل من جانب آخر فحاول أن يخفف ذلك بتحسين معاملته لذرية رسول الله (ص) الذين أصبحوا تحت رحمته. فكلف النعمان بن بشير أن يتولى تجهيزهم ويهيء معهم رجلاً صالحاً من أهل الشام وفرساناً لحراستهم(٣١٦).

وخرج آل رسول الله (ص) من عاصمة سلطنة قريش بعدما تحملوا الويلات من التفرج والشتم وحرقة الفؤاد وذل الأسر والسبي، وحينما بلغوا العراق طلبوا من الدليل أن يمر بهم على كربلاء وكان وصولهم قد تزامن مع وجود جابر بن عبد الله الأنصاري وجماعة من بني هاشم قدموا لزيارة الإمام الحسين، حيث تزامن مع مرور أربعين يوماً على إستشهاد الإمام الحسين ورجاله وهو يوم العشرين من صفر سنة إحدى وستين للهجرة. ومكثت عائلة الإمام الحسين (ع) عند قبور الشهداء حتى قضوا وطراً من البكاء والنياحة، وبعدها توجه موكب ذرية الرسول (ص) إلى المدينة(٣١٧).

١١ ـ عودة آل الرسول (ص) إلى المدينة:

وعادت حاملة رسالة الشهادة إلى وطن جدها مع الإمام زين العابدين علي بن الحسين وبقية اليتامى والثواكل. عادت بعد أن شمت ثرى قبور الأحبة في أرض الشهادة، أرض الإباء، أرض الحرية، أرض كربلاء. عادت ولكن بأية حال، فبالأمس القريب عند خروجها من مدينة جدها رسول الله (ص) كانت محفوفة بشبيبة الهاشمين وسيوفهم مشهورة محلقة حول هودجها واليوم تعود كسيرة، وقد كسيت جميع الهوادج بالسواد. تعود بعد أن احتضنت أرض كربلاء تلك الأجساد الطواهر لأولئك الأحبة. قرابين الإسلام. عادت إلى مسقط رأسها بعد أن بلَّغت

رسالة الشهادة إلى كل أجيال الأمة عن طريق الكلمة التي تحمل الحقيقة، وتروي ملحمة الشهادة، بأمانة الأنبياء والقديسين، وبذلك يكتمل المظهر الثاني للثورة الإستشهادية، بعدما قدم الإمام الحسين (ع) وأهل بيته وأنصاره الغر الميامين الدم والإستشهاد، هذا بالشهادة، وهذه بتبليغ الشهادة، وبهذا بطلت مؤامرة حزب الشيطان، وأصبحت ملحمة الإستشهاد عبر الزمان والمكان أنشودة تتردد على شفاه عشاق الحرية والحق والعدالة والمساواة. إنها المبادىء التي قامت عليها دولة النبوّة وبهذا ترجم الإمام الحسين (ع) عملياً للأمة ما الذي يقصده الرسول(ص) من حديثه: «حسين مني وأنا من حسين». يقول المهاتماغاندي: «تعلّمتُ من الحسين أن أكون مظلوماً فأنتصر».

لو أن زينب لم تنقل رسالة كربلاء إلى التاريخ، ستبقى كربلاء مجرد حادثة تاريخية، وبالتالي فإن الأفراد الذين يحتاجون هذه الرسالة سوف يحرمونها. وهكذا لن يقدر أحد على أن يسمع رسالة أولئك الذين تحدثوا إلى الأجيال بدمائهم. إنه لهذا السبب كانت رسالة زينب ثقيلة وصعبة. رسالتها تبليغ رسالة الشهداء إلى البشرية، إلى جميع أولئك الذين يبكون الإمام الحسين (ع): «إن الحياة لا تكون ذات قيمة إلا بالإعتقاد والجهاد، وأن الذين يستطيعون أن يعيشوا بصدق، الذين يستطيعون أن يموتوا بصدق».

وحينما وصل ركبُ آل رسول الله (ص) إلى مشارف المدينة حطوا برحالهم، وضرب علي بن الحسين فسطاطه وأمر بشير بن جذلم أحد الحراس الذين كانوا معه، أن يطوف بالمدينة، وينعي الإمام الحسين (ع). فركب بشر فرسه كما يروي ابن طاووس حتى وصل مسجد النبي (ص)، فرفع صوته باكياً، وأنشأ قائلاً:(٣١٨).

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعي مدرارُ
الجسم منه بكربلاء مضرَّج ... والرأس منه على القناةِ يدارُ

وحينما إجتمع الناس عنده أخبرهم بالفاجعة، ومكان نزول الإمام عليٍّ بن الحسين (ع) مع أطفال ونساء آل رسول الله (ص)، فهرعوا إلى مخيمهم، فعزوه،

وأعربـوا له عن لوعتهم ومواسـاتهم لمصاب آل رسول الله (ص) بفقد سيـد الشهداء ورجاله وأطفاله.

ثم ألقى عليهم الإمـام علي بن الحسين (ع) خطبة تضمنت تفـاصيل ما حـدث بكربـلاء، وما حل بثقله من سلب ونهب وسبي، وأن عترة الرسـول (ص) أصبحوا غـرباء وسط الأمـة الإسلاميـة، كما أعتبر أن مـا حصل لآل رسول الله (ص) ثلمـة عظيمة في الإسلام[٣١٩].

وعاش الإمام علي بن الحسين (ع) أربعين سنة بعد إستشهاد والده قضاها باكياً، صائماً نهاره، قائماً ليلـه لم يهنأ بطعام ولا شراب[٣٢٠]. وحق له ذلك، فإن الفاجعة التي عاشها، وما ترتب عليها من ذل السلب والنهب والسبي، لا يمكن أن تزيلها الأيام من الـذاكرة. ومما ضـاعف أحزانه أنـه وجد المنازل خـالية من الرجـال الذين استشهدوا مع الإمام الحسين (ع)، ليس بها سوى نساء ثواكل وأطفال يتامى[٣٢١]. إن ما حصل لآل رسول الله (ص) وصمة عـار في جبين الأمة الإسلامية لا يمكن أن يمحوهـا الزمان وعلي بن الحسين لقب بالسجـاد وزين العابدين لأنه قضى حيـاته بعد استشهاد أبيه في العبادة فأبوه الإمام الحسين وأُمه شاه زنان بنت يزدجرد لذا كان من ألقابه ابن الخيرتين وروي أن أبا الأسود الديلمي قال فيه: [٣٢٢].

وإن غـلامـاً بين كسرى وهـاشم   لأكـرم من نيطـت عليـه التمائم

إن السيدة زينب بعد العودة من رحلة الشهادة والسبي إلى مدينة جدها واصلت نضـالها الإعلامي عن الثورة الإستشهاديـة وشرح ممارسـات الأمويين مع آل رسـول الله(ص) خلال رحلة السبي من كربلاء إلى الكوفـة ومن الكوفة إلى الشام التي بالغ أهلها في الشماتة والبهجة بما حل بآل رسـول الله (ص) حيث عاصمة الحكم الأموي دمشق، وذلك بسرد الأحـداث في التجمعـات النسـائيـة التي كـانت تعقـد بـدور الهاشميين الخالية، وظلـت على هذه الحال، وفيَّة لتبليـغ رسالة الإستشهـاد، حتى قضت نحبها في المدينـة ودفنت في البقيع[٣٢٣]، بعد أن قامت بـدور طليعي لخدمة الدين.

١٢ ـ خاتمة :

لقد هاجر النبي محمد (ص) خائفاً من مكة إلى المدينة ليقيم دولة النبوة، كذلك كانت هجرة حفيده وسبطه الإمام الحسين خائفاً أثناء خروجه من مكة إلى كربلاء، ولكن خوفه ليس على نفسه وإنما خشية أن تهتك حرمات الله، فكانت هجرته إلى كربلاء من أجل تقويم الإعوجاج والإنحراف الذي حل بدولة جده نتيجة تسلط أعداء الرسول الذين حاربوا دولته بالأمس بكل جبروتهم. لقد تسللوا داخل دولة النبوّة بعد استسلامهم في فتح مكة، حتى تمكنوا من تأسيس سلطنة قريش التي حققت ما عجزوا عن تحقيقه في العهد النبوي.

إن سلطنة قريش التي أسسها الطلقاء وأبناء الطلقاء في دمشق هي أول نظام للحكم الوراثي القبلي في الإسلام، وكانت البداية لتوجهات الحكم القطري وتمزيق أوصال دولة النبوّة منذ صراع معاوية بن أبي سفيان مع الإمام علي بن أبي طالب حيث أخفى أطماعه في الملك خلف قميص عثمان الذي طالب بدمه دهاءً ومكراً. رجال سلطة الخلافة رفضوا أن تجتمع النبوّة والخلافة في بيت النبي (ص) ولكن لم يعارضوا تأسيس سلطنة قريش في دمشق التي باركوا ومهدوا لإنشائها منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر. آل رسول الله يقصون عن قيادة الأمة، وتكون القيادة لمن استسلم في فتح مكة. أئمة الهدى ومن سار على دربهم يطاردون بواسطة فراعنة الأمة من آل أمية وآل مروان وآل مخزوم، وحامي حمى الإسلام علي بن أبي طالب شتم وآله على منابر المسلمين مدة الحكم الأموي عدا فترة حكم العبد الصالح عمر بن عبد العزيز. وآل رسول الله (ص) وأنصارهم يبادون في كربلاء وتسبى وتسلب وتنهب نساؤهم وأطفالهم ويطاف بهم من بلد إلى بلد، فهل من العدل أن يحدث كل هذا في دولة النبوّة والمسلمون بمسمع وبمنظر؟ أهكذا يكون جزاء رسول الله(ص) وحفظ عهده في ذريته؟ لا ليس من العدل أن يحدث كل هذا، ولكنه الإسلام السلطوي وليس النبوي إنه الإسلام المظهري وليس الإسلام الجوهري، إنه الإسلام الشكلي وليس الإسلام الحقيقي. إنه الملك، فمن أجل سلامته يرخص

الابن عند أبيه فيفنيه اذا نازعه فيه.

نعم لقد حوّلت سلطنة قريش من مقرّها في القصر الأخضر الإسلام إلى أفيون. أفرغته من مضمونه وطوّعته كوسيلة من سائل توطيد الحكم، وما أكثرها. وأُتُّخِذَ ذلك الأُسلوب سُنَّة في دولة النبوَّة عبر تعاقب العصور والأجيال.

الإمام الحسين (ع) وأنصاره جعلوا دماءهم درساً وأرواحهم قرباناً لتقويم الدين وتفجير عروش الظالمين، فكانت تلك التضحية رسالة مقدسة لكل أمم الأرض لتتعلم كيفية مواجهة الظالمين والمستبدين. وزينب التي حملت رسالة التضحية والإستشهاد إلى العالم وبلغتها بأمانة الوصي على تلك الثورة الإستشهادية، ووقفت بشموخ ثاكلة الولد والأخوان وكل الأهل تقض عروش الطواغيت في عقر دارهم في القصر الأبيض بالكوفة، وفي القصر الأخضر بدمشق تقرعهم بكلمات بركانية بالفصاحة والبلاغة التي تعلمتها من سيد العرب والدها تبلغ أمم العالم عبر ابن زياد ويزيد كيف يجب أن يواجه الظالم. رسمت مع أخيها طريقاً لعشاق المبادىء التي شيَّد جدها عليها دولته وهي الحرية والحق والعدالة والمساواة. هذا بالإستشهاد في ملحمة كربلاء وهذه بالكلمة في رحلة السبي، فخلدت محبتها في قلوب السائرين على درب الأئمة وعشاق الحرية والفضيلة في كل زمان ومكان. إنها بحق نموذج فذ للمرأة الرسالية في دولة النبوة.

هوامش الفصل الثالث

(١) المجلسي: المرجع السابق، جـ٤١، ص٥٤.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه: ص ٣٩ـ٤٠؛ أيضاً ابن طولون: نوادر المخطوطات (الأئمة الإثني عشر) ص ٥١.
(٤) المجلسي: نفس المرجع، ص ٢٦.
(٥) الشهرستاني: الملل والنحل، ص ٥٧.
(٦) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، جـ٩، ص ٤٩٥.
(٧) نفسه: ص ٤٩٦.
(٨) الأرشية: الحبال.
(٩) الطَّوِيّ: البئر المطوية بالحجارة.
(١٠) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد ١، ج ١، ص ٧١.
(١١) ابن حجر: المرجع السابق، جـ١، ص ١٥٢؛ أيضاً، الطبري: المرجع السابق، ص ٢٠.
(١٢) البحراني: المرجع السابق، ص ١٥٩.
(١٣) نفسه: ص ١٦١ـ١٦٢.
(١٤) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٣؛ أيضاً الطبري: نفس المرجع، ص ٨٣.
(١٥) المجلسي: نفس المرجع، جـ٤١، ص ١٤١؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٦ـ١٢٧.
(١٦) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٤، جـ١٧، ص ١٣٣.
(١٧) المجلسي: نفس المرجع، جـ١، ص ١٤٠ـ١٤١.
(١٨) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٢؛ أيضاً، الطبري: نفس المرجع، ص ٧٧ـ٧٩.
(١٩) سورة الجن: ٢٧.
(٢٠) البياضي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٧.
(٢١) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، جـ١٠، ص ٥٦٨.
(٢٢) المجلسي: نفس المرجع، جـ٤١، ص ١٤٦.
(٢٣) نفسه.
(٢٤) البياضي: نفس المرجع، جـ٢. ص ٨٥.
(٢٥) المجلسي: نفس المرجع، جـ٤١، ص ٦٩.
(٢٦) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٢؛ أيضاً، الطبري: نفس المرجع، ص ٧٠.
(٢٧) سورة النحل: ٨٣.
(٢٨) المجلسي: نفس المرجع، جـ٣٧، ص ١٦٦.
(٢٩) الجزائري: المرجع السابق، جـ١، ص ١١٤.
(٣٠) المفيد: تصحيح إعتقاد الإمامية، ص ٢٢.
(٣١) العاملي، بهاء الدين محمد: المرجع السابق، ص ١٦٩.
(٣٢) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢١؛ أيضاً، الطبري: نفس المرجع، ص ٦٣ـ٦٤.
(٣٣) سورة النمل: ٦٠ـ٦٤.

(٣٤) مناقب آل أبي طالب ، جـ ١ ، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥ ، عن المجلسي : نفس المرجع ، جـ ٤١ ، ص ١٧ ـ ١٨ .
(٣٥) نافجا حضنيه : إمتلأ بطنه طعاماً .
(٣٦) نثيله : روثه .
(٣٧) يخضمون : يأكلون بنهم .
(٣٨) انتكث : انتقض .
(٣٩) أجهز عليه عملُه : قتله سوء صنيعه .
(٤٠) كبت به بطنته : أسقطه الإسراف في الشبع .
(٤١) ابن أبي الحديد : نفس المرجع ، مجلداً ، جـ ١ ، ص ٦٦ .
(٤٢) نفسه ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ؛ مجلد ٢ ، جـ ١٠ ، ص ٥٣٧ .
(٤٣) الجزائري : نفس المرجع ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .
(٤٤) ابن أبي الحديد : نفس المرجع ، مجلد ٢ ، جـ ١ ، ص ٢١ .
(٤٥) الأمين : المرجع السابق ، مجلد ٧ ، جـ ٣٣ ، ص١٣٧ ؛ أيضاً ، الكاشي : مأساة الحسين بين السائل والمجيب ، ص ٢٤٩ .
(٤٦) الأمين : نفس المرجع ، مجلد ٧ ، جـ ٣٢ ، ص ١٣٦ ؛ أيضاً ، الطبري : نفس المرجع ، ص ١٦٧ .
(٤٧) الأمين : نفس المرجع ، مجلد ٧ ، جـ ٣٢ ، ص ١٣٦ .
(٤٨) ينثالون عليّ : ينصبُّون عليّ كإنصباب الماء .
(٤٩) إنشق عطفاي : إنشق جانباً ثوبي من كثرة إزدحام الناس .
(٥٠) ابن أبي الحديد : نفس المرجع ، مجلد ١ ، جـ ١ ، ص ٦٧ ؛ أيضاً ، الجزائري : نفس المرجع ، ص ١١٨ .
(٥١) الشرقاوي : علي إمام المتقين ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ، ١٣٩ ، ٢٤٠ .
(٥٢) نفسه : ص ٢٥ .
(٥٣) ابن أبي الحديد : نفس المرجع ، مجلد ١ ، جـ ١ ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٥٤) ابن حجر : نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٦٦ .
(٥٥) ابن أبي الحديد : نفس المرجع : مجلد ١ ، جـ ١ ، ص ٦٧ .
(٥٦) الشرقاوي : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ .
(٥٧) ابن طولون : نفس المرجع ، ص ٥٢ .
(٥٨) الشرقاوي : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٢٩٣ ؛ أيضاً ، جرداق : على وحقوق الإنسان (الامام علي صوت العدالة الانسانية) ، جـ ١ ، ص ٧٧ .
(٥٩) الشرقاوي : نفسه .
(٦٠) جرداق : نفس المرجع ، ص ٧٧ .
(٦١) الشرقاوي : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٣٩ .
(٦٢) ابن أبي الحديد : نفس المرجع ، مجلد ٢ ، جـ ٩ ، ص ٤٦٦ .
(٦٣) نفسه ، مجلد ١ ، جـ ١ ، ص ٧٩ .
(٦٤) نفسه : مجلد ١ ، جـ ٤ ، ص ٣٤٧ .
(٦٥) نفسه : ص ٣٥٥ .

(٦٦) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٢٦؛ أيضاً، ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ١، ج ٤، ص ٣٦٤.
(٦٧) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٤، جـ١٧، ص ١١٩ ـ ١٥٨.
(٦٨) الشرقاوي: نفس المرجع، جـ٢، ص ٢٦٩.
(٦٩) نفسه: ص ٢٧٣.
(٧٠) نفسه: ص ٣٨٠.
(٧١) نفسه.
(٧٢) نفسه، ص ٣٤٤.
(٧٣) نفسه: ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(٧٤) نفسه: ص ٩٦، ١٢٧.
(٧٥) نفسه: ص ٢٣٣.
(٧٦) نفسه: ص ٢٢٩ ـ ٢٣٤.
(٧٧) نفسه: ص ٧٨.
(٧٨) نفسه: ص ٢٣٣.
(٧٩) Gihàd and shahàdat, ed, Mehdi Abedi 8c Gary Legenhausen, PP.186 - 187.
(٨٠) ابن حجر: نفس المرجع، جـ٢، ص ٢٤.
(٨١) نفسه: ص ١٩.
(٨٢) نفسه، جـ١، ص ٩٩؛ أيضاً الشرقاوي: نفس المرجع، جـ٢، ص ٢٧٣.
(٨٣) الشرقاوي: نفسه، ص ٣٤٢.
(٨٤) سورة الإسراء: ٦٠.
(٨٥) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، جـ٩، ص ٤٦٦.
(٨٦) نفسه: ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع: جـ٢، ص ٥٣.
(٨٧) سورة القدر: ٣.
(٨٨) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، ص ٤٦٧.
(٨٩) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٨١، صححه الحاكم.
(٩٠) نفسه: صححه الحاكم.
(٩١) سورة الأحقاف: ١٧.
(٩٢) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٨١؛ أيضاً ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ٢، جـ٦، ص ٥٥.
(٩٣) سورة البقرة: ١٧٩.
(٩٤) سورة الأحزاب: ١٠ ـ ١١.
(٩٥) الاصفهاني: بيان في خلافة النبي، ص ٩.
(٩٦) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٢٨، أيضاً، ابن طولون: نفس المرجع، ص ٦٤ ـ ٦٥؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٩٧) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٢٨.

(٩٨) نفسه: ص ٣٠.
(٩٩) ملا علي، محمد: تكفير المكفرين، ص ١١.
(١٠٠) نفسه.
(١٠١) الشرقاوي: نفس المرجع، جـ١، ص ٣١٨ـ ٣٢٠، جـ١، ص ١٢٧.
(١٠٢) مناظرة بين الغروي والهروي ومجادلتهما في أمر الخلافة حال إجتماعهما بمشهد الإمام الرضا بمدينة مشهد في إيران، ص ٦٠؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٢٣.
(١٠٣) ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد ١، جـ٤، ص ٣٤٨.
(١٠٤) نفسه: ص ٣٥٥.
(١٠٥) ابن حجر: نفس المرجع، جـ٢، ص ٢٨.
(١٠٦) نفسه: ص ٦٣.
(١٠٧) العاملي: تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٠.
(١٠٨) الحلي: اللهوف على قتلى الطفوف، ص ١٥ـ ١٦؛ أيضاً، الشيرازي: كلمة الإمام الحسن، ص ٢٥.
(١٠٩) العاملي: تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٠.
(١١٠) نفسه؛ أيضاً القرماني: أخبار الدول وآثار الأُول في التاريخ، ص ١٠٦.
(١١١) العاملي نفسه.
(١١٢) نفسه.
(١١٣) نفسه.
(١١٤) نفسه.
(١١٥) ابن طولون: نفس المرجع، ص ٧١، قال الترمذي: حديث حسن؛ أيضاً، ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ١٩٢.
(١١٦) Gihad and Shahàdat, P.174.
(١١٧) خالد: أبناء الرسول في كربلاء، ص ٩١ـ ٩٣؛ أيضاً، العسكري: معالم المدرستين، المجلد الثالث، ص ٤٥.
(١١٨) العسكري: نفسه، ص ١٨.
(١١٩) ابن حجر: نفس المرجع، جـ١، ص ٢٢١.
(١٢٠) نفسه: جـ٢، ص ٢٥.
(١٢١) نفسه: جـ١، ص ٢٢١.
(١٢٢) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣١.
(١٢٣) العسكري: نفس المرجع، ص ٤٥؛ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ١٣؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، ابن قتيبة الدنيوري: الإمامة والسياسة، جـ١، ص ٢٢٤ـ ٢٢٦.
(١٢٤) الحلي: نفس المرجع، ص ١٥؛ أيضاً العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٤٦؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ٩٥.
(١٢٥) يقصد الإمام الحسين بالفتح نُبوَّة محمد (ص) مؤسس دولة النُّبوَّة. أما الختم فهو بالإمام الحجة المنتظر محمد ابن الحسن الإمام الثاني عشر آخر أوصياء وخلفاء رسول الله (ص)، وهو ختام دولة النبوَّة.
(١٢٦) الحلي: نفس المرجع، ص ١٤؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٤٦.

(١٢٧) القرماني: نفس المرجع، ص ١٠٧؛ أيضاً ابن حجر: نفس المرجع، جـ ١، ص ١٩٤؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٦ ـ ٤٤؛ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ١٦ ـ ١٧.

(١٢٨) العسكري: نفس المرجع، ص ٤٧.

(١٢٩) نفسه: ص ٤٨.

(١٣٠) نفسه: ص ٥٠.

(١٣١) نفسه: أيضاً، الحلي، نفس المرجع، ص ١٨؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ٩٦.

(١٣٢) خالد: نفسه.

(١٣٣) العسكري: نفس المرجع، ص ٥١.

(١٣٤) سورة القصص: ٢١.

(١٣٥) العسكري: نفس المرجع، ص ٥١.

(١٣٦) سورة القصص: ٢٢.

(١٣٧) الحلي: نفس المرجع، ص ١٩؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي، نفس المرجع، ص ٣٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.

(١٣٨) الحلي: نفس المرجع، ص ٢١؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.

(١٣٩) المقصود بالشيعة هنا الموالون لأهل البيت النبوي.

(١٤٠) الحلي: نفس المرجع، ص ١٩ ـ ٢٠.

(١٤١) والي الكوفة منذ عهد معاوية، وهنا يوضح كاتبوا الرسالة مقاطعتهم للوالي الأموي، وتلك المقاطعة تعني عدم إعترافهم بسلطة الأمويين على الكوفة.

(١٤٢) الحلي: نفس المرجع، ص ٢٠ ـ ٢١؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.

(١٤٣) العسكري: نفسه.

(١٤٤) نفسه.

(١٤٥) نفسه.

(١٤٦) الحلي: نفس المرجع، ص ٢١ـ ٢٢.

(١٤٧) نفسه.

(١٤٨) خالد: نفس المرجع، ص ١٠٦ ـ ١٠٧؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ٢٢، أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٣.

(١٤٩) الحلي: نفس المرجع، ص ٢٢.

(١٥٠) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٣ ـ ٥٤.

(١٥١) الحلي: نفس المرجع، ص ٢٢ ـ ٢٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٤؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٠٨.

(١٥٢) العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٣ـ ٣٤؛
أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ٢٩ ـ ٣٧؛
أيضاً العسكري: نفس المرجع، ص ٥٤ ـ ٥٥؛
أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١١٤ ـ ١١٥.

(١٥٣) الحلي: نفس المرجع، ص ٣٧_٣٨.
(١٥٤) نفسه: ص ٣٢_٣٣.
(١٥٥) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٥؛ أيضاً،
الحلي: نفس المرجع، ص ٣٨؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١١٩.
(١٥٦) خالد: نفسه، ص ١١٤_١١٥.
(١٥٧) الحلي: نفس المرجع، ص ٣٦.
(١٥٨) نفسه.
(١٥٩) نفسه، ص ٣٨؛ أيضاً، العاملي، تاج الدين بن علي: نفس المرجع، ص ٣٤.
(١٦٠) الحلي: نفسه، ص ٢٣_٢٧؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١١٠_١١١.
(١٦١) خالد: نفسه، ص ٩٦.
(١٦٢) نفسه، ص ١١٩؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٥٦.
(١٦٣) الحلي: نفس المرجع، ص ٤٠؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٤_١٢٥.
(١٦٤) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٦.
(١٦٥) سورة الصَّافّات: ١٠٧.
(١٦٦) الجزائري: نفس المرجع، ص ١٣٥_١٣٦.
(١٦٧) نفسه.
(١٦٨) الحلي: نفس المرجع، ص ٤١.
(١٦٩) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٦_٥٨؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٠_١٢٤، أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ١٩، ٣٩_٤٠.
(١٧٠) الحلي: نفسه، ص ١٩.
(١٧١) نفسه، ص ٣٩_٤٠.
(١٧٢) نفسه، ص ٤٢؛ أيضاً، كامل الزيارة ص ٧٥ باب ٧٥، عن العسكري: نفس المرجع، ص ٥٨، ويذكر مصدر العسكري (كامل الزيارة) إن كتاب الإمام الحسين آل بني هاشم هو نفس النص ويختلف فقط في عنونته: «إلى محمد بن علي ومن قبله من بني هاشم...» كما يختلف في وقت إرساله عن الحلي. ففي حين ينص كامل الزيارة مصدر العسكري على إرساله قبل خروج الحسين من مكة إلى العراق بفترة، يذكر الحلي أنه تم إرساله خلال خروج الحسين من مكة.
(١٧٣) العسكري: نفس المرجع، ص ٥٨_٥٩.
(١٧٤) الحلي: نفس المرجع، ص ٣٩.
(١٧٥) تاريخ الطبري ٦/ ١٩١، عن العسكري: نفس المرجع، ص ٥٢.
(١٧٦) البلاذري: أنساب الأشراف، القسم الرابع، جـ١، ص ٢٩٩.
(١٧٧) كتاب عبد الله بن سبأ ج١، فصل إستلحاق زياد، عن العسكري: نفس المرجع، ص ٦٢.
(١٧٨) خالد: نفس المرجع، ص ١٢٦.
(١٧٩) الحلي: نفس المرجع، ص ٤٦_٤٧؛ أيضاً العسكري: نفس المرجع، ص ٦٤.
(١٨٠) العسكري: نفسه، ص ٦٢؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٦.
(١٨١) العسكري: نفسه؛ أيضاً، خالد: نفسه، ص ١٢٧.

(١٨٢) الحلي: نفس المرجع، ص ٤٥.
(١٨٣) نفسه، ص ٤٥ـ٤٦.
(١٨٤) نفسه، ص ٤٧ـ٤٨؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٦٥ـ٦٨ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٧ـ١٢٨.
(١٨٥) الحلي: نفسه، ص ٤٨.
(١٨٦) الأمين: المرجع السابق، مجلد ١، جـ٤، ص ٥٨١.
(١٨٧) الحلي: نفس المرجع، ص ٤٨ـ٥٠؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٢٩ـ١٣٠.
(١٨٨) الحلي: نفسه، ص ٥٠.
(١٨٩) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٣٤.
(١٩٠) الحلي: نفسه، ص ٢٣.
(١٩١) خالد: نفس المرجع، ص ١٣٣.
(١٩٢) نفسه: أيضاً، الحلي: نفسه، ص ٥٠ـ٥١؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ٦٩.
(١٩٣) الحلي: نفسه، ص ٥٠؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٣٣؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٦٩.
(١٩٤) الحلي: نفسه. ص ٥١؛ أيضاً، خالد: نفسه، ص ١٣٤ـ١٣٥.
(١٩٥) العسكري: نفسه، ص ٧١ـ٧٢، أنظر ملحق ٦.
(١٩٦) الحلي: نفسه، ص ٥١ـ٥٢؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٧٢.
(١٩٧) الحلي: نفسه، ص ٥٢؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٧٢.
(١٩٨) العسكري: نفسه.
(١٩٩) نفسه: ص ٧٢ـ٧٣.
(٢٠٠) نفسه، ص ٧٣.
(٢٠١) نفسه: ص ٧٣ـ٧٤.
(٢٠٢) الحلي: نفس المرجع، ص ٥٢؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٧٧.
(٢٠٣) الحلي: نفسه، ص ٥٣.
(٢٠٤) العسكري: نفس المرجع، ص ٧٧؛ أيضاً ابن حجر: المرجع السابق، جـ١، ص ١٩٣.
(٢٠٥) ابن حجر: نفسه، جـ١، ص ١٩٦ـ١٩٧.
(٢٠٦) العسكري: نفسه، ص ٧٧؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٣٧؛ أيضاً، ابن حجر: نفسه، جـ١، ص ١٩٣؛ أيضاً القرماني: المرجع السابق، ص ١٠٧.
(٢٠٧) كامل الزيارة لإبن قولوية، ص ٧٥، باب ٢٣، عن العسكري، نفسه، ص ٧٧.
(٢٠٨) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٣٤ـ٦٦؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٦٦.
(٢٠٩) العسكري: نفسه، ص ٨٣؛ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ٥٦.
(٢١٠) خالد: نفسه، ص ١٥٠.
(٢١١) الكاشي: المرجع السابق، ص ٧٠ـ٧١.
(٢١٢) العاملي تاج الدين، نفس المصدر ص ٣٤.
(٢١٣) العسكري، نفس المرجع ص ٨٢؛ أيضاً خالد، نفس المرجع ص ١٤٤.
(٢١٤) أنظر ملحق ٦.

(٢١٥) أنظر ملحق ٧ .
(٢١٦) أنظر ملحق ٩ .
(٢١٧) الحلي : نفس المرجع، ص ٦٩ ـ ٧٠، أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
(٢١٨) خالد: نفسه، ص ١٦٣ .
(٢١٩) أنظر ملحق ٨ .
(٢٢٠) الحلي : نفسه، ص ٦٠ ـ ٦٢؛ أيضاً، العسكري : نفس المرجع، ص ٩٠ ـ ٩١، أيضاً، خالد. نفسه، ص ١٥٦ ـ ١٥٨ .
(٢٢١) الحلي : نفسه، ص ٦٢ .
(٢٢٢) نفسه، ص ٥٩ ؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٨٩ ؛ أيضاً، خالد: نفسه، ص ١٥٢ .
(٢٢٣) الحلي : نفسه، ص ٥٩ ؛ أيضاً، العسكري : نفسه، ص ٨٨ .
(٢٢٤) نفسه، ص ٥٣ ؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ٩١ .
(٢٢٥) الحلي : نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٤ ؛ أيضاً، العسكري : نفسه، ص ٩١ ـ ٩٢ .
(٢٢٦) نفسه، ص ٦٢ ـ ٦٣ .
(٢٢٧) سورة البقرة : ١٨ .
(٢٢٨) سورة البقرة : ٧ .
(٢٢٩) الحلي : نفس المرجع، ص ٦٧ .
(٢٣٠) نفسه .
(٢٣١) العاملي، تاج الدين بن علي : نفس المرجع، ص ٣٤ ـ ٣٥ ؛ أيضاً، الحلي : نفسه، ص ٨٠ ـ ٨١ .
(٢٣٢) الحلي : نفسه، ص ٨٩ .
(٢٣٣) نفسه ؛ أيضاً، القرّماني : المرجع السابق، ص ١٠٨ .
(٢٣٤) الحلي : نفسه، ص ٨٩ ـ ٩٠ .
(٢٣٥) نفسه، ص ٩٤ ؛ أيضاً، العسكري : نفس المرجع، ص ١٣٧ ؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٤٧ .
(٢٣٦) الحلي : نفسه، ص ٩١ ـ ٩٢ .
(٢٣٧) العسكري : نفس المرجع، ص ١٥٢ .
(٢٣٨) مناظرة بين الغروي والهروي : ص ٦١ .
(٢٣٩) نفسه : ص ٦١ ـ ٦٢ .
(٢٤٠) نفسه : ص ٦٢ ـ ٦٣ .
(٢٤١) ابن قتيبة الدينوري : المرجع السابق، جـ ٢، ص ١٢ ؛ أيضاً، العسكري : نفس المرجع، ص ١٢٢ ـ ١٣٤ ؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٧٤ ـ ١٧٦ .
(٢٤٢) العسكري : نفس المرجع، ص ١٥٣ .
(٢٤٣) الحلي : نفس المرجع، ص ٨٧ ـ ٨٨ .
(٢٤٤) العسكري : نفسه، ص ١٥٢ .
(٢٤٥) الكاشي : المرجع السابق، ص ١٥٦ .
(٢٤٦) نفسه، ص ٦٨ ـ ٦٩ .
(٢٤٧) الحلي : نفس المرجع، ص ٩٨ .

(٢٤٨) نفسه، ص ٩٩؛ أيضاً، ابن قتيبة الدينوري: نفس المرجع، جـ٢، ص ١٢.
(٢٤٩) الكاشي: نفس المرجع، ص ١٥٦.
(٢٥٠) الحلي: نفس المرجع، ص ٩٩.
(٢٥١) نفسه: ص ٩٢.
(٢٥٢) الكاشي: نفس المرجع، ص ٧٠.
(٢٥٣) الحلي: نفس المرجع، ص ٩٩؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٣.
(٢٥٤) الحلي: نفسه، ص ١٠٠.
(٢٥٥) نفسه.
(٢٥٦) نفسه: ص ١٠١ـ١٠٢.
(٢٥٧) نفسه: ص ١٠٢ـ١٠٣.
(٢٥٨) أنظر ملحق ١٠.
(٢٥٩) أنظر ملحق ١١.
(٢٦٠) الحلي: نفس المرجع، ص ١٠٨.
(٢٦١) أنظر ملحق ١٢.
(٢٦٢) سورة التوبة: ٣٢.
(٢٦٣) سورة آل عمران: ١٦٩.
(٢٦٤) الحلي: نفس المرجع، ص ١١١ـ١١٢؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٨٦ـ١٨٧
(٢٦٥) سورة الزّمر: ٤٢.
(٢٦٦) الحلي: نفس المرجع، ص ١١٢؛ أيضاً، خالد: نفس المرجع، ص ١٨٧ـ١٨٨.
(٢٦٧) الحلي: نفسه، ص ١١٢ـ١١٣.
(٢٦٨) نفسه: ص ١١٣.
(٢٦٩) نفسه.
(٢٧٠) نفسه: ص ١١٣ـ١١٤.
(٢٧١) نفسه: ص ١١٤.
(٢٧٢) نفسه: ص ١١٤ـ١١٧.
(٢٧٣) ابن حجر: المرجع السابق، جـ١، ص ١٩٨؛ أيضاً الكبداني: المرجع السابق، ص ٣٤٢.
(٢٧٤) ابن حجر: نفسه.
(٢٧٥) نفسه: جـ١، ص ١١٧؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٤.
(٢٧٦) الحلي: نفس المرجع، ص ١١٧؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٥٢ـ١٥٣.
(٢٧٧) الحلي: نفسه، ص ١١٧ـ١١٨.
(٢٧٨) نفسه: ص ١١٨.
(٢٧٩) نفسه: أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٤؛ أيضاً، القرماني: المرجع السابق، ص ١٠٨.
(٢٨٠) سورة الشورى: ٢٣.
(٢٨١) الحلي: نفس المرجع، ص ١٢٠؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٥.
(٢٨٢) الحلي: نفسه، ص ١٢٠ — ١٢١؛ أيضاً، العسكري: نفسه.

(٢٨٣) العسكري: نفسه، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٢٨٤) نفسه: ص ١٥٥.
(٢٨٥) الشرقاوي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٧.
(٢٨٦) نفسه: جـ٢، ص ٢٦٢.
(٢٨٧) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٨، جـ٣٨، ص ٣٧٦.
(٢٨٨) نفسه.
(٢٨٩) ابن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد ١، جـ٢، ١١٩ ـ ١٢٠؛ أيضاً، الشرقاوي: نفس المرجع، جـ٢، ص ٣٢١.
(٢٩٠) الشرقاوي: نفسه، جـ٢، ص ٣٢٢.
(٢٩١) البلاذري: المرجع السابق، القسم الرابع، جـ١، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨.
(٢٩٢) الكاشي: المرجع السابق، ص ١٥٥
(٢٩٣) نفسه.
(٢٩٤) الحلي: نفس المرجع، ص ١٢١.
(٢٩٥) مقتل الخوارزمي، جـ٢/ ٦٠ ـ ٦١، عن العسكري: نفس المرجع، ض ١٥٦.
(٢٩٦) الحلي: نفس المرجع، ص ١٢١؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.
(٢٩٧) سورة الأحزاب: ٣٣.
(٢٩٨) الحلي: نفسه، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٢٩٩) نفسه، ص ١٢٣؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٥٨.
(٣٠٠) العسكري: نفسه.
(٣٠١) نفسه.
(٣٠٢) نفسه: ص ١٦٠؛ أيضاً، الحلي: نفس المرجع، ص ١٢٤.
(٣٠٣) الحلي: نفسه؛ العسكري: نفسه.
(٣٠٤) الحلي: نفسه، ص ١٢٤ ـ ١٢٥؛ أيضاً. العسكري: نفسه، ص ١٦١.
(٣٠٥) الحلي: نفسه، ص ١٢٥ ـ ١٢٨.
(٣٠٦) نفسه: ص ١٢٨؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٦٤.
(٣٠٧) الحلي: نفسه.
(٣٠٨) نفسه: ص ١٢٩؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٣٠٩) نفسه.
(٣١٠) نفسه: ص ١٢٩ ـ ١٣٠.
(٣١١) نفسه: ص ١٣٠.
(٣١٢) أنظر ملحق ١٣.
(٣١٣) الحلي: نفس المرجع، ص ١٣٠؛ أيضاً، العسكري: نفس المرجع، ص ١٦٦.
(٣١٤) الحلي: نفسه، ص ١٣٣ ـ ١٣٤؛ أيضاً، العسكري: نفسه، ص ١٦٧.
(٣١٥) الحلي: نفسه، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٣١٦) العسكري: نفسه، ص ١٦٨.

(٣١٧) نفسه؛ أيضاً، الحلي: نفسه، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣١٨) الحلي: نفسه، ص ١٣٦.

(٣١٩) أنظر ملحق ١٤.

(٣٢٠) الحلي: نفسه، ص ١٤٥.

(٣٢١) نفسه: ص ١٤٠.

(٣٢٢) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٣٢٣) الأمين: المرجع السابق، مجلد ٧، جـ ٣٢، ص ١٤٠ ـ ليس غريباً أن يعفى قبر السيدة زينب الكبرى خوفاً من نبشه من قبل الامويين. ولها في أخفاء قبري والديها اسوة. فقد أخفي قبر امها السيدة فاطمة الزهراء وما يزال حتى الآن مجهولاً لدى الكثير من المسلمين ويستدل على مكانه يقول رسول الله (ص): «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة». ويعتقد أتباع مدرسة الامامة ان هذا المكان يضم قبر السيدة فاطمة الزهراء (ع).

أما قبر السيدة زينب الموجود في قرية راويه على نحو فرسخ من دمشق والذي يسمى مشهد الست فهو قبر السيدة زينب الصغرى المكناة بام كلثوم، بينما قبر السيدة الموجود في القاهرة فيخص السيدة زينب بنت يحيى المتوج بن الحسن الانور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب (ع).

الفصل الرابع

نماذج من نضال المرأة الرسالية في دولة النبوّة

١ ـ سُميّة بنت خباط (أم عمار بن ياسر)

٢ ـ أسماء بنت عميس.

٣ ـ بطلات أحد:

أ ـ نسيبة بنت كعب (أم عمارة)

ب ـ هند بنت عمرو بن حزام.

جـ ـ السمداء بنت قيس.

٤ ـ أسماء بنت يزيد بن السكن (أم سلمة).

٥ ـ تُماضر بنت عمرو (الخنساء)

٦ ـ سودة بنت عمارة الهمدانية (أم الخير).

٧ ـ فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية (أم البنين).

٨ ـ آمنة بنت السيد حيدر الصدر (بنت الهدى).

١ ـ سميَّة بنت خبَّاط (أم عمّار بن ياسر)

إن التاريخ الإسلامي حافل بالمناضلين والمناضلات الذين قدموا أرواحهم فداء للعقيدة والمبدأ فكانوا خير معين للأجيال، وكان إستشهادهم خير حافز للاحقين من أبناء الأمة من ناحية، ودعامة لتثبيت أركان الدين ونشره من ناحية أخرى.

ياسر وزوجته سميه وابنهما عمار أسرة نموذجية للإستشهاد، من السابقين والمؤمنين برسالة النبي محمد (ص)، تعلقوا بالدين حتى الثمالة، لذلك عشقوا الشهادة. ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العفسي المذحجي هو والد عمار، عربي قحطاني من عنس في مذحج باليمن. قدم مكة مع أخوين له هما مالك والحارث في طلب أخ لهم رابع، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة. فحالف أبا حذيفة بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم. فزوجه أبو حذيفة أمة يقال لها سميَّة بنت خباط، فأولدها عماراً، فأعتقه أبو حذيفة فمن هنا كان عمار مولى بني مخزوم[١].

أسلم ياسر وزوجته وابنهما سرّاً، ثم جاهروا بإسلامهم، ولم يكن لهم من يحميهم، فعذبهم مشركو قريش، بأن البسوهم دراع الحديد، وكانوا يتركونهم بالشمس، وحينما يحمى الحديد من حرارة الشمس تشتعل أجسامهم ناراً[٢].

وحينما سُئل ابن عباس عن تعذيب آل ياسر قال: «كان رسول الله (ص) في أول الدعوة يمر بعمار وأمه سمية وأبيه ياسر وهم يعذبون في رمضاء مكة فيقول: (صبراً آل ياسر، موعدكم (الجنة!) وكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما

يعذرون به عل ترك دينهم! إن كانوا ليضربون أحـدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستـوي جالساً، من شدة الضر الـذي به حتى أنه ليعطيهم مـا سألوه من الفتنة، وحتى يقولوا له: اللات والعزى الهك من دون الله! فيقول: نعم»[٣].

كان ياسر وزوجته سمية وابنهما عمار يتعرضون للتعذيب بشكل مستمر ويطلب منهم المشركـون الـذين يمارسـون أعمال التعذيب الـوحشيـة معهم وعلى رأسهم أبـو جهل، البراءة من محمـد (ص) ودينه، ولكنهم يـواجهونهم بـالإصرار على التمسك بعقيدتهم مستلهمين في ذلـك صبر النبي (ص) وتحمله إيذاء قـريش، ومستلهمين صبر عضيـدته السيـدة خـديجة وتضحياتها بكل مـا تملك من أجل نصرة الـدين، وتثبيت أركانه.

وقـد بلغ التعذيب من عمار مبلغـه ذات مـرة حتى أنه استسلم لما يـريد عـدوُّه، حيث سبَّ النبي (ص) وذكـر آلهتهم بخير، ثـم تـركـوه. فأتى إلى الـرسـول (ص) باكياً. فسأله الرسول قائلاً: «مـا وراءك؟» قال: «شرٌّ يا رسول الله، ما تركوني حتى نلتُ منك، وذكرت آلهتهم بخير». قال الـرسول (ص): «كيف تجدُ قلبك؟» قال: «مطمئناً بالإيمان» قـال: «فإن عادوا لك فعدلهم»[٤]. فنزلت هـذه الآية: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[٥].

رأى عمار بعينيـه تعذيب والـديه، اللـذين لم يقبلا المسـاومة على دينهما، فكـان لصبرهما أثـر عميق في نفسـه حيث تعمق إيمانـه، وصـار مـوضع إفتخـار لـرسـول الله(ص) يبـاهي به أصحـابـه، في مـواقف عديـدة. لأنـه تـربية أول شهيـدين في الإسلام. عُذبـا حتى إستشهدا دون أن تضعف نفسيهماويستسلما لإرادة المشركين. لذلـك أقدم أبو جهـل على ضرب سمية بحـربة في قلبها فقضـت نحبها في الحال. فكانت أول الشهداء، كما استشهد زوجها أيضاً في التعذيب[٦]. أنها أول المتقدمين في قافلة شهداء دين الإسلام. لقد صـار ثباتها على العقيدة والمبدأ نموذجاً يحتذى به في دولة النبوّة.

إلتحق عمار بـالمهاجـرين إلى أرض الحبشـة فراراً بعقيـدتـه فهـو من المهاجـرين الأولين، وبعدها إلى المدينة. شهد بدراً وجميع الغزوات ودافع ببسالة عن الإسلام.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾[٧] إنه عمار بن ياسر ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[٨] «إنه أبو جهل بن هشام»[٩]. وقال ابن عباس أيضاً: قال رسول الله (ص): «أن عماراً مليء إيماناً إلى مشاشه»[١٠]. وقيل: «إلى أخمص قدميه»[١١].

وروى أبو عمرو من حديث علي بن أبي طالب (ع) أن عماراً جاء يستأذن على رسول الله (ص) يوماً فعرف صوته فقال: «مرحبا بالطيب المطيب - يعني عماراً - ائذنوا له»[١٢].

وروى الأعمش عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «شهدنا مع علي (ع) صفين فرأيتُ عمار بن ياسر لا يأخذُ في ناحية ولا واد من أودية صفين إلا رأيت أصحاب محمد (ص) يتبعونه كأنه علم لهم وسمعته يقول يومئذٍ لهاشم بن عتبة: «يا هاشم تقدم الجنة تحت البارقة.

اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه

والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر[١٣] لعلمت أنّا على الحق وأنهم على الباطل ثم قال[١٤]:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيلُ الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق على سبيله

وبعدها استشهد على أيدي رجال معاوية وبذلك صدقت نبوءة الرسول في مقتله بقوله (ص): «تقتل عمارا الفئة الباغية» ثم قطع رأسه وأهدى لمعاوية[١٥]، فكان أول رأس يُهدى لمعاوية خلال محاولاته تأسيس حكم وراثي قبلي في دولة النبوّة والقضاء على خلافة علي (ع) بحد السيف.

وعندما علم الإمام علي (ع) باستشهاد عمار، بكاه وصلى عليه، وأمر بدفنه حيث استشهد[١٦].

وقال فيه الإمام علي عند استشهاده: «إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل

عمار بن ياسر ويدخل عليه المصيبة لغير رشيد، رحم الله عماراً يوم أسلم، ورحم الله عمارا يوم قتل ورحم الله عمارا يوم يبعث حياً. لقد رأيتُ عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله (ص) أربعة إلا كان رابعاً ولا خمسة إلا كان خامساً»(١٧).

نعم عمار أسلم ثم هدى الله على يديه أبويه وأخاه عبد الله الذين أسلموا بعده(١٨). هاجر الهجرتين وصلى القبلتين.

وشهد بدراً وأحداً وبيعة الرضوان وجميع الغزوات والمشاهد مع رسول الله (ص)، وأبلى بلاءً حسناً. وكان من المبرزين في الجيش الذي استمات من أجل نصرة الحق. واستمر بعد وفاة الرسول (ص) يعمل على رفع راية الاسلام ونشر مبادئه(١٩).

وحينما ثار مسيلمة الكذاب باليمامة، كان عمار أحد رجال ذلك اليوم البارزين الذي انتصر فيه المسلمون على المرتدين. روى الواقدي عن عبد الله بن عمر قال: «رأيتُ عماراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح: يا معشر المسلمين أمن الجنة تفرون أنا عمار بن ياسر، هلمّوا اليَّ، وأنا أنظر إلى أُذنه قد قطعت فهي تذبذب[كذا] وهو يقاتل أشد القتال»(٢٠).

عذبته قريش مع والديه حينما كانت تحت زعامة أبي سفيان حيث لوحظت آثار النار على ظهر عمار حتى أواخر حياته. وقتل عمار على أيدي رجال معاوية بن أبي سفيان. إنه استمرار لصراع الحق مع الباطل. كان عُمر عمار عند استشهاده أربع وتسعين سنة(٢١)، وما بكاء الامام علي (ع) على عمار ورثائه بتلك الكلمات البليغة إلا دليل مكانته العظيمة في الاسلام. لقد كان أحد صفوة رجاله القلائل الذين نذروا حياتهم لخدمة العقيدة. انه سليل سميّة وياسر.

٢ ـ أسماء بنت عميس

إحدى نساء دولة النبوّة الفاضلات ومن أوائل السابقات إلى الإسلام، حيث أسلمت قبل دخول الرسول (ص) دار الأرقم بمكة(٢٢). وهي بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم. أمها خولة بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن حرش(٢٣). زوجها جعفر بن أبي طالب (الطيار) من السابقين إلى الإسلام أيضاً. وهي إحدى النساء العشر اللواتي سماهنّ الرسول (ص) الأخوات

المؤمنات[٢٤]. قيل فيها أنها أكرم الناس أصهاراً، فمن أصهارها النبي (ص) لأنه زوج أختها ميمونة لأمها، وحمزة بن عبد المطلب زوج أختها سلمى، والعباس بن عبد المطلب زوج أختها لبابة أم الفضل[٢٥].

وحينما إزداد تعذيب مشركي قريش للمسلمين ووجد النبي (ص) نفسه عاجزاً عن حمايتهم نصحهم بالهجرة إلى الحبشة لشهرة ملكها النجاشي بالعدل. فكانوا أحد عشر رجلاً وقيل عشرة مع أربع نساء برئاسة عثمان بن مضعون وكان ذلك في رجب السنة الخامسة للبعثة النبوية الشريفة، وكانت وسيلة نقلهم سفينتين تجاريتين، حيث مكثوا شعبان ورمضان بالحبشة وعادوا إلى مكة في شوال لسماعهم نبأ إسلام قريش[٢٦]. وحين اكتشف المهاجرون الأوائل عدم صحة تلك الأنباء وإزداد تعذيب المشركين لهم أمرهم الرسول (ص) بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة وكانوا خمسة وسبعين رجلاً وقيل ثمانين ومعهم اثنتا عشرة امرأة وقيل ثماني عشرة بينهم أسماء بنت عميس وزوجها جعفر بن أبي طالب المتحدث باسمهم بأمر من النبي (ص)[٢٧].

وعاش المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة بعيداً عن الوطن فراراً من أذى قريش حيث وجدوا الدعم والعون من ملكها النجاشي على الرغم من محاولة قريش تحريضه لطردهم فباءت مكيدتهم بالفشل. وكانت قريش قد انتدبت عمرو بن العاص لهذه المهمة وحملته بالهدايا حيث رافقه عمارة بن الوليد بن المغيرة[٢٨]. ويظهر من حركة قريش تلك أنهم كانوا يحاولون أن يضيقوا الخناق على المسلمين داخل وطنهم وخارجه. ولكن الله نصر نبيه والمؤمنين به. فقد أُعجب النجاشي ببراعة جعفر وقدرته على الحجة والبرهان باستخدام الآيات القرآنية ولم يُؤمرُ الرسول (ص) على وفد المهاجرين المسلمين إلا لمعرفته بالحنكة وفقهه في الدين. ولذلك أعاد النجاشي هدايا قريش إلى وفدهم[٢٩]. كما كان لإعجاب النجاشي بفصاحة وحجة جعفر في الحوار ودرايته بالدين أثر كبير في استجابته لدعوة الرسول (ص) باعتناقه الاسلام حينما سلمه عمرو بن أمية الضميري كتاب الرسول (ص) بهذا الخصوص[٣٠]. كما كتب الرسول (ص) إلى النجاشي بعد ذلك أن يزوجه رملة بنت أبي سفيان التي كانت قد أسلمت وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش ــ أخو السيدة زينب بنت جحش زوجة الرسول (ص) ــ الذي إرتدَّ عن

الاسـلام وتنصر في الحبشـة بعـد أن ولدت رملـة لـه بنتـاً تـدعى حبيبـة فكنيت بأم حبيبة(٣١).

وحينما أبلغها النجـاشي كتاب رسول الله (ص) وافقت فـوكلت خالـد بن سعيد ابن العاص بن أمية ليزوجها. فحضر مهـاجروا الحبشة من المسلمين مجلس العقد، ودفع النجـاشيُ المهر عن رسـول الله (ص) وأقام لهم وليمـة احتفاء بـالمناسبـة، كما أرسل نسـاؤه الطرف والهدايـا من طيب وغيره إلى زوجـة الرسـول (ص) المهاجـرة أم حبيبة(٣٢).

نعم، مكثت أسماء بنت عميس مع زوجها جعفر في رعـاية المسلمين المهاجرين بالحبشة بعيداً عن أهلهم وديارهم حـوالي خمسة عشر عاماً من العام الخامس للبعثة إلى العام السابع للهجرة. وهناك ولدت أسماء لجعفـر ثلاثة أولاد هم عبد الله ومحمد وعون. وقدم جعفر وزوجته أسماء وأولاده إلى المدينـة وهي الهجرة الثانية، وجميع من معه من المسلمين وكان يوم وصولهم يوم فتح خيبر في السنة السابعة للهجرة. فعانقه النبي (ص) عند قدومه وقال: «ما أدري بأيّها أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»(٣٣). وقيل أن جعفـر كان أشبـه الناس خلقـاً وخلقاً بـرسول الله (ص)(٣٤). وكان كريماً وجواداً يحب أن يصل المساكين حتى سماه الرسول (ص) أبا المساكين(٣٥).

قُتل جعفر شهيداً في غزوة مؤتة عند الكرك. وكانت في جمادي الأولى سنة ٧ هـ، وهو أول قتيل من الطالبين في دولة النبوّة حيث كان أميراً على جيش المسلمين، وقتل معه أيضاً في المعركـة زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة واحـد بعد الآخر وهما اللذان توليا أمـرة الجيش من بعده، فرزيء النبيُ والمسلمون بفقـدهم. وقد استبسل جعفر في الدفاع عن الاسلام في تلك المعركة، فقد قطعت يداه وبلغت جراحه حسبما روي في مقدم جسمه ما يزيد على تسعين جرحاً(٣٦).

أمـا مـوقف أسماء حينما وردهـا خبر استشهـاد جعفـر فقـد روي أنها قـالـت: «أصبحتُ في اليوم الـذي أصيب فيه جعفر وأصحـابه فأتاني رسـول الله (ص) ولقد هنأتُ يعني دبغتُ أربعين أهـابـاً من أدم وعجنت عجيني وأخـذت بنيَّ، فغسلتُ وجوههم ودهنتهم، فـدخل عليَّ رسول الله (ص) فقال: (يا أسماء أين بنـو جعفر؟ فجئت بهم إليـه فضمهم وشمهم، ثم ذرفت عينـاه فبكى، فقلت: أي رسـول الله لعلـه بلغك عن جعفـر شيء؟ قال: نعم: قتل اليـوم. فقمتُ أصيح فـاجتمع إليَّ

النساء، فجعل رسول الله (ص) يقول: يا أسماء! لا تقولي هجراً، ولا تضربي صدراً. ودخل على ابنته فاطمة وهي تقول: واعماه، فقال (ص): على مثل جعفر فلتبك الباكية). ثم قال اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم[٣٧] كما بشرها الرسول بكرامة جعفر عند الله وأنه جعل له جناحين يطير بهما في الجنة، وقد أخبر الرسول المسلمين، بتلك المكرمة الإلهية لجعفر[٣٨] وعاشت أسماء حزينة على فقد جعفر، ثم تزوجها أبو بكر فولدت له محمد بن أبي بكر، وبعد وفاته تزوجها علي بن أبي طالب وكان سن محمد بن أبي بكر عند وفاة أبيه نحو ثلاث سنوات، فرباه علي بن أبي طالب، فكان ربيبه وخرّيج حجره ومدرسته وفي مكانة أولاده. تعلق محمد بن أبي بكر بالإمام علي فلم يكن يعرف له أبا سواه، ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره، حتى قال الإمام علي (ع): «محمد ابني من صلب أبي بكر»[٣٩]. وقد ولدت أسماء لعلي يحيى وعوناً[٤٠].

وكانت لأسماء بنت عميس منزلة عند رسول الله (ص) لسبقها إلى الاسلام وصبرها على النأى عن الوطن، وتحمل آلام الغربة في سبيل الله وتعلقها بحب الرسول وآله إلى جانب وشائج المصاهرة فهي زوجةُ ابن عمه جعفر الذي يعتبر ثاني المصلين خلف الرسول (ص) بعد الإمام علي (ع) من الرجال، وكانت خديجة(ع) ثالثتهما [٤١]. فقد رُوي أن أبا طالب مرَّ على رسول الله (ص) وهو يصلي وعلي إلى جانبه وخديجة خلفه، فقال لإبنه جعفر الذي كان برفقته صل جناح ابن عمك، فوقف على يسار رسول الله (ص) وصلى. وانصرف أبو طالب مسروراً وهو يقول[٤٢].

إن علياً وجعفرا ثقتي ... عند ملم الزمان والكرب
والله لا أخذل النبي ولا ... يخذله من بني ذو حسب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما ... أخي لأمي من بينهم وأبي

وحفظ رسول الله (ص) لأسماء منزلتها عن طريق الإشادة بتضحياتها في مواقف عديدة. روى البخاري عن أبي موسى قال: «بلغنا مخرج النبي (ص) ونحنُ باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما ابو بُردة والآخر ابو

رُهم، في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي. فركبنا سفينة فالقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبي (ص) حين افتتح خيبر. وكان أناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ سبقناكم بالهجرة. ودخلت أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي (ص) زائرة، وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر. فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه، البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله (ص) منكم. فغضبت وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله (ص) يطعمُ جائعكم، ويعظِ جاهلكم، وكنّا في دار أونى دار البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسول الله (ص) ونحن كنا نُؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي (ص) وأسأله، والله لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيدُ عليه. فلما جاء النبي (ص) قالت: «يا نبي الله إن عُمرَ قال: كذا وكذا، وقلتُ له كذا وكذا. قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

قالت: فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالا يسألوني عن هذا الحديث، وما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي(ص). قال أبو بردة، قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وانه ليستعيدُ هذا الحديث مني»[٤٣] هكذا كان يجلُّ الرسول (ص) قدر المسلمين المناضلين والمضحين في سبيل الدين ولا فرق في ذلك عنده بين ذكور وإناث، بمثل تلك المعاملة ربى رجال ونساء دولة النبوّة. فكانوا خير نموذج للأجيال اللاحقة عبر تعاقب العصور.

إزداد تعلق أسماء وشدة حبها لأهل بيت رسول الله بعد وفاته (ص) ولازمت بيت فاطمة الزهراء لخدمتها خصوصاً في مرضها. وقد ورد ذكر النعش الذي صنعته لفاطمة الزهراء قرب موتها في الفصل الثاني، والذي يعتبر إحدى حصائل خبراتها في الحبشة من ناحية، كما يدل ذلك الخبر على ملازمة أسماء خدمة فاطمة الزهراء لحبها لها وتعبيراً عن ولائها لآل رسول الله (ص) والتزاماً بحفظ رسول الله (ص) في ذريته

وفقاً لـوصيته لـلأمة. كما ورد في الفصـل الثاني أيضـاً مشاركتهـا الامام علي (ع) في تغسيل فاطمة بعد وفاتها(٤٤). وان دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على الثقة التي نالتها أسماء عند البيت النبـوي وصدق ولائها لهم طمعـاً في مرضـاة الله. كما أن إقدام كل من أبي بكـر وبعده الامـام علي (ع) على الزواج منها يعكـس مكانتهـا العاليـة عند المسلمين لأنها هـاجرت الهجـرتين وصلت القبلتين. وأنجبت من أزواجهـا الثلاثـة وكل بنيهـا تربـوا تحت رعايتهـا لم تقنط في حق أحـد منهم. ويقال أنها لما بلغهـا نبأ استشهـاد إبنهـا محمـد بن أبي بكـر بمصر قـامت إلى مسجـد بيتهـا وكظمت حتى شخبت ثدياها دماً(٤٥).

ولا شك أن قِـدَمَ إسـلامها ومـا تحملتـه من معانـاة الاغتراب في سبيل عقيـدتها وفجيعتها باستشهاد زوجها جعفـر في ربيع شبابه إذ لم يبلغ الأربعين عاماً، وعشرتها الإمـام علي آخـر أزواجهـا كل ذلـك صقل شخصيتهـا وعمَّق إيمانها وانعكس على سلوكها في مواجهة المصائب، حيث أن ولاءهـا لأهل البيت قولاً وفعلاً جعلها تلتزم سيرتهم وتتخذهم أسوة في مواجهة محن الزمان.

وكما استشهد ابنها محمد بن أبي بكر لثباته على الولاء المطلق لأهل البيت، كذلك استشهد حفيـداها محمـد وعون ولـدا ابنها عبـد الله بن جعفر، في ملحمـة الشهادة بكربـلاء دفاعاً عن الحق والـدين والأمة. أما على الصعيـد العلمي فقد روت أسماء الحديث عن النبي (ص)(٤٦).

كانت سيرة أسماء بنت عميـس نموذجاً للمـرأة الرساليـة التي تضحي من أجل عقيـدتها وتلتـزم بأخلاقيـات تلك العقيـدة في القـول والفعل وضحت بـالنأى عن الوطن مـن أجل سلامة تلك العقيـدة. وكانت حيـاتها نموذجـاً للمسلمة الملتـزمة بشرائع دينها، ونمـوذجاً للـزوجة الصـالحة، ونموذجاً فـذاً للأم المتفـانية في رعـاية أولادها.

ولتلك السيرة العطـرة حق لها أن تكـون قـدوة لنسـاء دولـة النبـوَّة. فهي زوجـة الشهيد الطيار وجدة الشهيدين محمد وعون. إنه عطاء الإيمان العظيم لإمرأة رسالية عظيمة.

٣ ـ بطلات أحد

أولاً: نسيبة أم عمارة

ثانياً: هند بنت عمرو بن حزام

ثالثاً: السمداء بنت قيس

إن تاريخ دولة النبوّة حافل بنماذج متعددة من الشخصيات النسائية اللاتي أعطين للدين والأمة الكثير من حياتهن وقدمن النموذج الأمثل لأجيال دولة النبوّة المتعاقبة. كان حافزهن في ذلك المبادىء التي قامت عليها دولة النبوّة والمتمثلة في الحق والعدل والمساواة والحرية، التي تعتبر خلاصة للقيم الحضارية التي عرفتها البشرية من جانب وتضحيات النساء السابقات إلى الإسلام بكل شيء، وتساميهن على بهارج الحياة الدنيوية أو بمعنى آخر على الماديات من جانب آخر.

فالسيدة خديجة ضحت بكل ما تملك وهي سعيدة بذلك من أجل أن تنتصر مبادىء الدين الذي جاء به زوجها محمد (ص). وسميَّة وزوجها ياسر قدما أرواحهما قرابين من أجل انتصار نفس المبادىء، وغيرهن من السابقات إلى الاسلام نأين عن الأهل والأحبة والوطن وتحملن الكثير من الآلام في أرض الهجرة بالحبشة، مثل أسماء بنت عميس ورملة بنت أبي سفيان وغيرهن من أجل مساندة الحق ضد الباطل، وحتى تبقى كلمة الله هي العليا. إنه الذوبان في العقيدة، إنه الذوبان في ذات الله بعمق الإيمان. ولقد سجلت المرأة المؤمنة المتعالية على بهارج الحياة وزينتها مواقف خالدة خلال أشد المعارك ضراوة. وكانت معركة أحد واحدة من أهم المعارك الحاسمة في الصراع من أجل البقاء بين حزب الشيطان الذي مثلته قريش وحزب الله الذي مثله النبي محمد وأتباعه من المسلمين، حيث تعرضت فيه حياة الرسول (ص) للخطر وفرَّ العديد من المسلمين من جبهة القتال نتيجة لضعف إيمانهم وقد برزت في هذه المعركة بطولة ثلاث شخصيات نسائية يستحق أن يقف عندها التاريخ والمؤرخون لتسجيل هذه المواقف الفذة، لتتخذ منها المرأة في دولة النبوّة العبرة والقدوة والتباهي بمواقفهن بين نساء العالم. بل والتحدث عنهن بإعزاز وفخار. خاصة بالنسبة للذين يجهلون المبادىء الحقيقية التي أسس محمد (ص)

عليها دينه ودولته. ومما يؤسف له أن هذا الجهل لا يقتصر على غير المسلمين، وانما يشمل بعض المسلمين بالهوية الذين ينظرون للمرأة نظرة ترفضها حتى الأديان غير السماوية.

فكيف لا يرفض مثل تلك النظرة الدين الذي جاء خلاصة لتلك الحضارات التي عرفتها البشرية.

فعلى الرغم من فرار الكثير من المقاتلين المسلمين من معركة أحد إلا أن رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات صمدوا ونذروا أرواحهم فداء لله. فعن أنس بن مالك أنه أُتي رسول الله (ص) بعلي وعليه نيف وستون جراحة. قال أبان: أمر النبي (ص) أم سليم وأم عطية أن تداوياه فقالتا؛ قد خفنا عليه، فدخل النبي (ص) والمسلمون يعودونه ـ بعد انتهاء المعركة ـ وهو قرحة واحدة، فجعل النبي (ص) يمسحه بيده ويقول: «إن رجلاً لقى هذا في الله لقد أبلى، وأعذر، فكان يلتئم، فقال علي: «الحمد لله الذي جعلني لم أفر ولم أولي الدبر» فشكر الله تعالى له ذلك في موضعين من القرآن(٤٧)، وهو قوله تعالى: **﴿سيجزي الله الشاكرين﴾**(٤٨). **﴿وسنجزي الشاكرين﴾**(٤٩).

أما هؤلاء النساء الثلاث اللاتي برزت بطولتهن في أحد فهنَّ:

أولاً: نسيبة أم عمارة:

لم يقتصر دور المرأة خلال المشاركة في الحروب في العهد الأول لدولة النبوّة على توصيل الماء والطعام ومداواة الجرحى، ولكن لعبن أدواراً أكثر فاعلية وأكثر شجاعة وكما برزت بطولات رجالية في معركة أحد كذلك برزت بطولات نسائية. فقد نقل ابن أبي الحديد عن الواقدي قوله: «كانت نسيبة بنت كعب أم عمارة بن غزية بن عمرو قد شهدت أحداً وزوجها غزية وابناها عمارة بن غزية وعبد الله بن زيد. وخرجت ومعها شن لها في أول النهار تريد أن تسقي الجرحى، فقاتلت يومئذ وأبليت بلاء حسناً فجُرحت اثنى عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف. فكانت أم سعد بنت سعد بن الربيع تحدث فتقول دخلتُ عليها فقلت لها يا خالة: (حدثيني خبرك فقالت: خرجتُ أول النهار إلى أُحد وأنا أنظر ما يصنعُ الناس ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيتُ إلى رسول الله (ص) وهو في الصحابة والدولة [كذا] والريح للمسلمين،

فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله (ص) فجعلتُ أباشرُ القتال وأذبُّ عن رسول الله(ص) بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إلى الجراح. فرأيتُ على عاتقها جرحاً أجوف له غور. فقلتُ: يا أمَّ عمارة! من أصابك بهذا؟ قالت: أقبل ابن قميئة، وقد ولّى الناس عن رسول الله (ص) يصيح دلوني على محمد لا نجوتُ إن نجى. فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه، فكنتُ فيهم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكنه عدو الله كان عليه درعان»(٥٠).

وعن استبسال أم عمارة في قتال المشركين في أحد وتشجيعها أبناءها، روى الواقدي عن عبد الله بن زيد المازني قال: جرحت يومئذٍ جُرحاً في عضدي اليسرى، ضربني رجل كأنه الأقل ولم يعرج علي ومضى عني وجعل الدم لا يرقأ. فقال رسول الله(ص) اعصب جرحك، فتُقبل أمي إليَّ ومعها عصائب في حقويها قد أعدتها للجراح، فربطت جرحي والنبي (ص) واقف ينظر، ثم قالت: انهض يا بني فقاتل القوم، فجعل رسول الله (ص) يقول: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟» قالت وأقبل الرجل الذي ضربني، فقال رسول الله (ص) هذا ضارب إبنك، فاعترضت أمي له فضربت ساقه فبرك. فرأيتُ النبي (ص) تبسم حتى بدت نواجذه ثم قال استقدت يا أم عمارة. ثم أقبلنا نعله بالسلاح حتى أتينا على نفسه، فقال النبي (ص): (الحمدُ لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك ثارك بعينك)»(٥١).

لقد استبسلت الأسرة بكاملها من أجل إنقاذ حياة الرسول (ص) خاصة وأن وجود المرأة بينهم واستماتتها في القتال لا شك أنه يثير النخوة والحمية في الرجال، فكيف بالمرأة وهي تباشر القتال بنفسها، مما يضاعف همة الرجال خصوصاً حين الدفاع عن العقيدة.

وعن تفاصيل بعض المواقف القتالية في أحد وثبات أم عمارة روى الواقدي عن الحارث بن عبد الله قال: سمعت عبد الله بن زيد بن عاصم يقول: «شهدت أحداً مع رسول الله (ص) فلما تفرق الناس عنه دنوتُ منه وأمي تذبُّ عنه فقال: يا ابن عمارة قلتُ: نعم، قال: أرمِ، فرميتُ بين يديه رجلاً من المشركين بحجر وهو على فرس فأُصيبت عين الفرس، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه وجعلتُ أعلوهُ بالحجارة حتى لقوت عليه منها وقرا، والنبي (ص) ينظر إليَّ ويبتسم، فنظر

إلى جرح بـأُمي على عاتقها فقـال: (أمك! أمك! اعصب جرحهـا بارك الله عليكم من أهل بيت. لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان، ومقام ربيبك ـ يعني زوج أمه ـ خير من مقام فلان رحمكم الله من أهل بيت» فقـالت أمي: ادعُ لنا يا رسول الله أن نـرافقك في الجنة فقـال: (اللهم اجعلهم رفقـائي في الجنـة)، قالـت: فما أُبالي ما أصابني من الدنيا(٥٢). نعم، الرجال يفرون والمرأة تصمُـد، انه سلاح العقيدة الذي يثبت القلوب، وقوة الإيمان التي تندك عندها الجبال الرواسي، وقوة الإيمان والإقدام على التضحية تتسامـى على الموت، وتحتقره. هكذا كانت الروح، التـي حملتها النساء الرساليات بين ثنايا أضلعهنَّ في الصـدر الأول لدولة النبوَّة. إنه الثبات على العقيدة والمبدأ المرأة المؤمنة المجاهدة نسيبة في أُحد تقدم على الموت من أجل انقاذ حياة منقذ البشرية من الظلمات إلى النـور لأنها لمست عن قرب النقلة التي أحدثهـا الإسلام في حيـاتهم في شتى المجـالات. تستميت نسيبـة في انقـاذ الـرسـول (ص) مع زوجهـا وأولادهـا ليكمل رسـالتـه الإلهيـة. بينما غـالبيـة المقـاتلين المسلمين بما فيهم بعض الصحابة يفرون تاركين الرسول يواجه مصيره في لحظات الخطر والحسم، انهم يفرون خوفاً من الموت. اختلاف الدرجات الايمانية هو الفيصل، وهو المحك في الساعات الحرجة قال تعالى: **﴿قالت الأعراب آمنـا قل لم تؤمنوا ولكن قولـوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾**(٥٣).

قـوة العقيـدة تتحـول إلى شعله وهـاجـة داخل النفس البشريـة تضيء الطـريق لـلإقدام على الشهـادة وتجعل الحياة رخيصـة من أجل سـلامة المعتقـد في ساعـات الحسم. وإذا تمكنت العقيـدة مـن النفس، كـانت أعزّ من الأهـل والمال والـولـد والوطن.

وحينما سُئلت أم عمارة عما إذا كانت نساء قريش قد شاركن في قتال المسلمين يوم أحـد، قـالت كما يروي الـواقـدي: «لا والله مـا رأيت امـرأة منهن رمت بسهم ولا حجـر، ولكن رأيتُ معهـن مكـاحل ومـراود، فكلما ولى رجل أو تكعكع نـاولتـه إحداهن مروداً»(٥٤).

كما أبدت نسيبة تذمـرها من عصيان الرماة أوامر الـرسول (ص) وكان ذلك سبباً لهزيمة المسلمين وكثرة خسائرهـم البشرية بقولها: «فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ

من قبل الرماة ومعصيتهم لرسول الله (ص)»(٥٥).

ولم تقتصر مشاركة نسيبة المقاتلين المسلمين في معركة أحد ولم يدخل قلبها روع مما حدث لقوة إيمانها، ولذلك شاركت في حرب المرتدين باليمامة بزعامة مسيلمة الكذاب فسجلت موقفاً بطولياً آخر وعلى الرغم من أن يدها قد قطعت في هذه الحرب، إلا أنها لم تلتفت لذلك، إلا بعد أن إطمأنت على قتل مسيلمة الكذاب على يد ابنها زيد المازني، فسجدت لله شكراً على تخليص الأمة والدين من أحد أعداء الله الضالين المضللين(٥٦).

وقد حفظ لها عمر بن الخطاب مكانتها ومنزلتها عند رسول الله (ص) أن برها في في العطاء، وكان يقول: «سمعت رسول الله (ص) يوم أحد يقول: (ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني)(٥٧).

وهكذا قدمت نسيبة أم عمارة نموذجاً للمرأة الرسالية في دولة النبوّة من خلال الدور البطولي الذي لعبته في ساحات القتال جنباً لجنب مع أخوتها المقاتلين في جيش دولة النبوّة. إنها تستحق أن تكون قدوة في تضحياتها من أجل الدين والأمة، لأنها امرأة رسالية أعطت الدروس الحقيقية لنساء دولة النبوّة عبر الأجيال بشكل خاص ولنساء العالم بشكل عام. إن الدور الذي قامت به إنما هو نتاج التربية النبوية لنساء الأمة عبر مبادىء الرسالة النبوية من جانب والسيرة المعطاءة لنساء البيت النبوي كخديجة وفاطمة الزهراء والعقيلة زينب من جانب آخر.

ثانياً: هند بنت عمرو بن حزام:

لم تكن نسيبة وأسرتها الوحيدين، الذين قدموا مواقف بطولية في معركة أحد، فقد فجّرت مبادىء دولة النبوّة ورسالة مؤسسها في نفوس المؤمنين والمؤمنات روح التضحية والفداء. فهند بنت عمرو بن حزام وأسرتها المكونة من زوجها عمرو بن الجموح وأولادها نموذجاً آخر من نماذج أحد البطولية التي تستحق الوقوف عندها لاتخاذ العظة والعبرة واستلهام روح الاقدام والتضحية من مواقف هذه الأسرة المؤمنة المعطاءة. وهند هي أخت عبد الله بن عمرو بن حزام والد جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي الجليل(٥٨)، الذي يعتبر أول زائر لقبر أبي عبد الله الامام

الحسين(ع)، كما ورد ذلك في الفصل الثالث.

كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج كما روى الواقدي، وكان له بنون أربعة يناضلون بين يدي النبي في الغزوات كأنهم الأسود الضارية. فلما كان يوم أحد تاقت نفس عمرو إلى الشهادة فأراد قومه أن يحبسوه لسببين: الأول أن أولاده الأربعة قد التحقوا بالرسول (ص) للقتال بين يديه دفاعاً عن الاسلام(٥٩). والثاني أنه أعرج ولا حرج عليه، أي أن واجب الجهاد يسقط عنه شرعاً، لقوله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً﴾(٦٠).

فكيف كان موقفه من الحاح قومه عليه بلزوم بيته؟

إن عشق الشهادة جعله يتمرد على مقترحاتهم النابعة من عواطفهم وشفقتهم عليه كأقرباء فقال: «بخ يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم؟»(٦١). إنه يغبط أولاده على أن جهادهم سيقودهم إلى الجنة فهو لا يريد أن يكون حبيس داره، ويحظى أبناؤه بنعيم الجنان والخلود في الدارين. وقالت زوجته هند بنت عمرو بن حزام تصف حاله حين خروجه من الدار كما يروي الواقدي قائلة: «كأني أنظرُ إليه موليا قد أخذ درقته وهو يقول: (اللهم لا تردني إلى أهلي)»(٦٢).

عمرو بن الجموح رفض أن تكون عاهة العرج حائلاً بينه وبين عشقه للشهادة. تمرد على أبنائه، وعلى كبار قومه وعلى شيخوخته وعلى عاهته وذهب شاكياً لرسول الله(ص) همه، ملتمساً إذن الجهاد قائلاً: «يا رسول الله إن قومي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة»(٦٣). لقد كان رسول الله (ص) بينهم النبي والمعلم والصديق. إنها أخلاق خاتم الأنبياء والمرسلين الذي امتدح الله أخلاقه في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾(٦٤).

كان موقف الرسول (ص) من التماس عمرو بن الجموح تدريجياً فقد بيّن له الموقف الشرعي أولاً، بقوله: «أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك»(٦٥)، وحينما

لاحظ عليه رسول الله (ص) تعطشه للشهادة لأنه أبى التقيد بالحكم الشرعي بسبب عاهته توجه النبي (ص) لقومه وبنيه الذين عارضوا التحاقه بميدان القتال في أحد قائلاً لهم: «لا عليكم أن تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة»(٦٦) لقد أوضح الرسول(ص) بحنكته المرونة في تطبيق الحكم الشرعي. وبعد أن أذن له الرسول(ص) خرس خطب قومه وبنيه، والتحق عمرو بساحة القتال في أحد وقاتل يومئذ حتى رُزق الشهادة بين يدي رسول الله (ص)(٦٧).

ويقول أبو طلحة ـ شاهد عيان في معركة أحد ـ يصف الموقف البطولي لأسرة ابن الجموح قائلاً: «نظرتُ إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون ثم ثابوا وهو في الرعيل الأول. لكأنّي أنظر إلى ضلعه وهو يعرج في مشيته وهو يقول: (أنا والله مشتاق إلى الجنة)، ثم انظر إلى ابنه يعدو في أثره حتى قتلا جميعاً»(٦٨)، كما قتل أيضاً عبد الله بن عمرو بن حزام أخو هند. ثلاثة شهداء لهند: ابنها وأخوها وزوجها. كلهم تسابقوا لنيل الشهادة، وفدوا الرسول(ص) والدين والأمة بأرواحهم الطاهرة من أجل أن ينتصر الحق وتعلو كلمة الله.

ونتيجة لهزيمة المسلمين في هذه المعركة وإصابتهم بخسائر بشرية كبيرة وانتشار خبر مقتل الرسول (ص) في المدينة، توجه عدد من نساء المدينة إلى مكان المعركة مذعورات بينهن فاطمة الزهراء وعائشة كما ورد ذلك في الفصل الثاني، حيث قرب مكان المعركة من المدينة.

كانت هند واحدة من تلك النساء حيث انطلقت ببعيرها إلى مكان المعركة ورأت مصارع زوجها عمرو بن الجموح وابنها خلاَّد وأخيها عبد الله بن عمرو بن حزام، فحملت جثثهم على بعيرها وتوجهت بهم نحو المدينة لدفنهم، حتى تكون قريبة من قبور الأحبة لزيارتهم. قال الواقدي يصف هذا المشهد، وما حصل من إعجاز في نقل تلك الأجساد الطاهرة: «وكانت عائشة خرجت في نسوة تستروح الخبر، ولم يكن قد ضرب الحجاب يومئذ حتى كانت بمنقطع الحرة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي لقيت هنداً بنت عمرو بن حزام أخت عبد الله بن عمرو بن حزام تسوق بعيراً لها عليه زوجها عمرو بن الجموح وأخوها عبد الله بن عمرو بن حزام أبو جابر ابن عبد الله وابنها خلاد فقالت لها عائشة: (عندك الخبر فما وراءك؟) فقالت هند: خير أما رسول الله (ص) فصالح وكل مصيبة بعده جلل واتخذ الله من المؤمنين

شهداء ورد الله الذين كفروا بغيظهم»(٦٩).

إنها قوة الإيمان، إنها تحمل نفس الروح التي قدمتها أجساد الأحبة الذين تحملهم على بعيرها في ميدان القتال فداء للعقيدة، إنها ترد على عائشة بكل وقار وإفتخار ما دام رسول الله (ص) سالماً فكل غال يرخص من أجل الدين من أجل سلامة النبوّة، ومن أجل الأمة. إن هؤلاء الثلاثة ذخيرة غالية لهند في الحياة، لكنها تعلم أن الصرح الذي شيدوه بتلك التضحية هو خير عزاء إنه صرح الخلود في الدارين. تلك كانت رسالة هند إلى مجتمع المدينة وإلى مجتمع الأمة عبر تعاقب الأجيال أن سلامة الدين هي الحياة وأن سقوطه هو الموت الأبدي. كل حبيب يرخص من أجل الرسول(ص) لأنه يمثل كل شيء في حياة الأمة. وخطط الوثنيين أحبطها الله من خلال دماء الأمة وقرابينها. وهكذا تجلت عظمة الاسلام في خلق مثل هذه الأسرة العظيمة، هكذا جنود الله وهكذا تكون النفوس الرسالية لا فرق في العطاء والحماس العقائدي بين شيخ وشاب أو بين رجل وامرأة، والكلُّ يقدم من أجل تأسيس دولة النبوّة ومن أجل صاحب الرسالة، ومن أجل سلامة الأمة وبنائها، لتبقى العزةُ لله ولدينه ولرسوله ولأمة الحق.

وحينما سألتها عائشة عن الأجساد التي تحملها على بعيرها قالت هند: «أخي وابني وزوجي قتلى، قالت: فأين تذهبين بهم؟ قالت إلى المدينة أقبرهم بها»(٧٠). بعدها أرادت هند أن تواصل مسيرها إلى المدينة مستخدمة عبارة حل حل تزجر بعيرها وبدلاً من السير برك البعير. فقالت لها عائشة: «لثقل ما حمل» قالت هند: «ما ذاك به لربما حمل ما يحمله البعيران، ولكن أراه لغير ذلك»(٧١)، وحينما زجرت هند بعيرها قام، إلا أنه عاد وبرك حينما وجهته إلى المدينة. فاقترحت عليها عائشة أن يذهبن جميعاً إلى الرسول (ص) بأحد لإخباره بقصة البعير. فحينما وجهت هند البعير إلى أحد أسرع، فرجعت إلى أحد حتى التقت النبي (ص) فأخبرته بما كان من أمر البعير. فقال: «أن الجمل لمأمور، هل قال عمرو شيئاً حينما هم بالخروج من المنزل؟» قالت: «نعم إنه لما وجه إلى أحد استقبل القبلة ثم قال: اللهم لا تردني إلى أهلي وارزقني الشهادة». فقال (ص): «فلذلك الجمل لا يمضي، إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبرّه منهم عمرو بن الجموح، يا هند ما زالت

الملائكة مظلة على أخيك من لدن قُتِلَ إلى الساعة ينظرون أين يدفن»(٧٢).

هكذا شرح الرسول (ص) قصة الإعجاز في استجابة الله لدعاء عمرو بن الجموح العبد الصالح الذي أشاد الرسول (ص) بمكانته العالية عند الله وكذلك مكانة أخيها العالية عند الله أيضاً كما يتضح ذلك من قول رسول الله (ص) خلال حواره مع هند في أُحد هكذا يكرّم الله عباده الصالحين الذين يقدمون أرواحهم فداء لدينه وإعلاء كلمته.

وقد أمر الرسول (ص) بدفن عبد الله بن عمرو بن حزام أخو هند، وزوجها عمرو بن الجموح في قبر واحد، فقال: «إدفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد»(٧٣). ويروي الواقدي أن رسول الله (ص) مكث في قبرهم ثم قال: «يا هند قد ترافقوا في الجنة جميعاً عمرو بن الجموح بعلك وخلّاد ابنك وعبد الله أخوك». فقالت هند يا رسول الله: «فادعُ الله لي عسى أن يجعلني معهم»(٧٤). وهذا يدل على أنهم دفنوا في قبر واحد. إلا أنه يقال أن سبب دفن عمرو وعبد الله في قبر واحد أنهما مثَّل بهما كل مثلة حيث قطعت آدابهما عضواً عضواً فلا تعرف أبدانهما، لذا أمر النبي(ص) بدفنهما في قبر واحد(٧٥). وكما ينقل الواقدي عن جابر أن أباه أول قتيل من المسلمين في أحد، قتله سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السلمي، فصلى عليه الرسول (ص) قبل هزيمة المسلمين في تلك المعركة(٧٦).

لقد مثّلت هند دور المرأة المؤمنة الصابرة، دون أن تضعف وهي ثكلى، حمل بعيرها أجساد أعز الناس عندها في الحياة، لكن تبقى العقيدة عندها فوق كل إعتبار. إنها نموذج من نماذج نساءدولة النبوّة الرساليات اللواتي يقدمن من خلال مواقفهن الإيمانية في لحظات حاسمة من تاريخ دولة النبوّة وهي في طور النشأة، وهي في المهد تصارع جنود الباطل وأحزاب الشيطان، من أجل تحقيق الحياة الكريمة لكل انسان مهما كان لونه أو عرقه أو دينه. كانت هند وأسرتها من عوامل نجاح دولة النبوّة التي كانت ما تزال في المهد. في بناء الأسرة المناضلة المضحية الرسالية. إن موقفها البطولي يجب أن يكون نبراساً للمرأة المسلمة بشكل خاص لتستمد منه روح التضحية والفداء من أجل تربية أبناء في مستوى أبناء هند وزوجها

وأخيها ليكونوا عوناً وسنداً للدين والأمة والوطن.

ثالثاً: السمداء بنت قيس:

وتكررت المواقف البطولية لنساء دولة النبوّة في ملحمة الاستشهاد في أحد، حيث لم تقتصر تلك المواقف على نسيبة وهند مع أُسرتيهما، فقد سجّلت السمداء بنت قيس موقفاً بطولياً آخر دلَّ على الزخم النسائي العقائدي في تلك الفترة المبكرة من تاريخ دولة النبوّة الفتية.

كان للسمداء ولدان شاركا في تلك المعركة فخرجت منطلقة على بعيرها نحو ميدان القتال لاستكشاف خبرهما بعد أن شاعت أنباء هزيمة المسلمين أمام جيش حزب الشيطان. فقد روى الواقدي أن السمداء بنت قيس إحدى نساء بني دينار علمت باستشهاد ابنيها النعمان بن عبد عمر وسليم بن الحارث بين يدي رسول الله(ص)، فلما نُعيا إليها قالت: «فما فعل رسول الله (ص)؟» قالوا بخير هو بحمد الله صالح على ما تحبين»، فقالت: «أرونيه أنظر إليه»، فأشاروا لها إليه فقالت: «كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل»(٧٧).

نسيبة، هند، السمداء كلهن، اعتبرن أن سلامة رسول الله (ص) هي أهم شيء في الوجود عندهن، لماذا؟ لأنه يمثل أملهن في خلق دولة المبادىء لإقامة حكم الله في الأرض. إن حياة الرسول (ص) تمثل عزّهن وكرامتهن فكل عزيز يرخص من أجله. إن تلك الروح الإيمانية المتسامية على زخارف الحياة هي نتيجة تربية الرسول(ص) ومعايشتهن له ولأهل بيته وتأثرهن بأقواله وأفعاله، إنهن نماذج أصيلة لثمرة نضاله في إرساء قواعد الدين وبناء إنسان دولة النبوّة.

لم تكن تلك النماذج غريبة على من نذر حياته في خدمة الدين والأمة هو وعترته إن مواقف نسيبة وهند والسمداء إنما هو تأسياً بسيرة الرسول (ص) وأهل بيته، وفي مقدمتهن خديجة وفاطمة الزهراء وعلي والحسنين.

بعد أن وصلت السمداء بنت قيس إلى مصرع ولديها حملتهما على بعير وساقته متجهة للمدينة والتقت في الطريق بعائشة مع بعض النساء المسلمات اللاتي توجهن إلى ميدان المعركة فسألتها عائشة قائلة:

«ما وراءك؟» فأخبرتها قالت: «فمن هؤلاء معك؟» قالت أبنائي ثم ساقت جمالها نحو المدينة حيث دفنا بها[٧٨].

أثبتت كل من نسيبة وهند والسمداء إنهن رساليات تسامين بعقيدتهن وأعطين النموذج الحق والأمثل للمرأة التي تنكرت لذاتها، وأعطين الدرس لنساء دولة النبوّة عبر تعاقب أجيالها. أنه طالما كان في الأمة نساء في مستوى إيمانهن، فلن يتجرأ أحد على إنتهاك حرمة الدين، والنيل من كرامة الأمة.

إنهن نموذج مشرف يحق لدولة النبوّة أن تتباهى به ويحق لهن أن يكن القدوة الحسنة لكل امرأة حريصة على التمسك بعقيدتها. والولاء لأمتها ووطنها.

٤ ـ أسماء بنت يزيد بن السكن (أم سلمة):

إن تاريخ دولة النبوّة زاخر بنماذج عديدة للدور المشرّف الذي قامت به المرأة المسلمة في الحروب خلال العقود الأربعة الأولى من تأسيس هذه الدولة. لقد سجّلت المرأة المسلمة مواقف بطولية ومشرفة في السلم والحرب على عهد الرسول(ص) لإيمان المرأة أن دورها النضالي في دولة النبوّة يجب أن لا يقل أهمية عن دور الرجل وعطائه للدفاع عن العقيدة والأمة ونشر الاسلام في العالم لتحرير الشعوب من ظلم حكامها وجبروتهم عن طريق تطبيق مبادىء دولة النبوّة.

ففي معركة اليرموك، التي وقعت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة بين المسلمين والروم، حيث كانت حرباً طاحنة دامت أياماً عديدة، كان للمرأة المسلمة موقف بطولي يعتبر موضع افتخار لنساء دولة النبوّة بشكل خاص. منهن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصاري المكناة بأم سلمة. وإلى جانب الخطابة، التي اشتهرت بها تميزت أيضاً بالشجاعة والاقدام[٧٩].

أسلمت في السنة الأولى للهجرة فبايعت الرسول (ص) وسمعت حديثه[٨٠].

وحضرت زواج السيدة فاطمة الزهراء وقامت بخدمتها في زواجها[٨١].

تشربت أسماء بنت يزيد الأنصاري بالروح الإيمانية للبيت النبوي حيث تأثرت بسيرة السيدة فاطمة الزهراء وتحملها شظف العيش. وفي معركة اليرموك التحقت

بجيش دولة النبوّة تسقي الجنود وتضمد جراحهم مع عدد من المسلمات. وحينما اشتدت الحرب وحمي وطيسها، ورأت تساقط الشهداء من المسلمين، أبت أن تقف موقف المتفرج فانقضت على عمود خيمتها بكل ما تملك من شجاعة وغاصت في ميدان المعركة، وتمكنت من قتل تسعة من جنود الروم، وتوفيت بعد انتهاء تلك المعركة بفترة ليست قصيرة(٨٢).

إن قوة إيمانها دونما شك هو الذي دفعها لأن ترخص بحياتها من أجل نصرة إخوتها الذين يدافعون عن الدين وعن الأمة، إنّ أسماء الأنصارية نموذج من نماذج المرأة الرسالية في دولة النبوة التي قامت بدور بطولي خلّد ذكرها في تاريخ هذه الدولة، وكانت موضع تقدير ونموذجاً يحتذى ببطولتها وإقدامها وتضحيتها من أجل رفعة الدين وإعلاء شأن الأمة.

٥ ـ تماضر بنت عمرو (الخنساء):

لم تتوقف تضحيات المرأة المسلمة في دولة النبوّة خلال العقود الأربعة الأولى، لأن هذه الفترة تمثل قمة إلتزام المسلمين رجالاً ونساءً بالعقيدة ومبادىء دولة النبوة ولأنهم عاصروا الرسول (ص) وذريته وتأثروا بسيرتهم. لذا فان التضحيات مصدرها الايمان والاقتداء بسيرة الرسول (ص) وآله الذين كانوا يلتزمون بنصوص الشريعة قولاً وعملاً.

ومن المعارك الحاسمة في تاريخ دولة النبوّة في مطلع العقد الثاني من الهجرة في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب معركة القادسية بين جيش دولة النبوة وجيش الامبراطورية الكسروية في عهد يزدجرد آخر ملوك تلك الامبراطورية التي أطاح بها جيش دولة النبوّة. وقعت هذه المعركة بالقادسية بالعراق في السنة الرابعة عشرة من الهجرة. كان قائد جيش الدولة النبوية سعد بن أبي وقاص وقائد الجيش الكسروي رستم الأرمني(٨٣).

الأسباب غير المباشرة لهذه المعركة هي محاولة مد نفوذ دولة النبوّة وتوسعها لنشر المبادىء المحمدية التي قامت عليها رسالته ودولته. أما المباشرة فتعود إلى استفزازه من جانب سعد بن أبي وقاص من ناحية وامتلاكه قوة عسكرية هائلة من ناحية أخرى تفوق أضعاف قوة المسلمين. كان رسول سعد بن أبي وقاص إلى يزدجرد هو النعمان بن مقرن الذي توجه إلى المدائن يدعوه إلى الإسلام والطاعة لخليفة المسلمين،

وكانت ردود فعل يزدجرد عنيفة حيث قال للرسول المسلم. «لولا أن الرُسل لا تقتل لقتلتك»(٨٤). فأخرجه من المدائن بعد أن حمّله وقرا من التراب على رأسه، قائلاً له: «إرجع إلى صاحبك فقد كتبت إلى رستم أن يدفنه وجنده من العرب في خندق القادسية ثم لأُشغلن العرب بعدها بأنفسهم ولأُصيبنهم بأشد مما أصابهم به سابور ذو الأكتاف»(٨٥).

وحينها عاد النعمان بن مقرن إلى سعد وأخبره بما حصل له مع يزدجرد طمأنه قائلاً: «لا تخف إنّ الله قد ملكنا أرضهم تفاؤلاً بالتراب»(٨٦).

كان جيش المسلمين يتكون من بضعة وثلاثين ألفاً بينما الجيش الكسروي كان يتكون من مئة وعشرين الفاً، إضافة إلى ثلاثة وثلاثين فيلاً بينهم فيل يزدجرد الأبيض الضخم. لقد أقام رستم من جيشه لكثرة عدده بريداً بين القادسية والمدائن حيث يمكن أن تصل كلمته عن طريق نقلها من جندي إلى آخر(٨٧).

وعلى الرغم من الاستعدادات الضخمة للجيش الكسروي وتفوقه على جيش المسلمين إلا أن رستم كان كارها القتال مؤثراً الوصول إلى حل سلمي، بيد أن الحاح يزدجرد على القتال أدى لإستسلام القائد لتنفيذ رغبة الملك. ومن ضمن استعدادات رستم وخططه أنه قيّد ثلاثين ألف جندي بالسلاسل لعدم الفرار عن المواجهة(٨٨).

وحينها التحم الجيشان تمكنت الفيلة من القضاء على خيول المسلمين. وكان رد المسلمين الحاسم والحازم أن ثبت الرَّجّالة للفيلة وقطعوا خراطيمها بالسيوف فملأت ساحة القتال عواء. وكانت حصيلة الخسائر البشرية في اليوم الأول خمسمئة جندي من المسلمين ومن الجيش الكسروي الفي جندي. وكان اليوم الثاني للقتال أشدُ وطأة على الجيش الكسروي من اليوم الأول لوصول أبي عبيدة بن الجراح من الشام في ذلك اليوم على رأس جيش آخر لدولة النبوّة، فشكل الجيش الإسلامي الجديد دعماً وسنداً لجيش دولة النبوّة ورفع معنويات المقاتلين المسلمين. وكانت حصيلة ذلك اليوم من الخسائر البشرية في الصفين الفين من المسلمين، ومن الجيش الكسروي عشرة آلاف(٨٩).

أما اليوم الثالث فقد كان مهولاً على الجيشين المتحاربين لاستماتة كلّ منهما حيث

استمرت الحرب طوال النهار وطوال الليل لا ينطقون، كلامهم الهرير فسميت ليلة الهرير، إذ انقطعت أخبار المعركة عن قائدي الجيشين، وظلت الحرب مشتعلة إلى وقت ظهر اليوم الرابع. فانهزم الجيش الكسروي نتيجة إرهاقه واستبسال جيش دولة النبوّة وثباتهم بالإضافة إلى هبوب ريح عاتية، حتى تمكن جيش الاسلام من الوصول إلى سرير رستم فقتله هلال معلناً نبأ مقتله على يديه. فلم تبق لجيش كسرى عزيمة لمواصلة القتال وفروا نحو المدائن مخلفين وراءهم ثلاثين ألف قتيل، فاستولى المسلمون على أموالهم وأحمالهم الكثيرة، كما جمع جنود الاسلام الكثير من كميات الذهب والفضة، فأرسل سعد بن أبي وقاص الأنفال والغنائم إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالمدينة، وقد تلقى سعد رسالة من عمر بن الخطاب تأمره بالبقاء في موضعه وأن لا يلحق بجيش العدو المنهزم، فتمكن من تأسيس مسجد ومدينة الكوفة المعروفة اليوم التي أصبحت فيما بعد عاصمة لدولة النبوّة في عهد الإمام علي(ع)(٩٠).

في هذه الحرب السّجال شارك عدد من النساء المسلمات لإمداد المقاتلين العطشى بالماء وتضميد جراح المصابين. وكانت بينهن تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الملقبة بالخنساء، من بني سُليم، من قيس عيلان من مضر، من أشهر شاعرات العرب، وهي من بادية الحجاز في الشمال الشرقي من يثرب عاشت أكثر عمرها في العصر الجاهلي، وحينما ظهر الإسلام وفدت على رسول الله (ص) مع قومها بني سليم، وكانت تنشد الرسول (ص) شعراً فيعجب بشعرها(٩١).

تزوجت الخنساء من زوجين من قبيلتها: الأول اسمه عبد العزى بن عبد الله بن رواحة، فأنجبت له ابنها أبا شجرة عبد الله. ثم تزوجت بعد وفاته مرداس بن أبي عامر، فأولدها بنين ثلاثة هم زيد ومعاوية وعمر ثم ابنتها عمره وهي الأصغر(٩٢). أكثر شعرها جودة رثاؤها لأخويها: صخر ومعاوية اللذين قتلا في العصر الجاهلي.

ومن شعرها في رثائهما: (٩٣)

بكت عيني وحق لها العويل ... وهاض جناحي الحدث الجليل

ثم تراصل قائلة

معاوية بن عمرو كان ركني وصخراً كان ظلهم الظليل

في معركة القادسية أهدت الخنساء لجيش دولة النبوّة أبناءها الأربعة فجعلت تحمسهم وترفع من معنوياتهم للثبات في ميدان القتال دفاعاً عن الدين والأمة قائلة : «يا بني! إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إلّه غيره، إنكم لبنو رجل واحد، كما انكم بنو إمرأة واحدة، ما خنتُ أباكم، ولا فضحتُ أخوالكم، ولا هجنتُ حسبكم، ولا غيرتُ نسبكم، وقد تعلمون ما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا إن الدار الآخرة خير من الدار الفانية، يقول الله عز وجل : **﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾** ؛ فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنى والكرامة في دار الخلد والمقامة»(٩٤).

إنها تحثهم على الثبات في الجهاد لبلوغ الشهادة والفوز بنعيم الآخرة وخلود الذكر في الدنيا. أم تقذف بفلذات كبدها في لهيب الحرب المشتعلة متسامية على كل العواطف، على كل الماديات، بكل شجاعة، هكذا يكون عطاء المرأة الرسالية، تربي بنيها وذخرها في الحياة الفانية لكنها ببصيرة الإنسان المؤمن تعرف درجة الشهداء عند الله وما أعد لهم من النعيم إن حبها العظيم لهم وللدين هو الذي دفعها لأن تحمسهم من أجل الاستشهاد والاستماتة في سبيل الله ونصرة دينه.

فلما أصبح الأبناء، قصدوا مراكزهم مبكرين في ميدان القتال وساحة الشرف والشهادة، وتقدموا واحداً تلو الآخر وهم يرتجزون ذاكرين وصية أمهم العجوز، فقال الأول(٩٥):

يا إخوتي إنَّ العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة

بقالة ذات بيان واضحة فباكروا الحرب الضروس الكالحة

وإنما تلقون عند الصائحة من آل ساسان كلاباً نابحة

قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة وأنتم بين حياة صالحة

وميتة تورث غنماً رابحة

وقال الثاني(٩٦):

إن العجــوز ذات حــزم وجلــد ... والنظـــر الأوفق والـرأي الســـدد

قــد أمـرتنـا بـالسـداد والـرشـد ... نصيحـة منهـا، وبـرا بـالـولـد

فبـــاكـروا الحرب كماة في العـــدد ... إمـــا بفـــوز بـــارد على الكبـــد

أو ميتـــة تـــورثكم غنم الأبـــد ... في جنة الفردوس والعيـش الرغد

وأنشد الثالث(٩٧):

والله لا نعصي العجـــوز حـــرفـــا ... قــد أمـــرتنـا حـــربـــا وعطفـــا

نصحـــا وبـــرا صـــادقـــاً ولطفـــا ... فبــادروا الحرب الضروس زحفـــا

حتى تلفـــــوا آل كسرى لفـــــا ... أوتكشفـوهم عـن حماكـم كشفـا

إنـا نـرى التقصير منكم ضعفا ... والقتل فيكم نجـــوة وعـــرفـــا

وقال الرابع(٩٨):

لسنــــا لخنســـاء ولا لـــلاحـــزم ... ولا لعمــرو ذي السنـــاء الأقــدم

إن لم أر في الجيش جيش الأعجم ... مــاض على هــول خضـم خضرم

إمـــا لفـــوز عـــاجـل، ومغنـم ... أو لـــوفـــاة في السبيل الأكـــرم

نعم لقـد كانت كلمات أمهم مصـدر إلهام لتحمسهم ورفع معنويـاتهم القتاليـة وذلك يتضح من خلال الأبيـات التي أنشدها كل منهم. قاتلـوا قتال الأبطال حتى استشهـدوا جميعهم. إنهم خير رفـاق للعقيدة وخير الأبنـاء البـارين لأمهم ودينهم وأمتهم. لقـد كان وجـود مثل هـذه النماذج من الابطـال في جيش دولة النبـوّة بهذه المعـركـة مع الفـارق الكبير بين الجيشين في العدد والعـدة، هـو العـامل الحاسم في تحقيق النصر للمسلمين.

كيف استقبلت الخنساء نبأ استشهـاد أبنائهـا الأربعة؟ قالت: «الحمـد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجوا من ربي أن يجمعنـي بهم في مستقر رحمته». ولم تـزد على هذه الكلمات شيئاً(٩٩).

إنها تعتبر استشهـاد أبنائهـا الأربعة في سبيل العقيـدة والمبدأ ورفع راية الاسـلام شرفاً عظيماً لها. إنه الإيمان العميق. إن الخنســاء المرأة الرسالية تعـرف أن أولادها قد

خلدوا في الدارين وعاشوا الحياة الأبدية ونعيمها وحفروا أسماءهم في سجل التاريخ البشري باستشهادهم. إن ولاء الخنساء للأمة ودولة النبوّة وتمكن العقيدة من نفسها جعلها تتسامى على عواطف الأمومة وتنظر إلى استشهادهم نظرة روحانية بعيدة عن الماديات الدنيوية كحب المال والولد، فكلها زائلة، لأن هناك نصب عينيها هدفاً أغلى وأسمى يجب أن يرخص من أجله كل شيء وهو حرمة الدين وسلامة الأمة.

٦ ـ سودة بنت عمارة الهمدانية (أم الخير):

قامت المرأة الرسالية في دولة النبوّة بتسجيل مواقف بطولية في السلم والحرب رائدها في ذلك إعلاء كلمة الحق وتثبيت حكم الله في الأرض وسلاحها الايمان بصدق عقيدتها. فخلدت تلك المواقف في تاريخ دولة النبوّة بشكل خاص وفي التاريخ البشري بشكل عام. وهناك نساء في دولة النبوّة سجّلت مواقف مشرفة لنضال المرأة في السلم وفي الحرب، وكانت وسيلة نضالها الكلمة الصادقة التي تنبعث من إيمان عميق وعقيدة صادقة ترخص من أجلها كل متع الحياة الزائلة.

سودة بنت عمارة الهمدانية الملقبة بأم الخير واحدة من هؤلاء النسوة من الكوفة، فقد كان لها موقفان أحدهما في معركة صفين، والثاني في ديوان القصر الأخضر في عهد معاوية بعد استشهاد الإمام علي (ع). إمتازت سودة بالفصاحة والخطابة إلى جانب الشجاعة والإقدام، وكانت من المؤمنات المتمسكات بحب آل رسول الله وولايتهم.

فالدور الذي لعبته في صفين حيث كانت في جيش الامام علي (ع) ويوم قتل عمار بن ياسر ذُعر جيش الإمام علي (ع) فتراجعوا أمام جيش معاوية، فما كان من أم الخير إلا أن ركبت على بعيرها وصارت تخطب فيهم بصوتها الجهوري تستنهض فيهم الحمية والشجاعة بقولها:

«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة، فإلى أين تريدون رحمكم الله، أفرار عن أمير المؤمنين؟ أم فرارا من الزحف أم رغبة عن الإسلام؟ أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾(١٠٠).

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: «أللهم قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشر الرعب وبيدك يا رب أزمة القلوب فإجمع اللهم الكلمة على التقوى، وألّف القلوب على الهدى وأردد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصي الوفي والصدِّيق الأكبر، إنها إحنٌ[101] بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أُحُدية وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك بها ثارات بني عبد شمس» ثم قالت: **(فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون)**[102].

«صبراً معشر الأنصار والمهاجرين قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، وكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحُمُرٍ مستنفرة فرت من قسورة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعما قليل ليصبحن نادمين حتى تحلّ بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص. إنه والله من ضلَّ عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار».

«أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطأوا مدة الآخرة فسعوا لها، والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان لما إخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه. فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله (ص)، وزوج ابنته، وأبي ابنيه، خُلِقَ من طينته، وتفرع من نبعته، وخصه بسرِّه وجعله باب مدينته، وعلم المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين، فلم يزل كذلك يُؤيده الله عز وجل بمعونته، ويمضي على سنن استقامته لا يعرج لراحة الدأب[103]. وها هو ذا مفلق الهام ومكسِّر الاصنام، صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر، وفرَّق جمع هوزان».

«فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً وردَّة وشقاقا، وزادت المؤمنين إيماناً، قد أجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»[104].

إنها خطبة عصماء ألقتها في معركة، كانت صفحة سوداء في تاريخ دولة النبوة النضالي. فقد بلغ جيش دولة النبوّة الذي يقوده الإمام علي تسعين ألف مقاتل، بينما بلغ جيش بقية الأحزاب مئة وعشرين ألف مقاتل، يقودهم معاوية في محاولة الاستيلاء على حكم دولة النبوّة بالقوة، ضمن أول حركة انفصالية علنية عن الدولة متشبثاً بدم عثمان وقميصه. كانت كلمات أم الخير في تلك الخطبة كالسياط على مسامع المقاتلين الفارين، حيث كانت تستنفر فيهم الرجولة والشجاعة والحمية، وتدعوهم إلى الثبات، وفي الوقت نفسه كانت تحتقر جبنهم، كذلك استعرضت أم الخير الخلفية التاريخية لنضال الإمام علي (ع) منذ إسلامه بالإضافة إلى فضائله التي تجعله ثاني رجل بعد رسول الله (ص) في الدولة النبوية من جانب، والخلفية التاريخية لعداء معاوية وآله وأعوانه ضد هذه الدولة منذ تأسيسها ولا يزال من جانب آخر.

لقد كشفت أم الخير بفضل إيمانها وصدق عقيدتها الحقائق للمقاتلين وهم يمرون بأحرج اللحظات. كانت تعتقد أن واجبها الديني يحتم عليها أن تلقي تلك الخطبة، علها تتمكن من إنقاذ جيش دولة النبوّة من البلبلة، التي إجتاحته بسبب مقتل عمار بن ياسر والاشاعات التي روجها معاوية، ورددها رجاله إن علياً هو قاتل عمار وليس معاوية، بغية التعتيم على الحديث النبوي: «عمار تقتله الفئة الباغية» إن كلمات أم الخير قد أثرت في أسماع ونفوس الفارين من جيش دولة النبوّة، فعادوا مستثارين في حماسة عارمة فحملوا على جند معاوية بثبات. ذلك هو موقف أم الخير البطولي في معركة صفين ودورها الرسالي الذي لعبته من أجل حماية العقيدة والمبدأ، ومن أجل الحفاظ على تماسك جيش دولة النبوّة في ساعات الحسم.

أما موقف أم الخير في ديوان معاوية بالقصر بدمشق. فقد رُوى أنها دخلت على معاوية بعد استشهاد الإمام علي (ع)، فجعل يؤنبها على خطبتها التحريضية يوم صفين. وآل أمره إلى أن قال: ما حاجتك؟ قالت: «إن الله سائلك عن أمرنا، وما افترض عليك من حقنا، ولا يزال يتقدم علينا من قبلك من يسمو بمكانك ويبطش بقوة سلطانك، فيحصدنا حصيد السنبل، ويدوسنا دوس الحرمل[١٠٥]،

يسومنا الخسف(١٠٦)، ويذيقنا الحتف، هذا بسر بن أرطأة قدم علينا فقتل رجالنا، وأخذ أموالنا، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإن عزلته عنا شكرناك، وإلاّ كفّرناك» فقال معاوية: «إياي تهددين بقومك يا سودة، لقد هممتُ أن أحملك على قتب أشوس، فأرُدَّك إليه فينفذ فيك حكمه»(١٠٧).

فأطرقت سودة ساعة ثم قالت(١٠٨).

صلى الإلـه على روح تضمَّنهـا قبرٌ فأصبح فيـه العدلُ مـدفونـا

قد حالف الحق لا يبغـي به بدلا فصـار بـالحق والإيمان مقـرونـا

فقال معاوية: «من هـذا يا سـودة؟» قالت: هـو والله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والله لقد جئته في رجل كان قد ولاَّه صدقاتنا فجار علينا فصادفته قائماً يصلي، فلما رآني انفتل من صلاته، ثم أقبل عليَّ برحمة ورفق ورأفة وتعطّف، وقال: (ألك حاجة؟) قلتُ: نعم، فأخبرته الخبر، فبكى ثم قال: (اللهم أنت الشاهد عليَّ وعليهم، وأنّي لم آمرهم بظلم خلقك؛ ثم أخرج قطعة جلد فكتب فيه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قد جاءتكم بيِّنةٌ من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الارض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾(١٠٩).

(فإذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك، والسلام). فجئتُ بالرقعة إلى صاحبه، فانصرف عنا معزولاً فقال معاوية: (اكتبوا لها كما تريد، واصرفوها إلى بلدها غير شاكية)(١١٠).

إن موقف أم الخير في مجلس معاوية هو أكثر شجاعة وأعلى جرأة، ففي الوقت الذي امتدحت فيه سيرة الإمام علي (ع) العادلة في رعيته، أفصحت عن الظلامة التي تعيشها الأمة في عهد معاوية من خلال أمرائه على ولايات الدولة، وأن العدل قد اختفى من حياة الأمة، حيث قُبر مع علي لاقترانه به، فذلك ذم فاضح لسيرة معاوية، وهي في عقر داره بالقصر الأخضر، وهو بين حاشيته وجلاوزته.

إن موقف أم الخير في ديوان القصر الأخضر بدمشق بين يدي معاوية يعتبر نموذجاً فذاً لنضال المرأة الرسالية وإصرارها على كشف الحقيقة مهما كانت النتائج.

إنه درس لنساء دولة النبوّة عبر الأجيال، كيف يجب عليهن أن يواجهن الطواغيت والفساد. إنه استجابة وامتثال لأوامر الله ورسوله في مواجهة الجور والظلم لقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[١١١].
وقال رسول الله في الحث على الأمر بالمعروف وأهميته في حياة الأمة: «إن أفضل أنواع الجهاد، كلمة حق عند سلطان جائر»[١١٢]. تمكنت أم الخير أن تحرج وتفحم معاوية وهو في كامل سلطته وسطوه أمام حاشيته عن طريق إشادتها بعدل الإمام علي (ع) وفضح سيرة أُمرائه وتسلطهم على رقاب المسلمين، فلم يجد مناصاً من قضاء حاجتها.

٧ ـ فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية (أم البنين):

ويستمر البيت النبوي في تقديم نماذج للأمة من المضحين والمضحيات في سبيل الله وفي سبيل المبدأ والعقيدة. كانت كربلاء قمة العطاء النبوي، حتى لا ينطفىء نور الله، الرجال، والنساء، والأطفال حتى الرُّضّع منهم ساهموا في ذلك العطاء. تلك رسالتهم في الحياة الدنيا، كالقناديل يزيلون دياجير الظلام عن بصيرة وأبصار عشّاق المبادىء النبوية. وكان وقع فاجعة كربلاء أليماً على نفوس المسلمين بشكل عام والهاشميين ومن تبقى من آل أبي طالب بشكل خاص. حيث أن غالبية من بقي من الطالبيين كان من النساء والأطفال. وكانت أم البنين أعظم من فجع من بين هؤلاء النسوة. فمن هي أم البنين؟ وبمن فجعت؟

كان عقيل بن أبي طالب أحد النسابة العرب البارزين على دراية تامة بأنساب القبائل العربية، فطلب منه الإمام علي (ع) ـ في مطلع عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ أن يبحث له عن امرأة ولدتها الفحولة من العرب يتزوجها لتلد له غلاماً. فدله عقيل على فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية التي إمتاز آباؤها بالشجاعة والفروسية[١١٣].

فتزوجها الإمام علي (ع) فولدت له أربعة أولاد وهم على التوالي العباس ثم عبد الله ثم جعفر ثم عثمان ولقبت بأم البنين لأنها لم تلد بنتاً. وكلهم استشهدوا مع الإمام الحسين (ع) في ملحمة الشهادة بكربلاء. وكان العباس أكبر أولادها، فارساً مغواراً، وبطلاً شجاعاً ويكفيه فخراً إنه خريج مدرسة أبيه الإمام علي (ع) أما

شجاعته فهي امتداد لشجاعة البيتين الطالبي والكلابي. ومع أن إخوته الثلاثة الآخرين كانوا شجعاناً إلا أن شجاعته كانت أعظم لذلك كان لواء الإمام الحسين بيده يوم كربلاء(١١٤).

في ليلة العاشر من محرم سنة إحدى وستين من الهجرة حينما خطبَ الإمام الحسين (ع) رجاله كي يختبرهم وأحلهم من بيعته، وطلب منهم الإنصراف وتركه مع الجيش الأموي كي ينجو بأنفسهم من الموت.

كان العباس بن علي هو أولُ المتحدثين للرد على خطاب الإمام الحسين فقال: «ولم نفعل ذلك! لنبقى بعدك! لا أرانا الله ذلك أبداً»(١١٥).

وفي يوم العاشر حينما بدأت المعركة طلب العباس من إخوته لأمه أن يبرزوا للقتال قائلاً: تقدموا حتى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله فانه لا ولد لكم(١١٦). . . وكان العباس آخر من قتل من رجال الإمام الحسين حيث قتل بعده الأطفال، وذكر العباس ببطولته وحملاته في المعركة الجيش الأموي ببطولات أبيه الإمام علي (ع) في ساحات القتال. لذلك قال عنه الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع): «رحم الله العباس فلقد آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه»(١١٧).

كان وقع نبأ استشهادهم عظيماً على أمهم أم البنين التي كانت مع إعتزازها باستشهادهم مع أخيهم الإمام الحسين إلا أنها بكتهم حتى رق لبكائها أعداء البيت النبوي. كانت أم البنين شاعرة فصيحة. وكانت تخرج كل يوم إلى البقيع ومعها حفيدها عبيد الله ابن ولدها العباس فتندب أولادها الأربعة خصوصاً العباس الذي كانت فاجعتها به أعظم من بقية إخوته لجماله وعلمه وشجاعته. وقد سمعت أنباء نضال أبنائها واستماتتهم في الدفاع عن سبط رسول الله (ص) وعن الإسلام من زين العابدين والعقيلة زينب. وكان الناسُ يجتمعون حولها رجالاً ونساء يسمعون بكاءها ورثاءها لبنيها الأربعة فكان مروان بن الحكم على شدة عداوته لأهل البيت النبوي يجيء مع هؤلاء الناس فلا يزال يسمع رثاءها فيبكي(١١٨). فمن قولها في رثاء ابنها العباس(١١٩):

يا من رأى العباس كر ... على جماهير النقد
ووراه من أبناء حيـ ... در كل ليث ذي لبد
أُنبئت أن ابني أصيـ ... ب برأسه مقطوع يد

ويلي على شبلي أمـــــا ل بـرأسـه ضرب العمـد
لـو كـان سيفك في يـديـ كَ لما دنـا منـه أحـد

إنها تعبر عن لوعتها وثكلها بأعز الأبناء الأربعة الذي استعرضت في أبيات رثائه ما تحمله في ميدان القتال من فضخ رأسه بعمود من حديد وقطع يديه نتيجة لإستماتته واستبساله في مقاومة الأعداء بوصفه حامل اللواء. وقد اقتضت العادة أن لا يعطى اللواء إلا لأشجع الرجال المقاتلين. فهي تعبر في البيت الأخير أنه لو لم تقطع يداه وبقي السيف في يديه، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه. وكان يكنى أبا الفضل، وأبا قربة، والسقاء، لأنه كان يقتحم صفوف الجيش الأموي بالقوة ويأتي بالماء إلى أطفال الإمام الحسين ونسائه، وكنى أيضاً بقمر بني هاشم لجماله الفائق(١٢٠).

ومن رثائها لأبنائها الأربعة قولها: (١٢١).

لا تـدعـوني ويك أم البنين تـذكـريني بليوث العـرين
كـانت بنـون لي أدعى بهم واليوم أصبحتُ ولا من بنين
أربعـة مثل نسـور الـرُّبى قد واصلوا الموت بقطع الوتين
تنـازع الخرصان أشلاءهم فكلهم أمسى صريعـاً طعين
يـا ليت شعـري أكما اخبروا بأن عبـاسـاً قطيع اليمين

نعم أم البنين رثت أولادها وحزنت عليهم لا جزعاً منها ولكن لبشاعة الجريمة التي ارتكبت في حق قتلى كربلاء، حيث قطعت رؤسهم، وتركت أجسادهم دون دفن في البيداء تصهرها الشمس المحرقة ولم يدفنوا إلا في اليوم الثالث عشر، كما مر ذلك في الفصل الثالث.

إن أم البنين قدمت في ملحمة الإستشهاد بكربلاء أربعة قرابين فداء للدين من أجل أن تفيق الأمة من سباتها العميق ومن أجل أن ينقشع الظلام ويزول الصمت عن مقبرة الأحياء. لقد تعبت أم البنين في تربية أولادها تربية تليق باليوم الذي إدخرهم فيه الإمام علي (ع) ليقفوا إلى جانب أخيهم الإمام الحسين الذبح العظيم - ليدافعوا عن سبط رسول الله (ص) ويشاركوا في انقاذ الدين بدمائهم وأرواحهم.

لقد اقتطفت أم البنين ثمرة تربيتها يوم كربلاء الخالد صفحة ناصعة في جبين التاريخ البشري. إن تضحية أبنائها خلّدت ذكرها، وخلّدت دورها في اعدادهم لذلك اليوم العظيم.

إن بكاء أم البنين ورثاءها لبنيها الأربعة إنما هو جزء من الرسالة الإعلامية للإستشهاد، لفضح الجريمة وكشف الحقيقة للناس، وتذكيرهم بأحاديث الرسول (ص) عن فضائل أهل بيته وكراماتهم وتوقعاته بما يلحقهم من أذى ومطاردة وتقتيل على أيدي الأمويين والمروانيين وبني المغيرة، كما مر ذلك في الفصل الثالث.

إن أم البنين واحدة من رموز العطاء لدينها وأمتها، فهي نموذج للمرأة المؤمنة الصابرة.

٨ ـ آمنة بنت السيد حيدر الصدر (بنت الهدى):

استمر صراع الحق مع الباطل مع تعاقب العصور والأجيال في دولة النبوّة، ومع تمزق هذه الدولة إلى كيانات سياسية متعددة نتيجة الأطماع الشخصية والتطلع للسلطة من جانب واشتداد ظلم الحاكمين من جانب آخر.

وتعاقب على حكم دولة النبوّة بكياناتها الجغرافية والسياسية المتعددة أنظمة سياسية كثيرة مع انتهاء الحكم الأموي. أبرزها العباسيون والفاطميون والمماليك والصفويون والعثمانيون الذين كانت نهاية حكمهم اقتسام دولة النبوّة من قبل ما عرف بالاستعمار الأوروبي. وأبرز هذه الدول الأوروبية المستعمرة بريطانيا وفرنسا. ومع ظهور حركات التحرر بالعالم في مطلع القرن الحالي حصلت الأقطار التي خضعت للإستعمار الأوروبي القديم على استقلالها بصورة شكلية وظل النفوذ الأوروبي مهيمناً على هذه الأقطار بشكل جديد شمل الجوانب السياسية والثقافية والاقتصادية. وتمكنت دول الإستعمار الجديد ممثلة في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا من السيطرة على زمام الأمور في جميع دول العالم الثالث بشكل خاص، وبصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ومن ضمن أقطار دولة النبوّة التي وقعت ضحية للنفوذ الغربي العراق الذي يمتلك تراثاً حضارياً عظيماً، فقد شهد العراق قيام حضارات السومريين والبابليين

والكلدانيين والآشوريين، إضافة إلى خضوعه للإمبراطورية الكسروية، كما شهد نشأة الحضارة الإسلامية، فكانت الكوفة حاضرة دولة النبوّة في عهد الإمام علي (ع) وبغداد حاضرة دولة النبوّة في العهد العباسي الذي دام خمسة قرون.

ومنذ ثورة العشرين بالعراق التي تولى قيادتها رجال الدين، وشاركت فيها غالبية شرائح المجتمع العراقي في مواجهتهم لجيش الإحتلال البريطاني، وإلى اليوم لا يزال العراق يعاني من ويلات التسلط الأجنبي على الرغم من الإستقلال الشكلي للعراق منذ عام ١٩٢٣ . ومع تغير نظام الحكم في العراق من ملكي إلى جمهوري منذ الثورة الشعبية في١٤ يوليو ١٩٥٨ التي قضت على الحكم الملكي وإلى اليوم لم يشهد العراق استقراراً سياسياً، وذلك لغياب الحكم البرلماني الدستوري في العهد الجمهوري، علماً بأن العراق قد عرف الحكم البرلماني الدستوري في العهد الملكي منذ عام ١٩٢٥ . كما شهد قيام أحزاب سياسية موالية ومعارضة للحكومة.

وقد اتضح فيما بعد أن هدف تلك الأحزاب هو استقطاب العناصر الشابة والمثقفة بها لإلهائهم بشعارات جوفاء ظاهرها خدمة الوطن وباطنها إضاعة وقتهم من جانب وإضعاف نفوذ القيادة الدينية المخلصة من جانب آخر للنفوذ الواسع الذي كانت تتمتع به بين غالبية شرائح المجتمع آنذاك.

لقد عانى المجتمع العراقي خلال العهد الجمهوري الويلات منذ الإطاحة بحكم عبد الكريم قاسم في ٨ فبراير ١٩٦٣ ، حيث حكم العراق حزب البعث منذ الإطاحة بنظام قاسم إلى نوفمبر ١٩٦٣ ، وحيث لم يجن الشعب العراقي خلالها غير إراقة الدماء وتصفية الحسابات بين الحزبيين خصوصاً البعث والشيوعيون. ومنذ نوفمبر ١٩٦٣ إلى عام ١٩٦٨ حكم العراق الأخوان عبد السلام عارف ومن بعده عبد الرحمن عارف، لم يجن الشعب العراقي أي تغيير أو تقدم خلال فترة حكمهما، بل عم الفساد الإداري جميع مرافق الدولة. ثم سيطر البعثيون على حكم العراق منذ ٣٠ يوليه ١٩٦٨ ، وإلى اليوم. وقد حرص نظام الحكم الأخير في العراق على أدلجة جميع فئات الشعب بالترغيب والترهيب حتى غدا العراق سجناً كبيراً، مما اضطر عشرات الآلاف للهجرة الى جميع أنحاء العالم، خصوصاً بين صفوف المتعلمين والمثقفين والملتزمين دينياً.

ومن أبرز إنجازات نظام البعث في العراق بناء قوة عسكرية كبيرة حيث أصبحت تمثل رابع قـوة في العالم. ولم تبلغ تلك القوّة ذلك المستـوى إلا بعاملين أسـاسيين: تكنولوجيا دول أوروبـا الغربية والشرقية والصين، ودولارات النفط الخليجي، حيث انهالت عليه المساعدات المالية الضخمـة من دول المنطقة منذ اشتعال حرب الخليج الأولى في ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠ وحتى قبيل حـرب الخليج الثانيـة التي بـدأها العـراق باحتـلال الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠. وقد تمكنت حكـومة البعث من الحصول على تلك المسـاعدات من دول الخليج (السعـودية، الكويـت) عن طريق ابتـزازها وتخويفهـا من أطماع الجمهـورية الإسـلاميـة الايرانيـة التـوسعية في العهـد الجمهوري، خاصة وأنها دول صغيرة وثرية.

إن صراع الحق مع البـاطل ظل قائماً ومستمـراً بعد استشهـاد الإمام الحسين (ع) وبعد مـوت يزيـد. وإذا كان صراع هابيل وقـابيل نموذجـاً للبشرية في الصراع بين الحق والباطل، فإن كل محب للحق هابيل، وكل محب للباطل قابيل. كذلك الحال في دولة النبوّة، حيث مثل الإمام الحسين (ع) في ملحمة كـربلاء الاستشهادية وأخته زينب (ع) حـزب الله وهو حـزب الحق، بينما مثل يـزيد بجيشـه حزب الشيطـان، حزب الباطل، فأصبح كل محب للحق: عبر تعاقب الأجيال هـو استمرارية للإمام الحسين (ع) وأخته العقيلـة زينب، وأن كل محب ليزيد إنما هو استمـرار للباطل في هذه الدولة.

وكما كـان القصر الأخضر بدمشق الـذي أسسه معـاويـة بن أبي سفيان خـلال حكمه، الذي دام اثنين وأربعين عاماً وكراً لاجتثاث مبادىء الإسلام الحقة أو جوهر الإسلام أو تفريغ الإسـلام من محتواه والابقاء على الإسلام الشكلي بطقـوسه وشعائره التقليدية التي لا تمس جوهر الحيـاة، كذلك نظام البعث في العراق، الذي تمخض فولد للشعب العراقي عار العروبة والإسلام، بل عار البشرية صدّام حسين، وحّول العراق من قلعة الأحرار والحريـة إلى سجن كبير لجميع أبناء الشعب العراقي. ومن مـركز لـلإشعاع الحضـاري، يرفُـدُ الحضارة الإنسـانية بـالعطاء في جميع المجـالات ويخفف من حدة التخلف في المنطقة بشكل خاص، إلى جمهـورية للرعب والدمار، فأصبح أبناء العراق وبناته رجالاً ونساء وأطفالاً مشتتين في جميع أرجاء المعمورة شرقاً

وغرباً كما انعكست ممارسات نظام صدام بالسلب أيضاً على شتى مناحي حياة مجتمع المنطقة بشكل خاص، وعلى الإقتصاد العالمي بشكل عام منذ تولى حكم العراق بشكل مباشر في ١٧ يوليو ١٩٧٩ .

لقد فقدت العراق من أبنائها في حرب الخليج الأولى أكثر من ثلاثمئة وخمسين الف رجل، وفي الحرب الثانية والثورة الشعبية التي أعقبتها ما يزيد على أربعمئة الف قتيل من رجال ونساء وأطفال فأصبح إجمالي القتلى في الحربين حسب تقديرات الصحف الإقليمية والعالمية والمنظمات الدولية ما يزيد على سبعمئة وخمسين الفاً .

ونتيجة لذلك فان عدد الأرامل حسب التقديرات الأولية التي خلفتها الحربان والثورة الشعبية لا يقل عن أربعمئة ألف أرملة .

ولكن على الرغم من وسائل البطش التي يحكم بها دكتاتورُ العراق المجتمع العراقي، فإن البقية الباقية من أحرار العراق رفضت الصمت، وانتفضت متمردة على كل ما يمتلكه نظام العبودية من أبشع وسائل الإبادة والقمع .

فبنت الهدى نموذج فذ للمرأة العراقية بشكل عام والمسلمة المؤمنة الرسالية بشكل خاص .

فبعد مرور ألف وثلاثمائة وأربعين سنة على ملحمة الاستشهاد بكربلاء أدى المفكر الاسلامي الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر الدور الإصلاحي في الأمة الذي أنجزه الإمام الحسين (ع) كما قامت أخته الشهيدة المفكرة بنت الهدى بدور رسالي سالكة خطى عقيلة الطالبيين زينب . والصدر وأخته كان هدفهما خدمة الدين عن طريق توعية الأمة ورسم الطريق الأمثل لها للتخلص من الفساد والتحرر من النظام المتسلِّط على رقاب الأمة بصورة غير شرعيَّة، فكان مصيرهما الإعدام .

بالسلاح وحده تسلط صدام على رقاب العراقيين وبالسلاح وحده يضمن بقاءه، فلغة التحدث مع أبناء شعبه هي لغة السلاح والبطش . إنه اسلوب كل الأنظمة السياسية بالعالم التي تفتقر إلى الشرعية كما كان عليه نظام سلطنة قريش منذ بداية تأسيسه في عهد معاوية .

بنت الهدى هو الأسم الأدبي للشهيدة المفكرة آمنة بنت السيد حيدر الصدر

شقيقـة الشهيـد آيـة الله العظمى محمـد بـاقـر الصـدر وهي رفيقتـه في رحلتـه الاستشهادية . كفلهـا وأخويها الشهيد الصدر والسيـد اسماعيل أخوالها، ثم كفلها أخوها السيد إسماعيل فترة من الزمن، ثم فضلت الالتحاق بأخيها الشهيد وعاشت معه فترات صباها وشبابها وكهولتها، وقد شاء الله أن تكون شقيقته في القرابة ورفيقته في درب العقيـدة والمبـدأ، كما رافقتـه في درب الإستشهـاد وجـاور قبرهـا قبره بعـد الإستشهاد(١٢٢).

كانت بنت الهدى للشهيد الصدر كما كانت العقيلة زينب للإمام الحسين (ع)، نذرت حياتها لخدمة الدين وقضايا المرأة، وعملت على نشر الوعي الديني والسياسي في صفوف المجتمع النسـائي في العراق بشكل خـاص والمنطقة بشكل عـام، وكان الشهيـد الصـدر بالنسبـة لها الأخ والأستـاذ والمربي والصـديق. إن تفرغهـا لخدمـة العقيدة والمبدأ جعلهـا تعزف عن متاع الدنيا حتى عن الزواج على الـرغم من أنه قد تقدم لخطبتها رجال من علية القوم(١٢٣).

وقبل الإسترسال في منـاقشة الـدور الذي لعبتـه الشهيدة بنت الهدى في خـدمة قضايا المرأة والعقيـدة يلزم التعرف على لمحة مـوجزة من حياة أخيهـا الشهيد الصدر الذي صاغ شخصيتها بكل ما فيها من ملابسات.

هـو أحد كبـار مراجع ومفكـري المسلمين البارزين في العـالم. تتلمذ على يـدي الإمام الراحل آية الله الخوئي ابتـداء من ١٣٦٥ هـ إلى ١٣٧٩ هـ، حيث قضى مدة أربع عشرة سنة بـالنجف، فكان التحاقه بـالحوزة العلمية بالنجف منذ هجـرته من بغداد إلى النجف(١٢٤).

كان الشهيد الصدر فيلسوفاً وعـالماً بالاقتصاد والمنطق والتاريخ والتفسير واللغة والرجال(١٢٥) من مـؤلفاتـه التي تُـرجم بعضهـا لعدة لغـات: إقتصـادنا، فـدك في التاريخ، فلسفتنا، الأسس المنطقية لـلإستقراء، التفسير الموضوعي للقرآن، الإمام المنتظر، مشروع دستور جمهورية ايران الإسـلامية، الذي صدر في كتيب بعنوان لمحة تمهيدية في الدستور الإسلامي، الفتاوى الواضحة، ودروس في علم الأصول(١٢٦).

كما تصـدى لتجـديـد المنـاهج في مـدرسـة النجف ومشروع جـامعـة الكـوفـة الكبرى(١٢٧). كـذلك أدرك الواقـع المتخلف للمرجعيـة المعـاصرة فوضـع أطروحـة

لمشروع المرجعية الرشيدة التي تتعامل بفعالية مع آلام وآمال الأمة وتعمل جاهدة على تحقيق تطلعاتها في مرحلة صراعها مع القوى الإستكبارية[128]. كذلك كانت تصدر له مواضيع تعالج هموم الأمة بشكل عام نشرها في مجلة الأضواء التي تشرف الحوزة العلمية بالنجف على إصدارها. ثم جمعت تلك المقالات ونشرت في كتاب بعنوان «رسالتنا»، قدم له المفكر الإسلامي محمد حسين فضل الله. وللشهيد الصدر مقلدون من مدرسة الإمامة يتجاوز المليون بين رجل وامرأة من داخل وخارج العراق[129]. أسس حزب الدعوة في نهاية الستينات بعد أن لاحظ فشل الأحزاب الليبرالية في تحقيق تطلعات الأمة وحماية مكتسباتها وقد تأسست لهذا الحزب فروع في جميع أنحاء العالم بين صفوف مدرسة الإمامة، وخاصة العناصر الشابة التي استقطبتها أفكار الشهيد الصدر التي نادت وعملت على حتمية التغيير في العالم الإسلامي لإعادة الحياة للدولة النبوّية بمبادئها الإلهية[130].

هذه هي الشخصية العظيمة التي تتلمذت الشهيدة بنت الهدى على يديها، فذابت في ذات الله حيث ترفعت على كل الماديات ولعل هذا هو سر عزوفها عن الزواج، إذ اختارت أن تقضي عمرها في جوار أخيها تنهل من نمير علمه وتستضيء بأفكاره النيّرة في كفاحها من أجل توعية المرأة والنهوض بها من وحل الماديات.

هكذا نشأت الشهيدة في بيئة علمية، فتعلقت بالعلم منذ نعومة أظافرها من خلال المواظبة على القراءة وحضور الدروس في علم الفقه والعربية. وعلى الرغم من ضنك العيش الذي ألمّ بعائلتها إلا أنها كانت تحرص على توفير بعض المال لشراء الكتب حيث عملت على تبادل الكتب بينها وبين إحدى صديقاتها[131].

ونقلت والدتها أنها كانت تهتم بالقراءة والتركيز كما كانت تميل إلى الانفراد والتأمل، وتهيء فكرها للعطاء على الرغم من ميلها للمجاملات الإجتماعية المألوفة[132].

نقل عنها أنها كانت، في إحدى الجلسات، مع أخيها الشهيد، وبين يديه كتاب «فلسفتنا» محاولاً شرحه وبيان بعض غوامضه، فقالت له: «سيدنا أين أنا منكم؟، إن الفلسفة معقدة وأنتم أهل لها». فأجابها الشهيد قائلاً: «لا يهمُّ، أنت أقدر مني. . . !» فقالت: «وكيف؟» فقال: «أنت تكتبين الشعر، وأنا مع حبي للشعر وتذوقي له وقدرتي على صياغة الأسلوب البلاغي حاولت فلم أستطع أن

أُنَظِّمَ بيتاً واحداً، إنها موهبة فأنتِ أقدر مني في هذا المجال. إذن تعادلنا»(١٣٣).

إنه يحاول أن يأخذ بيدها ويعدُّها لتقوم بدور قيادي لتوجيه المرأة وتنوير الطريق لها لتلعب دور الإنسان الطبيعي في مجتمعها. فقد لمع نجم الشهيدة بنت الهدى في المجال الإجتماعي والتربوي والعلمي، وصار لها شأن كبير على صعيد العمل النسائي فعهدت اليها مسؤوليات أثبتت كفاءة عالية في انجازها. منها أنها أشرفت على المدارس الدينية التي اسستها الحوزة العلمية في كل من النجف والكاظمية، إلا أنها سرعان ما بادرت للإستقالة من عملها على أثر الحملة القمعية التي أقدمت عليها حكومة البعث في العراق والتي أدت إلى فصل تلك المدارس عن إدارة وإشراف الحوزة العلمية بالنجف وتحويلها إلى مدارس رسمية بعيدة عن الطابع الإسلامي. إنها امرأة رسالية لا يمكن أن تستسلم لمثل تلك الحركات الجبانة التي ملأتها حماساً واصراراً على مواصلة دورها الرسالي بين صفوف المجتمع النسائي بالنجف، فحولت مجلسها المتواضع في بيت أخيها الشهيد إلى مدرسة للنساء تدرسهم الأحكام الإسلامية وتفسير القرآن والثقافة الإسلامية وتنشر الوعي الديني والسياسي بينهن، فتخرج العديد من النساء المسلمات الملتزمات من ذلك البيت المتواضع الصغير بحجمه الكبير بتطلعاته لتحقيق آمال الأمة وإصلاح ما أفسده الحكم الجائر(١٣٤).

بدأت تجربتها في الكتابة بنشر مقالات في مجلة «الأضواء» التي تعالج قضايا المرأة بشكل عام(١٣٥).

كما أنها أصدرت أحد عشر كتاباً وهي مجموعةٌ من القصص ركزت فيها على قضايا المرأة المسلمة بشكل عام خصوصاً ما يتعلق بالآداب العامة للمرأة المسلمة من قضايا الحشمة والحجاب.

وحرصت في كتابتها على استخدام الأُسلوب الأدبي القصصي بتوجيه من أخيها الشهيد الصدر(١٣٦). كما تميزت كتابتها بلغة تتماشى مع روح العصر واستخدمت عناوين جذابة لهذه القصص تتفق وميول نساء وفتيات العصر، كما يتضح من عناوين هذه الكتب وهي: صراع من واقع الحياة، الخالة الضائعة، الفضيلة

تنتصر» ذكريات على تلال مكة، المرأة مع النبي، كلمة ودعوة، ليتني كنت أعلم» امرأتان ورجل»، لقاء في المستشفى، الباحثة عن الحقيقة، بطولة المرأة المسلمة(١٣٧).

ومن مختاراتها الشعرية(١٣٨):

قسماً وان مُلِىء الطـــــريـق ... بما يعيـق السير قـــدمـــا
قسماً وإن جهـــد الـــزمـــان ... لكـي يثبط فيَّ عـــزمـــا
أو حـــاول الـــدهـــرُ الخؤون ... بـأن يـــريـــش إليَّ سهما
وتفـــاعلت شتى الظـــروف ... تكيـلُ آلامـــــا وهمًّا
فتراكمـت سُحُبُ الهمـــوم ... بـأفـق فكـــــري فـأدلهماً
لـــن أنثنــــى عما أرومُ ... وإن غــدت قـدمـاي تـدمى
كــــلا، ولـن أدع الجهـــاد ... فغــــايتـي أعلى وأسمى

وقالت أيضاً(١٣٩):

أنـــــا كنتُ أعلمُ أن درب ... الحق بـــالأشـــواك حـــافل
خـــال من الـــريحان ينشرُ ... عطـــــــره بين الجداول
لكنني أقـــدمتُ اقفــو السير ... في خطـــــــو الأوائل
فلطـــالما كـــان المجـــاهـــد ... مفـــرداً بين الجحـــافـل
فـــالحق يخلُــدُ في الـــوجـــود ... وكـل مـــا يعـــدوه زائل
سأظلُّ أشـدو بـاسم اسلامي ... وأنكـــــرُ كـل بـــاطـل

تقسم الشهيـدة بنت الهدى في الأبيـات الأولى، على المضي في الجهـاد من أجل إعلاء كلمـة الله ومن أجل إحقاق الحقِّ وإزهاق الباطل، إنها تصوِّر الأوضاع التي تجتاح العراق فتبدو أوضاعاً مؤلمة ملأت قلوب الناس بالهموم الخانقة، وخيم الظلام الذي يعني الجور ومصادرة الحريات، فمهما بلغ القمـع إلا أنها ستواصل رسـالتها الجهادية غير عابئة بتلك العقبات وستقفـز عليها لتحقيق الغايات السـامية، فهي أغلى من حيـاتها. إنه لا يقبل بـالعيش الـذليل إلا الـذليل، فإذا استحالت الحياة

الكريمة عند الحر فإن وسيلته الوحيدة للحياة الأبدية هي القفز على الموت لبلوغ الشهادة التي تضمن له كرامته . قال المتنبي :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريمٌ　　　　تحت ظل القنا وخفق البنود

أما في المجموعة الثانية من شعرها فإنها تؤكد أنها اختارت طريق الحق لمقارعة الباطل ومصارعته، مع علمها أن ذلك الطريق مليء بالشوك، لكنها عشقت طريق خديجة وفاطمة الزهراء وزينب وسمية أم عمار وأم البنين وجميع النساء الرساليات اللاتي قدَّمن النموذج للمرأة الرسالية من أجل الانتصار للدين، ومن أجل الكرامة والحرية .

إن الشهيدة بنت الهدى قد عشقت الخلود، لذلك أصرت على مواصلة إعلاء كلمة الحق واستنكار الباطل . إنها تسخر من أساليب القمع، لأنها تعلم أن تلك الأساليب جسراً سهلاً لبلوغ الشهادة والعزة والكرامة .

وقالت أيضاً متباهية بعفتها وعصمتها(١٤٠):

بيد العفاف أصون عز حجابي　　　　وبعصمتي أسمو على أترابي

وبفكرة وقّادةٍ وقريحةٍ　　　　نفاذةٍ قد كملت آدابي

ما عاقني خجلي عن العليا ولا　　　　سد الخمارُ بلمتي ونقابي

إنها تفخر بأنَّ العفاف لا يعيق المرأة المسلمة من تأدية دورها الفعال في المجتمع في مختلف المجالات التي يمكن أن تطرقها المرأة .

ولها أيضاً(١٤١):

«رجعية» إن قيل عنك فلا تبالي واصمُدي

قولي : أنا بنت الرسالة من هداها أهتدي

لم يثنني خجلي عن العليا ولم يغلل يدي

كلا . ولا هذا الحجاب يعيقني عن مقصدي

فغدٌ لنا، أختاه، فامضي في طريقك واصعدي

الحق يا أختاه يعلو فوق كيد المعتدي

تمكنت الشهيـدة بنت الهدى من أن تلعب دوراً فعّـالاً عن طـريق الكلمـة لنشر الوعي الديني والسياسي في الأوساط النسائيـة ؛ ذلك الوعي الذي يقوم على مبادىء الإسـلام، ويذكـر المسلمات بتضحيـات النماذج النسائيـة الرسـالية من آل رسـول الله(ص)، سواء كـان خلال إشرافها على المدارس الـدينية للحوزة العلميـة أم أثناء تدريسهـا في بيتها، أم عنـد نشر المقالات في مجلـة الأضواء، أم في كتبهـا القصصية التي تداولتها المرأة داخل وخارج العراق.

لذا يمكن القول بان انتشار الوعي الإسلامي في الوسط النسائي في العراق بشكل خاص ومنطقة الخليج بشكل عام من اتباع مدرسة الإمامة راجع إلى نشاط الشهيدة بنت الهدى وعلى الأخص بين العناصر النسائية الشابة. فلا غرابة أن تقدم سلطات العراق الظالمة على إخماد هـذا الصوت الرسالي الذي يحث نسـاء الأمة وبناتها على أن يقتدوا بسيرة خديجة وفاطمة وزينب وكل النساء المؤمنات بدولة النبوّة السائرات على دربهن.

لقد علمت سلطة البعث بموقع الشهيـدة بنت الهدى من الحركة الإسلامية التي يقودها الشهيـد الصدر، في محاولته لتأسيس نظام إسـلامي، فعزمت على التخلص منها ومن أخيها عن طريق التصفيات الجسدية(١٤٢).

وحينما اعتقلت السلطات العراقية الشهيـد الصدر في مارس ١٩٨٠، ذهبت إلى مرقد الإمـام علي (ع) تخبر الناس باعتقال الشهيـد الصدر وتمخض عن ذلك خروج مظاهرة تدين النظام الحاكم في العراق وتهتف بحياة الشهيد الصدر(١٤٣). لقد كانت تعلم بـردود فعل السلطات العـراقية العنيفـة ضدهـا، لكنها كانـت تقوم بـواجبها الرسـالي تجاه الدين وتجاه الأمـة لكشف أساليب ذلك الحكم الجائر أمـام كل الناس ليقوموا بواجبهم الشرعي، ولإلقاء الحجة عليهم.

لذلك وقفت السلطـات البعثية بالمرصاد للشهيدة المناضلة بنت الهدى، تتحين الفرصة لاعتقالها والتخلص منها إلى الأبد. فما أن القت القبض على الشهيد الصدر حتى قام جلاوزة صدام: أبو سعد مدير الأمن في النجف ومعاونه أبو شيماء باعتقال

الشهيدة البطلة بنت الهدى بحجة أن أخاها الشهيد الصدر قد طلبها وأنها ستعود إلى بيتها عاجلاً، فما كان من زوجة الشهيد الصدر إلا أن تعلقت بأذيالها حيث بقيت بدون كفيل وأبت إلا اصطحابها، لولا أن الشهيدة الصابرة بنت الهدى طلبت منها الصمود لتتحمل رعاية الأسرة قائلة: «أُخيَّة، وكيف تأتين معي؟ ومن يبقى للأطفال ووالدتي العجوز المنكوبة؟ . . ابقِ هنا وسأذهب برعاية الله تعالى». نعم كانت تلك الرحلة من النجف إلى بغداد بمثابة رحلة الشهادة مع أخيها المفكر والمناضل العظيم الشهيد الصدر وكان استشهادهما في التاسع من نيسان/ ابريل ١٩٨٠م[١٤٤].

إنها اختارت حياة العزة وحياة الخلود على العيش الذليل الذي لا يرضاه إلا الصامتون في مقبرة الأحياء. نعم، لقد تحوَّل العراق بفضل الآلة العسكرية الضخمة التي مولها حكام الاستكبار العالمي وامتلكها صدام، إلى مقبرة كبيرة للأجيال يلفها ظلام دامس وليل طويل.

إن صراع الحق مع الباطل قائم. كل تابع للباطل هو يزيد وكل تابع للحق هو حسين وزينب. فالشهيدة بنت الهدى نموذج لزينب، والشهيد الصدر نموذج للحسين، وصدام نموذج ليزيد. يزيد أباد الرجال والأطفال في كربلاء، كما سيَّر النساء والأطفال من آل رسول الله (ص) في رحلة السبي الشاقَّة من بلد إلى بلد، لكنه لم يقتل النساء بعد قتل رجالهن كما فعل صدام، على الرغم من أن السيدة زينب قد قرعت ابن زياد في القصر الأبيض بالكوفة ويزيد بالقصر الأخضر بدمشق بكلماتها القاسية وبصوتها الجهوري.

يزيد سمح لآل رسول الله (ص) باقامة مأتم على الإمام الحسين (ع) في قصره، حينما ثارت عليه نساؤه واستنكرت عمله[١٤٥]، لكنَّ صداماً منع إقامة مجالس الفاتحة على الشهيد الصدر والشهيدة أخته بنت الهدى، كما إنهما لم يحظيا بالتشييع، ودفنا ليلاً بواسطة جلاوزة السلطة البعثية حتى إن المرجعية بالنجف لم تجرؤ على إقامة الفاتحة على روح الشهيدين، ولا على شجب جريمة الإعدام البشعة. إن هذا الموقف السلبي جاء امتداداً للصمت الرهيب الذي يلف مقبرة الأحياء في عراق علي

وفي عراق ملحمة الشهادة. ولم يكتف صدام بذلك بل نقل أسرة الشهيد الباقية المكونة من زوجته وأولاده الأطفال الأربعة وأمه العجوز إلى بغداد. نعم كأنهن سبايا، كما سير يزيد آل رسول الله (ص) من كربلاء إلى الكوفة ومن الكوفة إلى دمشق. كذلك فعل صدام بالثكالى، هكذا يكافأ المفكرون والعظماء في عراق صدام. وهكذا يحكم «التقدميون» أمة الإسلام بعد النبي محمد (ص). أمن أجل هذا المصير استشهد المسلمون الأوائل في حروب الحق مع الباطل؟ إن صداماً ورجاله امتداداً لبقايا الأحزاب والمنافقين. فلا عجب من إقدامهم على مثل تلك الجرائم التي يندى لها جبين الإنسانية.

ولكن يبقى الإختيار للإنسان وحده كيف يعيش وكيف يموت. إن من يختار أن يعيش بعز يموت بعز، ومن يختار أن يعيش بذل يموت بذل كذلك.

إن الشهادة ميراث العظماء ودعاة الحق في التاريخ، كما أن الجريمة ميراث الجناة والمجرمين ودعاة الباطل في التاريخ أيضاً. وعليك أن تختار فإما أن تكون داعية حق أو داعية باطل!

والملتقى عند الشروق ﴿. . . إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾(١٤٦). حينها سيفيق الناس من سباتهم ليتغنوا بشعر بنت الهدى في الحرية . . . .

هوامش الفصل الرابع

(١) إبن أبي الحديد: المرجع السابق، مجلد٢، ج١ ص٥٣٧، أيضاً، الزركلي: الأعلام ـ المجلد الثالث، ص ١٤٠.
(٢) الزركلي: نفسه، ص ١٤٠ ـ ١٤١.
(٣) الشرقاوي: المرجع السابق، ج٢، ص٧١.
(٤) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، ج١٠، ص٥٣٧ ـ ٥٣٨، أيضاً الشرقاوي: نفسه، ج٢ ص ٧٢.
(٥) سورة النحل: ١٠٦
(٦) الزركلي: نفسه، ص١٤١، أيضاً، الشرقاوي: نفسه، ج٢، ص٧٠.
(٧) سورة الأنعام: ١٢٢.
(٨) نفسها.
(٩) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، ج١٠، ص٥٣٨.
(١٠) نفسه.
(١١) نفسه.
(١٢) نفسه.
(١٣) هجر: الاحساء.
(١٤) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، ج١٠، ص٥٣٨.
(١٥) الشرقاوي: المرجع نفسه، ج٢، ص٧٨.
(١٦) نفسه، ص ٨٥.
(١٧) الأمين: المرجع السابق، مجلد٨، ج٤١، ص ٣٧٥.
(١٨) نفسه، ص ٣٧٢.
(١٩) نفسه، ص ٣٧٣.
(٢٠) إبن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، ج١٠، ص٥٣٨.
(٢١) الأمين: المرجع نفسه، مجلد٨، ج٤١، ص ٣٧٣.
(٢٢) نفسه، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٦.
(٢٣) نفسه، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(٢٤) نفسه، ص ٣٠٦.
(٢٥) نفسه.
(٢٦) نفسه، مجلد١، ج٢، ص٢٣٣.
(٢٧) نفسه، مجلد١، ج٢، ص٢٣٣، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٦، مجلد٤، ج١٦، ص ١٢٠ ـ ١٢١.
(٢٨) نفسه، مجلد١، ج٢، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤، مجلد ٤، ج١٦، ص ١٢١ ـ ١٢٣.
(٢٩) نفسه، مجلد١، ج٢، ص٢٣٢، مجلد٤، ج١٦، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٣٠) نفسه، مجلد١، ج٢، ص ٢٣٤.
(٣١) يماني: المرجع السابق، ص٢١٤ ـ ٢١٥.

(٣٢) الأمين: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٧.
(٣٣) نفسه، مجلد٤، ج١٦، ص١٢٠.
(٣٤) نفسه.
(٣٥) نفسه.
(٣٦) نفسه، ص١٢٠، ١٢١.
(٣٧) نفسه، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٦، أيضاً، ةابن الحديد، مجلد٣، ج١٥، ص٤٠٦.
(٣٨) الأمين: نفسه، مجلد٤، ج١٦، ص١٢٥، أيضاً، ابن أبي الحديد: نفسه، ص٤٠٦-٤٠٧.
(٣٩) ابن أبي الحديد: نفسه، مجلد٢، ج٦، ص٢١.
(٤٠) العاملي، تاج الدين بن علي: المرجع السابق، ص٢٢، أيضاً، الأمين: نفس المرجع، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٦.
(٤١) الأمين: نفسه، مجلد٤، ج١٦، ص١١٩.
(٤٢) نفسه.
(٤٣) البخاري: المرجع السابق، مجلد٢، ج١٧، ص٣٣٦، أيضاً، الطبري: المرجع السابق، ص٢١٣-٢١٤.
(٤٤) الأمين: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٧.
(٤٥) نفسه، ص٣٠٨.
(٤٦) نفسه.
(٤٧) المجلسي: المرجع السابق، ج٤١، ص٣.
(٤٨) سورة آل عمران: ١٤٤
(٤٩) سورة آل عمران: ١٤٥.
(٥٠) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١٤، ص٣٧٦-٣٧٧.
(٥١) نفسه، ص ٣٧٧.
(٥٢) نفسه، ص٣٧٨.
(٥٣) سورة الحجرات: ١٤.
(٥٤) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١٤، ص٣٧٨.
(٥٥) نفسه.
(٥٦) نفسه، ص ٣٧٧.
(٥٧) نفسه، ص٣٧٨.
(٥٨) نفسه، ص٣٧٥.
(٥٩) نفسه.
(٦٠) سورة الفتح: ٧١.
(٦١) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١٤، ٣٧٥.
(٦٢) نفسه.
(٦٣) نفسه.
(٦٤) سورة القلم: ٤.
(٦٥) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٣، ج١٤، ص٣٧٥.
(٦٦) نفسه.
(٦٧) نفسه.
(٦٨) نفسه.

(٦٩) نفسه.

(٧٠) نفسه.

(٧١) نفسه.

(٧٢) نفسه، ص٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٧٣) نفسه، ص٣٧٦.

(٧٤) نفسه.

(٧٥) نفسه.

(٧٦) نفسه.

(٧٧) نفسه، مجلد٣، ج١٥، ص٣٩٥.

(٧٨) نفسه.

(٧٩) الزّركلي: المرجع السابق، مجلد١، ص٣٠٦.

(٨٠) نفسه.

(٨١) الأمين: المرجع السابق، مجلد٣، ج١١، ص٣٠٧.

(٨٢) الزلاكلي: المرجع نفسه، مجلد١، ص٣٠٦.

(٨٣) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، مجلد٢، ج٩، ص٤٢٥.

(٨٤) نفسه.

(٨٥) نفسه.

(٨٦) نفسه.

(٨٧) نفسه.

(٨٨) نفسه.

(٨٩) نفسه، ص٤٢٦.

(٩٠) نفسه.

(٩١) الزركلي: المرجع نفسه، مجلد٢، ص٨٦، أيضاً، عوضين: ديوان الخنساء، القسم الأول، ص١١ ـ ١٥.

(٩٢) عوضين: نفس المرجع، القسم الأول، ص٤٠ ـ ٤١.

(٩٣) نفسه، القسم الثاني، ص٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٩٤) نفسه، القسم الأول، ص٦٨.

(٩٥) نفسه.

(٩٦) نفسه، ص٦٨ ـ ٦٩.

(٩٧) نفسه، ص٦٩.

(٩٨) نفسه.

(٩٩) نفسه.

(١٠٠) سورة محمد: ٣١.

(١٠١) أحن: ضغائن.

(١٠٢) سورة التوبة: ١٢.

(١٠٣) يعرج: يميل، الدأب: العادة.

(١٠٤) الأمين: المرجع السابق، مجلد٣، ج١٢، ص٤٧٧، أيضاً، الشرقاوي: المرجع السابق، ج٢، ص٦١.

(١٠٥) الحرمل: نبات كالسمسم.

(١٠٦) سامة خسفاً: أذلّة.
(١٠٧) كشف الغمة، ص٥٠، عن المجلسي: المرجع السابق، ج٤١، ص١١٩.
(١٠٨) نفسه.
(١٠٩) سورة الأعراف: ٨٥.
(١١٠) كشف الغمة، ص٥٠ عن المجلسي: المرجع نفسه، ج٤١، ص١١٩ـ١٢٠.
(١١١) سورة آل عمران: ١١٠.
(١١٢) متفق عليه.
(١١٣) الأمين: المرجع السابق، مجلد٧، ج٣٧، ص٤٢٩، مجلد٨، ج٤١، ص٣٨٩.
(١١٤) نفسه، مجلد٧، ج٣٧، ص٤٢٩ـ٤٣٠.
(١١٥) نفسه، ص٤٣٠.
(١١٦) نفسه.
(١١٧) نفسه.
(١١٨) نفسه، مجلد٨، ج٤١، ص٣٨٩.
(١١٩) نفسه.
(١٢٠) نفسه، مجلد٧، ج٣٧، ص٤٢٩.
(١٢١) نفسه، مجلد٨، ج٤١، ص٣٨٩.
(١٢٢) الحسيني: الإمام الشهيد، محمد باقر الصدر، ص٣٢٧.
(١٢٣) مصادر خاصة.
(١٢٤) الحسيني: المرجع نفسه، ص٦٨ـ٧٠.
(١٢٥) نفسه، ١٠٧.
(١٢٦) نفسه، ص١٠٧ـ١٩٦.
(١٢٧) نفسه، ص٧١، ٢٠١ـ٢١٨.
(١٢٨) نفسه، ص٢٦٩ـ٢٨٩.
(١٢٩) أيضاً، مصادر خاصة.
(١٣٠) الحسيني: نفسه، ص٢٢١ـ٢٦٧، ٢٩٢ـ٣٢١.
ايضاً،

Batatu, Hanna: Iraqs Underground Shi Movements: charactervstics, causes, and prospects, a paper submitted to a symposium on "Iraq: The contemporary state" Which was held at the university of Exeter, united kingdom between 9 and 12 July 1981.

(١٣١) أم فرقان: بطلة النجف، ص١٧، عن الحسيني: المرجع نفسه، ص ٣٢٨.
(١٣٢) نـزار، جعفر: الشهيـدة زينب الهدى، عذراء العقيـدة والمبدأ، ص٢٥، عن الحسيني: المرجع نفسـه، ص ٣٢٨.
(١٣٣) أم فرقان: نفس المرجع، ص٤٢، عن الحسيني: نفسه، ص٣٢٨.
(١٣٤) الحسيني: نفسه، ص٣٢٨-٣٢٩.
(١٣٥) نفسه، ٣٢٩، ٣٣٠.
(١٣٦) نفسه، ص٣٢٩.
(١٣٧) نفسه.
(١٣٨) نفسه، ص ٣٣٠.
(١٣٩) نفسه، ص٣٣٠-٣٣١.
(١٤٠) نفسه، ص ٣٣١.
(١٤١) نفسه.
(١٤٢) نفسه، ص ٣٢٩.
(١٤٣) نفسه، أيضاً، مصادر خاصة.
(١٤٤) نفسه، ص٤٠٥.
(١٤٥) العسكري: المرجع السابق، ص١٦٦.
(١٤٦) سورة هود: ٨١.

الخاتمة العامة

من خلال النماذج النسائية التي تناولتها هذه الدِّراسة يمكن الاستنتاج أن المرأة المؤمنة كان لها دور مشرّف وبارز قامت به في ظل دولة النبوّة، سواء كان ذلك في السلم أم في الحرب، وخاصة خلال العقود الأربعة الأولى من قيام دولة النبوّة.

أما دورها في السلم، فإن أول من استجاب للدعوة الإسلامية المحمدية امرأة هي السيدة خديجة بنت خويلد زوجة النبي (ص)، وإن أول من استشهد في سبيل الله وقاوم كل وسائل التعذيب الوحشي امرأة، وهي سمَيّة أم عمار بن ياسر كما ضحّت المرأة بفراق الأهل والوطن، وتحمّلت آلام الغربة خلال هجرتي: الحبشة والمدينة المنوّرة، كذلك شاركت المرأة في بيعتي العقبة الأولى والثانية، وفي غدير خم شاركت المرأة في مبايعة الرسول (ص) وعلي حينما نصبه إماماً ووصيّاً وخليفة له على أمته. هذا إلى جانب دورها الإجتماعي في إعداد جيل صالح.

كما كانت تحضر المساجد ـ التي كانت عصرئذ أهم مؤسسة تعمل على بلورة الوعي الفكري والسياسي والإجتماعي ـ لتمارس دورها الإيجابي في التعليم، وتناقش الخليفة في إبداء رأيها حول قضايا المرأة فيما يتعلق بحقوقها وواجباتها. أما دور المرأة الرسالية في الحرب، فقد قامت بواجبها الديني والإنساني في الدفاع عن دينها وأمتها ووطنها وفقاً لإمكانياتها المتواضعة آنذاك. فقد وقفت بكل شجاعة وشمم تساند مقاتلي جيش دولة النبوّة، فكان النّساء يسعفن الجرحى بتضميد جراحهم، ويوفرن الماء والطعام لهم ويصطحبن الجرحى، وأحياناً القتلى إلى المدينة كما حصل في معركة أحد.

لذا، فإنه لا يستصغر دور المرأة إلا جاهل أو مكابر. وإذا حصل اضطهاد لها في

العهود اللاحقة، فإنما هو جزء من اضطهاد الكل فيصبح اضطهادها مضاعفاً، وذلك يعود إلى استبداد غالبية الحكومات الإسلامية وإنحرافها عن المبادىء التي رسمها النبي (ص) لتأسيس دولته.

لقد أراد الرسول (ص) الكمال لمجتمع دولته: رجالاً ونساءً مهما تعددت ألوانهم وأعراقهم وأديانهم، كل يخدم الدولة وفق امكانياته، سواء كان ذلك في السلم أم في الحرب، مع ضمان كافة حقوقه الإجتماعية والسياسية..

في حرب الخليج الثانية، ومنذ سيطرة القوات العراقية في أغسطس ١٩٩٠، على الأراضي الكويتية وحتى جلائها في ٢٨ فبراير ١٩٩١، حشدت دول الحلفاء جيوشاً بلغت مئات الآلاف من الجنود بينهم آلاف المقاتلات في الأسلحة الثلاثة: البرية والجوية والبحرية. لقد استغربت بعض فئات المجتمع الخليجي: رجالاً ونساء من مشاركة المرأة في هذه الحرب، علماً بأن المرأة الرسالية في دولة النبوّة قد لعبت دوراً مشرفاً في الحروب، قبل أربعة عشر قرناً من حرب الخليج الثانية، سواء كان بممارسة القتال كما فعلت نسيبة في أحد وأسماء بنت يزيد في اليرموك، أو بقيامها بأعمال الإغاثة في العديد من الحروب. فلماذا هذا الإستغراب؛ إنه جهل بالتراث والتاريخ حيث يعيش الإسلام في غربة بين أهله، إنه ناتج عن سيادة الإسلام السلطوي وغياب الإسلام النبوي.

فمنذ مطلع العقد الهجري الخامس وإلى اليوم عانى الإنسان في ظل ما يسمى بالحكم الإسلامي المتاعب والآلام نتيجة التغيير والتحريف. إنه ظلم للتاريخ وحقائقه، الإعتقاد بأن تخلف المجتمعات الإسلامية عن الركب الحضاري للإنسانية ناشىء عن قصور في تشريعات الإسلام. إن حكماً كهذا يعتبر ظلماً للحقيقية بكل المقاييس. فالدين الإسلامي، سواء كان عقيدة أم نظاماً، صار أسيراً بيد الحكام يكيّفونه وفقاً لما تقتضيه مصالحهم. ولهذا السبب بدأ هجوم المستشرقين وغيرهم على الإسلام، واعتبروه أفيوناً للشعوب.

نعم، إن الإسلام الشكلي، وهو السائد اليوم، هو أفيون للشعوب، لأنه يقتصر على المظهر ولا يمتُّ بصلة إلى الجوهر. وليس من شك في أنه لا يحق لأحد بعد

رسول الله (ص) أن يغير أو يبدل ما أحله أو حرمه، فحلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة. وكما مر سابقاً فإن سلطنة قريش التي أ.سسها الأمويون مسؤولة بشكل كامل عن كل هذه التغييرات والتحريفات التي ألمت بالتشريعات الإسلامية بشكل عام وتفسير القرآن والحديث بشكل خاص، علماً بأن رجال سلطة الخلافة هم الذين مهدوا بقصد أو غير قصد لتأسيس النفوذ الأموي.

وعلى أية حال، فمهما ارتكب رجال سلطة الخلافة من أخطاء في حق العترة والأمة، فإن صحبتهم لرسول الله (ص) في السلم والحرب يجب أن يكون لها تقديرها واحترامها عند الجميع. وكما كانت لهم سلبيات فقد كانت لهم إيجابيات، أبرزها الحفاظ على وحدة الرقعة الجغرافية لدولة النبوّة بعد وفاة المؤسس، بل وتوسيعها ونشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، بالإضافة إلى نسخ القرآن وتوزيعه على أقاليم الدولة، المعروفة آنذاك.

إن الأجيال المتعاقبة في دولة النبوّة ليست مسؤولة عن ارتكاب أخطاء السلف، ولكن مسؤوليتها تكمنُ في إصلاح تلك الأخطاء وليس في تعميقها، بهدف الحفاظ على وحدة الأمة، وفهم التاريخ والتراث لدولة النبوّة فهماً واعياً متحرراً بعيداً عن التزييف والتشويه والعصبية. وإنّ هذا الواجب لا يناطُ فقط بالشعوب ولكنه مسؤولية الحاكمين.

إن المواقف التي سجلتها المرأة المؤمنة، خلال العقود الأربعة الأولى من الهجرة، بل ومنذ بداية الدعوة تعتبر مصدر فخر واعتزاز، لا لنساء دولة النبوّة فقط، وإنما لبنات حواء بشكل عام في كل زمان ومكان. لقد ضحت المرأة إلى جانب الرجل بكل ما تملك من أجل إبراز كيانها من جانب ونصر رسالة السماء ومؤازرة إخوتها وأخواتها في العقيدة.

كانت كل من السيدة خديجة والسيدة فاطمة الزهراء والعقيلة زينب، نموذج البيت النبوي للمرأة، مدرسة لأجيال المجتمع النسائي في دولة النبوّة. فالسيدة خديجة هي النموذج الرسالي الأول، فقد قاومت كل كبرياء قريش، وفضّلت أن تضحي بكل شيء حتى بصحتها وصمدت لدعم الحق وهي سيدة قريش وجدة الأئمة الأطهار.

وهذه السيدة فاطمة الزهراء، أم الأئمة الأطهار، وأم المصائب، تواجه اليتم منذ طفولتها كما واجهه أبوها، وتعيش مع والدها معاناته وتحمله إيذاء قريش، ثم تتحمل مسؤولية حياتها الزوجية القاسية فتكون نعم الزوجة الصابرة للإمام علي؛ حيث أفنت عمرها القصير في خدمة زوجها وأولادها وتحملت شظف العيش دون أن يكون لها ميزة على سائر نساء الأمة. وقد وقفت بكل شموخ بعد رحيل والدها(ص) معلنة استنكارها ورفضها ظلم السلطة للعترة باغتصابها حقها حتى قضت شهيدة بغصصها.

كذلك فإن عقيلة الطالبيين زينب ثمرة بيت النبوّة، وجامعة الرزايا تضرب المثل الأعلى للمرأة المناضلة المتمسكة بعقيدتها صمدت بكل شموخ متحدية السلطة الأموية بكل جبروتها وهمجيتها على الرغم من عظم المصيبة وفداحة الخطب، وقفت في القصور الأموية بالكوفة ودمشق تقرّع رجال السلطة باللغة الرسالية التي تعلمتها في بيت الوحي والطهارة والإيمان والعصمة، وتعلن في تلك القصور أن دين محمد(ص) لن يموت، وأن نور الإسلام لن ينطفِىء، وظلت تكشف في خطبها لجماهير المجتمع الإسلامي رياح التغيير والتحريف التي هبت على دولة النبوّة في محاولة لزعزعة أركان هذه الدولة التي قامت عليها، وهي مبادىء لا تتفق وأهواءهم وتطلعاتهم الشخصية. فكانت شريكاً صادقاً وأميناً لثورة أبي الأحرار الإمام الحسين(ع).

لقد أثبتت نساء البيت النبوي الثلاث بشكل خاص والنماذج العشرة لنساء دولة النبوّة: سمية، وأسماء بنت عميس ونسيبة وهند والسمداء وأسماء بنت يزيد وتُماضر وسودة وأم البنين وبنت الهدى بشكل عام أنّ جذوة النبوّة سيظل نورها مشتعلاً طالما وجد في الأمة نساء أمثالهن أو يقتدين بسيرتهن، وطالما وجد في الأمة رجال أمثال الإمام الحسين (ع) أو مسلم بن عقيل أو الحر بن يزيد الرياحي وعبد الله بن عفيف الأزدي، وزيد بن أرقم وغيرهم، إنه طالما وجد مَن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويضحي في سبيل الله والعقيدة والمبدأ من أمثال هؤلاء النساء وهؤلاء الرجال فستبقى مبادىء دولة النبوّة، وستبقى كربلاء شعلة للحرية ولكل ثورات العالم.

وقد ثبت، بعد المناقشة والتحليل، في هذه الدراسة أن السيدة زينب بنت الإمام علي (ع) قد تميزت بعطائها وتضحياتها في سبيل الدين وإعلاء كلمة الحق على جميع

هذه النماذج من النساء الرساليات، بمن فيهن جدتها خديجة وأمها فاطمة الزهراء. فقد حاربت بالكلمة في القصور والميادين، كما شهدت مصارع كفيلها وابنيها وباقي أحبتها. إنها نموذج فذ للفداء والجرأة والشجاعة، عقمت البشرية أن تلد مثلها، فكانت بحق من أعظم النساء اللواتي عرفتهن البشرية على وجه الإطلاق.

إن الدور الرسالي الذي قامت به النماذج النسائية التي تناولتها هذه الدراسة نقاشاً وتحليلاً لم ينشأ من فراغ، إنما هو ميراث تربوي. فوقوف خديجة خلف زوجها في حصار الشعب بكل آلامه وهو حامل لواء الصمود أمام غطرسة القريشيين وهمجيتهم، على الرغم من كونها سيدة قريش المترفة، إنما جاء نتيجة تشربها بالأخلاق النبوّية وذوبانها في ذات الله. وما وقوف الزهراء في مسجد أبيها وهي تقرّع الأمة بخطبتها العصماء على الرغم من المصائب التي توالت عليها إلاّ لكونها خريجة حجر النبوّة وحجر سيدة قريش وأم المؤمنين الأولى، وسيدة النساء. وما حمل العقيلة زينب لواء الحرية في رحلة السبي المزرية للإنسانية بشكل عام، ولأمة محمد(ص) بشكل خاص، بعد كل الرزايا التي حلت بها وإقدامها على كشف أبعاد المؤامرة في خطبها البلاغية بالكوفة ودمشق عبر ساحات مقابر الأحياء الصامتة وقصور الطواغيت، معلنة انتصار الثورة الإستشهادية، إلا لتخرجها من حجريّ علي وفاطمة وتشربها بأخلاقهما التي صاغت شخصيتها الفريدة.

أما الدّور الرّسالي الذي لعبته النماذج النسائية العشرة فيعود إلى عاملين: الأول تأثر هذه النماذج بتضحيات رائدات النضال في البيت النبوي وإتخاذهن قدوة لهن في التضحية والفداء.

أما العامل الثاني فيعود إلى تربيتهن الدينية الأصيلة وعمق إيمانهن.

وكذلك الحال بالنسبة للشهيدة بنت الهدى، حيث أفصحت في شعرها عن عشقها لدرب الأوائل وتعني بذلك رائدات النضال الثلاث في البيت النبوي وكذلك شهداء كربلاء، بالإضافة إلى البيئة الأسرية التي تشربت من أجوائها شذى الإيمان ونقاء العقيدة. وتعتبر الشهيدة بنت الهدى الوحيدة بين النماذج النسائية العشرة التي قضت غالبية حياتها في النضال، حتى استشهدت مظلومة على أيدي نظام لم تشهد

البشرية أسوأ منه في تاريخها عبر العصور. فكانت على خطى الرائدات الثلاث بحق سيرة ونضالا.

إن الأدوار التي لعبتها الرائدات الثلاث، والنماذج النسائية العشرة للمرأة الرسالية في دولة النبوّة إنما كان بوحي من واجبهن الديني، وإرضاء لضمائرهن أمام الله وأمام الأجيال. فليس عزيزاً على المجتمع النسائي المعاصر أن يخلق مثل تلك النماذج، إذا اتخذ منها قدوة ومناراً، وتوفرت له بيئة تربوية مماثلة.

الملاحق

(١) خطبة السيِّدة فاطمة الزهراء (ع) بالمسجد النبوي.
(٢) الكلمة العتابية التي وجهتها السيدة فاطمة الزهراء (ع) لزوجها الإمام علي(ع).
(٣) الخطبة التي ألقتها السيدة فاطمة الزهراء في نساء المهاجرين والأنصار.
(٤) كلمة الإمام علي (ع) عند دفنه السيدة فاطمة الزهراء (ع) مخاطباً رسول الله(ص).
(٥) قصيدة حجج دولة النبوّة الثلاثة عشر؛ للشاعر حسين بن شمس الحسيني.
(٦) خطاب الإمام الحسين (ع) الذي ألقاه في أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد الرياحي قائد الطليعة الأولى للجيش الأموي، في منطقة البيضة.
(٧) الخطاب الذي ألقاه الإمام الحسين (ع) في الجيش الأموي بكربلاء، يوم السادس من محرم، سنة ٦١ من الهجرة.
(٨) الخطاب الذي ألقاه الإمام الحسين (ع) في أصحابه بكربلاء ليلة العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة.
(٩) الخطاب الذي وجهه الإمام الحسين (ع) للجيش الأموي بكربلاء، يوم العاشر من محرم. سنة ٦١ من الهجرة قبيل بدء القتال.
(١٠) خطبة فاطمة الصّغرى بنت الإمام الحسين (ع) في جموع أهل الكوفة المحتشدة في السكك حين دخول قافلة الأسر والسبي من آل رسول الله (ص).
(١١) الخطبة التي ألقتها السيدة زينب الصغرى المكناة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، في جموع أهل الكوفة بالسكك.
(١٢) خطبة الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)، في حشود أهل الكوفة بالسكك.
(١٣) خطبة الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)، في مجلس يزيد بالقصر الأخضر بدمشق.
(١٤) خطبة الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)، في حشود المستقبلين من أهالي المدينة بعد عودته من رحلة الإستشهاد والسبي.

ملحق رقم ١ (*)

نص خطبة السيدة فاطمة الزهراء بالمسجد النبوي بالمدينة، يوم الجمعة، ربيع الأول، السنة الحادية عشرة من الهجرة.

«أبتدئُ بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد.

الحمدُ لله على ما أنعم به، وله الشكرُ على ما ألهم، والثناء بما أقدم، من عموم نعم إبتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام نعم والاها، جُمّ عن الإحصاء عددها، ونأي عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لإستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بأجزالها. وثنى بالندب إلى أمثالها.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكير معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته، إبتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء امثلة امتثلها، كونها بقدرته، وذرأها بمشيئته. من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمته. وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته. وتعبداً لبريته. وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادةً لعباده عن نقمته، وحياشة لهم إلى جنته، وأشهدُ أنَّ أبي محمَّداً (ص) عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، عملاً من الله تعالى بمآل الأُمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه الله تعالى إماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقا في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله تعالى بأبي محمد (ص) ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم، ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد (ص) عن

تعب هذه الدار في راحة قد حف بالملائكة الأبرار. ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه، وأمينه على وحيه وصفيه، وخيرته من الخلق ورضيه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت:

«أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤد إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبيانته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام تثبيتاً للاخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للاسلام، وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منماة للعدد وزيادة في العمر، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعويضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، وإجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية ﴿فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿فإنما يخشى الله من عباده العلماء﴾».

ثم قالت (عليها السلام):

«يا أيها الناس، اعلموا أني فاطمة وأبي محمد (ص). أقول، عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، ولقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزّي إليه فبلّغ الرسالة،

صادعاً بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بكظمهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسِّر الأصنام، وينكت الهام حتى انهزم الجمع وولوا الدُّبُر حتى تفرَّى الليل عن صبحه وأسفر الحقُّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح[1] وشيظ[2] النفاق، وانحلت عقدة الكفر والشقاق وفهتم بكلمة الإخلاص، في نفر من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع، وقُبسة العجلان، وموطىء الأقدام تشربون الطرَق، وتقتاتون القد أذلّة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد (ص) بعد اللتيا والتي، وبعد أن منى ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب، ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ أو نجم قرن للشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمدُ لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله (ص)، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناطحاً، مجدّاً كادحاً، وأنتم في بلهنية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال.

فلما اختار الله لنبيه (ص) دار أنبيائه ومأوى أصفيائه، ظهرت فيكم حسيكة النفاق وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الأقلين وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير ابلكم واوردتم غير شربكم هذا والعهد قريب، والكلم رحيب والجرحُ لما يندمل والرسول لما يقبر ابتداراً زعمتم خوف الفتنة ﴿ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾.

فهيهات منكم وكيف بكم وأنّى تؤفكون وهذا كتاب الله بين أظهركم أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، قد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تدبرون، أم بغير تحكمون!؟ ﴿بئس للظالمين بدلاً، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

«ثم لم تلبثوا إلا ريثما تسكن نفرتها، ويساس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها،

وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وأطفاء نور الدين الجلي، وإهماد سنن النبي الصفي، تسرون حسوا في ارتغاء[٣] وتمشون لأهله وولده في الخمر والضراء[كذا]، ونصبر منكم على مثل حز المدى ووخز السنان في الحشى، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي ﴿أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته».

وأيُّها المسلمون أأغلب على إرثي، يا إبن أبي قحافة، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّا، أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿وورث سليمان داود﴾ وقال فيما إختص من خبر يحيى بن زكريا عليهما السلام إذ يقول: ﴿رب هب لي من لدنك وليّا يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ وقال: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وقال: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وقال: ﴿إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾. وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي (ص)؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟، أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟، أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟.

فدونكها، مخطومة، مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكمُ الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكمْ إذ تندمون ﴿لكل نبأ مستقر، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾».

ثم رنت بطرفها نحو الأنصار، فقالت:

«يا معشر الفتية، وأعضاد الملة، وحصنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي، والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله (ص) أبي يقول: «المرء يحفظ في ولده»؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة[٤]. ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون: مات محمد فخطب جليل، استوسع وهنه واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، واكتأبت خيرة الله لمصيبته، وكسفت الشمس

والقمر وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، واضيع الحريم وازيلت الحرمة عند مماته. فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى التي لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم: هتافاً وصراخاً، وتلاوة وألحاناً ولقبله ما حلت بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرّسل أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**.

ويهاً بني قيلة، أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع ومنتدى ومجمع، تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة وأنتم ذوو العدد والعدة والاداء والقوة وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي إختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم وكافحتم البهم(٥) فلا نبرح وتبرحون، نأمركم فتأتمرون حتى إذا دارت بنا رحى(٦) الإسلام ودرَّ حلب الأيام وخضعت نعرة الشرك وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر وهدأت دعوة الهرج واستوسق نظام الدين، فأنّى حرتم بعد البيان وأسررتم بعد الإعلان ونكصتم بعد الإقدام وأشركتم بعد الإيمان **﴿بؤساً لقوم نكثوا إيمانهم، وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾** إلا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ما وعيتم ودسعتم الذي تسوغتم **﴿فإن تكفروا انتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾**.

«ألا وقد قلت ماقلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس وبثة الصدر ونفثة الغيض وتقدمة الحجة، فدونكموها فاستبقوها دَبِرة الظهر نقبة الخف باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، **﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾** وأنا ابنة نذير لكم بين يدي

عذاب شديد ﴿فاعملوا إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون﴾.

فأجابها أبـو بكر عبد الله بن عثمان ـ الخليفـة الأول ـ فقال: «يا ابنـة رسول الله، لقد كـان أبوك بالمؤمنين عطوفـاً كريماً رؤوفاً رحيماً وعلى الكـافرين عذاباً أليماً وعقـاباً عظيماً، فإن عزونـاه وجدناه أباك دون النسـاء وأخا إلفكِ [كذا] دون الأخـلاء، آثره على كل حميم وساعده في كل أمـر جسيم، لا يحبكم إلا كل سعيد ولا يبغضكم إلا كل شقي، فأنتم عترة رسـول الله (ص) الطيِّبون والخيرة المنتجبـون، على الخير أدلتنا وإلى الجنة مسـالكنا. وأنت يـاخيرة النساء، وابنة خير الأنبيـاء، صادقـة في قولكَ سـابقة في وفـور عقلك، غير مردودة عن حقك ولا مصـدودة عن صدقك والله مـا عدوت رأي رسـول (ص) ولا عملت إلا بإذنـه وإن الرائد[7] لا يكـذب أهله، فإني أشهـد الله وكفى بـه شهيـداً، إنِّي سمعت رسـول الله (ص) يقـول: «نحن معشر الأنبيـاء لا نورث ذهبـاً ولا فضة ولا داراً ولا وعقـاراً وإنما نـورث الكتاب والحكمـة والعلم والنبوة ومالنـا من طعمة فلولي الأمر بعدنا أن يحكم فيـه بحكمه، وقد جعلنا ما حاولتـه في الكراع والسلاح يقاتل بها المسلمون ويجاهـدون الكفار ويجادلون المردة الفجار، وذلك بإجماع من المسلمين لم أنفـرد به وحـدي ولم أستبد بما كان الـرأي فيه عندي وهذه حالي ومالي هي لك وبين يـديك لا تذوي عنك ولا تدخر دونك وأنت سيـدة أم أبيك والشجـرة الطيبـة لبنيك لا يـدفع مـالك من فضلك ولا يـوضع من فـرعك وأصلك وحكمك نـافذ فيما ملكت يـداي فهل تـرين أني أخـالف في ذلك أباك(ص)؟.

فقالت، (عليها السلام):

«سبحان الله، ما كان أبي رسول الله (ص) عن كتاب الله الآ صادقاً ولا لأحكامه مخالفاً، بل كان يتبع أثره ويقتفي سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالا عليه بالزور.

وهذا بعد وفاتـه شبيه بما بغي له من الغوائل في حياتـه هذا كتاب الله حكماً عدلاً وناطقاً فصـلاً، يقول ﴿يـرثني ويـرث من آل يعقـوب﴾ ويقول: ﴿وورث سليمان داود﴾ فبين عـز وجل فيما وزع من الأقساط وشرع مـن الفرائض والميراث وأبـاح من حظ الذكران والإناث، ما أزاح علـة المبطلين وأزال التظني والشبهات في الغابرين، كلا ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

فقال أبو بكر:

«صدق الله، وصدق رسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة وموطن الهدى والرحمة وركن الدين. لا أبعد صوابك ولا أنكر خطابك. هؤلاء المسلمون بيني وبينك. قلدوني ما تقلدتُ وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبد ولا مستأثر، وهم بذلك شهود».

فالتفتت فاطمة إلى الناس وقالت:

«معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر **﴿فلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾** كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم فأخذ بسمعكم وأبصاركم، لبئس ما تأولتم وساء ما به أشرتم، وشر ما منه اعتضتم، لتجدن والله محمله ثقيلا وغبّه وبيلا، إذا كشف لكم الغطاء وبان ما وراء الضراء، وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون وخسر هنالك المبطلون».

ثم عطفت على قبر النبي (ص)، وقالت متمثلة بأبيات أم مسطح هند بنت اثاثة:

كانت أمور وأنباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختل قومك فاشهدها ولا تغب

وأورد بعضهم قولها بعد هذين البيتين:

أبدى رجال لنا نجوى صدورهم ... لما مضيت وحالت دونك التُّرُبُ
تجهمتنا أناس واستخف بنا ... لما فقدت، وكل الإرث مغتصبُ
وكنت بدراً ونوراً يستضاءُ به ... عليك تنزل من ذي العزة الكتبُ
وكان جبريل بالآيات يؤنسنا ... فقد فقدت وكلُّ الخير محتجبُ
فليت قبلك كان الموتُ صادفنا ... لما مضيت وحالت دونك الكتبُ
إنا رُزئنا بما لم يرز ذو شجنٍ ... من البريّةِ لا عجم ولا عربُ

الهوامش:

* الأمين، السيد محسن: المرجع نفسه، مجلد١، ج٢، ص ٣١٥-٣١٨.

(١) طاح: هلك.

(٢) الوشيظ: بمعجمتين، الرذل والسفلة من الناس.

(٣) الحسو: الشراب شيئاً بعد شيء؛ والإرتغاء: شرب الرغوة؛ مثل يضربُ لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره. أصله الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة، فيشربها وهو في ذلك ينال اللبن.

(٤) مثل يضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته. والمشهور سرعان ذا إهالة. أهاله (بكسر الهمزة): الدسم، أصله أنَّ رجلاً كانت له نعجة وكان مخاطها يسيل، فقيل له: ما هذا؟ فقال: ودكها، أي دسمها. فقال السائل: سرعان ذا إهاله، وذا إشارة إلى الودك.

(٥) جمع بهمة، وهو الشجاع.

(٦) كناية عن انتظام أمره.

(٧) هذا مثل، والرائد هو الذي يتقدم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث.

ملحق رقم ٢ *

نص الكلمة العتابية التي وجهتها السيدة فاطمة الزهراء إلى زوجها الإمام علي، بعد عودتها من المسجد إلى دارها واستقرارها قالت:

«يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الضنين، نقضت قادمة الأجدل فخانك ريشُ الأعزل. هذا ابنُ أبي قحافة يبتزني نحيلة أبي وبلغة إبني لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألد في كلامي. حتى حسبتني قيلة نصرها والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع ولا ناصر ولا شافع. خرجت كاظمة وعدت راغمة، أضرعت خدك يوم أضعت جدك. افترست الذئاب وافترشت التراب. ما كففت قائلاً ولا أغنيت طائلاً ولا خيار لي. ليتني مت قبل منيتي ودون ذلتي. عذيري الله منك عادياً وفيك حامياً ويلاي في كل شارق ويلاي في كل غارب مات العمد ووهت العضد وشكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربي اللهم إنك أشدّ قوة وحولا واحد بأسا وتنكيلاً».

فقال لها الإمام علي (عليه السلام):

«لا ويل لك بل الويل لشانئك. نهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة وبقية النبوّة فما ونيتُ عن ديني ولا أخطأت مقدوري فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون وكفيلك مأمون وما أعد لك أفضل مما قطع عنك فاحتسبي الله».

فقالت: «حسبي الله». وأمسكت.

الهوامش:

* الأمين، السيد محسن: المرجع نفسه، مجلد١، ج٢، ص٣١٨.

ملحق رقم ٣*

نص الخطبة التي القتها السيدة فاطمة الزهراء، في مرضها بمناسبة زيارة نساء المهاجرين والأنصار لها في بيتها، وكانت تلك الخطبةعبارة عن رسالة منها لأزواجهن. فحينما سألنها عن علتها قالت بعد أن حمدت الله، وصلت على أبيها:

«أصبحتُ والله عائفة لدنياكنّ، قالية لرجالكن، لفظتهم بعد أن عجمتهم، وشنأتهم بعد أن سبرتهم فقبحا لفلول الحد، واللعب بعد الجد وقرع الصفاة[1] وصدع القناة وخطل الآراء وذلل الأهواء ﴿ولبئسما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾.

لا جَرم لقد قلدتهم ربقتها وحملتهم أوقتها[2] وشننت عليهم غارتها فجدعا وعقراً وبعدا للقوم الظالمين ويحهم انّى زعزعوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوّة والدلالة ومهبط الروح الأمين والطِّيبين[3] بأمور الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين. وما الذي نقموا من أبي الحسن؟ نقموا منه والله نكير سيفه وقلة مبالاته بحتفه وشدّة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله عز وجل وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة وزالوا عن قبول الحجة الواضحة، لردهم إليها وحملهم عليها، وتالله لو تكافوا عن زمام نبذه إليه رسول الله (ص) لاعتلقه ولسار بهم سُجُحاً لا يكلم خشاشة ولا يكل سائره ولا يمل راكبه ولأوردهم منهلاً نميرا صافياً روياً فضفاضاً تطفحُ ضفتاه ولا يترنق جانباه ولا صدرهم بطاناً ونصح لهم سراً واعلاناً، ولم يكن يتحلى من الغنى بطائل ولا يحظى من الدنيا بنائل غير ريِّ الناهل وشبعة الكافل ولبان لهم الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾. ألا هلم فاستمع وما عشت أراك الدهرُ عجباً.

﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾.

«ليت شعري إلى أي لجأ لجأوا، وإلى أي سناد استندوا، وعلى أي عماد اعتمدوا، وبأي عروة تمسكوا، وعلى أي ذرية قدموا وإحتنكوا **﴿لبئس المولى ولبئس العشير وبئس للظالمين بدلاً﴾**.

إستبدلوا والله الذنابي بالقوادم والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً **﴿ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾** ويحهم **﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي؛ إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون﴾**.

«أما لعمري لقد لُقِحت، فنظرة ريثما تنتج ثم احتلبوا ملء العقب دما عبيطاً وذعافاً، واطمئنوا للفتنة جأشاً وابشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم وبهرج دائم شامل واستبداد من الظالمين يدع فيأكم زهيداً وجمعكم حصيداً، فيا حسرة لكم وأني بكم، وقد عميت عليكم **﴿انلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾**».

الهوامش:

* الأمين، السيد محسن: المراجع نفسه، مجلد١، ج٢، ص٣٢٠.

(١) كناية عن النيل بسوء.

(٢) ثقلها.

(٣) الفطن، الحاذق.

ملحق رقم ٤ *

نص الكلمة التي قالها الإمام علي (ع) بعد دفنه السيدة فاطمة الزهراء (ع) حيث حوّل وجهه إلى قبر رسول الله (ص) مناجياً:

«السلام عليك يا رسول الله: عني وعن ابنتك وزائرتك النازلة في جوارك والبائتة في الثرى ببقعتك والمختار الله لها سرعة اللحاق بك قلّ يا رسول الله، عن صفيتك صبري ورق عنها تجلدي، إلا أن في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز فلقد وسدتك في ملحود قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك بلى وفي كتاب الله لي نعم القبول إنا لله وإنا إليه راجعون.

قد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة واختلست الزهراء فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله أما حزني فسرمد. وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم كمد مقيح وهم مهيج سرعان ما فرق بيننا، وإلى الله أشكو، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فاحفها السؤال، واستخبرها الحال فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثه سبيلاً وستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين، والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئم فإن انصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين.

واها واها والصبر أيمن وأجمل ولولا غلبة المستولين لجعلت المقام واللبث لزاماً معكوفاً ولأعولت إعوال الثكلى على جليل الرزيّة، فبعين الله تدفن ابنتك سراً، وتهضم حقها وتمنع إرثها، ولم يطل العهد ولم يخلق منك الذكر. إلى الله يا رسول الله المشتكى وفيك يا رسول الله أحسن العزاء. صلى الله عليك وعليها السلام والرضوان».

ولما إنتهى الإمام علي (ع) من دفنها وقف على شفير القبر، وأنشأ:

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكل الذي دون الفراق قليل

وإن افتقادي واحداً بعد واحد ... دليل على أن لا يدوم خليلُ

الهوامش:

* الأمين، السيد محسن: نفس المرجع، مجلد ١، جـ٢، ص٣٢٢، أيضاً، ابن أبي الحديد: نفس المرجع، مجلد١، جـ١٠، ص٥٩٠ـ٥٩١، ٥٩٨.

ملحق رقم ٥ *

قصيدة للشاعر حسين بن شمس الحسيني، تتضمَّن حججَ زعماء دولة النبوّة الثلاثة عشر، بدءاً بالمؤسس النبي محمد (ص) وانتهاء بالخليفة الثاني عشر للرسول (ص)، محمد المهدي، مشتملة على أماكن مولدهم ووفاتهم، وكذلك تواريخ ميلادهم ووفاتهم. صلوات الله عليهم أجمعين.

قال أبو هاشم في بيانه ... ولفظه يخبر عن جنانه

الحمدُ لله على الإيمان ... بالمصطفى والآل والقرآن

عليهم الصلاة والسلام ... ما غرَّدت بأيكة حمام

وبعد فاسمع ثم سدَّ الخللا ... فجلَّ من لا عيب فيه وعلا

لقد حداني من له أُطيع ... لنظم تاريخ له أُذيع

فهاك تاريخ النبي المصطفى ... وآله المطهرين الخلفا

فمولد النبي عام الفيل ... بمكة والحرم الجليل

وفاته حادي عشر هجرته ... بطيبة، وهي محل تربته

ومولد الوصي أيضاً في الحرم ... بكعبة الله العلي ذي الكرم

من بعد عام الفيل في الحساب ... عشر وعشرين بلا ارتياب

وفـاتــه بـالهجـرة المعـروفـة	عـام أربعين قبره بـالكـوفـة
ومـولـد الـزكيِّ نجل الـزهـرة	بطيبـة ثـاني عـام الهجـرة
وقبـره بهـا عـلـى يقـيـن	ثم وفيهـا مـولـد الحسين
وعمـره ثمان أربعـونـا	وصحَّ أنَّ الموت في الخمسينـا
ومـولـد الحسين في ربيع	لثـالث من هجـرة التشفيع
حـادي وستين قضى شهيـدا	بكـربـلا تـزوره الـوفـود
ومـولـد السجـاد في شعبـان	ثـامن ثـلاثين لـذي البيـان
مـيـلاده مـدينـة الـرسـول	حبيـب رب ملـك جليـل
وفـاتـه في الخمس والتسعينـا	وفي البقيـع قبره يقينـا
وبـاقـر العلم ولـد بطيبـة	وقبره بها بغير ريبـة
وسـابع الخمسين من شهـر صفـر	مـولـده، وفـاتـه الـرابع عشر
بعـد تمام مئـة هجـريـة	وهـذه روايـة قـويَّـة
وطيبـة مـولـد نجل البـاقـر	ثـالث ثمانين سني الهاجـر
وفـاتـه ثـامن وأربعينـا	ومـائة معـدودة ستينـا
وقبره بجـانـب البقيـع	مجاوراً لجده الشفيـع
ومـولـد الكـاظم بـالأبـواء	ثـامن وعشرين على استـواء
ومئـة من قبلهـا هجـريـة	ثـالث ثمانين بها المنيَّـة
وقبره بجـانب الـزوراء	من أرض بغـداد بـلا مـراء

ومـولـد الرضـا سليل الـزهـرة مـدينـة الـرسـول دار الهجـرة

مـولـده ثمان وأربعينـا ثـالث وميتين الـوفـا يقينـا

وقبره في سنـابـاد طـوسـا حلَّ بها مقـدَّسـا تقـديسـا

ومـولـد الجواد بعـد المائة لخامس التسعين في الـروايـة

ميـلاده بأفضل البقـاع مـدينـة الـرسـول خير داع

والقبض عشرين ومـائتين والقبر في الـزورا بغير مين

ثم علي هـادي الأنـام ميـلاده مـدينـة التهـامي

ثـاني عشر مـائتي سنينـا وفـاتـه في رابع الخمسينـا

والعسكـري ميـلاده المدينـة مـدينـة المصحـوب بـالسكينـة

ثـاني ثـلاثين ومـائتين والقبـض ستين ومـائتين

وسر من رأى مكـان القبر كفـاك والـده عظيم الفخـر

ومـولـد المهـديِّ في شعبـان خمس وخمسين ومـائتـان

في سر من رأى بـدار العسكـري ونـرجس الأم يقـول الأكثـر

تمّت تـواريخ الهداة الطـاهـرة مشفـوعـة بـالصلوات الفـاخـرة

نظـم الفقير المذنـب الحسنيني راجي عفـو الله في الـدارين

ثـمَّ شفـاعـة النبي الهادي وآلـه خـلاصـة العبـاد

الهوامش:

* البياضي: نفس المرجع، جـ٢، ص٢١٥ ـ ٢١٧.

ملحق رقم ٦ *

نص خطاب الإمام الحسين الذي ألقاهُ في أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد الرّياحي قائد الطليعة الأولى للجيش الأموي بالبيضة: قال الإمام الحسين (ع) بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس، إن رسول الله (ص) قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله (ص)، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يُغيِّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمٰن وأظهروا الفساد، وعطَّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله وحرَّموا حلاله، وأنا أحقُّ من غيَّر، وقد أتتني كُتُبكم، وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم، أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله(ص)، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم فلكم فيَّ أُسوةٌ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغترَّ بكم، فحظَّكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، من نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته».

* العسكري: نفس المرجع، ص ٧١ ـ ٧٢.

ملحق رقم ٧ *

نص الخطاب الذي وجهه الإمام الحسين (ع) للجيش الأموي بكربلاء يوم السادس من محرم سنة ٦١ من الهجرة.

«أنشدكم الله هل تعرفونني قالوا: اللهم نعم، أنت ابن رسول الله وسبطه. فقال: أنشدكم الله هل تعلمون أن جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن جدّتي خديجة بنت خويلد أوّل نساء هذه الأمة إسلاماً؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن أبي علي بن أبي طالب؟ قالوا: اللهم نعم، قال أُنشدكم الله هل تعلمون أن حمزة سيِّد الشهداء عم أبي؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أُنشدكم الله هل تعلمون أن الطيار في الجنة عمي؟ قالوا: اللهم نعم، قال أُنشدكم الله هل تعلمون أنَّ هذه عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله أنا لابسها؟ قالوا: اللهم نعم، قال أُنشدكم الله هل تعلمون أن علياً كان أولهم إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً وأنه وليُّ كل مؤمن ومؤمنة؟ قالوا: اللهم نعم، قال فبمَ تستحلُّون دمي وأبي صلوات الله عليه هو الذائد عن الحوض يوم القيامة يذودُ عنه رجالاً كما يذود البعير الصادر عن الماء، ولواءُ الحمد في يده يوم القيامة؟ قالوا: قد علمنا ذلك كله، ونحن غير تاركيك حتى تذوق الموت عطشاً».

* الحلي: نفس المرجع، ص ٥٩ ـ ٦٠ أيضاً.
العسكري: نفس المرجع، ص ٩٠.

ملحق رقم ٨ *

نص خطاب الإمام الحسين (ع) في أصحابه ليلة العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة.

روي عن علي بن الحسين قال: جمع الحسين أصحابه بعدما رجع عمر بن سعد، وذلك عند قرب المساء، قال علي بن الحسين: فدنوتُ منه لأسمع وأنا مريض فسمعتُ أبي وهو يقول لأصحابه:

«أُثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم! إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوّة وعلّمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين، أما بعد فإني لا أعلمُ أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً، ألا وإني أظنُّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد رأيتُ لكم، فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله، فإن القوم إنما يطلبوني ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري».

ملحق رقم ٩ *

نص الخطاب الذي وجهه الإمام الحسين للجيش الأموي بكربلاء يوم العاشر من محرم سنة ٦١ من الهجرة.

قال الإمام الحسين (ع) بعد أن استنصت الجيش وحمد الله واثنى عليه وذكره بما هو أهله وصلى على الملائكة والأنبياء والرسل:

«تباً لكم أيّتها الجماعة وترحاً، حين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في إيمانكم، وحشوتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّكم وعدوّنا، فاصبحتم الباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدلٍ أفشوه فيكم، ولا أملٍ أصبح لكم فيه، فمهلاً لكم والويلات، تركتمونا والسيف هشيم والجأش طامن، والرأي لم يستصحف، ولكن اسرعتم إليها كطيرة الدبا كتهافت الفراش، فسحقاً لكم يا عبيد الأُمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الآثام، ونفثة الشيطان، ومطفيء نور الإسلام، أهولاً تعضدون، وعنا تخاذلون، أجل والله غدر فيكم قديم، شجت عليه أصولكم وتأزّرت عليه فروعُكم، فكنتم أخبث ثمر شجي للناظر، وأكلة للغاصب، ألا وإنَّ الدَّعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السّلّةِ والذّلة، وهيهات مِنّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وظهور طهرتْ، وأُنوفٌ حميّة، ونفوس أبيّة، أن نُؤثر طاعة اللّئام على مصارع الكرام. ألا وإني زاحف بهذه الأُسرة مع قلة العدد، وكثرة العدو وخذلة الناصر». ثم تمثل عليه السلام بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

فإن نُهزم فهزّامون قدما ... وإن نُغلب فغير مغلّبينا
وما إن طبُّنا جبنٌ ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
إذا ما الموت رفع عن أُناسٍ ... منازله أناخ بآخرينا
فأفنى ذلك سروات قومي ... كما أفنى القرون الأوّلينا
فلو خلد الملوك إذاً خلدنا ... ولو بقي الكرام إذاً بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم أيمّ الله لا تلبثون بعدها إلاّ كريت ما يركب الفرس حتى يدور بكم دور الرّحا ويقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إليّ أبي عن جدّي، فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إليّ ولا تنظرون. إني توكلت على الله ربّي وربّكم ما من دابّة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربّي على صراط مستقيم. اللهم أحبس عنهم قطر السماء وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف عليه السلام وسلّط عليهم غلام ثقيف يسومُهم كأس مصبرة فإنهم كذبونا وخذلونا وأنت ربُّنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. . .».

ثم نزل صلوات الله عليه ونادى: «يا عمر بن سعد، تقتلني وتزعم أن الدعي ابن الدَّعي ولاّك الريّ وجرجان، والله لا تتهنّى بذلك بعدي ابداً، عهد معهود، فاصنع ما أنت صانع فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة وكأني برأسك على قصبة قد نُصبت بالكوفة، تترامى الصبيان بالحجارة».

الهوامش:

* الحلي: نفس المرجع، ص ٦٣ ـ ٦٦، أيضاً.
* العسكري: نفس المرجع، ص ١٠٠ ـ ١٠١.

ملحق رقم ١٠ *

نص خطبة فاطمة الصغرى بنت الإمام الحسين في جموع أهل الكوفة المحتشدة في السكك حين دخول قافلة الأسر والسبي من آل رسول الله.

«الحمد لله عدد الرمل والحصى، وزنة العرش والثرى، أحمده وآمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وأن ولده ذبحوا بشط الفرات من غير ذحل ولا ترات، اللهم إني أعوذ بك أن أفتري عليك الكذب، أو أن أقول عليك خلاف ما أنزلت عليه من أخذ العهود لوصيه علي بن أبي طالب، المسلوب حقه، المقتول من غير ذنب، كما قتل ولده بالأمس في بيت من بيوت الله فيه معشر مسلمة بألسنتهم تعسا لرؤوسهم ما دفعت عنه ضيما في حياته ولا عند مماته حتى قبضته إليك محمود النَّقيبة، طيِّب العريكة، معروف المناقب، مشهور المذاهب، لم تأخذه فيك اللهم لومة لائم، ولا عذل عاذل هديته يا رب بالاسلام صغيراً وحمدت مناقبه كبيراً ولم يزل ناصحاً لك ولرسولك (ص) حتى قبضته إليك زاهداً في الدنيا، غير حريص عليها، راغباً في الآخرة، مجاهداً في سبيلك رضيته فهديته إلى صراطٍ مستقيم. أما بعد. . يا أهل الكوفة. يا أهل الختا والمكر والغدر والخيَلاء، فانّا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا، فعجّل بلانا حسناً، وجعل علمه عندنا وفهمه لدينا، فنحن عيبة علمه، ووعاء فهمه وحكمته، وحجته على أهل الأرض في بلاده لعباده، وأكرمنا الله بكرامته، وفضلنا بنبيه محمد (ص) على كثير ممن خلق تفضيلا بينا، فكذَّبتمونا وكرهتمونا، ورأيتم قتلنا حلالاً؛ وأموالنا نهباً، كأنّا أولاد تركٍ أو كابل، كما قتلتم جدَّنا بالأمس، وسيوفكم تقطِرُ من دمائنا أهل البيت. قرّت لذاك عيونكم وفرِحتْ قلوبُكم افتراءً على الله ومكراً مكرتموه، والله خير الماكرين، فلا تدعونّكم أنفسكم إلى الجدل بما أصبتم من دمائنا، ونالت أيديكم من أموالنا، فإنّ ما أصابنا من المصائب الجليلة والرّزء

العظيم في كتاب من قبل أن نبرأها إنَّ ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم الله والله لا يحبُّ كل مختالٍ فخور [كذا].

اضربوا أمثالكم فانتظروا اللعنة والعذاب، فكأن قد حلَّ بكم، وتواترت من السماء نقمات فيسحتكم بما كسبتم، ويذيق بعضكم بأس بعضٍ ثم تخلدون في العذاب الأليم يوم القيامة بما ظلمتمونا، ألا لعنة الله على الظالمين. ويلكم أتدرون أيّة يدٍ طاعتنا منكم وأيّة نفسٍ فزعت إلى قتالنا، أم بأية رجل مشت إلينا، تبغون محاربتنا، قست قلوبُكم، وغلظت أكبادكم، وطبع على أفئدتكم، وختم على سمعكم وبصركم وسوّل لكم الشيطان وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوة فأنتم لا تهتدون تبّاً يا أهل الكوفة، أي تراتٍ [كذا] لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلتم ودحول له لديكم بما عندتم بأخيه علي بن أبي طالب (ع) جدّي وبنيه وعترة النبي(ص) الطاهرين الأخيار وافتخر بذلكم مفتخركم فقال:

قد قتلنا عليا وبني عليٍّ بسيوف هنديَّةٍ ورماح

وسبينا نساءهم سبي تركٍ ونطحناهم فأي نطاحِ

بفيك أيُّها القائل الكثكث والأثالب افتخرت بقتل قوم زكَّاهم الله وطهرَّهم وأذهب عنهم الرِّجس، فاكظم واقع كما اقعا أبوك وإنما لكل إمرىءٍ ما اكتسبت يداه، وما قدّمت أوايله، أحسدتمونا ويلاً لكم على ما فضلنا الله عليكم».

ثم قالت شعراً:

فما ذنبنا أن جاش دهراً لجورنا وبحرك ساج ما يواري الدعا مضى

﴿ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.

الهوامش:

* الحلي: نفس المرجع، ص١٠٣_١٠٧.

ملحق رقم ١١ *

نص الخطبة التي ألقتها السيدة زينب الصغرى المكناة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب في جموع أهل الكوفة حين دخول آل رسول الله في قافلة الأسر والسّبي، فقالت:

«يا أهل الكوفة سوءة لكم، ما لكم خذلتم حسيناً وقتلتموه وانتهبتم أمواله وورثتموه، وسبيتم نساءه ونكبتموه، فتبّاً لكم وسحقا، ويلكم أتدرون أيُّ داهيةٍ دهكتم، وأيُّ وزر على ظهوركم حملتم، وأيُّ دماءٍ سفكتموها، وأيُّ كريمةٍ أصبتموها، وأيُّ صبيّة سلبتموها، وأيُّ أموال انتهبتموها، قتلتم خير رجالاتٍ بعد النبي (ص) ونزعت الرحمة من قلوبكم، ألا إن حزب الله هم الفائزون، وحزبُ الشيطان هم الخاسرون، ثم قالت شعراً:

قتلتم أخي صبرا فويلا لأُمّكم ... ستُجزون ناراً حدُّها يتوقدُ

سفكتم دماء حرم الله سفكَها ... وحرَّمها القرآن ثم محمدُ

ألا فابشروا في النار إنكم غداً ... لفي سَقرٍ حقّاً يقيناً تخلدوا

وإني لأبكي في حياتي على أخي ... على خير من بعد النبي سيولدُ

بدمع غزيرٍ مستهل مكفكفٍ ... على الخدّ مني ذايباً ليس يجمدُ

ملحق رقم ١٢ *

نص خطبة زين العابدين علي بن الحسين في حشود أهل الكوفة حينما دخل آل رسول الله (ص) في قافلة الأسر والسبي، في شوارع الكوفة. قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرِّفه بنفسي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحلٍ ولا ترات، أنا ابن من انتهك حريمه وسُلِبَ نعيمه، وانتهب ماله، وسبيت عياله، أنا ابن من قُتِلَ صبراً، وكفى بذلك فخرا. أيّها الناس ناشدتكم بالله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، وقاتلتموه وخذلتموه، فتباً لما قدَّمتم لأنفسكم، وشوهاً لرأيكم، بأية عين تنظرون إلى رسول الله(ص) إذ يقول: قتلتم عترتي وانتهكتم حُرمتي فلستم من أمتي. رحم الله أمرأً قبل نصيحتي وحفظ وصيَّتي في الله وفي رسوله وأهل بيته، فإنّ لنا في رسول الله أسوة حسنة».

ولما تنادى الحاضرون لنصرته، رد عليهم قائلاً: «هيهات أيها الغدرة المكرة حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم أتريدون أن تأتوا إليّ كما أتيتم إلى أبي من قبل؟ كلا وربِّ الرَّاقصات، فإن الجرح لم يندمل، قتل أبي عليه السلام بالأمس وأهل بيته معه، ولم ينسني ثكل رسول الله صلى الله عليه وآله وثكل أبي وبني أبي، ووجده بين لهاتي ومرارته بين حناجري وحلقي، وغصصه تجري في فراش صدري، ومسألتي أن لا تكونوا لنا ولا علينا». ثم قال شعراً:

ولا غرو أن قتل الحسين فشيخه ... لقد كان خيراً من حسين وأكرما
فلا تفرحوا يا أهل كوفان بالذي ... أصيب حسين كان ذلك أعظما
قتيل بشاطىء النهر روحي فِداؤهُ ... جزاء الذي أرداه نار جهنما

ثم قال (ع) «رضينا منكم رأساً برأسٍ فلا يوم لنا، ولا يوم علينا».

* الحلي: نفس المرجع، ص١٠٨ ـ ١١١.

ملحق رقم ١٣ *

نص الخطبة التي ألقاها زين العابـدين، علي بن الحسين في مجلس يزيد بالقصر الأخضر بدمشق، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«أيها النـاس، أُعطينـا ستّاً وفضّلنا بسبع : أُعطينـا العلـم والحلم والسماحـة والفصـاحة والشجـاعـة والمحبة في قلـوب المؤمنين. وفضّلنـا بأنّ منّا النبي المختـار محمد(ص)، ومنّا الصديق، ومنّا الطيار، ومنّا أسدُ الله وأسدُ رسوله ومنّا سيِّدة نساء العالمين فاطمةُ البتول، ومنّا سبطا هـذه الأُمة، وسيدا شباب أهل الجنة فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي :

أنا ابن مكَّة ومنى، أنا ابنُ زمزم والصفا، أنـا إبنُ من حمل الزكاة بأطراف الرداء، أنـا ابن خير من ائتـزر وارتـدى، أنـا ابنُ خير من انتعل واحتفى، أنـا ابنُ خير من طاف وسعى، أنا ابنُ خير من حـجَّ ولبَّى، أنا ابنُ من حُمِلَ على البراق في الهواء، أنا ابنُ من أُسري به من المسجـد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحـان من أسرى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنـا فتدلَّى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابنُ من صلَّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابنُ محمد المصطفى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قـالوا لا إله إلا الله، أنا ابنُ من بـايع البيعتين، وصلَّى القبلتين، وقـاتل ببدر وحنين، ولم يكفـر بـالله طرفـة عين، يعسـوب المسلمين، وقاتل النـاكثين، والقـاسطين والمارقين، سمح سخي، بهلـول زكـي، ليث الحجـاز وكبش العـراق، مكيّ مـدني، أبطحي تهامي خيفي عقبيّ، بدريّ أحديّ، شجريّ مهاجريّ، أبو السبطين، الحسن والحسين، علي بن أبي طـالب، أنـا ابـن فـاطمـة الـزهـراء، أنـا ابن سيـدة النسـاء، أنـا ابن بضعـة الرسول. . . ».

وقد قطع يـزيد الخطبةعلى زين العابـدين خوف الفتنة لاستسلام النـاس للبكاء حينما عرفوا الحقيقة، فسكت عـن الكلام وهو على المنبر، فلما قال المؤذّن : الله أكبر. قال علي بن الحسين : كبَّرتُ كبيرا لا يقاس، ولا يـدرك بالحواسّ، ولا شيء أكبر من

الله، فلما قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، قال علي: شهد بها شعري وبشري، ولحمي ودمي ومخّي وعظمي، فلما قال: أشهدُ أن محمداً رسول الله التفت علي من أعلى المنبر إلى يزيد وقال يـا يزيد: محمد هذا جدّي أم جدك فإن زعمت أنـه جدّك فقد كذبت وإن قلت إنه جدّي لم قتلت عترته؟».

وبعد فراغ المؤذن تقدم يزيد وصلى الظهر.

الهوامش:

* فتـوح ابن أعثم ٥/ ٢٤٧ ـــ ٢٤٩، أيضـاً، مقتل الخوارزمي ٢/ ٦٩ ـــ ٧١ عـن العسكـري: نفس المرجع، ص١٦٥ ـ١٦٦ (الخطبة موجزة).

ملحق رقم ١٤ *

نص الخطبة التي ألقاها الإمام زين العابدين، علي بن الحسين (ع)، في أهل المدينة حين استقبلوه خارج المدينة، بعد عودته من رحلة الإستشهاد بكربلاء:

«الحمد لله رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، مالك يوم الدين، بارىء الخلائق أجمعين الذي بعد فارتفع في السموات العلى وقرب فشهد النجوى. نحمده على عظائم الأمور وفجائع الدهور وألم الفجائع ومضاضة اللّواذع وجليل الرّزء وعظيم المصائب الفاظعة الكاظة الفادحة الجائحة. أيها القوم، إنَّ الله وله الحمد ابتلانا، بمصائب جليلة وثلمة في الإسلام عظيمة، قتل ابو عبد الله الحسين، عليه السلام، وعترته وسبي نسائه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان من فوق عالي السنان. وهذه الرزية التي لا مثلها رزيّة. أيها الناس فأي رجالات منكم يُسرُّون بعد قتله؟ أم أية عين منكم تحبس دمعها وتضنُّ عن انهمالها، فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسموات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان ولجج البحار والملائكة المقرَّبون وأهل السموات أجمعون.

يا أيُّها الناس، أيُّ قلب لا يتصدع لقتله؟ أم أي فُؤاد لا يحنُّ إليه؟ أم أيُّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام.

أيُّها الناس، أصبحنا مطرودين مشردين مذودين وشاسعين عن الأمصار، كأنّا أولاد ترك وكابل من غير جرم اجترمناه ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين. إن هذا إلا اختلاق، والله لو أن النبي تقدم إليهم في قتالنا كما تقدم إليهم في الوصاية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأفجعها وأكظّها وافظعها وأمرَّها وأفدحها، فعند الله نحتسب فيما أصابنا ومابلغ بنا، فإنه عزيز ذو انتقام».

* الحلي، المرجع نفسه، ص ١٣٨ ـ ١٤٠.

فهرست المصادر

أولاً: المصادر الأولية:

أ ـ المخطوطات:

١ ـ الأبشيهي، أبوالبقا محمد بن أحمد الخطيب: المستطرف من كل شيء مستظرف.

٢ ـ الأصفهاني، آغا محمد رضا القمشاهي: بيان في خلافة النبي.

٣ ـ البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل: الجامع الصحيح، مجلدان، ثلاثون جزءاً.

٤ ـ الحائري، محمد الموسوي البوشهري: اللؤلؤة العالية في الرد على الفرقة الغالية.

٥ ـ الحلي، علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس: اللهوف على قتلى الطفوف.

٦ ـ الخوي، أحمد بن محمد بن علي: أطباق الذهب.

٧ ـ الصَّغاني: مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية.

٨ ـ العاملي، بهاء الدين محمد: زبدة الأصول.

٩ ـ العاملي، تاج الدين بن علي: التتمة في تواريخ الأئمة.

١٠ ـ الكبداتي، محمد مؤمن بن محمد سعيد: مشكاة المصابيح.

١١ ـ المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد: تصحيح اعتقاد الإمامية.

١٢ ـ ملا علي، محمد: تكفير المكفرين.

ب ـ الكتب المنشورة.

١ ـ ابراهيم، حافظ: الجزء الأول من ديوانه، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان، ١٩٦٩م.

٢ ـ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٤ مجلدات (٢٠ جزءاً). دار الفكر، تاريخ ومكان النشر غير مدونين.

٣ ـ ابن الأثير: أبو الحسن على بن أبي الكريم، محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب بعز الدين، المتوفى سنة ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، مجلد ١، تاريخ ماقبل الهجرة، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٤ ـ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (٥١٠ ـ ٥٩٧ هـ): صفة الصفوة، حققه وعلق عليه محمود فاخوري، خرَّج أحاديثه د. محمد رواس قلعة جي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٥ ـ ابن حجر، احمد الهيثمي: الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

٦ ـ ابن حنبل، احمد بن محمد: المسند، جـ ١، ٢، ط ٣، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، ١٣٦٨هـ ـ ١٩٦٥م.

٧ ـ ابن طولون، شمس الدين محمد، نوادر المخطوطات (الأئمة الإثني عشر): ٩٥٣هـ ١٥٤٦م، مؤرخ دمشق، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.

٨ ـ ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة (جزءان)، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٩ ـ ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ١. حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى الشعار، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر. ١٣٥٥ ـ ١٩٣٦.

١٠ ـ البلاذري: انساب الأشراف، القسم الرابع، جـ ١، بيروت، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٧٩م. دار النشر غير مذكورة.

١١ ـ الذهبي، الحافظ المؤرخ شمس الدين بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام: السيرة النبوية، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٢ ـ الطبري: الحافظ محب الدين أحمد بن عبد الله: ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت ـ لبنان، تاريخ النشر غير مذكور.

١٣ ـ العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن حجر: (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ). صحيح البخاري، جـ ١، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، تاريخ النشر غير مذكور.

١٤ ـ مناظرة بين الغروي والهروي ومجادلتها في أمر الخلافة حال اجتماعها بمرقد الإمام علي بن موسى الرضا، في مدينة مشهد بإيران، نقلاً عن نسخة طبع العراق، ط ٣، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧.

١٥ ـ النسائي، الإمام الحافظ النقاد أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، كتاب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. تصنيف أبي إسحاق الحويني الأثري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

١٦ ـ الواقدي، محمد بن عمر بن واقد المتوفّى سنة ٢٠٧ هـ: كتاب الردَّة، رواية أحمد بن أعثم الكوفي، المتوفى سنة ٣١٤هـ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠م.

ثانياً: المصادر الثانوية:

أ ـ العربية:

١ ـ الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد، الملل والنحل، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥.

٢ ـ الأمين، السيد محسن: أعيان الشيعة: مجلد ١، ٢، ٣، ٤، ٧، ٨ دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣ ـ البحراني، السيد هاشم الحسيني التوبلي، المتوفى سنة ١١٠٧ هـ أو ١١٠٩هـ: الإنصاف في النص على الأئمة الاثني عشر من آل محمد (ص) الاشراف، صحّحه وترجمه فارس سيد هاشم رسولي محلاتي، جانجانه علمية، ١٩٦٦م.

٤ ـ البياضي، الشيخ زين الدين بن محمد علي بن يونس العاملي، النباطي، المتوفى عام ٨٧٧هـ، الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، صححه وحققه وعلق عليه محمد الباقر البهبودي، المكتبة المرتضوية، مطبعة الحيدري. تاريخ النشر غير مدوّن.

٥ ـ الشرقاوي، عبد الرحمن: علي إمام المتقين، (جزءان). مؤسسة الوفاء، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٦ ـ الجزائري، السيد نعمة الله الموسوي: الأنوار النعمانية، جـ ١، مطبعة شركة جان به، تبريز، إيران، تاريخ النشر غير مدوّن.

٧ ـ الحسني، هاشم معروف: سيرة الائمة الاثني عشر، القسم الأول، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.

٨ ـ الحسيني، محمد: الإمام الشهيد محمد باقر الصدر، دار الفارابي، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٩ ـ الزركلي، خير الدين: الأعلام، مجلد ١، ٣، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٤.

١٠ ـ الشيرازي، السيد حسن: كلمة الإمام الحسن، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط ١، رمضان ١٣٨٥هـ، ط ٢، شعبان ١٣٨٦هـ.

١١ ـ العسكري، العلامة السيد مرتضى: معالم المدرستين، قيام الإمام الحسين ضد الإنحراف عن سنة رسول الله (ص)، المجلد الثالث، قسم الدراسات الاسلامية، مؤسسة البعثة، مطبعة الاتحاد، طهران، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٢ ـ القرّماني، أبي العباس أحمد بن يوسف بن احمد الدمشقي: كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، لبنان، تاريخ النشر غير مدوّن.

١٣ ـ الكاشي، الشيخ عبد الوهاب: مأساة الحسين بين السائل والمجيب، ط ١، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٣.

١٤ ـ المجلسي، الشيخ محمد باقر: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الأطهار، ط ٢، المصحّحة، جـ ٢١، ٢٨، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٥، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان. ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٥ ـ جرداق، جورج: علي وعصره، جـ ٤، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٠.

١٦ ـ خالد، خالد محمد: أبناء الرسول في كربلاء، ط ٢، مطبوعات الشعب، القاهرة/ ديسمبر ١٩٧٧.

١٧ ـ عوضين، ابراهيم (الدكتور): ديوان الخنساء: تحقيق د. إبراهيم عوضين، ط ١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٨ ـ يماني، محمد عبده (الدكتور): علموا أولادكم محبة آل بيت النبي، ط ١، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١، ط ٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، دار القبلة للثقافة الاسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت ـ لبنان.

ب ـ الأجنبية

١ ـ

Jihad and Shahadat: (struggle and Martyrdom in Islam), Edited by Mehdi Abedi and Gary Legenhausen, The Institue for Research and Islamic Studies (IRIS).

٢ ـ

Batatu, Hanna: Iraq's Underground shia't Movements:

characteristics, causes, and Prospects, a paper submitted to a Symposium on "Iraq contemporay state".

Which was held at the University of Exeter, United Kingdom

betwen 9 and 12 July

الفهرس

الصفحة

١ ـ الاهداء ٥

٢ ـ التمهيد ٧

٣ ـ المقدمة : أ ـ المرأة في العصر الجاهليّ ١٣

ب ـ مكانة المرأة ودورها في ظل دولة النبوّة .

٤ ـ الفصل الأول : خديجة بنت خويلد .

رائدة النضال الأولى للمرأة الرّسالية في دولة النبوّة ٤٣

٥ ـ الفصل الثاني : فاطمة الزهراء بنت محمد (ص) .

رائدة النضال الثانية للمرأة الرسالية في دولة النبوّة ٦٣

٦ ـ الفصل الثالث : زينب بنت علي بن أبي طالب (ع) .

رائدة النضال الثالثة للمرأة الرسالية في دولة النبوّة ١٦١

٧ ـ الفصل الرابع : نماذج لنضال المرأة الرسالية .

في دولة النبوة لمجموعة من النساء في فترات مختلفة ٢٦٥

٨ ـ الخاتمة العامة ٣١٥

٩ ـ الملاحق ٣٢١

١٠ ـ فهرست المصادر ٣٤٩

ABSTRACT

The purpose of this book is to focus on the role of " AL MARRA'A AL RESALYYA"* in the formatian of the Islamic history and how the spiritual realm of the prophethood took shape through the ages. "al-Mar'a al-Risaliyya" is not merely a believer OF ISLAM or a righteous figure; within her perspective and inspite of her varied position, she has had the power to shed the light on the spiritual continuity of the prophecy education from one historical stage to another. Thus, the research will attempt to give a presentation of the origin of the early prophecy education which characterized the individual merits of the selected examples. This, however, will clarify the women's roles in revival of the spiritual influence during any transistory period in which secular rulers violated the Islamic faith.

Undoubtedly, there were many highly but the successive led to the definition of the prominent roles which contrebute effectually to the revival of Muhammadanism spirit.

Accordingly, this study consists of preface, introduction, four chapters, conclusion, appendices and bibliography.

The introduction of this stuoy is devoted to the recognition of the social position of the pre-Islamic woman and how it has been reformed after the emergence of Islam.

The earliest educational methods, on which the beginning per-

sonality of the had been built, are discussed in the first chapter. The early merits of the prophecy by which al-Sayyida Khadija* has been recognised have also been surveyed in this chapter.

Chapter two deals with the major socio-prophetical applications which have been applied by the Prophet's daughter Fatimatu al-Zahra'. The primitive establishment of the early shapes of the spiritua realm of the prophethood are the subjects of this chapter.

Chapter three emphasizes the contributions of the Prophet's granddaughter zaynab alongside her effective attitudes after the tragedy of brother al-Husain and his companions in Karbak.

Chapter four deals with the roles of ten ideal women who contributed to the revival of the prophethood spirit through the Islamic history.

The conclusion has summarised the results and the suggestions to which the modern educationalists and the contemporary women can refer to improve the principles of the spiritual applications.

The appendices include text of a number of public speeches for the Prophet's relatives such as Fatimatu al-Zahra' , while the bibliography has categorised the primary and secondary sources, and the majority of this research depends on the primary sources.

...nization of the Alexandria Library (GOAL
Bibliotheca Alexandrina

٢٥٦
٢٩٥٤

هذا الكتاب

لم يكن الحديث عن دور المرأة، في التاريخ الإنساني، طفرةً أو معجزة أو ظاهرة تقتحم حياةً بعينها أو عصراً بذاته، فلقد امتلأت شروح الأحداث بمواقف النساء وبطولاتهنّ، بل وقد يجد المتتبع لمسار التاريخ سطوة للمرأة في الأحداث يعجز شجعان الرجال عن الإتيان بها، إلا أن أهمية هذا الكتاب تكمن في تعيين رسالية المرأة المسلمة، أولاً، ودورها في تاريخ دولة النبوة ثانياً. وهذه حدود جعلت البحث يتجاوز أطر الأحداث العملية للتاريخ، متخطياً إلى الآفاق الروحية لمواقف الرساليات من النساء، فاحصاً ومتلمّساً عبق النبوّة وشذاها فيها، متدبّراً هيئة تلك المواقف كاشفاً عن عليّة الاستعداد الدائم للفداء والتضحية، عازماً من ثم كيف حافظت تلك الهيئة وذلك الاستعداد على توالي النسمات الروحية لعبير النبوّة عبر عصور التاريخ، رغم الزوابع والاختناقات التي حاول مثيروها متعمّدين إطفاء نور النبوّة في الأرض والتحول بالمجتمع إلى حكم دنيوي عضوض لا يكون للإسلام فيه أثر سوى الاسم.

إن التعارف على دلالة مصطلحيّ «تاريخ دولة النبوّة» و«تاريخ دولة الخلافة» وبيان دورة المرأة في أحداث الأول منهما يكشف عن أهمية أخرى للكتاب، باعتبار الدلالة الأولى تشير إلى ما طرأ على حجم الأثر الروحي الذي قضى بديمومة روح الإيمان النبويّ في نفوس المسلمين عبر عصور التاريخ؛ في حين تشير الدلالة الثانية إلى مسار الحكم أو السلطة الذي انتظم بأحداث الفرسان وخطط قواد الجيوش وشدّة الأمراء وعنفهم، أو فاعلية ما تصالح عليه المستبدّون من الحكّام «بجنود العسل».

إن إنكار المؤمنات الرساليّات ذلك التعسّف وحرمانهنّ وتضحيتهنّ وفداءهنّ للإسلام وحدوده، وتلذّذهن بنتائج مواقفهنّ، بالنتائج المتمثّلة بخلق الأمل في إحياء ذكر الله وروح النبوّة في المجتمع، كشف عن معالم شخصية المرأة الرسالية وعرض لأهمية الاقتداء بسلوكها واستمداد مبادىء تربية بناتنا وأخواتنا في الوقت الحاضر والمستقبل.

لقد توالت نفحات النبوّة بمواقف اللواتي تربّين في حجر الرسالة المحمّدية وارتوين من منبعها الأول، الأمر الذي جعل النماذج المختارة من النساء الرساليات لشروح البحث وتحليلاته من تلك الشجرة الخالدة، فكان توالي فداء ذلك النسل الطيّب كشفاً للأحداث التي يهتز لها ضمير الإنسان في جميع العصور، وتوهّجاً لنور النبوّة في مختلف العصور المظلمة ومحطّات الصراع التاريخية. إنّ النماذج الرسالية التي اعتمدتها هذه الدراسة ملكت من الفاعلية الروحية والتأثير النفسي الدائم ما جعلها حية متوهّجة معطاءة لكل مبادىء التربية للمرأة الرسالية في الحاضر والمستقبل.